فازت بجائزة كُتاب الكومونولث عن أفضل كتابٍ أول

تهميمة أنام

A Golden Age

عصر ذهبي

ثلاثية بنجلاديش ١

رواية

ترجمة: نورهان البدوي

عصير الكتب

مكتبة ياسمين

A Golden Age

عصر ذهبي

ريحانة حق، أرملةٌ شابة، تَسعد بإعداد حفلٍ تُقيمه على شرف ابنها وابنتها، احتفالًا بالذكرى العاشرة لرجوعهما. كان هذا في شرق باكستان عام 1971، ورياح التغيير تهب في الأجواء.

وفي خضم البهجة، تنقلب البلاد رأسًا على عقب، وتبرز إرهاصات حرب استقلال شرق باكستان، فيما عُرفت بدولة بنجلاديش لاحقًا، عن غربها. صوَّرت رواية "عصرٌ ذهبي" حكاية الأمومة، والعاطفة الطاهرة نحو الوطن، والوجه الوحشي للحرب، ومرارة اللجوء، وعودة الأوطان دون ساكنيها. حكاية الشغف والثورة، الأمل والحب، والبطولة غير المعهودة وسط فيضان الفوضى، المخاطر والتضحيات التي تكبدها عامةُ الشعب، والفواجع الجسدية والنفسية لهم.

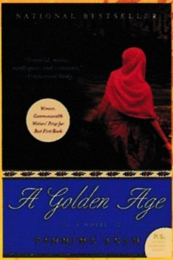

تسرد الرواية حكاية امرأةٍ، عواطفها، وخياراتها، وتجاربها، ونضالها المُفجع للإبقاء على عائلتها في أمان.

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

غلاف: عبد الرحمن الصواف

9 789779 922768

عصير الكتب

aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb

A Golden Age

عمر ذهبي

ثلاثية بنجلاديش ١

عصير الكتب

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

عصير الكتب

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: A Golden Age
- العنوان العربي: عصر ذهبي
- حُقوق النشر:
Copyright © Tahmima Anam, 2007
- الطبعة الأولى: يناير/ 2024م
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- ترجمة: نورهان البدوي
- تحرير: مصطفى رزق
- تدقيق لغوي: آلاء الشربيني
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 13303/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-276-8

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم نكبر ونستمر بكل جديد

مقدمة المترجم

نبذة تاريخية

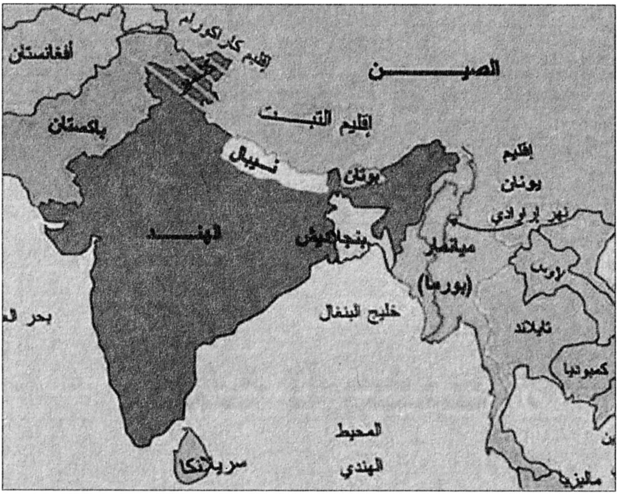
أفغانستان
إقليم كاراكورام
الصين
باكستان
إقليم التبت
نيبال
بوتان
إقليم
يونان
نهر إيراوادي
الهند
بنجلاديش
ميانمار
(بورما)
لاوس
خليج البنغال
تايلاند
كمبوديا
المحيط
الهندي
سريلانكا
ماليزيا

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الحدود الجغرافية لدولة بنجلاديش:

تعرف باسم جمهورية بنجلاديش الشعبية. تقع في جنوب شرق قارة آسيا، تحدها الهند من كل الجهات، عدا الجنوب الشرقي حيث تحدها (ميانمار) ويحدها من الجنوب ساحل خليج البنغال. أما فيما يعرف باسم منطقة البنغال، فتتكون من دولة بنجلاديش إلى جانب الولاية الهندية في غرب البنغال، وهي منطقة عرقية متعددة اللغات. وحاليًّا يشير اسم بنجلاديش إلى دولة البنغال، وهو باللغة البنغالية الرسمية. عاصمتها دكًّا.

ظهور دولة بنجلاديش:

رُسمت الحدود الحالية لدولة بنجلاديش عند تقسيم (منطقة البنغال) عام 1947. جرى هذا التقسيم بناء على أسس دينية، فانضم الجزء الغربي من منطقة البنغال إلى الهند، والجزء الشرقي إلى دولة باكستان حديثة التأسيس، فصارت الإقليم الشرقي لها، وباتت تعرف باسم (شرق باكستان). فصلت الهند بين شرق باكستان وغربها بمسافة 1600 كم تقريبًا. ومع تزايد الإهمال الاقتصادي والتمييز السياسي، انفجرت ثورة شعبية في الشرق ضد الغرب، أدت إلى نشوب حرب الاستقلال عام 1971، وانفصال شرق باكستان وقيام دولة بنجلاديش.

إرهاصات الحرب:

كانت حركة اللغة البنغالية في عام 1952 هي الشرارة الأولى للخلاف بين الجزء الشرقي والغربي لباكستان، وهدفت هذه الحركة إلى جعل اللغة

البنغالية هي اللغة الرسمية لدولة باكستان. ثم استمر استياء الحكومة في باكستان من القضايا الثقافية والاقتصادية خلال العقد التالي. تأسست رابطة العوام وهي الصوت السياسي للشعب البنغالي، وتزعمها الشيخ مجيب الرحمن. وفي عام 1970، هب إعصار شديد على ساحل شرق باكستان وكانت استجابة الحكومة ضعيفة للغاية تجاه الأزمة، ثم تلاه رفض تسليم السلطة إلى رابطة العوام وتعيين الشيخ مجيب الرحمن رئيسًا للوزراء، إثر إلغاء نتيجة الانتخابات البرلمانية عام 1970، مما أثار غضب الشعب البنغالي. وبعد إجراء مباحثات بين مجيب الرحمن والرئيس الباكستاني يحيى خان، قبض الأخير على مجيب الرحمن في يوم 26 مارس 1971. وشنَّ هجومًا عسكريًّا على الشرق عرف باسم عملية المناورة. استهدفت العملية المفكرين والهندوس ونتج عنها فرار قرابة عشرة ملايين لاجئ إلى الهند.

استمرت حرب تحرير بنجلاديش لمدة تسعة أشهر. وتلقت قوات التحرير دعمًا من القوات المسلحة الهندية في ديسمبر 1971، حتى حققن نصرًا ملحوظًا.

سجلت حكومة بنجلاديش إجمالي الوفيات في الحرب ثلاثة ملايين شخص، من بينهم ضحايا الإبادة والذين توفوا بسبب المجاعة. ويقدر الحد الأدنى من القتلى بما يتراوح بين 300 ألف و500 ألف قتيل. وهاجر قرابة 10 ملايين لاجئ إلى الهند الشقيق، و30 مليون آخرين من المشردين داخل البلاد. تعد حرب الاستقلال هي الأولى من نوعها التي تستخدم الاغتصاب سلاحًا في الحرب، وقدر عدد النساء اللاتي تعرضن للاغتصاب والاعتداء الجنسي من أفراد الجيش الباكستاني بـ 200 ألف امرأة.

استهدفت الحرب المفكرين من أساتذة الجامعة والشعراء والصحفيين والعلماء، وشكَّلت الجماعة الإسلامية ميليشيات عسكرية، من بينها الرضاكار، وقدموا يد المساعدة للقوات الباكستانية وأرشدوهم إلى أهدافهم المقصودة. ثم استهدف الجيش الباكستاني الأقلية الهندوسية مما جعل الجماعات القومية الهندوسية يدَّعون بأن الحرب كانت إبادة للهندوس.

المقاطعات الإدارية:

تنقسم بنجلاديش إلى ثماني مقاطعات إدارية: باريسال، شيتاجونج، دكَّا، خولنا، راجشاهي، سيلهت، رانجبور، ميمينسينغ.

تسمية الدولة:

تعد اللغة الرسمية في بنجلاديش -كما في ولاية البنغال الغربية في الهند- هي اللغة البنغالية، وهي لغة من اللغات الهندية الآرية المشتقة من اللغة السنسكريتية. تتكون كلمة بنجلاديش من مقطعين، أولهما «بنجلا» وتعني البنغال، ولا يعرف لها أصل، وكلمة «ديش» وهي كلمة بنغالية مشتقة من كلمة «deśha» وتعني أرض أو دولة، فمعناها أرض البنغال.

هذه خلفية تاريخية موجزة تُسلط الضوء على هذا الجزء من العالم، وتوضح الكثير مما سيأتي ذكره في صفحات الرواية ولا تتسع الهوامش لشرحها.

مارس 1959

تمهيد

زوجي العزيز،

فقدتُ أطفالنا اليوم.

***

خارج دار القضاء، ابتاعت ريحانة طائرتين ورقيَّتين، إحداهما حمراء والأخرى زرقاء، **من دُكان الإخوة خان للحلويات والمُنوعات**. غلَّفهما الرجل خلف الخزينة بورقٍ بُنيٍّ وشريطٍ من ألياف القنَّب. ثم دسَّت ريحانة الجِزمتين أسفل ذراعها ونادت لعربة ريكاشة[1]. وبينما كانت تستقل العربة، رأت المحامي يركُض نحوها.

بدا صوته صادقًا حين قال: سيدة حق، أنا غاية في الأسف.

لم تقوَ على إخباره بأن كل شيءٍ على ما يرام.

- عليكِ أن تعثري على المال. هذه هي الطريقة الوحيدة. اعثري على بعض المال، ثم نحاول مرةً أخرى. هؤلاء الأنذال لن يُحركوا ساكنًا دون القليل من التنشيط.

(1) ريكاشة: هي عربة خشبية ذات عجلتين أو ثلاث عجلات، يجرها الإنسان وتصلح لراكب واحد. (المترجمة)

رباه، المال! استقلت ريحانة الريكاشة، وأسدلت غطاء العربة لتُغطي رأسها، ثم قالت بصوتٍ رفيع مُرتجِف: دانموندي[1]، طريق رقم 5.

عندما وصلت إلى المنزل، كان الطفلان يجلسان معًا على الأريكة، وقد ثُنيت رِكابهم لأعلى. كانت قدما مايا تُرفرفان فوق الأرضية. أما سُهيل فراح يرمُق راحتي يديه ويُحصي الخطوط الدقيقة فيهما. وحين رأى ريحانة، افتَرَّ ثغره عن ابتسامة، لكنه لم ينهض عن كُرسيه أو يُناديها كما فعلت مايا، حين قالت: أمي! لماذا غبتِ طويلًا؟.

كانت ريحانة قد أقرَّت قبلًا أنه ما من جدوى أن تبكي أمام الطفلين، وهكذا أنهت نوبة بكائها في الريكاشة، وأجهشت بكاءً يقطع نِياطَ القلب، حتى إنها أمسكت بالإطار الضيِّق للمقعد وفتحت فمها تصرخ آآآآآآآآآآه. التفت حامل الريكاشة إليها، كما لو أنه يهتم لأمرها حقًّا، وسأل ما إذا كانت تود التوقف لتجرُّع كأسٍ من الماء. لكن ريحانة لم تتذوَّق ماء الطرقات من قبل، وهكذا رفضت اقتراحه بصمت. تساءلت في نفسها عمَّا إذا كان لديه أطفال، حين جالت هذه الفكرة برأسها أحنتها إلى جانب غطاء الريكاشة وطرقت مرارًا وتكرارًا على المُلصقات المنتشرة على الطريق. والآن، حين أبصرتهما بعينيها، قاومت شعور الوخزِ في فكها، والمرارة التي احتشدَت في فمها. قاومت باستماتةٍ شعور الوخز في عينيها، وانقباض حلقها. قاومت بوادر البكاء كلَّها وهي تُقدِّم إليهما الرزمتين المُغلفتين على شكل مثلث.

قالت مايا وهي تندفع نحو حزمتها: شكرًا لكِ يا أمي.

أما سُهيل فلم يفتح فمه بشيء، بل استراح في حِجرها وراح يعبث بالورق البني.

قالت ريحانة بنبرةٍ رتيبة: ستذهبان للعيش مع عمكما فايز... في لاهور.

قالت مايا: لاهور!

فقالت ريحانة لابنها: أنا آسفةٌ للغاية.

- ومتي سنعود؟

أجابت ريحانة:

---

(1) دانموندي: منطقة سكنية تقع في مدينة دَكا، عاصمة بنجلاديش. (المترجمة)

- قريبًا، أعدكما بذلك. (أرادت أن تقول: ادعوا الله)... سيأتيان لاصطحابكما يوم الخميس.
- لا أريد الذهاب.

عضت ريحانة على لسانها، ثم قالت: "عليكِ الذهاب. تشجعي واذهبي من هنا. يمكنكِ أن تُحلقي بطائرتك الورقية يا بُنيتي، وسأراها من تلك المسافة كلها حتى لاهور. إنها طائرة ورقية مميزة. لا بُد أن تكوني فتاةً طيبةً وشجاعة. الأطفال الشجعان وحدهم تأتيهم الأيام العاصِفة، ويومًا ما ستصير الرياح عاصفة وستُحلقين في السماء حتى تعودي إليَّ. ألا تُصدقينني؟ انتظري وسترين.

***

زوجي العزيز،

أطفالنا لم يعودوا أطفالنا.

***

كيف ستشرع في إخباره؟

استقلت ريحانة الريكاشة برفقة أطفالها، وقالت لحامل العربة: مقابر أزيمبور.

احتشدت المقابر بالمُعزِّين ساعة الغروب، وراحوا يُلقون بالزهور على الحشائش الرطبة التي نَمَت فوق مقابر أحبتهم. وفي الصف التالي، وقف رجلٌ ذو قبعةٍ بيضاء مجهشًا بالبكاء بين يديه. وبجانبه، أمسكت امرأةٌ عجوز بمُعطِّر يفوح برائحة زهور القِشدة الهندية.

قبضت ريحانة على راحتي طفليها المستديرتين، ثم أشارت إلى قبر إقبال وهي تقول: ودِّعا أباكما.

رفع سُهيل أصابعه إلى وجهه وقال: لا إله إلا الله.

قالت ريحانة: وأنتِ أيضًا يا مايا.

***

أطفالي لم يعودوا أطفالي.

***

حكم القاضي بأن ريحانة لم تتأقلم جيدًا مع وفاة زوجها، وأنها ما تزال في سنٍّ صغيرة تعجز معها عن الإمساك بزمام العناية بطفليها، وأنها لم تُملِ عليهما الدروس المناسبة لعُميرهما عن الجنة والآخرة.

راحت مايا تتصيد فراشةً عابرةً إلى الصف التالي من المُعزِّين، فقبضت ريحانة على مرفقها، وقالت: ودِّعي والدكِ.

اغرورقت عينا مايا بالدموع وهي تتحرك متتبعةً الفراشة، وراحت تقول: وداعًا يا أبي.

***

كان القاضي قد طرح عليها سؤالًا: سيدة حق، ما الذي كان سيرغب زوجكِ في تحقيقه؟

أجابت ريحانة: كان ليريد لطفليه أن يكونا بأمان. أجل، كان ليريد لهما أن يكونا بأمان.

أما فايز فأجاب حينها: الوضع ليس آمنًا هنا يا سيدي. مع وجود القوانين العسكرية والإضرابات وانتشار الناس في الشوارع، هذا الوضع ليس آمنًا. ولهذا نريد أنا وزوجتي أن نأخذ الطفلين إلى لاهور.

لاهور، مدينة الحدائق والطرق الجديدة والمباني مُتقنة التصميم. تلك المدينة التي تبعد ألف ميلٍ على الجانب الآخر من الهند. إن فايز هو شقيق زوجها الأكبر، رجلٌ ثريٌّ يعمل بالمحاماة. أما زوجته، فكانت امرأةً طويلة عابسة الوجه والشفتين، والأهم أنها عاقرٌ. وهكذا كانت تتطلع إلى الطفلين بِنَهم.

حقيقة الأمر هي أن فايز لم يُحب ريحانة قط. ولهذا أسبابٌ تتعلق بوفاء إقبال لها، وتركه لنعلها خارج الحمام حين تستحم، وتمسيد قدميها بزيت الزيتون، وحديثهما بنبرات صوتٍ رقيقة. وهكذا لاحظ الجميع؛ فيقول فايز: **يا أخي، إنكَ تُدلِّل زوجتك**. والسيدة تشودهاري، التي تقطن في المنزل المُقابل لمنزلهم في دانموندي، تزفر تنهيدة وتصيح قائلة: **إن زوجكِ قِدِّيس**.

أخبر فايز القاضي بأمر **كليوباترا**. كانت ريحانة قد اصطحبت الطفلين لرؤية فيلم عن كليوباترا. هل يُعد فيلم كليوباترا مناسبًا للأطفال الصِّغار؟ جال بخاطر ريحانة صورة القاضي وهو يستحضر نهدي إليزابيث تايلور.

ثم أخبره فايز حكاية العُملة المعدنية: منذ ثمانية أعوام، عُرض على إقبال أن يطلب الزواج بريحانة علي، القاطنة في كُلكتا، امرأة شابة من عائلةٍ أرستقراطية، خسر والدها ثروةً هائلة بسبب استشارة قانونية سيئة، ثم واتاه حظٌّ عاثر. كان إقبال حينها في السادسة والثلاثين من عُمره، يُدير شركةً ناجحة في قطاع التأمين – إذن لماذا لا يتزوج؟ ما المانع. رمى إقبال بعملةٍ معدنية، واختلس نظرةً سريعة إلى النتيجة ثم غطَّ في النوم. وفي الصباح التالي، أرسل رسالةً يقول فيها بموافقته على الزواج.

لم تُصدِّق ريحانة يومًا هذه القصة؛ وهذا لأن إقبال لم يكن من الرجال المُقامرين. لقد كان رجلًا يعمل في قطاع التأمين؛ ويتعامل مع الأوراق المالية. وهذا عملٌ يدعوه إلى تجنُّب المُصادفة، وتجاوُز العواقب. ربما كان رجلًا مختلفًا قبل الزواج بها. وربما كان هذا هو سبب استياء فايز؛ أن شقيقه لم يعد شقيقه.

كان يجدر بها أن تحرِق بعض الفُلفل الحار، وتُطوِّق به رأسه، أو تذبح نعجةً على الأقل. لكنها لم تفعل أيًّا من هذا، وهكذا تُوفي، وانهار على ركبتيه أمام المنزل في الأول من يناير. صارت مشيته مُتثاقِلة واستحال حاله إلى الحضيض، جاب بيده صدريةَ مِعطفِه باحثًا عن ساعة جيبه، كما لو أنه يريد تسجيل الساعة التي تركها فيها. ثم همس لها بالبنغالية: أنا آسف. **سامحيني**.

وهكذا صارت أرملة، لا تملك من السِّمات ما يُقوِّمها، ولا من العائلة مَن يُعينها. تُوفي والداها؛ وعاشت شقيقاتها الثلاث في كراجي. في تلك الأثناء، عرض فايز وبارفين أخْذ الطفلين، ويمكن لريحانة أن تراهما في أثناء العطلات. قالت بارفين: سنأخذهما ليُقيما معنا سنواتٍ قليلة، سنمنحكِ وقتًا للتعافي.

كما لو أن ما تُعانيه مرضًا عضالًا يمكن الشفاء منه، مثل ما كان يحدث في البلاد. وحين رفضت ريحانة، أحال فايز وبارفين المسألة إلى القضاء.

قال فايز مخاطبًا القاضي: يا سيدي، إنَّ السيدة حق مكروبة؛ وتحتاج إلى بعض الراحة. وكل ما نفكر فيه هو مصلحة الطفلين.

كانت ريحانة قد تزوجت برجلٍ لم تتوقع يومًا أن تُحبه، وأحبت رجلًا لم تتوقع يومًا أن تفقِده، وعاشت حياة متوسطة، حياة يغلفها القليل من

المفاجآت. كانت قد طلبت من والدها أن يجد لها زوجًا ضيِّق الطموح، شخصًا لن يُبدد ثرواته في أيِّ مكان.

***

ساد الظلام المكان؛ وغطت ظلال شاهد القبر أقدامهم. قالت مايا: أمي، أنا جائعة.

كان قد خطر لريحانة أن تُحضر عبوة من بسكويت السكر، وهكذا أجابت ابنتها، وهي تُزيل الغلاف الوردي: هاكِ.

وقف سُهيل كأن على رأسه الطير أمام قبر والده، ثم قال: هيَّا نعد إلى البيت.

لم تكن ريحانة قد أنهت شرح كل الأمور لزوجها إقبال، فأجابت ابنها: بِضع دقائق أخرى. لِمَ لا ترى إن كان بإمكانك تحليق هذه الطائرات الورقية؟

اتجه الطفلان لحقلٍ خالٍ على شرف المقابر، يحُلَّان بكرات الخيط الموصول بطائرتيهما الورقية. وراحت ريحانة تبدأ من جديد.

***

زوجي العزيز،

لقد تخليتُ عن الشيء الوحيد الذي تركته لي. عندما سألني القاضي إذا كنتُ على يقين من قُدرتي على العناية بهما، لم أقوَ على النطق بكلمة «نعم. أبقيتُ على صمتي، وفي ظل هذا الصمت، رأى القاضي ترددي. ولهذا أبعدَهما عني. هذا كله بسببي؛ هذا خطئي أنا، ولا أحد غيري. أنا لا ألوم أخاك على رغبته في أخذهما. ومَن لا يريد أخذهما؟ إنهما نسخةٌ طبق الأصل منك.

بعد النطق بالحُكم، في تلك الغرفة الحارَّة ذات مراوح السقف المُغبرة، والمقاعد المخملية ذات البريق الداكن، والباروكة الرَّمادية البالية التي يرتديها القاضي، سقطت على رُكبتيها. عجزت عن إقناع الجميع بأنها قادرة على أن تكون أمًّا لطفليها، رُغم فقرها وقلة أصدقائها في هذه المدينة، رُغم أن الشيء الوحيد الذي تبقى لها هو قطعة أرضٍ صحراوية جَدباء جرى استصلاحها مُؤخرًا من زراعة الأرز، بعدما اضطرت إلى حرق الآفات التي تزحف إلى شُرفة كوخها الصغير كل صباح حين تستيقظ للصلاة. لم تُفسر لطفليها إلى أي

مكان تحديدًا ذهب والدهما، وسمحت لهما بالتغيُّب عن المدرسة، وصحبتهما لمشاهدة فيلم كليوباترا، لكنها ستظل والدتهما؛ وستجد طريقة للتغلُّب على حزنها، ومواجهة فقرها، وتخطي صِغر سنها؛ ستجد طريقة لتُحبهما دون مساعدة من أحد. لكن لم يُصدِّقها أحد، وفي غضون أسابيعَ قليلة سيسافران عبر القارَّة، ولا تدرِ متى سيتسنى لها أن تراهما مُجددًا.

***

أخذ فايز وبارفين الطفلين إلى لاهور بعد بضعة أيام على الخطوط الجوية الباكستانية، رحلة رقم 010. راقبتهما ريحانة وهما يُغادران عبر نافذة المطار، ذات الزجاج المُضبب بزيوت الشعر وبصمات الوداع. لوَّحت لهما بإيماءة صغيرة، متسائلة متى سيتوقف العالم عن الدوران. دسَّ مايا وسُهيل طائراتهما الورقية أسفل ذراعيهما، وربطا أحزمة الأمان وأبحرا في السماء في هدوء، عابرين مصبَّ الدلتا المغمور بالمياه من أسفلِهما.

هاتفتها بارفين في اليوم التالي لتُخبرها أنهم قد وصلوا بأمان، لكن ريحانة لم تسمع سوى القليل دون النظر إلى خشخشة خط المكالمة البعيدة، والضحكة المهذبة التي تُوحي بالثقة والندم العجيب.

في الأيام التالية، جاء البعض لزيارتها: أصدقاء زوجها إقبال في العمل، ورجلٌ عجوز يدَّعي صداقته بوالدها، وأقارب بعيدين بألسنة تنطق بالأسف على حالها وتلوك الشائعات كما يُلاك الطعام، وأصدقاؤها من لعبة الكونكان في نادي ألعاب دكَّا، حتى إن المحامي زارها هو الآخر. وحدَّثت ريحانة نفسها أن هؤلاء هم سوَّاح الحُزن، وتظاهرت بأنها لم تسمع طرقات أظفارهم على بابها.

ما خلا السيدة تشودهاري، التي جاءت وهي تسحب ابنتها الحزينة الدَّامعة. طوَّقت السيدة تشودهاري ريحانة بذراعين يُثقلهما الشحم وزجرت ابنتها على تذمُّرها المستمر، فقالت: سيلفي، هذه ليست نهاية العالم. سيعودان حتمًا.

ثم التفتت إلى ريحانة وتابعت: لقد نَعِمتِ ببضع سنواتٍ جيدة على الأقل. ألا ترين أن زوجي النذل قد تركني حين عجزتُ عن إنجاب ولدٍ له. ألقى بنظرةٍ وحيدة إلى هذه الفتاة، ولم أره مرة أخرى قط.

جلست ريحانة دون حَراك، وراحت تُحدِّق إلى الحديقة، حين قالت السيدة تشودهاري أخيرًا: يجدر بنا أن ندعَ الفتاة البائسة لتستريح.

سكنت سيلفي خلف باب المطبخ، وحينها صاحت السيدة تشودهاري قائلة: إنها في التاسعة من عُمرها! أكبر من أن تتذمر لحدوث شيءٍ ما، وأصغر من أن ينفطر قلبها على أحد. ما الأمر؟ أتظنين أنه ما مِن رجلٍ سيطلبكِ للزواج مرة أخرى؟

قالت ريحانة: دعيها تُقيم معي، يمكننا أن نأكل معًا.

حاولت ريحانة أن تتصور الطعام الذي ستُطعمه للطفلة؛ فقد توقفت عن التسوق منذ فترة. ولا يوجد سوى حساءُ دالٍ[1] خفيف لا يُسمن ولا يُغني من جوع وبعض اليقطين الحامض.

سألت سيلفي أمها: لقد قلتِ إننا سنشاهد فيلم **عطلة رومانية**.

أجابتها والدتها: في المرة القادمة يا سيلفي، حسنًا؟

فقالت سيلفي: إذا عادا مُجددًا من الأصل. حسنًا.

رحلت السيدة تشودهاري، ولم تحرص ريحانة على توديعها عند الباب.

***

راحت ريحانة تراقب الأيام تمر دون كلل. وشرعت تكتب خطاباتٍ إلى سُهيل ومايا، تقول فيها:

سيكون محصول المانجو وفيرًا هذا العام. فقد سطعت الشمس واستمر هطول الأمطار في أوقاتها الصحيحة، وها أنا أستطيع تشمم رائحة شجر المانجو.

ألقت ريحانة بهذا الخطاب في القمامة، وألقت الخطاب الآخر الذي بدأته تقول:

طِفلاي العزيزان، كم أفتقدكما.

كتبت خطابات أخرى مبهجة حافلة بالأخبار. لا يجدر بالطفلين أن يشعرا بالحيرة، يجدر بهما أن يُدركا تلك الحقائق المهمة:

---

(1) الدال: هو طبقٌ من المطبخ الهندي مصنوع من البقوليات، وهذه الكلمة أيضًا تُطلق على عدة أنواع من بقوليات العدس في الهند ونيبال. (المترجمة)

ستُعيدهما إليها قريبًا.

ما يزال العالم مكانًا رحبًا ودودًا.

لم تنسَهما سيلفي بعد.

سيظل الحي كديدنه دومًا.

باتت ذكرياتها عن الطفلين مُشوشة وضبابية. وكلما تمسكت بها، زاد انفلاتها من بين قبضتيها. حاولت التشبُّث بالحقائق، حقيقة أن اللون المُفضل لمايا هو الأزرق، أما لون سُهيل المفضل فهو الأحمر. ثمة ندبةٍ على ذقن سُهيل، أسفل بروز ذقنه مباشرةً. لطالما كانت تُشاكسه وتقول: «هذه ندبةٌ لن يراها أحدٌ سوى زوجتك، لأنها ستقف أسفل منك مباشرةً وستطلع لأعلى. وكان يُجيبها بجدية قائلًا: وماذا لو كانت فتاةً طويلة؟

يتمتع ابنها بحِس فُكاهة. كلا، لم يكن مرحًا قط. وبالكاد يفتر ثغره عن أي ابتسامة. فماذا كانت طبيعته؟

وجدت بعض العزاء في التفرقة بين خصالهما. تتذكر أيهما كان طفلًا متطلبًا عالي الصوت، وأيهما كان طفلًا متحفظًا هادئ الطبع. تذكر أيهما يُغني للطيور ليرى ما إذا كانت ستُجيبه بالغناء هي الأخرى، وتذكر أيهما كان عليها أن تفحص أظفاره، لأنها كانت تُحب مذاق الوحل. أيهما يُصاب بالبرد والزُّكام، سواءٌ أكان الطقس باردًا أم شديد الحرارة. تذكر أيهما يمتصُّ العُصارة الحمراء من الزهور الصغيرة لأغصان الإيكسورا. أيهما يتحدث؛ وأيهما لا يُفضِّل الحديث؛ أيهما يُحب كلارك جابل[1]، وأيهما يُحب ديليب كومار[2]، أيهما يُحب الكلاب الضالة، والغِربان التي تهبط على البوابة بمخالبها الحادة فتُطقطق بها، وأيهما يُحب أطباق الأرز بالحليب ومُثلجات الأطفال.

حاولت أن تُشتت ذهنها عن الأوقات التي شهدت فيها قلق إقبال عليهما، وجعلهما يرتديان السُّترات الثقيلة حين لم يكن الطقس باردًا حتى، ودفعهما إلى زيارة الطبيب كل شهر ليضع أذنه على صدريهما الصغيرين، ويمسك بيديهما حين يعبرون الطرق المُكتظة والطرق الخالية، ويُردد دومًا: **من باب**

(1) كلارك جابل: ممثل سينما أمريكي، عادةً ما يُشار إليه بلقب: ملك هوليوود. (المترجمة)

(2) ديليب كومار: ممثل هندي اسمه محمد يوسف خان، واشتهر باسمه المسرحي ديليب كومار، هو ممثل ومنتج عمل في السينما الهندية. (المترجمة)

الحَيطة، من باب الحَيطة، من باب الحَيطة. ثم جاءت تلك الرحلة بالقطار الذي كادوا يُفوتونه.

كان عيد مولد مايا الرابع، وكانت سيارة إقبال الجديدة من طراز فوكسهول قد وصلت من لندن لتوِّها. جاءت هذه السيارة في شُحنة خاصة من خمسين سيارة من مصانع فوكسهول في وندسوورث، لندن إلى دكًا، عام 1957. كان إقبال قد شاهد إعلانًا يتحدث عن السيارة الذكية الجديدة ذات مُبرِّد مُعادٌ تصنيعه ومقابض دوَّارة. أُرفق بالإعلان صورة للسيارة، وهكذا وقع إقبال في حبها: المنحنيات الملساء، والمَرايا الجانبية التي تَبرُز من الإطار. تصور نفسه يقودها إلى داخل مرأب منزلهم، وشريطة على شكل فيونكة عملاقة مربوطة على سقفها، وبوقها يدوي في الأرجاء. ولكن حين وصلت الشحنة، صار شديدَ التوتر حتى أعجزه القلق عن قيادة السيارة بنفسه وقرر أن يتركها في أيدي سائق مستأجر لهذا الغرض، وكان هذا السائق موظفًا سابقًا لدى القُنصل العام البريطاني، واعتاد قيادة سيارة جَناب القُنصل العام من طراز رولز رويس، وهكذا كان السائق خبيرًا في القيادة. كان اسمه كمال؛ وكان كمال هو مَن قاد سيارة فوكسهول في اليوم الذي لوَّحت فيه مايا لأبيها من نافذة عربة القطار المتجه من تيجايون إلى فولباريا.

وكهدية عيد ميلاد خاصة لمايا، اتخذوا قرارًا بالذهاب في رحلة بالقطار بين المحطة الجديدة على مشارف المدينة ومركز فولباريا؛ فقد افتتحت مسارات جديدة لتوها، وباتت الآن رحلة قصيرة من المحطة ذات الطلاء البرَّاق كانت حكومةٌ طامحة قد بَنَتها، إلى مبنى المُستعمرة المتهاوِي الذي يضمُّ العربات القديمة للراج[1]. وكانت هذه هي أول رحلة لهما بالقطار في حياتهما.

في اليوم الموعود، أعدت ريحانة كُريَّات الكباب، أما إقبال فراح يراقب الغيوم، آملًا أن يُعلن الطقس عن عاصفة آتية، ومن ثمَّ يُلغي الأمر برُمته. غير أنه لم يلقَ سوى نسيم أكتوبر البارد وتجمعات مُبعثرة من السُّحب الشفافة في السماء. أدار كمال محرك السيارة وفتح الأبواب من أجلهم. وراح إقبال يُصدر تعليماته للجميع بأن يجلسوا في المقعد الخلفي. استقلت مايا السيارة أولًا، مرتديةً فستان عيد مولدها الذي حاكته لها ريحانة من حرير أزرق باهت.

---

(1) الراج: هي فترة الحكم البريطاني في الهند. (المترجمة)

كانت قد حاكت بالفستان تنورة داخلية، جعلت الثوب منفوشًا بزاوية كريهة. ثم زُين شعرها بفيونكات زرقاء، واستطاعت مايا أن تُقنع ريحانة بأن تَدهن شفتيها بأرق طبقة من أحمر شفاهٍ ورديٍّ؛ حاولت اتخاذ إجراءٍ تحفُّظيٍّ، فأبقت على شفتي مايا في تعبيرٍ مُتجهِّم صارم وهي تضع أحمر الشفاه. ركبت ريحانة السيارة، وهي تُوازن أواني الطعام على حِجرها، ثم أشارت إلى إقبال وسُهيل لكي يُسرعا. غير أن جدالًا قد احتد بينهما في الخارج.

قال سُهيل:

- ليس هناك موضعٌ في المقعد الخلفي يا أبي.

- لا يمكنك الجلوس في المقعد الأمامي، هذا أمرٌ غاية في الخطورة.

أجاب سُهيل وهو يركُل الأرض بقدمه:

- أفٍ يا أبي، لم أعد طفلًا!

- تقع الحوادث دون تفرِقة، ولا يهم إن كنتَ طفلًا صغيرًا أم فتىً يافعًا. الحوادث لا تُفرق بين أَحد.

أنزلت ريحانة زجاج النافذة، وقالت: سُهيل، افعل كما يقول لك أبوك.

في نهاية الأمر، تكدَّس سهيل مع البقية في المقعد الخلفي متجهمًا، ثم تبعه إقبال. صار المكان ضيقًا خانقًا وأربعتهم يجلسون في المقعد الخلفي. انتفخ ثوب مايا أمامها مثل موجة مد عالية زرقاء صغيرة. وتجعدت بزَّة إقبال البيضاء المصنوعة من جلد القِرش. وجال بخاطر ريحانة أنه كان يجدر بإقبال أن يدع الفتى المسكين يجلس في المقعد الأمامي إلى جانب السائق. كان الجو خانقًا شديد الحرارة، فأنزلت ريحانة زجاج النافذة عن آخره، وأشارت إلى سُهيل ليفعل مثلها على الجانب الآخر. وراح النسيم الهادئ يعبثُ بشرائط مايا.

حين وصلوا جميعًا إلى تيجايون، عاد إقبال لقلقه بشأن الرحلة مُجددًا. فإذا علقوا في القطار، كيف لأحدٍ أن يعرف بالأمر؟ وماذا لو تأخر كمال في الوصول إلى المحطة؟ وراح ذهنه يُحلل احتمالات حدوث الأمر. وحين وصل بهم كمال إلى محطة تيجايون، خطرت له فكرة.

قال إقبال:

- ريحانة، اذهبي أنتِ مع الطفلين. لقد قررتُ البقاء.

- ما الذي تقوله؟

أجاب إقبال:

- سأبقى في السيارة مع كمال. وسنسير على الطريق إلى جانب القِطار. وهكذا إذا وقع أي شيء، يمكنكم أن تغادروا القطار وتستقلُّوا السيارة.

يا لها من فِكرة عبقرية!

وهذا ما فعلوه بالضبط. تذكرت تفاصيل هذا اليوم بوضوح: الرجل يستقل السيارة، وعائلته تستقل القطار.. تسير عربة القطار على خط السكك الحديدية الجديد، والسيارة الأجنبية الجديدة على الطريق الموازي، ومذاق كُريَّات الكباب وعصير الليمون ينتشر رويدًا على ألسنتهم، وزوجها راضٍ عن آخره، يبتسم في قرارة نفسِه، بأنه ما من أذى سيلحق بعائلته، لأنه –تعني إقبال– قد حرص على أن لا يلحقهم أذى أبدًا.

***

مارس 1971

شونا يُولي ظهره للشمس

كل عام، تُقيم ريحانة حفلًا في طريق رقم 5، لتحتفل باليوم الذي عادت فيه إلى دكًّا برفقة أطفالها. ادخرت حصص لحمها وأعدَّت أرز البرياني. استأجرت الكراسي واستحضرت صانع الزلابية لكي يقلي الحلوى الحلزونية في الحديقة. وأحضرت خيمةً بلوني الأحمر والأصفر تحسبًا لسقوط المطر، وعصير الليمون تحسبًا لاشتداد الحرارة، وسلطة الخيار، وصوص الزبادي الحار. دومًا ما يحضر الضيوف أنفسهم: جارتها السيدة تشودهاري وابنتها سيلفي؛ ومستأجِروها، آل سينجوبتا وابنهما ميثون؛ والسيدة رحمان والسيدة أكرم، المعروفات بسيدات لعبة الكونكان.

وهكذا في الصباح الأول من مارس، كما هو الحال في أول صباح من كل مارس طوال عِقد كاملٍ من الزمان، تستيقظ ريحانة قبل بزوغ الفجر وتتسلَّل إلى الحديقة. يرتجف جسدها قليلًا من البرد، وتفرك كوعيها وهي تشق طريقها نحو المَرج الأخضر. ما يزال الشتاء تاركًا آثاره على أوراق الأشجار وخيوط الضَّباب التي تأتي من دلتا النهر وتعلق على مستوى منخفض فوق المنزل ذي الطابق الواحد.

غمست ريحانة أصابعها في أغصان الورد المغمورة بقطرات الندى، وقطفت زهرة. أمسكت بها في يدها وهي تتجول على اتِّساع بقية المرج، وراحت تتفادى أغصان الياسمين والتِيل الحائطية، وتعبر القطع المزروعة بالخضراوات التي تعطيهم محصول آخر الموسم من القرنبيط، وتسير

متعرجةً إلى جانب شجرة المانجو، وشجرة الليمون، وشجرة الموز شديدة الخضرة.

تطلعت إلى المبنى الذي سيُلقي بظلٍ مديد، على مدار اليوم، على منزلها الصغير. **شونا**. ما يزال بإمكانها سماع السيدة تشودهاري وهي تنصحها بأن تبني منزلًا جديدًا في مؤخرة أملاكها العقارية. فراحت تقول لها، وهي تشير خارج النافذة: يا لها من قطعة أرضٍ شاسعة. لا يمكنكِ حتى أن تحصُري حدودها، إنها بعيدةٌ للغاية. ولا تحتاجين إلى هذا الفضاء الواسع.

أجابت ريحانة:

- أيجدر بي أن أبيعها؟

طقطقت السيدة تشودهاري بلسانها، وقالت: كلا، لا تبيعيها.

- إذن، ماذا أفعل بها؟

- ابني منزلًا آخر.

سألت ريحانة: وماذا سأفعل بمنزلٍ آخر؟

- أجِّريه يا عزيزتي. أجِّريه للغير.

والآن صار هناك بوابتان، وممران للسيارات، ومنزلان. أما ممر السيارة الجديد فكان ضيقًا يفتح على مُؤخرة أرض ريحانة. على هذه الأرض ينتصب المنزل الذي بنته لإنقاذ طفليها، ويرتفع عاليًا متجاوزًا الكوخ الصغير، ويطل بطابقيه المَطلِييْن بالجير الأبيض على المنزل الأصغر حجمًا. وكما هو الحال في الكوخ الصغير، ينتصب المنزل مُوليًا ظهره للشمس. يبلغ عُمر المنزل الآن عشر سنواتٍ تقريبًا، ولهذا صار طلاؤه باهتًا بعض الشيء. هبت عشر رياحٍ موسمية على هذا المنزل، حتى رقت حوافه، ورسمت شقوقًا عتيقة مُتعرجة على جدرانه. وحينما تستيقظ ريحانة كل يوم لأذان الفجر، أو عندما تنشر الملابس المغسولة في الحديقة، أو عندما تُجفف شعرها الطويل على مؤخرة كُرسي الشرفة بعد الاستحمام، تتطلع إلى المنزل باعتزاز وقليلٍ من ألم النفس. ينتصب هذا المنزل تذكيرًا لها بما فقدته وبما اكتسبته، وكم كلَّفها تحقيق هذا النصر. ولهذا أطلقت على المنزل اسم **شونا** وتعني الذهب. لم تُطلق عليه ريحانة هذا الاسم نظرًا لما تكبدته لتُقيم بناء هذا البيت، ولكن تيمنًا بكل الأشياء النفيسة التي أرادت أن لا تفقدها مرة أخرى أبدًا.

أولت ريحانة ظهرها للمنزل الصغير ودلفت إلى حجرة الاستقبال. وراحت تُمسِّد براحة يدها الفراء الناعم للأريكة المخملية، والخشب المُنقَّر لطاولة الطعام. وتمسح بيدها الطلاء الأبيض المخدوش الذي بهت، وطُبعت عليه آثار المحبة على مدار الزمن.

بسطت سجادتها للصلاة على الأرض غربًا نحو القِبلة، وركعت على ركبتيها.

كانت هذه هي أولى طقوسها لهذا اليوم: أن تستيقظ قبل شروق الشمس، وتتحسس طريقها حول المنزل، وتُقيم صلاتها، ثم تُوقظ الطفلين.

حسنًا، لم يعودا طفلين، وكان عليها أن تستمر في تذكير نفسها بهذه الحقيقة. ففي عُمر التاسعة عشر والسابعة عشر، صارا شابين يافعين تقريبًا. تشبثت ريحانة بتوقٍ لعبارة «**تقريبًا**»، لكنها أدركت أن فترة المراهقة هذه لن تستمر طويلًا، لن يستمر تحليقهما حول سن الرشد ومغازلتهما لها من بعيد. لقد باتا بالفعل مثل كيانين مُنفصلين، يُسرع كلٌّ منهما في طريقه لتخطِّي احتياجه القوي المُتعطش للأم.

***

رفعت ريحانة الناموسية ولكَزت كتِف مايا، وقالت: استيقظي يا ابنتي. إنها الذكرى السنوية!

ثم اتجهت إلى غرفة سُهيل وطرقت، لكنه كان مستيقظًا بالفعل، ثم قالت وهي تمسك بيدها وردة: هذه من أجلك.

حين راح الطفلان يتناوبان في الاستحمام كلٌّ في دوره، انشغلت ريحانة بكبس ملابسهما الجديدة. كانت قد اختارت لنفسها هذا العام ساريًا هنديًا بلون أزرق باهت، ولمايا ساريًا من نسيج الحرير الشفاف باللون الأزرق المُنقط بالأصفر. أما لسُهيل، فاختارت بزَّة الكورتا بلون بُنيٍّ، وكانت ريحانة قد طرَّزت الزهور البنفسجية على ياقة البزَّة بنفسها.

قالت مايا: أمي، عليَّ الذهاب إلى الجامعة بعد الحفل، لا يمكنني ارتداء هذا الساري.

فأجابت ريحانة: أنا واثقة أن أصدقاءكِ النشطاء لن يُمانعوا عدم ارتدائكِ اللون الأبيض ليومٍ واحد.

أجابت مايا بِحِدة، وهي تدس الساري أسفل مرفقها على أي حال: أنتِ لا تفهمين الأمر.

بعدما اغتسلوا جميعًا وارتدوا ملابسهم الجديدة، تناوب الطفلان على لمس قدم ريحانة تبركًا بها، فعانقتهما بقوة وهي تقول: ليبارككما الله.

غمرتها أذرعهما القوية المصبوغة بالسُّمرة التي تُحيط برقبتها بشعورٍ كاد يفوق الخيال. فقد كان كلاهما أطولَ منها قامةً. تخطت مايا قامة ريحانة ببضع بوصات، أما سُهيل فكان يفوق كلتيهما طولًا؛ في هذه اللحظات عادةً ما تتذكر ريحانة لحظة لقائها بإقبال، وهو يحني ظهره فوق بُساط الزفاف، تتذكر هيئته وهو يُحلق برأسه فوقها مثل سحابةٍ رعدية. لكن الحقيقة هي أن سُهيل قد شب مشابهًا لريحانة في ملامحها؛ شاحب الوجه، مُنمنم الأنف مثلها، ذو أسنانٍ مُعوجَّة قليلًا مثل أسنانها، وشعرٍ مُصفف في موجةٍ عند مقدمة رأسه، حتى إن غُرَّته تُهدد باختراق جفنيه. في أيامٍ مثل اليوم مثلًا، يرتدي سُهيل بزَّة الكورتا، لكنه عادةً ما يُرى في ثوبٍ أكثر عصرية، مثل قمصانٍ ضيقة ذات ياقةٍ طويلة، وسراويل أشد ضيقًا تُغطي حذائه حتى إنها تترك آثارًا في التراب.

أما مايا فقد شابهت أباها. وورثت عنه بشرته الكستنائية، وعينين غائرتين جعلتاها تبدو أكثر جدية حتى عندما تُحاول قول أي شيءٍ مضحك أو تروي طرفة –وهذا أمرٌ نادرُ الحدوث– ولكن ريحانة عادة ما كانت ترى أصدقاءها يصمتون ويتطلعون إلى بعضهم بعضًا، متسائلين إن كان يجدر بهم الضحك على ما قالته مايا أم لا.

استقل الجمعُ عربتي ريكاشة؛ ركب كلٌّ من مايا وسُهيل أولًا ثم تبعتهما ريحانة. لطالما أحبت أن تتبعهما دومًا، تُراقب أكتفاهما تتلاطم عبر السديلة المرفوعة عند مُؤخرة الريكاشة.

لم ترَ ريحانة شقيقاتها منذ سنواتٍ طويلة. كانت شقيقتها مارزيا قد جاءت إلى دكَّا بعد عودة الطفلين بسنواتٍ قليلة. وأحضرت صورًا لأطفالها؛ صبيان توأمان بدينان لهما وجهان كبيران وشعر مُصفف. ما برحت تتحدث عن رائحة الملح في شوارع كراجي، ومذاق الكباب المحترق في شاطئ كليفتون، ورُغم أنها التهمت حلوى البيض واستنشقت هواء دكَّا المُنعش باستمتاع، ما انفكت تتساءل، مرارًا وتكرارًا، عن سبب عدم رحيل ريحانة

للعيش في كراجي بعد وفاة زوجها. فكانت تقول لها: «يعيش الجميع هنالك.. عائلتكِ بأكملها».

وحين افترقتا في المطار، خالج ريحانة شعورٌ بالخواء؛ أرادت أن تصبو إلى مارزيا للبقاء، أن تبكي وتتوسل إليها لتأخذها معها، لكن في نهاية المطاف، شعرت ريحانة بالارتياح لرحيلها. كانت مارزيا تتصرف وكأن ريحانة قد ارتكبت خيانة عُظمى في حق الجميع؛ فراحت تُلقي بتعليقاتٍ مثل: «إن لغتكِ الأردية[1] لم تعد طليقة كما كانت؛ لا بُد وأن السبب هي اللغة البِنغالية[2] التي تتحدثينها». ونطقتها **بَانغالي**. وعندما أشارت إلى الخدم في منزلها، قالت: «أجل، إننا محظوظون للغاية، لدينا اثنان من الخدم **البَانغاليين**؛ أما رُقية فليس لديها سوى خادم واحد، وهو لا يكفي أبدًا، فكما تعلمين، المنازل هناك واسعةٌ للغاية».

ومع ذلك، لم يمرَّ يوم على ريحانة دون أن تُفكر في شقيقاتها اللائي يُقمن في الجناح الغربي من بلادهن الجافة مُترامية الأطراف. تشبثت بهن بشعورٍ فاتر، لا هي تحافظ على صلة رحمٍ وطيدة، ولا هي تُصرِّح بانقطاع سُبل الود عن آخرها. وهكذا كتبت لهن الخطابات، وكانت تبدأها قائلة: **شقيقاتي العزيزات**. ولم تُنه واحدًا قط؛ ولا أرسلت واحدًا أبدًا. واحتفظت بتلك الخطابات في عُلبة بسكويت أسفل فراشها، إلى جانب الأغطية الشتوية وكُريَّات الأرز الجافة.

لنعد إلى الحاضر، مضت الريكاشة في طريقها تعبر الطريق 5، تشقُّ سبيلها عبر طريق ميربور، المُعبَّد حديثًا والمطلي باللونين الأزرق والأسود. شرعت الدكاكين على جانبي الطريق تفتح أبوابها، تهتز مَصارعها مرتفعةً إلى أعلى، ويستنثر أصحابها أُنوفهم في المصارف الخارجية.

***

وُضِعت لافتة في مُقدمة المقابر تقول: «**لا يُسمح بدخول النساء**». وإلى جانبها، يميل الحارس مستندًا بكوعه إلى سياجٍ خشبي جديد، طُلي بلون أصفر باهت، وتناثرت عليه بُقع الوحل هنا وهناك. أشار إلى ريحانة ملقيًا

---

(1) يقصد بها هنا لغة باكستان الأردية. (المترجمة)

(2) اللغة الرسمية لدولة بنجلاديش. (المترجمة)

السلام، وقال: يومٌ حار. فأومأت إليه بإيجاب ومنحته خمس آنَاتٍ هندية[1]. ثم شقوا طريقهم عبر شواهِد القبور. وبينما كان الحشد الصغير يمر بهذه الشواهد، تعرَّفت ريحانة شواهد أصدقاء قُدامى ولاحظت وصول أصدقاء جُدد.

سمعت ريحانة عن رجلٍ اعتاد زيارة قبر زوجته كل يوم طوال ثلاثة وأربعين عامًا. وانتشرت الشائعات بأن زوجته هذه قد تُوفيت في أثناء إنجابها لأحد أولادها. بات الرجل الآن عجوزًا مُوغلًا في العجز، لكنه يسير متعثرًا إلى قبر زوجته، ويُلقي بفرشٍ مربع صغير على الأرض، ثم يجلس مواجهًا لها ساعاتٍ طويلة في كل مرة. وهكذا ارتأى لريحانة دومًا أنها ثاني أكثر النائِحين إخلاصًا ووفاءً في هذه المقابر. ورُغم أنها لم تلتقِ الرجل قط، فإنها ذات مرة وبعدما غادر الرجل، اقتربت ريحانة من قبر زوجته، وقرأت على شاهِدِ القبر: «**السيدة حكيم الله حُسين، زوجةٌ وأم**».

على مدار السنين، حرصت ريحانة على أن يحظى إقبال بواحد من أفضل الرُّبوع اتجاهًا في المقابر. وهكذا راحت تفعل مثلما يفعل الجميع: تضع الزهور الحمراء على شاهد القبر. ولكن في كل مرة حين تعود فَترى الزهور الذابلة، يخالجها شعورٌ بأنها تخونه بطريقة أو بأخرى. لم ترغب في رؤية الموت مُتمثلًا حولها حين تأتي لزيارته. وهكذا زرعت بعض البذور حول حافة الربع الذي يقع فيه شاهد القبر، وبعد بضعة أسابيع، نمت زهور بيضاء منمنمة من القشدة الهندي، تصبو بأوراقها بعزمٍ لأعلى، كما لو أنها تُشير إلى الطريق. تعود ريحانة بانتظامٍ بمَجرفتها ومرشَّتها، وتعمل على تشذيب بُقعتها البيضاء الصغيرة وتحسينها.

والآن تقف عند سفح قبر إقبال، تُواجه شاهد القبر الذي كُتب عليه بحروفٍ سوداء: «**محمد إقبال حق**». ويقف سُهيل عن يسارها، ومايا عن يمينها، مضمومي الأيدي رافعين إياها إلى أعلى في دعاء.

في تلك اللحظة تحديدًا، يغص حلقها دومًا بالنشيج.

وراحت تقول: زوجي العزيز. ها هما طِفلاك الراشدان. ما شاء الله، إنها الذكرى السنوية العاشرة لعودتهما إليَّ. إن ابنك الآن في التاسعة عشر من عُمره، وابنتك في السابعة عشر. ها هما شابان طائِعان في أتم صحةٍ وعافية.

(1) آنة هندية: هي عملة استُخدمت قديمًا في الهند وباكستان، في أثناء الحكم البريطاني، وتساوي 1/16 من الروبة الهندية. (المترجمة)

أخبرتُك في المرة الأخيرة حين كنتُ هنا عن الانتخابات. وها نحن الآن ننتظر إعلان مُجيب رئيسًا للوزراء. لقد شهِدنا الكثير من التأجيلات، وطفلاك ينتظران تغيُّر الحكومة. وعند حدوث هذا بمشيئة الله، سيتمكنان من العودة إلى دراستهما.

صمتت ريحانة عن الحديث، وأخذت نفسًا عميقًا. واستجمعت رباطة جأشها.

كان لديها الكثير من الحديث لتُلقيه عليه؛ ما زلتُ أفتقدك كل يوم، لماذا تركتني وحدي! لماذا!

لكنها لم تنطق؛ لو كان يسمعها لعرف كل شيء على أي حال.

خبَّأت وجهها في راحتي يديها وقالت: وداعًا يا زوجي.

وحين تطلعت ريحانة لأعلى، رأت سُهيل يمسح بضع قطرات من الدمع الذي سقط على وجنته. أما مايا فكانت تُداعب شاهد القبر، ثم انحنت بجذعها لأسفل وطبعت قبلةً على مقدمته، حيث ارتفعت قمته إلى أعلى نقطة فيها.

***

عاد الثلاثة إلى الكوخ الصغير استعدادًا لاستقبال الضيوف. أزالت مايا الغُبار عن أثاث غُرفة الاستقبال، وساعد سُهيل مصممي الديكور في إقامة الخَيمة في الحديقة. وأعدت ريحانة طبق البرياني في الليلة السابقة، أرقدت طبقات المكونات بعضها فوق بعض وأحكمت إغلاق الإناء بطبقة من معجون الدقيق. استغرق طهي الإناء من ست إلى سبع ساعات؛ والآن قشَّرت الطبقة الخارجية، ورفعت الغطاء، ثم خلطت طبقات اللحم والبطاطس والأرز، حتى تتوزع المكونات بالتساوي. حصَت أعداد الأطباق؛ سيحضر نحو عشرين شخصًا معًا. لطالما خالجها التوتر قبل هذا الحفل؛ فمنذ أن توقفت عن الذهاب إلى نادي ألعاب دكًّا، صار هذا الحفل واحدًا من المرات القليلة في العام التي ترى فيها أصدقاءها.

تفهَّم أصدقاؤها غيابها عن النادي بعد وفاة إقبال. وهكذا جاءوا هم إليها بدلًا عن ذلك، وتذكرت ريحانة أن السيدة رحمان عادة ما كانت تجلب معها بعض الكعك. كعكٌ مُتيبس غير صالح للأكل، حين تضعه على طاولة الطعام، يرقُد مثل الطوب الحراري، يحشد الذباب وذرات الغبار من حوله.

وعلى الجانب الآخر، تُحضر السيدة تشودهاري ابنتها سيلفي. والسيدة أكرم، أصغرهن سنًا، تطوف حولهمن في غرابة، وتُزيح أرواح سوءِ الطالع من الهواء بمروحتها اليدوية القابلة للطيِّ.

وبعد عودة الطفلين إليها، قالت سيدات لعبة الكونكان إنه ما عاد هناك من سببٍ لغياب ريحانة. وهكذا حاولت ذات مرة بعد بضعة أشهر من عودتها من لاهور، أن تُحيي مجموعة اللعب القديمة.

***

كانت السيدة تشودهاري في مزاجٍ احتفالي ذلك اليوم، وراحت البسمة تُداعب عينيها في فرحة، وقالت لريحانةً: «لديّ مفاجئةٌ لكِ!» تجاهلتها ريحانة، لا بُد وأنه دُكان حلوى جديد اكتشفته السيدة تشودهاري. كان بإمكانها أن تسمعها تقول «أفضل حلوى لادو في المدينة». شعرت بالغرابة والتوتر؛ كان الجو حارًّا بالداخل، وبيدَ أن المراوح المُعلقة في السقف لا تفعل الكثير في هذا الجو الحار. كانت قد ذهبت إلى النادي مراتٍ عديدة من قبل، ولكن إذ فجأةً بات كل شيءٍ مُوغلًا في الغرابة، وشعرت بقليل من الغضب من السيدة تشودهاري إذ بدت مبتهجة جدًّا.

زُينت طاولة اللعب المربعة ببلاطات منقوشة بالورود، وكُتبت أسماء الزهور، كل واحدة تحت صورتها، بخطٍ أنثوي مُجعَّد. تقول الكتابات: زهرة الجهنمية، الوردة الإنجليزية، النرجس البري.

جلست ريحانة تواجهها باقة من زهور التيوليب الصفراء. وعلى الجانب الآخر منها، تجثم السيدة تشودهاري بين زهور النجمية وزهور البنفسج الفاتح. وراحت السيدة رحمان تتنقل بين صفٍ من زهور الداليا. أما السيدة أكرم رابعتهن، فراحت تُعيد طلاء أحمر الشفاه في مرآة فضية رفيعة.

قالت السيدة رحمان لريحانة: حسنًا، توقفي.

قسَّمت ريحانة كومة الأوراق إلى جُزأين. وراحت السيدة رحمان تُعيد خلط الأوراق مرة أخرى، ورفعت ذراعها إلى أعلى ثم أنزلته مُجددًا وهي تصفع الطاولة بكفِّها.

راحت السيدة رحمان تُلقي بأوراق إلى أركان الطاولة الأربعة، وهي تقول: قيمة بطاقات الوجه عشر نقاط، والأيس واحد، كالمُعتاد.

سمع الجَمع طرقةً على الباب، ثم دخل نادل يرتدي مِعطفًا اعتاد أن يكون أبيض، بصينية من فناجين الشاي وطبق من البسكويت.

قهقهت السيدة تشودهاري، وقالت: أخيرًا. اتركها هنا فحسب. لا حاجة لك بسكب المشروب، اذهب. اذهب.

ثم رفعت حقيبتها من حيث كانت ترقد على الأرض، وأخرجت منها قَنِينةً فضية صغيرة. حلَّت غطاء القنينة، وسكبت قليلًا من مُحتوياتها التي تشبه لون الشاي في الفناجين الأربعة، ثم ملأت الفناجين بالشاي الحقيقي. وكما يفعل الكيميائيون، أضافت الحليب إلى الشاي، ثم قالت بإشراق: ها نحن أولاء!

سألت السيدة أكرم وهي تتطلع من خلف مرآتها: ما هذا؟

أجابت السيدة رحمان: إنه ويسكي أيتها البلهاء.

- ما خطبكِ! اشربي. الله يعلم أننا نستحق بعض الترفيه.

رأت ريحانة السيدة رحمان تُحاول جذب انتباهها. فلم يُحرك أحدٌ ساكنًا، لكن السيدة تشودهاري زفرت تنهيدة ورفعت فنجانًا من الصينية، ثم تطلعت إلى السقف المُزين بإفريز يشبه الفِراء في لونه وقالت: حسنٌ إذن، كما تُحْبِبنَ. لكني فكرتُ أن ريحانة بحاجةٍ إلى القليل من اللهو والشيطنة. ففي نهاية المطاف، هي لن تتزوج مُجددًا!

أثارت العبارة الأخيرة ضحك السيدة أكرم. كانت ضحكتها مُضطربة مكتومة، بدت مثل مَوجاتٍ من القهقهة يغلفها شيءٌ من النخير، ولهذا غطت فمها بيدها.

انتشت ريحانة بالعبير السكري للويسكي الذي يتصاعد من الفناجين، فقالت: حسنًا، سأتناول واحدًا.

كادت السيدة تشودهاري أن تصرخ بهجةً وهي تقول: حقًّا؟

أجابت ريحانة: أجل، بالطبع. لقد جربته من قبل.

كان إقبال قد منحها رشفة ذات مرة. رفع الكأس إلى فمها وسحبها بمجرد أن لامس السائل شفتيها؛ فكانت أشبه بقُبلة مَحمومة. التقطت ريحانة الفنجان الآن وأخذت رشفة مبدئية. وحين رأتها الأخريات تبعنها على الفور وهن يبتسمن إلى فناجينهن. تجرَّعت السيدة تشودهاري فنجانها وصفقت بكلتا يديها.

شرعن في اللعب مُجددًا. فازت ريحانة باللعبة الأولى بأربعة كروت من الأيس ومجموعة من كروت القلب. وفازت السيدة رحمان باللعبة الثانية، وفي نهاية اللعبة الثالثة، قالت السيدة تشودهاري: «**كونكاااان!**» لكن كارتًا برقم أربعة كان مفقودًا من مجموعة أوراقها. غير أنها قضت بأن هذا أمرٌ لا يُهم، لأنها أحضرت الويسكي، وهذا فعلٌ يتعين أن يُحسب لها. أما السيدة أكرم التي كان عليها استخدام كلتا يديها لتُمسك أوراقها، أجابتها قائلة: لكن هذا الأمر ما يزال غامضًا، لماذا ترفض ريحانة صديقتنا اختيار زوجٍ لها؟

ظنَّت ريحانة أن السيدة تشودهاري ستتدخل للدفاع عنها، لكنها سألت: هذا صحيح يا ريحانة، إننا دومًا ما نشعر بالقلق عليكِ، ما الأمر؟

ارتأى لريحانة أنهن جميعًا يتوجَّهن بوجهِهن إليها، مُحدِّقين إليها بنظراتٍ ثابتة مُفترسة. في تلك اللحظة، غزا الويسكي مَعِدتها، فشعرت بأثره، كما أدركت ريحانة أنها ما عادت تملك من الطاقة ما يُسعفها إلى المزاح بشأن الأمر وإبداء بَهجتها؛ غير أنها لم تُرد أيضًا أن تتورد خجلًا وتعض على شفتيها وتتظاهر بالحياء. حقيقة ما في الأمر هي أنها لا تنوي الزواج مرة أخرى. غير أنها فكرت في الأمر ذات مرة، قبل أن تشرع في بناء المنزل الجديد، شونا. ولكن منذ أن عاد الطفلان إليها، اختفت لديها الرغبة في هذا النوع من الحُب تمامًا. ولا يُخفى أبدًا أن الأمر مَحفوفٌ بالمُخاطرة، وقد يسوء الوضع بسهولة. وكان مجرد التفكير في أن رجلًا غريبًا قد يقسو على طفليها، كافيًا لتُسعِّر المرارةُ النيرانَ في حلقها.

لم تُخبر ريحانة سيدات الكونكان بأيٍّ من هذا، بل اكتفت بالتوقُّف عن حضور حفلات اللعب. واشتكت من تملك الصداع من رأسها، ثم إصابة مايا بمرض الجديري المائي، ولا شك أن سُهيل كان عليه أن يُصاب به هو الآخر، وسرعان ما توقفن جميعًا عن طلبها للحضور في نهاية الأمر. وفي تلك الأثناء، كانت السيدة سينجوبتا قد اتخذت موقعها على الطاولة. حاولت ريحانة تجاهُل يقينها بأنهن يثرثرن عن رفضها الزواج وعزلتها العامة وهن يُلقين بأوراق اللعب إلى منتصف الطاولة ويتجرعن الشاي المُحلى بالويسكي. كانت تُدرك مدى غربتها وابتعادها عنهن، وتُدرك تساؤلاتهن اللحوحة عن المشكلة. ولكن، حتى لو حاولت ريحانة شرح الأمر لهن، فهي تُدرك تمامًا أنهن لن يفهمن ما تعنيه أبدًا؛ فما حدث لها لم يحدث لأيٍّ منهن قط.

***

وصلت السيدة تشودهاري أولًا إلى حفل السنوية العاشِرة. ومن مطبخها، سمعت ريحانة صوت إدارتها لرتاج البوابة الأمامية. أسرعت ريحانة إلى الباب الأمامي، وهي تقول: مايا، راقبي هذا البرياني.

أقحمت السيدة تشودهاري بدانتها عبر الباب وهي تقول: حَلِّي فمكِ يا ريحانة، فلديَّ أخبارٌ لكِ!

كانت السيدة تشودهاري تحمل في يدها عُلبةً من حلوى اللادو. ثم تبعها رجلٌ طويلٌ يرتدي زيًّا عسكريًا، ومن خلفه جاءت سيلفي، ابنة السيدة تشودهاري، في بهرجة مبالغٍ فيها لا تليق بالمناسبة، وتزينت بعقدٍ ذهبي رديء الجودة وزوجين من أقراط مرصعة بالياقوت الأحمر.

أشارت السيدة تشودهاري إلى الرجل ذي الزي العسكري، وقالت ضاحكة: هذا صهري!

وعلى إثر قهقهتها المُتتابعة، ترقرق الشحم حول رقبتها وذقنها وشفتها السفلية. ثم دسَّت قطعة من حلوى اللادو في فم ريحانة.

بدت حلوى اللادو أشبه بقطعة من السكاكر في فمها، وقد شقت طريقها ببرود عبر حلق ريحانة. وبعدما انتهت ريحانة من بلعها، علَّقت قائلة: حقًّا! لقد أخبرتِني أنكِ تتلقين عروضًا للزواج، لكنني لم أعلم أن الأمور ستحدث بهذه السرعة.

ازدردت ريحانة ريقها وحاول ثغرها أن يفتر عن ابتسامة، وهي تقول: مُبارك!

- حسنٌ، لم نُعلن الخطبة بعد، ولكني أردتُ أن تكوني أول من يعرف بالأمر.

حياها الرجل ذو الزي العسكري قائلًا: السلام عليكم ....

كان فمه مُنمنمًا أشبه بشريط مطاطي يعود إلى وضعه بعد الحديث، ومن فوقه مباشرةً، رأت ندبة مخيطة بعناية عند فلجة شفته العليا.

أجابته ريحانة: وعليكم السلام. تفضل بالجلوس.

لم تدرِ حقيقةً ما يجدر بها أن تقول بعد ذلك، وهكذا استقرت على إلقاء المزيد من عبارات الترحيب، فأضافت: يسرُّني إن أمكنك المجيء.

قالت السيدة تشودهاري بنبرةٍ آمرة: سيلفي، اجلسي هنا. وأنتَ يا صهري، اجلس بجانبها.

وهكذا امتثلت سيلفي والرجل ذو الزي العسكري إلى ما أُمرا به.

همست السيدة تشودهاري: جاءنا الصبي الأسبوع الماضي برفقة أمه وخالته. يا له من شاب وسيم، ألا تظنين ذلك؟ أراه قليل الكلام، ولكن ارتأى لي فيما بعد أنه مناسبٌ تمامًا لابنتي سيلفي الخجولة. إنهما فريدان من نوعهما، علاوةً على أنه ملازمٌ في الجيش.

أنهت السيدة تشودهاري عبارتها ثم ضحكت، فانتشرت تموجات الضحك إلى وجنتيها مُجددًا.

في تلك الأثناء، حاولت ريحانة أن تُفكر في طريقة تسهِّل عليها إخبار سُهيل بهذه الأخبار الجديدة، حين عبر آل سينجوبتا أرض الحديقة وطرقوا على نافذة غرفة الاستقبال. كان ابنهما ميثون مسحوبًا من ورائهما، يجر قدميه عبر أعشاب الحديقة.

قال آل سينجوبتا: مرحبًا، ها نحن أولاء!

شعرت ريحانة بامتنان لهذا الإلهاء الذي حضر في وقته، فقالت: تفضلوا بالدخول، تفضلوا.

كانت السيدة سينجوبتا ترتدي ساريًا بلونِ الطاووس الأزرق وبلوزة بلا أكمام تُبرز بشرة كتفيها السوداء البَّراقة. كانت السيدة سينجوبتا أطول من زوجها بثلاث بوصات على الأقل، فاستغلت طول قامتها لتعتلي زوجين من حذاءٍ ذو كعبٍ عالٍ عريض، وقصَّت شعرها قصيرًا حتى يمكنها أن تكشف عن رقبتها الطويلة المُجعَّدة، والتي لم تتوانَ عن تزيينها بقلادة مانجلسوترا(1) ثقيلة من الذهب، الحلية التي تُحدد صفاتها كامرأةٍ هندية مُتزوجة وثرية. وعلى النقيض منها، كان زوجها رجلًا قصيرًا بدينًا، ذا يدين صغيرتين مُضطربتين.

---

(1) قلادة مانجلسوترا: هي قلادة من الذهب والخرزات السوداء، يشيع في الثقافة الهندية أن لها قوى مقدسة، وتمتص الطاقة السلبية قبل أن تصل إلى العروس وعائلتها، وترتديها العروس في حفل الزفاف لحماية الزواج من القوى الشريرة. (المترجمة)

حوَّلت ريحانة انتباهها إلى الصبي الصغير وسألته: ميثون، أتود بعضًا من عصير الليمون؟

وضع ميثون يدًا شديدة الدفء على رسخ ريحانة، وأجاب: شاي، من فضلكِ. فأنا أعاني الصداعَ.

- لا أظن أن الشاي مسموحٌ لك في مثل عُمرك يا بُني.

تدخلت والدته مُجيبة: بلى، هذا صحيح. ماذا دهاك يا بُني؟

- لقد قلتِ إنها مناسبةٌ مميزة.

قالت ريحانة: صحيح، إنها مناسبةٌ مميزة. ما رأيك في بعض صودا البرتقال؟

وغادرت لتجلب المشروبات بينما راحت السيدة تشودهاري تُعيد الأخبار الجديدة على مسامع آل سينجوبتا. وفي المطبخ، كان سُهيل ومايا يعملان على تقطيع الخيار لشرائح.

كانت الفكرة الوحيدة التي تدور في خُلد ريحانة هي أن تُبعد سُهيل عن المنزل، وعجزت عن التفكير في أي شيءٍ آخر؛ في نهاية المطاف سيعود إلى المنزل، لكنها بحاجة لمزيد من الوقت حتى يتمخض ذهنها عن طريقة لإلقاء هذه الأخبار على مسامعه أولًا، وأن تحدَّ من مخاطر انفجار الحقيقة في وجهه، وهكذا قالت: سُهيل، أريد منك أن تذهب لشراء بعض الحلوى من دُكان علاء الدين.

تنحنحت ريحانة وحاولت أن لا تبدي نبرة صوتٍ آمرة وهي تقول: لا أظن أن ما لدينا سيكفي، أنت تعلم كيف يُحب الناس تناول الحلوى بعد طبق البرياني.

أجاب سُهيل:

- إنه على الجانب الآخر من المدينة. سيستغرق الأمر مني ساعة كاملة على الأقل.

- لا تقلق، سيمكث الجميع طوال فترة ما بعد الظهيرة. وستعود أنتَ في الوقت المناسب.

ألزمته ببعض المُلاحظات، ثم قالت: استقلَّ الريكاشة.

استدار سُهيل متخذًا طريقه عبر غرفة الاستقبال، وضيقه يُغالب شكوكَه، لكن ريحانة استوقفته قائلةً: كلا، بل اخرج عبر الباب الخلفي، وإلا ستتعطل ساعاتٍ طويلة إذا رأتك السيدة تشودهاري.

تابعته ريحانة بناظريها يغمرها شعورٌ بالذنب، وهو يرفع كتفيه في حيرةٍ ثم يخرج من المطبخ.

لم تنخدع مايا بهذه الحجج، وهكذا سألت والدتها: ما الأمر يا أمي؟

وجلست القرفصاء خلف النَّصل المعقوف لماكينة التقطيع اليدوية، فالتفَّ ساريها المُنقط حول كاحليها. تلصصت ريحانة من نافذة المطبخ لتطمئن أن سُهيل بعيدًا عن مرمى السمع، ثم قالت: سيلفي ستتزوج.

- **ماذا؟**

- أتفهم دهشتكِ. لقد حدث كل شيء فجأةً. كنتُ أعلم أن السيدة تشودهاري تبحث عن زوجٍ لابنتها، لكنهما بالكاد التقيا.

طعنت مايا حبة الخيار في يدها بسكينها في عنفٍ، وهي تسأل: وهل وافقت سيلفي؟

أومأت ريحانة بإيجاب.

- يا إلهي! يا لأخي المسكين. ماذا علينا أن نفعل حيال هذا؟

أجابت ريحانة: لا أدري. احرصي فحسب على أن لا يلتقيهم عندما يعود.

***

حين عادت ريحانة إلى غرفة الاستقبال، وجدت أنَّ السيدة رحمان والسيدة أكرم قد وصلتا بالفعل. إنَّ هاتين المرأتين مثل توأمين ملتصقين لا ينفصلان، ودومًا ما تذهبان إلى كل مكانٍ دون زوجيهما أو أطفالهما، مُتشحتان بمظاهر الهاربين، مُتذمرتان حول هروبهما من المنزل. سعِدت ريحانة حين رأت الغرفة تعج بالضيوف؛ مما جعلها تُقاوم رغبتها في التحديق إلى سيلفي وخطيبها. والآن ما عاد سِوى الطعام هو الكفيل الأخير لتشتيت الجميع.

وضعت ريحانة الصينية الثقيلةَ المكدسةَ بالبرياني على الطاولة وهي تقول: الغداء جاهز.

نهض الضيوف عن مجالسهم واتخذوا طريقَهم عبر الغرفة نحو طاولة الطعام، بينما عكفت ريحانة على ملء الأطباق وتقديمها إليهم.

قالت السيدة أكرم: ما أجمل أن ينعم الحي بحفل زفاف.. لا بُد أن تكوني أول من يحتفي بالأمر، يا له من وقتٍ مُمتع هذا الذي سنحظى به!

كدَّست ريحانة أرز البرياني في الطبق، وهي تقول: دعني آخذ طبقك يا سيد سينجوبتا. لا بُد أن تتناول المزيد.

كانت ريحانة قد أعدت طبقًا نباتيًّا خاصًّا من أجل آل سينجوبتا.

وضع السيد سينجوبتا يده على طبقه محتجًا وهو يقول: يكفي! سيقضي مستأجروكِ على ما في منزلكِ وبيتك.

قالت ريحانة: لقد مضت عشر سنوات، وحان الوقت لتتوقف عن تسمية أنفسكم مُستأجرين.

عادت ريحانة إلى المطبخ لتُعيد ملء صينية البرياني، فوجدت سيلفي تتسكع في الممر.

قالت سيلفي: مذاق البرياني رائع هذا العام يا خالة موني.

دومًا ما كانت تُنادي ريحانة بالخالة موني، كما لو أن السيدة تشودهاري وريحانة شقيقتان حقيقيتان. ما تزال سيلفي تتمتع بقوامٍ هزيل شاحب، مع أن شحوب الوجه يليق بها؛ دون هذا الشحوب، ربما ينطفئ بريق عينيها، لكن عيناها كدأبِهما، دومًا ما يعكسان ضوء الشمس، ويسطعان مثل نقطتين من الجير اللامع.

أجابت ريحانة: شكرًا لكِ، لقد صنعته في عجلة من أمري.

كانت عينا ريحانة تتفحصان سيلفي، باحثتين عن جوابٍ لسؤالٍ لم تقوَ على طرحه.

قالت سيلفي: ما كنتُ لأخمن شيئًا كهذا، إنه لذيذ للغاية. أنتِ تصنعين أفضل برياني في دكًا.

أومأت ريحانة في إشارة لقبول الإطراء. ألقت سيلفي نظرةً فاحصة على نفسها، وعدَّلت من وضع قلادتها.

خيَّم صمتٌ طويل، قبل أن تقول ريحانة أخيرًا بنبرةٍ حاولت أن تبدو بهيجة: إذن، ستتزوجين.

أجابت سيلفي متلعثمةً: أجل، أنا ... حسنٌ، كانت أمي قلقة. ولا أُحب أن أراها قلقة. تعلمين أنها تعاني ارتفاع ضغط الدم.

قالت ريحانة: حسنًا، تبدو راضية للغاية.

واحتوت خدَي سيلفي براحتَي يديها، فشعرت بهما يرضخان أسفل أصابعها، ثم أكملت: لقد جعلتِها غاية في السعادة.

***

وصل سُهيل بالحلوى بعدما استكان الضيوف أسفل ظِلال الخيمة. حاولت ريحانة أن تعترض سبيله عند البوابة، لكنها كانت تحمل حِفنة من الأطباق، وهكذا وصلت إليه السيدة تشودهاري أولًا.

جذبت السيدة تشودهاري ذراع سُهيل، وقالت: سُهيل! أين كنتَ؟ لديَّ أخبارٌ لك. سيلفي ستتزوج!

رأت ريحانة سُهيل يُخلل شعره من مقدمة رأسه للخلف بأصابع ترتجف في عنف. أما يده الأخرى، التي كانت تُمسك بعُلبة الحلوى، فكانت تهتز جيئةً وإيابًا.

قالت السيدة تشودهاري:

- أَقبل، أقبل، لا بُد أن تلتقيه. صابر، هذا سُهيل، ابن السيدة حق. صديقٌ قديم لسيلفي، كانا متلازمين حين كانا أطفالًا. ... سُهيل، عزيزي، هذا الملازم صابر مصطفى.

قال سُهيل: مرحبًا بكِ في العائلة.

نهض صابر عن مجلسه وعدَّل من طيات زيه العسكري، وهو يُجيب: شكرًا لك.

حاولت ريحانة أن تناول ابنها كومة الأطباق، لتصرف انتباهه وهي تقول: سُهيل، يا بني، هلا تساعدني في حمل هذه الأطباق؟

تجاهلها سُهيل، وراح يوجِّه حديثه للضيف الجديد: حسنًا إذن. لقد تحصلت على تذاكر لمباراة الكريكت غدًا بين باكستان ونادي مارليبون للكريكت إنجلترا. (أخرج سُهيل التذاكر ولوَّح بها في الهواء).. مَن يريد الذهاب؟ أيها الملازم، أتود الانضمام إلينا؟

أجاب صابر: كلا، أخشى أنني مناوب في الخدمة غدًا.

أشار سُهيل بالتذاكر نحو سيلفي، وسأل: وأنتِ سيلفي؟ هل ستأتين؟

تدخلت السيدة تشودهاري في الحوار، وأجابت نيابة عن ابنتها: لا أظن ذلك، فأمامنا الكثير من تحضيرات الزفاف لنُنهيها.

قالت السيدة سينجوبتا: أنا سآتي. وأمكَ ستأتي أيضًا، أليس كذلك يا ريحانة؟

وقالت مايا موضحةً: وأنا سآتي أيضًا. أخشى أنه لم يعد هناك متسعٌ لكِ في نهاية الأمر يا سيلفي. ربما في وقتٍ لاحق.

خيَّم صمتٌ طويل مطبق بينما راحت كلٌّ من مايا وريحانة تُنهيان تنظيف بقية الأطباق. تمنت ريحانة لو أن أحدهم يستأنف الحديث، أن يقول أحدهم شيئًا ليُغير الموضوع، ولكن لم ينبس أحدٌ ببنت شفة. وفي تلك الأثناء، راحت كلٌّ من السيدة رحمان والسيدة أكرم تُمرران عُلبة الحلوى على الحشد الصغير. وأخيرًا، طرح السيد سينجوبتا الموضوع المُفضل للجميع: الانتخابات.

سأل السيد سينجوبتا: كيف حال الأمور على جبهة الطلاب يا سُهيل؟

أجاب سُهيل، وهو يجوب الحديقة بعينيه: الأمر غير مؤكد يا عمي، لقد مضى شهران منذ أن فاز مُجيب بالانتخابات. وكان يجدر بهم أن يعقدوا مجلس الأمة بحلول هذا الوقت، وأن يُنصبوه رئيسًا للوزراء، لكنهم مستمرون في تأجيل الأمر. وراح بعض الطلاب يحثون مُجيب[1] على اتخاذ المزيد من الإجراءات المُشددة.

بدا سُهيل بغتةٌ فاتر الهِمة؛ وتجعَّدت أكمام قميصه، كما لو أن أحدهم قد جذب ذراعيه وعانقه عناقًا حميمًا.

- ماذا تعني بإجراءٍ مشدد؟

- يجدر به أن يُعلن الاستقلال.

---

(1) مجيب: هو الشيخ مجيب الرحمن، ويُعرف باسم «البانجا باندو» ويعني أبا الأمة أو صديق البنغال، هو المؤسس الحقيقي لدولة بنجلاديش، التي تأسست بعد انفصالها عن باكستان سنة 1971، والرئيس الأول لها، ثم خدم بصفته رئيسًا للوزراء من عام 1971 حتى اغتياله عام 1975. (المترجمة)

سأل السيد سينجوبتا: لكنه فاز بالانتخابات، لا شك أن مطالبه ستُنفَّذ الآن، أليس كذلك؟

أجاب سُهيل: أجل. لكنهم أجلوا عقد مجلس الأمة مرات كثيرة للغاية.

بدا سُهيل كما لو أنه على وشك إلقاء خطبة مرة أخرى، وشعرت ريحانة بوجهه يزداد حُمرة ويزدردُ غضبًا.

تدخلت السيدة رحمان في الحديث معلقةً: إن مجيب سياسي مخضرم. لا بُد أنه يعلم شيئًا لا نعلمه نحن.

قال السيد سينجوبتا: ربما ما يزال هناك مجالٌ للديمقراطية.

- ديمقراطية؟ اسمح لي يا عمي. أتظن أن بوتو[1] ويحيى[2] يريدان الديمقراطية؟

بدا سُهيل على وشك أن ينأى بنفسه عن الحديث حين رفع صابر يده وسأل: أتعتقد أن بإمكاننا أن نجعل من هذا البلد بلدًا لنا؟

في تلك الأثناء، تساءلت ريحانة في قرارة نفسها ما إذا كان سُهيل سيبتلع الطعم ويعود للمناقشة. وهذا ما حدث حين أجاب: إذا كنتَ تعرف أي شيء عن هذا البلد، كنتَ ستعلم أن غرب باكستان يستنزِفنا. إننا نكتسب معظم مخزون البلاد من العُملة الصعبة. ونزرع الأرز ونصنع ألياف القنَّب، ومع ذلك

---

(1) بوتو: هو ذو الفقار علي بوتو، سياسي باكستاني تدرج في المناصب الرسمية وكان منها: رئيس البلاد (1971 - 1973) ورئيس الوزراء (1973 - 1977). أسس حزب الشعب الباكستاني PPP وأُعدم عام 1979 بعد محاكمة مثيرة للجدل لموافقته على اغتيال سياسي معارض في خطوة اعتبرها البعض بدافعٍ من القائد العسكري محمد ضياء الحق. (المترجمة)

(2) يحيى: هو آغا محمد يحيى خان، سياسي وعسكري وثالث رؤساء باكستان. تخرَّج في الأكاديمية العسكرية الهندية في دهرا دون. اشترك في الحرب ضد الهند حول كشمير، وأصبح أصغر جنرال في بلاده، حيث كان في سن الأربعين. أصبح رئيسًا لباكستان سنة 1969 م، ثم أجريت انتخابات عامة في سنة 1970، غير أن الاضطرابات في شرق باكستان عجلت بسقوطه، وقد انفصلت شرق باكستان عن غربها سنة 1971، وأخيرًا سلَّم يحيى خان رئاسة الحكومة الباكستانية إلى ذو الفقار علي بوتو. (المترجمة)

لا نجني شيئًا، لا تتوفر لنا المدارس، ولا المستشفيات ولا يحمينا الجيش. حتى إننا عاجزين عن التحدث بلغتنا اللعينة!

راقبت ريحانة المشهد، منتظرةً من صابر أن يقول شيئًا، تعليقًا عدائيًّا فظًّا؛ فقد علمته تدريباته العسكرية أن يتخذ العنف دربًا، لكنه بدلًا عن ذلك، آثر أن ينصرف عن الحديث، متحسسًا أزرار زيه العسكري.

تدخل السيد سينجوبتا، محاولًا إرساء السلام على أفراد المناقشة، فقال: إنها العواصف الاستوائية أيها الرفيق الشاب. الطبيعة. إننا نعيش في دلتا مُنخفضة، ويرافقنا حظٌّ عسرٌ.

قال سُهيل: المَجاعات ليست قضاء من الله، وإنما السببُ الرئيسُ فيها هو الحكومات المستهترة.

راح سُهيل يطوي ويبسط كم بزة الكورتا. وتساءلت ريحانة عما إذا كان سيستمر في الحديث عن ثروات البلاد والأموال التي تجنيها الدولة من ألياف القنّب وما تفعله العواصف الاستوائية. غير أنه بدا كمَن يختنق لنفاد الهواء من رِئتَيه، وراح يُتابع بصوتٍ مُتعب: ما نحن بصدده الآن هو حالة طوارئ. وما مِن مجالٍ للتصالح الآن، يجب أن يُعلن مُجيب استقلال البلاد.

كانت ريحانة قد طلبت إحضار صندوقين من صودا البرتقال، وفي خضم هذه الجلسة، جرى تمريرهما بسرعة على الحضور. وبعد هذه المُناوشة، كان عليها أن تُعيد الحفل إلى نصابه الصحيح. وهكذا قبل الضيوف بامتنان المشروبات الباردة، وشرعوا يرشفون من زجاجاتهم. أطرقوا زجاجتهم الصغيرة بعضها ببعض فأصدرت صوت صَليل، ثم راحوا يبتسمون بتردد كلٌّ لِقشته. استسلمت أزيائهم من الساري وبدلات الكورتا لنسيم مارس المَعسول، واستعادت الأمسية سكونها المَعهود، كهدوء ما قبل هبوب العاصفة.

***

عرضت سيدات لعبة الكونكان مُساعدة ريحانة في لملمة بقايا البرياني. لم تكن ريحانة على يقينٍ من رغبتها في صُحبةٍ حولها، غير أنهن أصررن عليها أيما إصرار، وتملَّكها من الإعياء ما عجزت معه عن الاحتجاج.

تفحَّصت ريحانة صواني الأرز، وقالت مُتذمرة: أرى أنكم لم تبذلوا أي جهدٍ لتنهوا هذا الطعام. وسأضطر إلى إرسال هذا كله إلى المسجد.

قالت السيدة تشودهاري: أيمكنكِ أن تحتفظي لي بكومةٍ منه. تعلمين كم أُحب تناوله في اليوم التالي.

قدَّمت ريحانة عُلبة من الورق المُقوى إلى السيدة تشودهاري، وهي تُجيب: لقد احتفظت ببعض البرياني جانبًا لأجلكِ.

راقبت ريحانة السيدة تشودهاري وهي تُعاين حجم العلبة، وتحسب عدد الوجبات التي قد تتناولها من هذه العلبة.

قالت ريحانة: ما يزال هناك فيضٌ من بقايا الطعام.

ربما لم تُحسن ريحانة طهو البرياني هذا العام على أي حال.

قالت السيدة رحمان: عليكِ دعوة أصدقاء سُهيل إلى العشاء فحسب. أنا على يقين من أنهم لن يجدوا مشكلة في إنهاء هذا الكم من الطعام.

أما السيدة أكرم فراحت تفرز الأكواب وزجاجات الصودا الفارغة، وعلَّقت: أتعلمين، لم يكن لديَّ أي فكرة أن سُهيل منغمسٌ في السياسة الطلابية.

أجابت ريحانة، وهي تضع كومةً من الأطباق في حوض الغسيل: ليس مُنغمسًا فيها، فقد حاول كثيرًا أن يظل بعيدًا عن الأمر.

التقطت ريحانة الطبق الأول وراحت تدور بالإسفنجة على حافته.

قالت السيدة رحمان: تبدو لي حماسته مُتأججة.

أجابت ريحانة بنبرة دفاعية بعض الشيء: حسنًا، تعلمين أنه شاب صغير بعد، وينضح رأسه بالأفكار الحماسية.

بيد أنه من العسير عليهن دومًا أن يتفهمن الأمر: إن أطفال السيدة أكرم ما زالوا تلاميذ في المدرسة، وأبناء السيدة رحمان جميعهم متزوجون زواجًا معقولًا، وسيلفي نادرًا ما تحيد عن الطريق التي رسمتها لها والدتها. وبالمقارنة بكل هؤلاء، يبدو طفلاها خارجين عن سيطرتها بعض الشيء.

تابعت ريحانة حديثها: إن الأجواء تعبق بهذا الحديث، هذا الحديث كله عن تأخر عقد مجلس الأمة. وها قد ازداد توتر الطلاب، وشعورهم بالقلق حيال عدم تنفيذ نتيجة الانتخابات.

قالت السيدة رحمان بإصرار: يبدو لي أنه متورطٌ في الأمر تمامًا. وابنتكِ مايا عضوة في «اتحاد طلاب بنجلاديش[1]»، أليس كذلك؟

قررت السيدة تشودهاري أن تنقذ ريحانة من براثن هذا الموقف، فقالت: ما تعنيه هو لماذا لا يُضيع الفتى وقته في ملاحقة الفتيات بدلًا عن هذا!

غرق المطبخ في صمتٍ مطبق، استدارت ريحانة والتقت عيناها بعيني السيدة تشودهاري، فسألت الأخيرة: ماذا؟ ماذا؟

لم يحر أحدٌ جوابًا، وأدركت ريحانة أنه يتيحن لها المجال لتُعلِّق على الأمر. فتحت ريحانة فمها وحاولت النطق، لكنها عجزت عن التفكير في التسلسل الصحيح للكلمات.

كسرت السيدة رحمان حاجز الصمت، وقالت: أأنتِ آخر من يعلم؟

- يعلم ماذا؟

ظنت ريحانة أنها ما تزال قادرة على إيقاف هذه المحادثة، لكن شيئًا ما حملها على الاستمرار في غسل الأطباق، موليةً ظهرها للغرفة، ودَعتهن يُفشين السر الدفين.

سمعت ريحانة السيدة رحمان تقول: سُهيل واقعٌ في حُب ابنتكِ.

ضحكت السيدة تشودهاري، وهي تقول: أوووووه، بشأن هذا إذن. لا تكوني سخيفة، كان هذا شعور طفولي فحسب.

استمرت ريحانة في تحريك الإسفنجة في دوائر متتابعة. لم يحر أحدٌ جوابًا؛ وظنت ريحانة أنها سمعتهن يحبسن أنفاسهن، في انتظارها أن تتكلم، لكنها غرقت في سحر أطباقها وإسفنجتها وحبات الأرز البُرتقالية الصغيرة التي تطفو مثل بِتلات الزهور في ماء الغسل.

قالت السيدة تشودهاري أخيرًا، وهي تُقوِّم من وقفتها: حسنٌ، لم أدرِ شيئًا عن الأمر. لم تُخبرني الفتاة قط.

قالت السيدة رحمان: لم تكن لديكِ فكرة عن الأمر؟

- بالطبع لم تكن لدي فكرة!

---

(1) اتحاد طلاب بنجلاديش «Chattra League» يُعرف سابقًا باسم اتحاد طلاب شرق باكستان، وهو منظمة طلابية سياسية في بنجلاديش، أسسه شيخ مجيب الرحمن عام 1948، وهو الجناح الطلابي من حزب العوام في بنجلاديش. (المترجمة)

في تلك اللحظة، سمعت النسوة خطواتٍ ثقيلة راكضة تقترب من المطبخ.

- أمي!

كانت القادمة مايا.. وقفت لاهثة بوجهٍ مُحمر من المجهود المبذول، وقالت: أمي، إن أخي يجلس في الحديقة منكّس الرأس بين يديه.

عصير ليمون، هو بحاجةٍ إلى عصير ليمون. ناولت ريحانة ابنتها كأسًا نظيفة، وقالت: هاكِ. أحضري بعض الشراب من الثلاجة.

لا بُد أن مايا قد شعرت بشيءٍ ما يدور في المطبخ، لأنها وللمرة الأولى استجابت بإذعان وانطلقت في طريقها، يُحدث نعلاها صوت طقطقة من خلفها وهي تركض.

قالت السيدة تشودهاري: ريحانة، يجب أن تصدقيني. لم أدرِ شيئًا عن هذا الأمر.

عادت ريحانة إلى حوض الغسيل مجددًا، والتقطت طبقًا آخر.

كررت السيدة تشودهاري كلماتها: لم تُخبرني الفتاة شيئًا، وسُهيل ما يزال صبيًّا يافعًا، مجرد طالب، ودون شك هي فكرة حمقاء أن نفكر...

قاطعتها السيدة أكرم: إذن كنتِ تعرفين بالأمر.

أجابت السيدة تشودهاري: كلَّا، لم أعرف شيئًا.

شعرت ريحانة في تلك اللحظة أن السيدة تشودهاري تقترب منها، وهي تُضيف مستكملةً حديثها: وريحانة تتفق معي فيما أقوله، أليس كذلك يا عزيزتي، أتتفقين معي أن هذه ستكون فكرة سيئة؟ أنا على يقين من أنها أثنت ابنها عن هذه الفكرة أيضًا.

ازدردت ريحانة ريقها وابتلعت الغصة في حلقها، وهي تُجيب: أجل، أنتِ على حق بكل تأكيد.

فما الذي يمكنها فعله الآن؟ سوى أن تُجنب ابنها المزيد من الإهانة.

صرَّحت السيدة تشودهاري: أترون، إنها تتفق معي.

هزَّت السيدة رحمان رأسها في استنكار، وراحت تغرف بقايا البرياني من الإناء المعدني الضخم الذي طُبخ فيه. كان المطبخ يعبَقُ برائحة البرياني، وسرعان ما ضاق الهواء بالمكان، وغمرته بقايا حرارة ما بعد الظهيرة، وتردد به أزيز المصباح الكهربي وتنهيدات السيدة تشودهاري الصاخبة.

- لا أدري علام هذه الضجة. لا يمكن، لا يمكن أبدًا، أن يكنَّ جادين في حديثهن.

أنهت ريحانة شطف الطبق الذي في يدها، وشرعت تغسل طبقًا آخر، وفكَّرت في قرارة نفسها أنه ما من شكٍ أن هذا الطبق هو أنظف طبقٍ في العالم. هذا الطبق الذي التقطته السيدة أكرم ومسحته بطرف ساريها.

تابعت السيدة تشودهاري تعليقاتها:

- علاوةً على أنه منغمسٌ في أموره السياسية، ولن يكون زوجًا مناسبًا لإحداهن أبدًا. وعلى أي حال، سُهيل أصغر منها سنًّا.

ضاقت ريحانة ذرعًا بهذه المحادثة، فقالت: من فضلك يا سيدة تشودهاري، لا تقلقي. هذا مُجرد سوء تفاهم.

أجابت السيدة تشودهاري بارتياحٍ وقناعة: هذا صحيح. ولم يُجبر أحدٌ سيلفي على الخطبة.

ثم استدارت على عقبيها متعجلةً وقالت: أنا متعبة. تصبحون على خير جميعًا. في حفظ الله.

انطلقت السيدة تشودهاري مُسرعة تغادر الغرفة، ورطمت بقدمها صفًّا من جِرار المخلل الفارغة وهي تلتف عند الزاوية.

كانت ذراع السيدة رحمان منغمسة حتى كوعها في إناء البرياني، حين قالت: ريحانة، أنا آسفةٌ للغاية...

قاطعتها ريحانة مُجيبة: دعونا لا نتحدث في الأمر.

تطلعت السيدة رحمان والسيدة أكرم إلى بعضهما كما لو أن ما قالته ريحانة هو تحديدًا ما كانتا تتوقعان منها أن تنطق به.

- أنتِ لا تتحدثين عن الأمر، ولكن يمكنني أنا أن أقول إنه أمرٌ مؤسف.

عضت ريحانة على شفتها من الداخل، وأمسكت بطبقها، فانسكب الحساء من بين أصابعها، وقالت: من فضلك، سأهتم أنا بالبقية، وسيساعدني الطفلان في إنهائه. لقد تأخر الوقت، ولا يجدر بي تأخيركما إلى هذا الوقت.

مسحت ريحانة خدها بظهر رسغها؛ هاجمتها نوبة حكة. فقالت السيدة أكرم: دعينا نذهب، هيًّا بنا.

وجذبت ذراع السيدة رحمان إلى خارج طبق البرياني.

قالت المرأتان بلطف: تصبحين على خير يا ريحانة.

فهمست ريحانة مجيبة: تصبحن على خير يا صديقات.

ولم تكن موقنةً ما إذا كانتا قد سمعتاها أم لا.

***

في وقتٍ لاحق، بعدما غطَّ الطفلان في النوم، صعدت ريحانة إلى فراشها، أسفل الناموسية وجذبت الغطاء حتى ذقنها. أطالت المقام مستعيدةً حكاية سيلفي، متسائلةً في قرارة نفسها عما إذا كان هناك فعل تستطِيعه. ظل سُهيل متجنبًا إياها طوال المساء، وذهب للنوم دون تناول شايه. وظنت أنها قد رأت مسحةً من الاتهام على جانبي فمه وهو يتمنى لها ليلة سعيدة.

آهٍ! لقد سمعت السيدة تشودهاري تقول إنه لن يكون زوجًا مناسبًا أبدًا، وهذا بسبب تورطه في الكثير من أمور السياسة.

أحدث بها هذا التعليق ما تُحدِثه لدغة العقرب في جسم المرء، وهذا ربما لأن ما نطقت به السيدة هو عين الحقيقة. لاحظت ريحانة مؤخرًا أن طفليها يملكان من الوقت قليله لفعل أي شيءٍ آخر عدا الكِفاح. وقد بدأت رحلة هذا الكفاح حين التحق سُهيل بالجامعة. فمنذ عام 1948، أبقت السلطات الباكستانية على حُكم الجناح الشرقي من البلاد، وكأنه مستعمرةٌ لها. في البداية، حاولوا إجبار الجميع على تحدث اللغة الأردية بدلًا عن اللغة البنغالية. ثم استولوا على الأموال المُكتسبة من إنتاج ألياف القنَّب من بلاد البنغال وأنفقوها على المصانع في كراجي وإسلام آباد. وتوالى اللواءات واحدًا بعد الآخر يقطعون الوعود التي لا ينوون الوفاء بها. وتورَّط طلاب جامعة دكَّا في هذه الاحتجاجات من بداية الأمر، وهكذا لا عجب أن سُهيل قد انغمس في هذا الأمر، ومن بعده مايا أيضًا. حتى إن ريحانة أمكنها أن ترى المنطق فيما يفعلانه: أيعقل أن نعيش في بلدٍ منقسمةٍ إلى قسمين، تقع على جانبي الهند مثل زوجين من قرون الماشية؟

ولكن في عام 1970، حين ضرب الإعصار البلاد، بدا الأمر وكأن كل شيءٍ قد ظهر للعيان فجأة. تتذكر ريحانة يوم عاد سُهيل ومايا من عملية الإنقاذ، ودماء الغضب تنضح من أعينهما وهما يُخبرانها عن طول انتظارهما وصول شاحنات الطعام، ووقفا يراقبان ارتفاع منسوب الماء والجثث تنجرف على

الشاطئ؛ وكيف أدرك الجمع، في حالة من الذعر المتأجج، أن الطعام لن يأتي، وهذا لأنه لم يُرسَل في الأصل قط.

في اليوم التالي، انضمت مايا إلى حزب الطلاب الشيوعي. وتبرعت بجميع ملابسها إلى ضحايا الإعصار، وراحت ترتدي الساري الأبيض فحسب. ولكم كرهت ريحانة أن ترى ابنتها مرتدية الساري الأبيض هذا، لكن مايا لم تلحظ مدى كراهيتها لهذا الأمر. وتجرَّعت مايا -كما تتجرع حبات السكر- كل فكرة بثها إليها الأعضاء الكبار للحزب. **الانتفاضة. الثورة.** وراح لسانها يلوك الكلمات كما لو أنها اكتشفت لغة قديمة مفقودة.

وفيما يتعلق بسُهيل، كان له أن يصير قائدًا طلابًّا قويًّا، لكنه رفض الانضمام إلى أيٍّ من الحركات الطلابية، زاعمًا أنه يعجز عن التذبذُب من فصيل إلى آخر. لم يتأثر سُهيل بالفروق بين الأحزاب الشيوعية المتنوعة: الأحزاب التي تحيزت إلى بيكين، والأحزاب التي تحيزت إلى موسكو، ومُحبي ماو[1]، وكارهي ماو، ومؤيدي الماركسية-اللينينية، ومؤيدي ستالين، والبلاشِفة. ربما كان رفضه ليتسبب له في مشكلة، لكن سُهيل حرص على تكوين الصداقات، ونأى عن الإساءة لأي أحد. كان شابًّا ذائع الصيت، محبوبًا من الجميع: الشيوخ والفاسدين، الشيوعيين والفُتوات وعديمي النفع، وطلاب الكليات الأدبية والكليات العلمية، الفيزيائيين، والمهندسين، والرسامين، ودارسي الأنثروبولوجيا، والفتيات، والفتيان. وبخاصةٍ الفتيات. ربما فسَّر زملاء سُهيل غيابه عن اجتماعاتهم بأنه إشارة إلى عدم ولائه، لكن لم يساور أحدًا ممن يعرفوه حق المعرفة، شكٌّ بولائه للقضية. لا شك أن سُهيل يُحب البنغال؛ ربما ورث عن والدته حبها للشعر الأردو، لكنه حُب لا يقارن بالحب الذي يُكنه لكل ما هو بنغالي: السباحة في وحل الدلتا، وأسماك النهر العاجية الشفافة، ولوحة الألوان الخضراء الزاهية لحقول الأرز، والسماء الزرقاء الشاسعة الشجية التي تغطي الأرض المنبسطة.

يقول الناس إن صيت سُهيل الذائع له علاقة بوسامته، لكن ريحانة موقنةً أن هذا يتعلق أكثر بنبرة صوته وطريقة حديثه، نبرة صوتٍ رقيقة هامسة ذات

---

(1) ماو زيدونج: هو أحد الصينين الثوريين الشيوعيين، ومؤسس جمهورية الصين الشعبية، ورئيسًا للحزب الشيوعي الصيني منذ تأسيسه عام 1949 حتى وفاته عام 1976. (المترجمة)

عُمق ملموس. ودومًا ما يضع يديه خلف ظهره في إيماءة تدل على احترامه ومراعاته للغير، بينما يُركز ناظريه على من يخاطبه مهما كان، وتركت هذه الإيماءة تأثيرًا فاتنًا ملطفًا، وكانت السبب الذي دعا النساء لتعقبه من كورزون هول حتى مقصف مادهو كل ظهيرة، حينما يذهب لزيارة أصدقائه تحت شجرة التين الهندي الضخمة، حيث وُلدت كل حركة طلابية سامية في دكّا.

لكن سُهيل أحب سيلفي. أحبها حين كانا يشاهدان فيلم **كليوباترا** معًا في الصيف الذي تلا وفاة والده، وأحبها عندما عاد من لاهور وشاهدا معًا أودري هيبورن في فيلم **العطلة الرومانية**. وأحبها حين كانا طالبين في المدرسة، حين كان رقم جلوسها 33، وزيها المدرسي باللونين الرمادي والأزرق، وأحبها حين بدأ نهداها يبرزان من بين الياقة المثلثة لوشاح زيها المدرسي؛ وظل يحبها حين اكتشف الشعر وحين كتبت له الخطابات التي ختمتها بمطبوعات الشفاه الحبرية الهندية؛ وأحبها حين التحقا بالجامعة وقطعا طريق العودة إلى المنزل معًا مُستقلين عربة الريكاشة، وركبتيهما تصطدمان ببعضهما حين تعبر العربة النُتوءات والحُفر. وأحبها حين شرعت في قراءة القرآن، وأحبها حين وافقت على الزواج بناءً على رغبات والدتها؛ حتى إنه أحبها بعد ذلك، حين أغلقت ستائر غرفة نومها ورفضت الخروج إلى النافذة حين طرق بلطفٍ على النافذة بالمؤخرة المطاطية لقلمه الرصاص.

أجل، ربما كان ما قالته السيدة تشودهاري صحيحًا. ما يزال سُهيل طالبًا، وصغيرًا في السن. وسيتعافى من انفطار قلبه الأول، فهذا هو دأب الرجال بمُنتهى السهولة. وفكرت ريحانة في قرارة نفسها أنه رُغم هذا كله، بالكاد يمكننا أن ننسب إلى الحفل صفة النجاح. فقد كان من المُفترض به أن يكون احتفالًا لعودة الطفلين إليها، اليوم الذي مضى عليه عشرة أعوام منذ أن أعادتهما إليها.

وبينما كانت ريحانة ترقد في الظلام، استحضر ذهنها حكاية عودتهما، وراح يعرض الصور كمشاهد فيلم قديم عتيق الطراز تتخلله فرقعة فلاش الكاميرا، لكن الصور ما تزال كاملة غير منقوصة، ما تزال شديدة الوضوح. كان هذا الحفل هو نهاية هذا الطقس الذي استمرت عليه لعشر سنوات: إعادة سرد الماضي. وهي محاولة تُوضع في الحسبان.

***

أولًا، اضطرت ريحانة إلى بيع سيارة فوكسهول المُقربة إلى قلب إقبال؛ وأقنعت السيدة أكرم زوجها بشراء السيارة، ثم راحت تقول لريحانة: بيعي لنا هذه السيارة. أراها ما تزال جديدة، وكنتُ قد رأيتُ زوجي يعاينها من قبل. بإمكاني أن أقنعه بأن يدفع لكِ ألف روبية.

في بداية الأمر، رفضت ريحانة العرض، ولكن بعدما دفعت للمحامي أتعابه، لم يتبق لها سوى 250 روبية. فوافقت على البيع، وقالت للسيدة أكرم: أخبري زوجكِ أن يأخذها عندما أكون في البازار صباح الغد. لا أريد أن أشهد رحيلها.

وحين عادت بعد ظهيرة هذا اليوم، كانت السيارة قد رحلت عن موقعها، مُخلِّفةً وراءها بُقعة داكنة من الزيت في مُنتصف ممر السيارة وأربع رُقعٍ عارية تحمل آثار العجلات الأربع.

إذن منحتها سيارة الفوكسهول ألف روبية، ومع ذلك، لم يكن المال كافيًا لإعادة طفليها وتربيتهما وتوفير الكسوة والمُلحقات من أشرطة زينة وجوارب وأزياء مدرسية. لا يكاد يكفي، فراحت ترهن ما تبقى من مجوهراتها: القلادة التي على شكل شمسٍ مُستديرة، والأقراط المماثلة، والخَاتم المُرصع بحجر الياقوت، وبعض من سلاسل من الذهب. وحين أحصت الإجمالي كان 2.652 روبية. لا يكاد يكفي أيضًا. وهكذا راحت تبيع إطار المرآة المُزخرف من خشب الساج، والذي كان يرتكز إلى طاولة الزينة خاصتها، كانت قطعة أثرية جرى الاحتفاظ بها من منزل ويلينجتون سكوير، وأرسلت في عربة خشبية إلى دكًا بعد زواجها، مرفقةٌ بملاحظة من والدها يقول فيها: «**أنا آسف للغاية، هذا كل ما استطعتُ الاحتفاظ به**». لطالما كانت المرآة تذكيرًا لها بأيام والدها الأخيرة في منزل كُلكتا، وهو يتجول في الغرف الخالية، وخطوات قدميه تنضحان بالهزيمة، حين راحت الشاحنات واحدة بعد الأخرى تختفي حاملةً أغراضه عبر العَطفة، تتجه إلى خزانات السادة الذين يدين لهم بالمال أو الذهب أو الفدادين من الأرض.

ثم واتت السيدة تشودهاري فكرة.

استأجرت ريحانة مهندسًا معماريًّا. وكان هذا الأمر في شهر مايو، بعد شهرين من صدور الدعوى القضائية. وكان طلب ريحانة الوحيد هو أن يجعل المنزل كبيرًا شاسعًا بقدر ما يستطيع. أن يجعله منزلًا ضخمًا. وهكذا وصل

العمال في شهر يوليو، وشرعوا في حفر الأساسات. كانت ظهورهم أشبه باللؤلؤ الأسود في حرارة مُنتصف الصيف المُسعَّرة. فراحوا يصبون الأسمنت في الحقل، ويدعمون الهيكل بالعوارض المعدنية، والجُدران بالسقالات الخشبية. ولكن بحلول شهر أغسطس، نفد المال.

شدَّت ريحانة الرحال إلى البنك لطلب قرض. واتجهت إلى بنك حبيب أولًا، ثم البنوك الاتحادية والوطنية ثانيًا. ولكن لم يكن لها ضامن. أخبروها أن بإمكانها رهن الأرض، لكنها لن ترهن الأرض. ثم التقت رجلًا مستديرَ الوجه لزجَ الجبهة، **وافق** على طلبها وأخذها إلى مكتبه في خلفية أحد المباني، حيث تسلل بيده أسفل مرفقها، كما تتسلل النقطة أسفل علامة الاستفهام. كادت ريحانة أن تُوافق على نياته، حتى اقترب منها وتشممت أنفاسه العابقة ببهار الكاري ورأت آثار السجائر على أسنانه، فاندفعت راكضةً خارج الغرفة، قابضة على الأداة التي أحضرتها معها لتوقيع الأوراق، قلم حبرٍ معدني بلونٍ أخضر، يُزين رأسه فاتحة أظرُف.

مرت الأشهر، وغطَّت طبقة خشنة من الطحالب الأساسات الأسمنتية. مرَّ سبتمبر.. يليه أكتوبر. وجاءت الرياح المَوسمية، مُحيلةً الطوب الحراري إلى رمال، وأكياس الرمال إلى طوب حراري، مكونةً بركة راكدة عطِنة الرائحة، حيث كان من المُفترض أن تؤسس الأرضية الفُسيفسائية للمنزل. وقفت ريحانة على حافة البركة وشاهدت الشراغِف، صغار الضفدع تسبح مثل خطوط من الحبر؛ وثعابين الحديقة الصغيرة تلتف حول العوارض، التي تخترق الهواء المشبَّع بالذباب.

ثم عثرت على المال. وكان هذا تحديدًا هو السر الذي ظلت متحفظةً به طوال تلك السنوات، وهذا لأنها أرادت أن تتذكر ما فعلته، وإلى أي مدى وصلت بتضحياتها، لتستعيد أطفالها، ولأنها أدركت تمام الإدراك أن عِبء هذه التضحية لا يجدُر به أن يقع على أحدٍ سواها.

بعد ذلك، بَيد أن المنزل يرتفع من تلقاء نفسه؛ فبحلول نهاية العام، كانت الجدران قد أُقيمت، وبعد شهرين آخرين، كان ملمس الجص على الحوائط أملس، وبحلول شهر مارس، كانت حرارة الربيع القوية تُجفف الطلاء الأزرق المائل إلى الرمادي، وراحت ريحانة تُشرف على العمل بينما ينحت نجارها عبد الله الحروف على قطعةٍ ملساء من خشب الماهوجني، كانت قد احتفظت بها في أثناء بناء الباب الأمامي.

قالت له: **شونا.**

فسألها: أهو اسم والدتكِ؟

أجابت: كلا، بل اسم المنزل فحسب.

تكريمًا لكل ما فقدَته، ولكل ما رغبت أن لا تفقِده مجددًا أبدًا.

***

استجاب السيد والسيدة سينجوبتا إلى إعلان ريحانة في جريدة «باكستان أوبزيرفر» الذي يقول: **منزل جديد من أربع غرف في دانموندي، به غرفة استقبال ومطبخ ويلحقه مرجٌ شاسع. المطلوب: إيجار 6 أشهر مُسبق الدفع.**

كان السيد سينجوبتا يملك أرضًا لزراعة الشاي في مدينة سيلهيت. وسيسافر بعيدًا عن منزله لأسابيع طويلة في المرة الواحدة، وأعرب عن امتنانه المُسبق إذا كان بإمكان ريحانة أن تعتني بزوجته الصغيرة. فقد تزوج العروسان قبل أشهر قليلة فحسب؛ وكان السيد يبحث عن مسكنٍ كهذا، حيث يمكن للجيران أن يمنحوا زوجته بعضًا من الصُّحبة.

بَيد أن سوبريا سينجوبتا ليست بحاجة إلى الرعاية. فقد أخبرت ريحانة أنها تكتب رواية، وأرادت أن تصير مثل الكاتبة رقية سخاوات حسين، هل قرأت ريحانة رواية **حُلم السُّلطانة؟**

لم تقرأ ريحانة رواية حلم السُّلطانة، لكنها أومأت في تشجيع وأخبرتهما أنها تحتاج إلى إيجار ستة أشهر مقدمًا. ناول السيد سينجوبتا الأموال إلى ريحانة في مظروفٍ بلون حلوى التوفي، وسلَّمت إليه بدورها سِلسلة المفاتيح. وفي اليوم التالي، شدت الرحال لزيارة القاضي، ثم أمسكت أمر المحكمة في يدها، وحزمت أمتعتها، وصعدت على متن الطائرة من مطار باكستان الدولي في الصباح التالي، وانطلقت لإنقاذ أطفالها.

تتذكر ريحانة أحداث لقائهم بدقة. كان طفلاها يلعبان لعبة أطواق هيلا هوب في المَرج. ازدادت دُكنة وجهيهما، وطول سيقانهما، وكاد قلبها يتوقف لرؤيتهما، وحتى الآن، بعد مُضي عِقد من الزمان، أحيانًا ما تتجمد أوصالها ذهولًا في تذكر تلك اللحظة، وإزاء احتمالية اكتشافها لهما مُجددًا، واستعادتهما، وإعادتهما إلى المنزل، وأن تصير أمهما مجددًا.

هكذا حدث الأمر. أنهت ريحانة سرد الحكاية على نفسها، وانتظرت الدموع لتجف عن وجنتيها.

وقعت مُعجزة جعلتهم في الصدارة.

عندما وصل اللاعب عظمات رنا إلى ركضته الخمسين الأولى في هذه الجولة، مندفعًا أمام جذوع الأشجار، رافعًا رُكبتيه عاليًا والغُبار يدور حول قدميه، صاح الجمهور وهتف في الملعب الرياضي. نهض الجمهور عن مقاعدهم ودوى صياحهم، يضربون الأرض بنعالهم ويقرعون الطبول الخشنة التي أحضروها بحوزتهم، وفي الوقت ذاته راحوا يُطلقون الصافرات والهتافات: النصر للبنغال! النصر للبنغال! النصر للبنغال! وفي الوقت الذي أحرز فيه الخمسين ركضة التاليين، لم يُسمع حديث المُعلِّق من وراء الصراخ، وشُحنت الأجواء بالصدمة وبهجة النصر.

احتشدت العائلات في الملعب الرياضي بيضاوي الشكل، وقد وصلت بحوزتهم سلال النزهة والأقماع المخروطية المملوءة بالأرز المقلي الحار، أتوا للهتاف والتصفيق، والشمس الحارقة تُلهب رؤوسهم، يُحدقون إلى شمس الأصيل اللامعة ويشاهدون أبطالهم يلعبون.

كانت ريحانة قد أعدَّت شطائر الدجاج، وفي أثناء المباراة، فتحت الحزمة المُغلَّفة بالورق وناولتها لسُهيل، الذي كان يجلس في الصف التالي برفقة صديقه عارف وشقيقه جوي.

أخذ سُهيل لقمة وقال: رائع!

وفتر ثغره عن مسحة ابتسامة وجَّهها إلى والدته، ثم مرر الشطائر إلى أصدقائه.

أما ريحانة ومايا والسيدة سينجوبتا، فكُنَ يجلسن معًا. سألت السيدة سينجوبتا: هل حددوا موعدًا لحفل الزفاف؟

غمغمت ريحانة مُجيبة: كلا.

رفعت السيدة سينجوبتا نظاراتها الشمسية إلى مقدمة رأسها وهي تقول: إن الفتاة صغيرةٌ للغاية، فلِمَ العجلة؟

أرادت ريحانة أن تُوافقها الرأي، ولكن بدلًا عن ذلك، ربَّتت على مرفق السيدة سينجوبتا وقالت: دعينا نتناول بعض المشروبات.

لوَّح سُهيل لبائع العصير، وقال: مَن يريد عصير الليمون ومن يريد عصير البرتقال؟

أحصى سُهيل الأيدي المرفوعة، ومدَّ يده ليُخرج محفظة نقوده. فرفعت السيدة سينجوبتا يدها وقالت: كلا، من فضلك، أنا مُصرَّة.

قال سُهيل: أوه، لا بأس.

واتخذ مجلسه مرة أخرى.

الآن راح الحشد يهتفون ويُغلقون مجال الرؤية عن ريحانة بأذرعهم الملوِّحة. أرادت ريحانة أن تُلقي نظرة فاحصة على عظَمات وهو ما يزال في منطقة الهدف، ولهذا تسلقت المقعد الخشبي ووقفت فوقه وتطلعت من فوق الصف الطويل للرؤوس الداكنة أمامها، ورفعت يدها إلى عينيها. كان الحماس منتشرًا في أرجاء الملعب. وشعرت ريحانة ببادرة ضحكة تبدأ من أعماق أعماقها وتتسلل عبر أطرافها، وهكذا راحت تُقهقه بملء رئتيها. مالت برأسها إلى الخلف وضاقت مؤخرة عينيها وهي تتطلع إلى الشمس، ذات البريق اللامع والقُرص المستتر خلف وهج منتصف ما بعد الظهيرة. فكَّرت ريحانة في قرارة نفسها أنه ربما كان هذا أسعد أيام حياتها، ولا بأس إن نسينا هذه الفوضى التي تتعلق بسيلفي؛ فسينسى سُهيل الأمر برُمته قريبًا. انظروا إليه الآن، يُمسك بأيدي أصدقائه ويُشجع لعبة الكريكت. ضربت ريحانة الهواء أمام وجهها بيدها، وراحت الحرارة ترتفع كلما سطعت شمس ما بعد الظهيرة.

بُهتت مايا حين استدارت متطلعةً إلى جوارها، لتجد والدتها تهبط من فوق المقعد، فسألت: أمي، ما الذي تفعلينه؟

أجابت ريحانة: لقد أخبرتكِ من قبل إنني أحب عظمات رنا. إنه وسيمٌ للغاية، ودومًا ما يذكرني بوالدكِ. لا شك أننا سنفوز اليوم. تناولي بعضًا من عصير الليمون.

ومدَّت يدها إلى ابنتها بالزجاجة.

حدَّثت ريحانة نفسها قائلة بأنها دومًا ما تتسِمُ بالرزانة، إذن ما المشكلة في قليلٍ من البهجة؟

***

استعد نيجل جيفورد، متأبطًا المِضرب الخشبي، للركض نحو عظَمات رنا.

استكانت مايا في مقعدها، وحدَّقت إلى الملعب، بذراعين معقودتين أمام صدرها. في الصف التالي، كان سُهيل يتجادل مع أصدقائه؛ كانوا يقولون شيئًا عن المجمع الصناعي العسكري. وأصرَّ سُهيل على أنه لا يُهم إن كانوا جزءًا من باكستان أم لا؛ سيستمر الظلم نحو الفقراء ما لم يُغيروا الطريقة التي يُنظمون بها الاقتصاد. كان بإمكان ذاكرة ريحانة أن تسترجع الخُطبة. قال عارف إن الأمر المهم هو وجوب انعقاد مجلس الأمة في أقرب وقتٍ ممكن، وتنصيب مُجيب رئيسًا للوزراء. ومن دون ذلك، ستبدو الانتخابات كأنها خدعة، ومَن يعلم ماذا سيحدث بعد ذلك.

حين رفع نيجل جيفورد يده اليمنى، واستعد لضرب الكرة الحمراء البالية من أطراف أنامله وأرسلها، مباشرةً مثل رصاصة، عبر الهواء إلى عظمات، الذي انتظر بركبتين مثنيتين ومضربٍ مُوجه إلى شمس ما بعد الظهيرة الساطعة، والسماء عديمة السحب؛ تبدَّل حال الجمهور وغمرهم التوتر. استشعروا هذا التوتر معًا في آنٍ واحد، في حميمية مفتوحة أسفل سماء الملعب الرياضي المزدحم.

راح الناس ينهضون عن مقاعدهم ويُلوحون بقبضاتهم في الهواء. ودوى صخبٌ في أرجاء الملعب الرياضي، وبيد أنهم لا يهتفون للاعبين. تطلع اللاعبون مُحدِّقين إلى الأعلى من أرضية الملعب، ورفعوا أكتافهم في حيرة. تطلعت ريحانة حولها، ورأت أن الحشد الذي اجتمع للتشجيع والهتاف منذ هنيهة، بدا ساخطًا جزعًا، كانت نظراتهم غاضبة مثل ذرات غبار فائِرة، وانطوت مباراة الكريكت والأرز المقلي وسلال النزهة والطبول في طي النسيان. بيد أن الجميع شعروا بما يحدث قبل أن يروه بأعينهم؛ لا يُهم ما يحدث تحديدًا، بل ما يُهم هو أن تنتهي بهجتهم الصاخبة الجامحة في الحال.

ألقى أحدهم حجرًا إلى أرضية الملعب، وألقى آخر عصا خشبية مكسورة. وتناثرت قصاصاتٌ من جرائد مُمزقة أُلقيت من ممر فوقهم. سمعت ريحانة سُهيل يسأل: ماذا يحدث؟

ولكز برفقٍ عصبة الرجال الذين بدأوا بالفعل يُعيقون المرور في الممر. فأجابه واحدٌ منهم: لا ندري، سمعوا خبرًا في المذياع...

شرعت ريحانة تحزم الشطائر، فقال سُهيل: هيَّا بنا يا أمي. انسي أمر كل هذا.

راح الناس يتسلقون المقاعد، واندفع الجمهور نحو الأبواب، حتى اختنقت المخارج بأجسادهم المتدافعة. فاندفع سُهيل وعارف وجوي بين الجمهور، وأفسحوا الطريق.

توقفت مباراة الكريكت، وخلع اللاعبون قفازاتهم وقبعاتهم الرياضية، وتفرقوا إلى حافة أرضية الملعب. لم يرَ أحدٌ أشعة الشمس تخترق السحب وتسطع على عظمات رنا، الذي حدَّق بدوره باتجاه إسطبل رامنا ريسكورس لسباقات الخيول، حيث اجتمعوا جميعًا قبل أسابيع قليلة للاحتفاء بفوز الشيخ مُجيب. ولم يسمعوا المذيع حين حاول تهدئة الحشود المتجمهرة وتذكيرهم بأن يلتزموا مقاعدهم.

لمَّا تحركوا نحو بوابات الخروج، تدافعوا بخشونة واندفعوا واحدًا تلو الآخر. كانت ريحانة تقبض على مرفق مايا الذي ينزلق من بين أصابعها، وغابت السيدة سينجوبتا عن نظرها. حاولت ريحانة أن تتابع رأس سُهيل، وضربات الفرشاة السميكة في شعره. غلَّفتها رائحة العرق والأنفاس الكريهة؛ فراحت تقاوم الباعث على الذعر والركض للعودة إلى الداخل. التحمت الإبط والمَرافق؛ والتقت الظهور بالوجوه وأقدام الأطفال المُتدلية. شدت ريحانة على ذراع مايا بقوة، ودفعت بها عبر النفق هابطتين السلم. في مصفِّ السيارات، راح سُهيل يلوِّح، ليحشد الجمع الصغير حوله. كان يقول بنبرة صوته التي تاهت وسط أصوات الفقدان والبحث عن الناس: ابقوا خلفي! أنا أعلم موقع السيارة.

تولى سُهيل عجلة القيادة لسيارة السيدة سينجوبتا من طراز سكودا أوكتافيا لعام 1959. احتشد جوي وعارف في المقعد الأمامي، وزُنق كل من

ريحانة ومايا والسيدة سينحوبتا في المقعد الخلفي. أمسكت ريحانة بمايا وهي تمد يدها لمقبض زجاج النافذة، فقالت: ابقي الزجاج مرفوعًا.

غادروا الملعب الرياضي واتخذوا طريق بالطان. فأجابت مايا: أريد أن أرى ما يحدث.

- يمكنك أن تشاهدي ما تريدين والنوافذ مغلقة.

كان الجو خانقًا داخل السيارة، لكنهم في أمانٍ على الأقل. اعتادت ريحانة أن ترى الحُشود في الشوارع، كانوا قد شهدوا الكثير والكثير من المواكب في الشهور التي تسبق الانتخابات، غير أن حشود اليوم كانت مختلفة؛ كانت إرهاصاتُ النكبة تختلط بالهواء. حاولت ريحانة أن تقابل بعينها عينَي سُهيل في المرآة، لكنه انصبَّ بتركيزه على الطريق، والتفَّت يداه حول عجلة القيادة.

دخلت السيارة إلى الحرم الجامعي، وزادت سُرعتها وهي تعبر قاعات «كورزون هول» و«إقبال هول» و«رقية هول». وأمام مركز المعلمين والطلاب، رأوا فوجًا من الناس يرتدون ملابس بيضاء وعَصابات أذرع سوداء، يحملون اللافتات، رافعين قبضاتهم إلى الهواء، يهتفون في نغمات متكررة متراكبة. ضمت مايا راحتي يديها أمام فمها عبر النافذة وصاحت: النصر للبنغال! النصر للشيخ مُجيب!

راح الموكب يتجه نحوهم، فتطلع سُهيل من خلف كتفيه وحاول الرجوع إلى الخلف، لكنهم حُوصروا أمام صفٍّ من السيارات. ارتفع صوت الهتاف، وصارت الكلمات مسموعة شيئًا فشيئًا. حاولت مايا أن تتعرف على الناس في الحشد، فسألت: مَن هؤلاء؟ اتحاد طلاب بنجلاديش؟

أجاب سُهيل: لا أستطيع الجزم، هل يجدر بنا أن نخرج من السيارة؟

هزَّت ريحانة رأسها نفيًا، وقالت: إننا في أمان داخل السيارة. دعونا نبقى في الداخل.

أومأت السيدة سينجوبتا بالموافقة، أما مايا فظلت تتململ بين مقعدها والزجاج الخلفي للسيارة، وانقضَّت بوجهها على الزجاج. أدركت ريحانة أنه ما من جدوى في إخبارها أن تتوقف؛ واكتفت بامتنانها أن الفتاة لم تكسر باب السيارة للخروج منه.

في غضون دقائق، ابتلعهم الفوج، وإذ راحت السيارة تسير ببطءٍ من بين الزحام، ارتطم الناس بمُقدمتها، وضربوا صندوقها الخلفي، كاشفين عن أسنانهم ومُنقضِّين بوجههم إلى الزجاج، وراحوا يصيحون إذ أحدثت أنفاسهم سحبًا على الزجاج: النصر للبنغال! الموت لباكستان! الموت للديكتاتورية!

تعرَّف أحدهم على سُهيل، فطرق الزجاج ببراجمه، وقال: صديقي!

لطمت مايا الزجاج، وصاحت: جينوا!

صنع الفتى منظارًا بيديه وتطلع إلى داخل السيارة، ثم صاح: ماذا تفعل داخل السيارة؟

أنزل سُهيل زجاج النافذة، فعبرت أصابع الفتى عبر الفجوة. أجابه سُهيل: أُوصل أمي وشقيقتي إلى المنزل، ماذا يحدث؟

- ألم تسمع؟ تأجل انعقاد مجلس الأمة إلى أجل غير مسمى.
- ماذا؟
- بحق شجرة سالا. هذا اللعين بوتو قد أقنع يحيى بأنه لا يمكن أن يحكم الباكستان أي بنغالي.

قالت مايا: ماذا؟ أُلغيت الانتخابات؟

شرع جوي وعارف يمطران جينوا بوابلٍ من الأسئلة، متسائلين عن رأيه فيما سيقدم مُجيب على فعله. وظلوا جميعًا يرددون أنهم أدركوا الأمر، أنهم كانوا يعرفون بما سيحدث. لم يتبادل الشبان سوى عباراتٍ قليلة، لثوانٍ معدودة، لكن شعورًا خالج ريحانة بأنهم يُقررون أمرًا مهمًّا. وما انفكت تُحدث نفسها أنها ما تزال صاحبة القرار في حياتهم، وأن شيئًا لن يحدث دون موافقتها. وهكذا دفعت جسدها إلى الأمام في مقعدها، وقالت: سُهيل، ابني، إن الفوج يتفكك من حولنا، ربما علينا الذهاب الآن؟

كان سُهيل يطرق عجلة القيادة بأصابعه، هامسًا بشيءٍ إلى جوي، وحين حدثته ريحانة، التفت إليها وأجاب: حسنًا يا أمي، هيَّا بنا.

جيد. ستبذل ريحانة قصارى جهدها لتحرص على عدم عودته.

قال سُهيل للفتى الذي يُطل عليهم من النافذة: سننضم إليكم، قادمون إليكم.

- أسرعوا إذن، سنكون في مركز المُعلمين والطلاب لاحقًا.

قالت السيدة سينجوبتا: لِمَ لا تذهبون أنتم يا أولاد؟ سأقود أنا السيارة.

عاجلتها ريحانة مُعلِّقة: كلا، سوبريا، دعي الأولاد يوصلوننا إلى المنزل.

أصرَّت السيدة سينجوبتا قائلة: هراء، هكذا سيضطرون إلى قطع هذا الطريق كله مرة أخرى. صُفَّ السيارة جانبًا يا سُهيل.

لعنت ريحانة اليوم الذي أصرَّ فيه السيد سينجوبتا على تعليم زوجته القيادة. كل ما أرادته ريحانة هي أن تعود بهم جميعًا إلى المنزل.

قالت ريحانة: حقًّا! أتظنين أن الوضع آمن لدرجة أن نقود السيارة بمفردنا؟

- بالطبع الوضع آمن. سنكون داخل السيارة، ما الذي يمكن أن يحدث؟

سأل سُهيل بصبرٍ نافد: أمي، ستكونين بخير؟

أجابت ريحانة: أجل.

كان جوابها ضعيفًا؛ وبَيد أن سُهيل كان في غِنى عن مزيد من الأجوبة المُقنعة.

انتظر الحشد حتى عبر آخر فردٍ في الفوج المُتظاهر. وصفَّ سُهيل السيارة أمام مبنى رقية هول، وترك المُحرك يعمل، ثم سأل السيدة سينجوبتا: أأنتِ واثقة؟

أجابته: أجل، لا تقلق، سأوصلهما إلى المنزل. انضم أنتَ إلى أصدقائك. اذهب أنت.

قال سُهيل موجهًا حديثه إلى أمه: حسنًا. أمي، سأستكشف ما يحدث وأعود إلى المنزل على الفور.

جاهدت ريحانة نوبة من الذعر تملكتها، واكتفت بجوابٍ بسيط: كن حذرًا يا بني.

- لا تقلقي. إلى اللقاء!

- في حفظ الله!

كانت السيدة سينجوبتا عند مُقدمة السيارة بالفعل، تنتظر في ترقب تولي القيادة. وأمسكت بالباب مفتوحًا لأجل ريحانة، وقد اعتلت عينيها نظرة مبهجة، ثم قالت: لا تقلقي إلى هذا الحد!

وعلى حين غرة، اندفع فتى نحيفٌ يرتدي تنورة هندية إلى جانبهم، فانزلق ساري السيدة سينجوبتا عن كتفها، كاشفًا عن بلوزتها وبطنها العاري، وحين انحنت لتعيد هندمة ملابسها، تزحلقت وتعثرت إلى الأمام، فارتطم رأسها بعجلة السيارة قبل أن تتمكن من بسط ذراعها لتمنع نفسها من السقوط.

أسرعت ريحانة إلى جانبها، وجاهدت لترفعها إلى أعلى وقالت: هل تأذيتِ؟

ثم جذبتها إلى مقعد السائق وصفعت الباب، ثم كررت سؤالها: هل تأذيتِ؟

أجابت السيدة سينجوبتا: كلا، لم يحدث شيء، قليلٌ من الوَسخ فحسب.

- هاكِ، خذي مَحرمتي.

- مجرد حادث بسيط. لا داعيَ للقلق.

وأخذت السيدة سينجوبتا المَحرمة وراحت تزيل الوحل عن راحتي يديها.

قالت ريحانة: سوبريا، لقد فقدتِ الحُمرة ما بين حاجبيكِ.

لامست السيدة سينجوبتا جبهتها وقالت: أوه!

ثم راحت تبحث بين طيات ساريها، وأضافت: لم أُدرك ما حدث.

أنزلت زجاج نافذتها وسرعان ما مسحت عن عينيها بضع دمعاتٍ ضلت طريقها إلى وجنتيها. ضحكت بشيءٍ من الانفعال وهي تقول: أنا متفاجئة قليلًا فحسب.

ثم عدَّلت من مقعدها، وتفحصت انعكاسها في المرآة، ثم انقضت براحتها على تِرس السرعة.

تطلعت ريحانة من خلف كتفها إلى مايا. كانت ابنتها تُتابع تراجع الفوج من خلفها، وهم يعبرون مُفترق طرق الجامعة ويتجهون إلى نيلكت.

***

وقفت تنتظرهم أمام الكوخ الصغير امرأة شابة طويلة القامة، عريضة المَنكبين، تتمتع بوجهٍ قاسي الملامح دائم الشباب. إنها شارمين؛ طالبةٌ في كلية الفنون، وتشتهر في الحرم الجامعي بلافتاتها السياسية، هي صديقة مايا المُقرَّبة، أو **رفيقة**، كما تُحب أن يُطلق عليها.

ترجلت شارمين من السيارة وهي تسأل: أين كنتِ؟

بدا على شارمين الإعياء وهي تحمل لفة ضخمة من الورق، ومسحت السيدة سينجوبتا مؤخرة رأسها. ومن الجهة المقابلة، راح كلبا السيدة تشودهاري الإسبانيان، روميو وجوليت، ينبحان.

عانقت مايا صديقتها شارمين، وأجابت: كنا عائدين من مباراة الكريكت. وعلِقنا في بالطان.

قالت شارمين: جئتُ إليكِ بمجرد أن سمعت بالأمر. هلا تساعدينني في هذه اللفافات؟

قالت مايا وهي تُمسك بواحدة من لفافات الورق: لا أظن أن بإمكانكِ العودة.

فتحت ريحانة مزلاج البوابة وهي تقول: لا تقلقي، يمكنكِ البقاء هنا.

كان التفوه بالدعوة هو عادةٌ بلا ضرورة؛ فدومًا ما تبقى شارمين برفقتهم. وهناك مرتبةٌ أسفل فراش ريحانة، نادرًا ما تُغطيها ذرات التراب، علاوةً على أن فرشاة أسنانها تقبع الآن في الخزانة خلف مرآة دورة المياه.

تكوَّنت صداقة الفتاتين منذ اليوم الأول لمايا في مدرسة «فيكرونيسا نون». كان الطفلان قد وصلا لتوهما من لاهور، وارتأى لريحانة أنه قد حان الوقت ليتعلَّما اللغة البنغالية. لا تقصد بذلك اللغة البنغالية التي تعلماها في دكاكين الحلوى وساحات اللعب، ولكن اللغة البنغالية الفصيحة التي يتعلمها الأطفال الآخرون في المدارس. وهكذا أُرسلت مايا إلى مدرسة فيكرونيسا، حيث الراهبات الصارمات اللاتي يُلزمن الفتيات بتصفيف شعورهن في شكل ضفيرة مُحكمة وارتداء جوارب بيضاء طويلة تصل إلى الركبة. في اليوم الأول لها، وقفت مايا خلف مكتبها الخشبي وقالت بصوتٍ عالٍ: اسمي شهرزاد

حق مايا. سُميتُ تيمنًا براوية قصص شهيرة. والدي مُتوفى، وعدتُ لتوي من لاهور. لدينا منزل كبير نسميه شونا.

كان الجواب الوحيد الذي تلقته على تعريفها بنفسها هو الصمت المُضطرب، حين راحت الفتيات يتململن في مقاعدهن ويُنصتن باهتمامٍ شديد للكنتها البنغالية المُتصنعة. وبعد ذلك، هربت مايا إلى ركنٍ بعيد من ملعب الهوكي حين لاحقتها صياحات تقول: «فتاة بِهَارية! فتاة بِهَارية![1]». كانت تنورتها تنتفخ بفعل الهواء حول ساقيها، وهناك في ذلك الرُّكن البعيد وجدتها شارمين، تجلس داخل طوقها للرقص، تلوك قطعة من المانجو الجافة.

سألتها الفتاة:

- هل لي ببعضٍ منها؟

- لقد أكلتها كلها.

قالت شارمين: لا يُهم.

وأمسكت بإصبعين من أصابعها القشرة الرطبة لثمرة المانجو وألقت بها إلى فمها، ثم سألت: إذن، والدكِ مُتوفى؟ ووالدي أيضًا.

- كيف مات والدكِ؟

أجابت شارمين: بمرض التَيفويد. وأنتِ؟

- أصيب بنوبة قلبية.

وهكذا تكونت صداقتهما المترابطة.

دومًا ما كانت تتطلع مايا إلى شارمين بمهابة وخشية، كما لو أنها عاجزة عن تبيُّن السبب وراء اختيار شارمين لها، حين كانت هناك الكثير من الفتيات الصارمات الأخريات في الحركة. لكن مايا استخفت بحاجة شارمين لتلقي الحُب. وهذا لأنها لم تتساءل قط، كما كانت تفعل ريحانة أحيانًا، عن حقيقة أن شارمين قضت الكثير من عطلاتها بصحبتهم في الكوخ الصغير في دانموندي بدلًا عن قضائها في منزلها برفقة عائلتها. وتبين أن الفتاة ليس لديها مكانٌ آخر تلجأ إليه؛ هكذا تقبلت ريحانة وجود شارمين في المنزل،

(1) بِهَارية: نسبة إلى مدينة بِهار، إحدى ولايات الهند وتقع في الجزء الشرقي من البلاد، وتُعد جزءًا من المنطقة المتحدثة باللغة الهندية في بلاد الهند. (المترجمة)

ومع أنها ليست مولعةً بها على نحو الخصوص، فلطالما أحبَّت أن تظن في نفسها الشخص الذي يأوي المُشرَّدين.

في غرفة الاستقبال، وقفت شارمين ومايا متأبطتين ذراع بعضهما وراحتا تفحصان الملصق الكبير.

قالت مايا: إنه رائع!

علَّقت شارمين: أظن أنه بحاجة إلى المزيد من الألوان هنا.

وأشارت بفُرشتها إلى المنطقة الفارغة من اللوح الكرتوني. كانت يداها مثل يدي حيوانٍ برمائي؛ أصابع خضراء، ألصقها الطلاء معًا.

قالت مايا: ربما، ولكن يمكن لهذا الفراغ أن يرمُز إلى منحنى الاحتمالات، المستقبل مثلًا، كما تعلمين.

- ألا تظنين أن هذا منظورٌ موغلٌ في التجريدية؟

- ربما.

ورفعت مايا كتفيها في غير اكتراث، إشارة إلى أن الأشخاص الذين لا يفهمون أهمية المساحات الفارغة، لا يستحقون أن يعرفوا المقصود من هذا المُلصق.

انسحبت ريحانة إلى غرفتها؛ كان رأسها يطنُّ بالألم، وعجزت عن أن تُخرِج من رأسها مشهد السيدة سينجوبتا حين سقط ساريها وفغر فوها مشدوهًا، وسُهيل الذي كان يقرع بأصابعه عجلة القيادة. تُرى ماذا يفعل الآن؟ حدَّثت نفسها أنه ربما يحدِّث زملاءه بصوت العقل، هذا دأبه دومًا. وكان يتمتع بشخصية مُوغلةٍ في الإقناع. فإذا ارتأى للطلاب إحداث الشغب، فسيخبرهم أنه لا يجدر بهم أن يُدمروا فصولهم الدراسية ليثبتوا وجهة نظرهم. وسينجح في تغيير لغة الحديث شيئًا فشيئًا، وهكذا سيبتعدون عن الصياح بشأن الانتقام وترديد عباراتٍ مثل «**مَن يظنون أنفسَهم**»؟

مسَّدت ريحانة جبينها بحركة دائرية تُحاكي مروحة السقف الدوَّارة. وحدثت نفسها «سأغلق عيني فحسب لدقيقة واحدة. ثم أستيقظ لأعاود اجترار القلق مرة أخرى».

***

حين خرجت من غرفتها بعد بضع ساعات، كان الليل قد أسدَلَ ستائره، وتهادى إلى مسامعها أزيزُ رياحٍ عليلة تحِفُّ بأوراق الشجر في الحديقة. تبِعت الأصوات والهمهمات إلى غرفة الاستقبال، فوجدتها مُكدَّسةً بأصدقاء سُهيل.

قالوا في جوقة متفرقة: السلام عليكم يا خالتي.

لم يكن أحدًا منهم يُدخن سجائره، لكن الهواء كان عابقًا برائحة الدخان الكريهة. وانحنت كل من مايا وشارمين على رُقعة أخرى من الورق، بينما يُخرج عارف قيثارته من حقيبته.

رفع سُهيل صوته فوق صوت الحشد الصغير حوله، وقال: أمي، إن مُجيب يدعو إلى عقد لقاءٍ في اليوم السابع من الشهر. عليكِ أن تحضري.

أجابت ريحانة متسائلة:

- أنا؟ ولماذا؟

- لأن التاريخ سيدون سطوره.

كان عارف يُدير مقبضًا في قيثارته وهو يُضيف على قول سُهيل: أجل يا خالتي. يجب أن تحضري، سيضم اللقاء حشدًا أكبر من اللقاء الأخير.

أجابتهما ريحانة بشيءٍ من التوتر: اذهبا أنتما، وأخبراني ما حدث فيه بعد ذلك.

باغتها شعورٌ بالغرابة على حين غرة، وشعرت كما لو أنها اقتحمت دورة مياه «للرجال فقط» في النادي الرياضي.

تدخلت مايا في الحوار وعلَّقت: أمي، بحق الله، لا يمكنكِ تفويت هذا اللقاء، ربما يُعلن مجيب الاستقلال.

- لا أدري، سنرى، حسنًا؟ هل تحتاجون جميعًا إلى أي شيء؟ أأنتم جائعون؟

قال سُهيل وهو يُلوِّح لها: لا تقلقي بشأننا، سنتغذى على الثورة.

وإذ اتخذت ريحانة طريقها نحو المطبخ، تساءلت إذا كان عليها أن تحضر اللقاء أم لا. دومًا ما يُلحِّون عليها بالحُضور معهم إلى المُظاهرات

والتجمعات، ولكنها ليست في ريعان شبابها، وليست جزءًا من أي حركة طلابية، ولم تحضر مُؤتمرات الحزب الوطني، أو انتخابات الاتحادات الطلابية، ولم تقرأ **البيان الشيوعي** مثل سُهيل ومايا، أو تجلس لساعاتٍ أسفل شجرة تين الهند، يُناقشون النقاط الأساسية للمقاومة، في مُجمل الأمر، لم تملك ريحانة المقومات الأساسية لتصير واحدة من الوطنيين. لم تملك روح الشباب ولا مظهرهم ولا كلماتهم. ورُغم أن المصطلحات الصحيحة باتت مألوفة لها الآن، فإنها لا تنساب بسهولة من بين شفتيها؛ مثل: «رفيق،» و«البروليتاريا/ العُمال الكادحين» و«الثورة». كانت كلمات دقيقة غاية في الصعوبة، وفوق كل هذا، لم تتضمن تلك الكلمات في معانيها مشاعر ريحانة المُبهمة تجاه البلد الذي تبنته. إنها تتحدث اللغة الأردية -التي يتحدثها العدو- بطلاقة. وعجزت عن التظاهر -وقد رأت الكثيرون يفعلون- أنها قادرة على استعاضة لسانها المختلط، بلسانٍ بنغالي فصيح. وهكذا تحولت تحية المسلمين «السلام عليكم» بأخرى حياديةٍ «مرحبًا» أو حتى «نوموشكار» التحية باللغة الهندية. كان لسان ريحانة مُبلبلًا على إثر هذه التغييرات. ولم يكن بمقدورها التخلِّي عن حُبها للغة الأردية، ونغماتها الشعرية، ومعانيها المُزدوجة، وإيقاعها المُخدد بالتلافيف.

كلا، لم ترتقِ ريحانة إلى درجة الإجادة لتصير امرأة ثورية حقيقية، لكنها أدركت منذ وقتٍ طويل حقيقةَ أن طفليها سيظلان مِحور حياتها إلى الأبد، وفي المُقابل، سيتلاشى حضورها من حياتهما رويدًا رويدًا. أما في الوقت الحالي، كل ما أرادته هو التمسك بهذه اللحظات لأقصى وقتٍ ممكن، لا سيما وأن أحلامهما الآن صارت -فجأة- تفوق عنان السماء الرَّحب. دلفت ريحانة إلى المطبخ وتساءلت أنَّى لها أن تُطعم هؤلاء الحالمين الجَوعى كلهم.

***

- أحضرنا هَدية من أجلكِ يا أمي.

كانت هذه كلمات سُهيل، بعد أن أكلوا جميعًا طعامهم. كانت ريحانة قد قررت إعداد الكُشري[1]، وجبةً سريعة علاوةً على أنها تُغني عن طهي حساء

(1) يُقصد بالكشري هنا: أرز العدس الأصفر. (المترجمة)

العدس مُنفصلًا. ثم أعدَّت عجة البيض مضافًا إليها الفلفل الحار والبصل المقلي. وفي غضون ثوانٍ، التهم الجمعُ كل الأطباق أمامهم.

أجابت ريحانة: ما هي؟

جذب سُهيل حقيبة كبيرة من أسفل كرسيه، وفضَّ العُلبة، ممسكًا بقطعةٍ طويلة من القماش مستطيلة الشكل. كانت باللون الأخضر الطيني الداكن، تتوسطها دائرة مخيطة من قماشٍ أحمر، متباينة الأقطار، وبداخل هذه الدائرة خريطة مقصوصة لشرق باكستان.

قال سُهيل: هذا هو علم بلادنا يا أمي.

وفتح ذارعيه ليُريها العلم بكامل طوله، فأمسك عارف بأحد الجانبين، وبسطوا العلم على امتداد الغرفة. صفَّق القليل من الحضور، وصاح آخر: النصر للبنغال!

قالت ريحانة في قرارة نفسها «عَلم بلا أرض». لكنها لم تنطق بشيء. هتفت مايا، وأسدلت العلم حول كتفيها وركضت لتبحث عن عصا من البامبو، ليثبِّتوا العَلم على سطح المنزل.

***

كانت الأيام التي تلت مباراة الكريكت زاخرة بالإضرابات والمَواكب السلمية، وتمرَّد المتظاهرون على حظر التجوال، وترددت الشعارات من مُكبرات الصوت المدوِّية. وقضى سُهيل ومايا معظم أيامهما في الجامعة، يعودان إلى المنزل في وقتٍ متأخر كل ليلة، ويتحدثان بحماس حول التغيُّرات التي تطرق الأبواب. لكن دانموندي كانت مدينة هادئة، وسارت بها الأمور كما هو دأبها. وأحيانًا ما كانت السيدة تشودهاري تأتي إلى أعتاب منزل ريحانة مُحملة بأطنانٍ من سلال بُنية صغيرة تحوي أحدث مشترياتها لأجل زفاف سيلفي. وراحت تشتري الساري بعد الآخر، ثم البلوزات والتنانير الداخلية كيفما اتفق، وقصاصات الشرائط التي ستخيطها حول أكمام البلوزات، ودبابيس شعرٍ تُناغم أزياءها. وفي أحد الأيام، حضرت السيدة تشودهاري وبحوزتها حقيبة يدٍ واحدة، وفي هذا اليوم أدركت ريحانة أنها ذهبت إلى صائغ الجواهر. أخرجت السيدة علبتين من اللون الأحمر مُغطاتين بالمخمل وحين فتحتهما

أحدثا صوت قرقعة بسيطًا، وكان على ريحانة أن تنطق بعبارات الدهشة والانبهار عند رؤيتها للقلادة وزوجَي الأقراط التي تلمع من الداخل.

رُغم معارضتها الأولية، وجدت ريحانة نفسها في الميدان يوم السابع من مارس. كانت قد وصلت مبكرًا عن موعدها، لكن الميدان ممتلئٌ عن آخره؛ بدا المشهد وكأن البلاد بأكملها قد انقلبت: تختفي الأرض أسفل بحارٍ من البشر، وكل ما أمكن ريحانة رؤيته لأميالٍ بعيدة هو بحرٌ شاسع من الرؤوس السوداء اللامعة، يزدهر بريقها أسفل ضوء الشمس مثل أفقٍ مظلم مُضطرب الموجات.

رأت الشيخ مُجيب من بعيد على شكل هيكلٍ أبيض متناهٍ في الصغر. طوال السنوات التي مرَّت عليه منذ أن أصبح قائدًا للحركة، صار معطفه الأسود القصير، وصوته مِزماري النبرة وإصبعه التي يُشير بها دومًا إلى السماء، صار كل هذا مشهدًا مألوفًا، لكن رؤية هذا المشهد حقيقةً تحمِل متعة أخرى. وإذ راح يشق طريقه نحو المنصة الخشبية، قفزت الحشود بهجةً، ورأته ريحانة يُلوِّح بذراعه لتهدئة الناس وطمأنتهم. **أعني أُناسه.** إنهم ينتمون إليه الآن؛ صاروا مسؤوليته، أطفاله. كانوا ينادونه بالأب. لقد أحبوه مثلما يحلم الأيتام بآبائهم المفقودين: دون وعود، لا شيء سوى الأمل. نظَّف الشيخ مُجيب حلقه وشرع في الحديث. كادت ريحانة أن لا تسمع شيئًا من خُطبته وسط صياحات الحشود وصفيرهم وهتافهم؛ وبَيد أن شمس ما بعد الظهيرة التي راحت تلفح غيمة الأعلام المزينة لأرضية الميدان، قد جعلت كلماته تنصهر في حرارة الطقس. ولم يسعها سوى سماعه يقول: اجعلوا من كل منزلٍ حصنًا حصينًا.

بدا المشهد أمام ريحانة مثل صورةٍ لامعة بالأبيض والأسود؛ فهناك بذلة الكورتا البيضاء التي يرتديها مُجيب ومِعطفه الأسود القصير، واللون الأسود لإطار نظاراته الطبية السميك –كانت تدرك هذه المعلومة رُغم عجزها عن رؤيتها حقيقةً في هذا المشهد– واللون الأبيض للخَيمة التي نُصِبت لتغطية المنصة. في النهاية وجدت ريحانة نفسها تهتف **النصر للبنغال، النصر للبنغال، النصر للبنغال** مع الحُشود، وإيقاع كلماتها يتناغم مع الدَّقات القوية لقلبها الذي ينتفض في صدرها، وأدركت ريحانة في الحال الانتفاضة المُلهبة للهُتاف. تطلعت مايا إلى أمها، وبرق وجهها بابتسامةٍ عريضة

مُشجعة. شعرت ريحانة بشبابها يتجدد فجأة، كما لو أنها انغمست في عالمٍ من احتمالاتٍ لا محدودة.

في سن الثامنة والثلاثين، تدارك جسد ريحانة تاريخَه المرضي. وقد اعتاد الأشخاص الذين لم يعرفوها فيما مضى أن يفترضوا أنها ما تزال طالبة، أو أنها ليست متزوجة بعد، لأنها لا ترتدي خاتم زواج، أو حتى قطعة وحيدة من الجواهر، غير أن هذه الفرضيات صارت من الماضي. اكتسبت ريحانة القليل من الوزن، ونعِمت بثِقل أطرافها من حينٍ لآخر، وانبعاجٍ خارجي قاسٍ لبطنها، والقليل من الحركة، والوعي بعمل رئتيها وعظامها. لكن الهيئة الجديدة التي شعرت معها بالارتياح حملت في طياتها عيوبًا جديدة: الخط المُحدَّب بين أنفها وذقنها، والظل الطفيف الذي علا شفتيها، وسماكة خصرها وكاحليها. ظلت جميعها تطورات ميمونة في نظر ريحانة، وهذا لأنها ترمز إلى جسد امرأةٍ أعيتها المعارك ومرَّت عليها السنون وهي تبذل قصارى جهودها لتربية طفليها.

انحنت مايا إلى الأمام وأمسكت بيد والدتها -لا تقصد تربيتَ طُمأنينة كما هو دأبها- ولكنها شدَّت على يدها في تكافُل، فباغت ريحانة شعورٌ مطمئِن أن كل الأمور ستحل نفسها بنفسها: سيُنصَّب الشيخ مُجيب رئيسًا للوزراء، وستظل هذه البلاد موطنها، وسيظل الطفلان كما هما دومًا طفليها الصغيرين. وفي لمح البصر، سيقع كل شيءٍ في العالم في نصابه الصحيح، وسيواصلون جميعًا عيش حيواتٍ عادية اعتيادية.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

25 مارس 1971

عملية المناورة[1]

(1) عملية المناورة: هي عملية عسكرية خطط لها الجيش الباكستاني للحد من حركة عموم إفريقيا في باكستان الشرقية (سابقًا) بنجلاديش حاليًّا في مارس 1971 وبررت من قبل الدولة الباكستانية على أساس العنف ضد البيهاري من قبل البنغاليين. (المترجمة)

ألقوا باللوم على صممٍ عام أصاب الجميع. فما من مبرر آخر يسعهم من خلاله تفسير وجود الطائرات الحربية التي هبطت في المطار، أقال الجنود إنهم ينقذون العالم؟ كيف لهم أن يُفسروا جهلهم بالأمر وعدم سماعهم به؟ ولاحقًا سيقولون إنه كان يجدر بهم أن يسمعوا الطيور تقفز من فوق الأشجار وتُحلِّق نحو الشرق، وصراصير الليل تفرُّ من جحورها، وتنكمش الوطاويط على نفسها، والسحالي الخضراء بلون الحشائش تختبئ بين الشقوق، أسفل القباقيب المنزلية.

لكنهم لم يقولوا شيئًا، وإليكم كيف حدث الأمر:

دعت السيدة تشودهاري الجميع إلى العشاء يوم الخامس والعشرين من مارس، على شرف الملازم صابر. وظلت شائعات غريبة تتردد طوال اليوم في جميع أنحاء المدينة. كان مُجيب يُجري المباحثات حول أمر الانتخابات، ولم يقل أحدٌ ما إذا كانت هذه المُباحثات قد تمخضت عن شيءٍ أم لا؛ وفي نطاق شارع «ميربور روود»، عند مجمع «بنغال رايفلز كومبوند»، المكان الذي دومًا ما يسمونه «بيلكانا»، وقعت المُضاربات والتكهنات حول هجومٍ عسكري؛ وأتى بعض الطلاب بحجارة وكراسي مُحطمة من السكن الطلابي، في محاولة منهم لبناء متراسٍ مؤقت للحماية.

كانت ليلة سيئة لا تناسب إقامة حفل، لكن السيدة تشودهاري أصرَّت على الدعوة. وقالت إن خطبة الزوجين لم تُعلن رسميًّا بعد، ولا يمكننا فعل هذا في

ظل هذه العوائق كلها؛ لن نتوسع في الزينة، بل مُجرد احتفالٍ صغير، وربما تقديم خاتم خطبة لسيلفي. أعدَّت شاةً مشوية بأكملها، ووضعتها على الطاولة وحبات الطماطم تسدُّ ما بين فكيها. تراءى لريحانة عجزها عن الرفض؛ لا سيما وأن سُهيل نفسه وافق على المجيء أيضًا، وجال بخاطر ريحانة أن مجيئه قد يكون اختبارًا لنفسه. لكنه تحاشى النظر إلى سيلفي وصابر، وظل بصره مثبتًا على الشاة المشوية. أما مزاج مايا فكان قاتمًا للغاية؛ وهذا لأنها أُجبرت على ترك شارمين في مبنى رقية هول، حيث تُقذف قصاصات الورق من النوافذ وجماعة «باول» من المُنشدين الصوفيين يُغنون أسفل بيت الدرج. تذمرت كثيرًا بشأن الهدوء الذي يُخيم على الضاحية، كما لو أنه ما مِن أحدٍ في دانموندي يعرف أو يهتم بأنهم على مَشارف ثورة. أرادت أن تخرج إلى الشوارع، تُوزع المنشورات وتُغني «سنغلب».

اجتمع الجيران حول الطاولة. كانت سيلفي قد ارتدت سروالًا وقميصًا هنديًّا، وارتدى المُلازم صابر زيه العسكري كدأبه. هدَّأ السيد والسيدة سينجوبتا ابنهما ميثون وأخلداه للنوم في غرفة نوم سيلفي، وصرفا انتباههما إلى الروائح الذكية التي تنبعث من المطبخ.

جرى الحفل كما هو مُتوقع. لكن لم يسمع أحدٌ أي صوت، ولا حتى صوت أشجار الجوافة تُسقط ثمارها، كما هو دأبها في شهر مارس من كل عام.

قالت السيدة تشودهاري:

- حسنًا، إذن، دعونا نشرب نخب سيلفي وصابر، ابنتي الحبيبة، وصهري المُرتقب. بارك الله لهما.

رفعوا كؤوسهم المملوءة بمشروب الحليب المُنعش وشربوا نخب العروسين. جلست ريحانة إلى جانب سُهيل، وحاولت أن تقبض على مِعصمه وتشد عليه، لكنَّ يديه كانتا على الطاولة، وراح يقول: هذا نخب بلادنا. عسى أن تخرج من هذه المحنة وتعود قوية رابطة الجأش.

استرخى السيد سينجوبتا بظهره إلى الخلف وربَّت على بطنه، وهو يقول: اسمعوا، اسمعوا.

نهضت مايا وهي تتجرع كأسها في عُجالة، وتقول: وهذا نخب العمالة الكادحة! ونخب الثورة!

قالت السيدة تشودهاري: حسنًا، حسنًا، والآن دعونا نأكل طعامنا.

بينما انهمكت السيدة تشودهاري في غرز سكينها في ظهر الشاة المتغضن المصقول، زحف موكبٌ متباطئ من سيارات الدفع الرباعي والدبابات عبر المدينة؛ تسللت خارج المعسكر، وعبرت مسارات السكة الحديدية إلى بوناني، حيث ينقسم المَوكب إلى موكبين صغيرين، ويتجه أحدهما عبر طريق «إليفنت روود»، عابرين بطريق «القائد الأعظم»، ومنه إلى مجمع الجامعة. أما الموكب الثاني، فيتخذ طريقه متجهًا إلى بيلكانا، وراحت سيارات دفع رباعي خضراء اللون تحمل رجالًا يتشحون باللون الأخضر ذاته ويُلوِّحون بالعلم الباكستاني الأخضر، هلالٌ منجليٌّ يُرفرف باتساعٍ سخي مُموَّج.

ودون وعيٍ، راحوا يلتهمون الشاة المشوية، لاعقين شفاههم وهم يُمصمِصون عظامها. لاحقًا، سيلقون التعليقات على فظاظة نَهمهم. وبعد العشاء، أصدرت السيدة تشودهاري تعليماتها إلى سيلفي وصابر بأن يجلسا جنبًا إلى جنب على الأريكة الصغيرة ذات المقعدين. ثم أعطت ابنتها إكليلًا من زهور الياسمين وأمرتها أن تضعه حول رقبة صابر، فأحنى صابر رأسه، وعانقت سيلفي رقبته بإكليل الياسمين. صفَّق الجميع، عدا مايا، التي كانت تتطلع إلى السقف وتُغني هامسة في نفسها، النشيد الوطني للبنغال ... «**بنجلاديش الذهبية، كم أعشقكِ**».

في الساعة العاشرة، أطلقت الدبابات نيرانها.

كان الصوتُ أشبه بصوت آلافٍ من الألعاب النارية التي تُضرم في رأس السنة، أشبه بصوت أنابيب معدنية تُسحب على طريقٍ حجري، أشبه بصوت حبات الفلفل الحار وهي تُفرقع داخل إناءٍ يتصاعد منه الدخان.

صرخت السيدة تشودهاري: يا الله! ماذا يحدث؟

قال صابر: ليبقى الجميع في أماكنهم.

علَّقت السيدة سينجوبتا: أريد العودة إلى المنزل. دعنا نأخذ ميثون ونذهب.

أخذت ابنها بين ذارعيها وشقت طريقها نحو الباب، فسمعت مايا تقول:

- أمي، إن الصوت قادمٌ من الطريق 2.

دوى انفجار صاخب أشبه بصوت الرعد، فقالت السيدة تشودهاري: يا الله! يا الله! هذه هي النهاية، لقد انتهينا جميعًا.

ثم عجزوا جميعًا عن سماع بعضهم فوق صوت طلقات المدافع. استيقظ ميثون وأجهش بالبكاء. احتضنته أمه وضمَّته إلى صدرها، وراحت تهمس بشفتيها إلى جبهته. وفي الخارج، ما انفك روميو وجوليت ينبحان نباحًا قويًّا على أصوات القصف.

قال صابر: فليُحافظ الجميع على هدوئهم. اهدئوا وابقوا في أماكنكم. سنصعد أنا وسُهيل إلى السطح لنرى ما يحدث.

قالت السيدة سينجوبتا: أريد الذهاب إلى منزلي.

رأت ريحانة كُرسيَّ صابر يسقط أرضًا حين ركض صاحبه إلى بيت السلم؛ دقَّ كعبُ حذائه، وقرقع قبقاب سُهيل، وهما يشقان طريقهما إلى السطح. قالت السيدة تشودهاري: لا تصعدا إلى الأعلى!

لكنهما رحلا قبل أن تُتم حديثها.

برقت أشعةٌ من الضوء عبر النوافذ وأضاءت الغرفة. فظهرت شاة السيدة تشودهاري المشوية جثةً نصف مأكولة، عارية الأضلع، مسلوخة الساقين. نُسِفت قطع الطماطم، لكن فاه الشاة ما يزال منفرجًا. بدت السيدة تشودهاري كما لو أنها على وشك الاختباء أسفل طاولة العشاء، لكنها غاصت عميقًا في كُرسيها بدلًا عن ذلك، وصكَّت صدرها، وهي تقول: يا الله! يا الله! يا الله!

ظل الجمع الصغير يردد متسائلًا: ماذا يحدث، ماذا يحدث؟

كان القصف في بيلكا قريبًا لدرجة أحدثت اضطرابًا في صدر ريحانة؛ فقد سمعت صيحات، تبعتها صافرة إنذارٍ تتردد مثل صوت عويلٍ دوريٍّ زاحف. أضاءت شراراتٌ نارية الأفق من بعيد؛ وتردد عبر الهواء صدى صوتٍ عميق مثل صوت رعدٍ يأتي من مكانٍ قاصٍ؛ ثم تصاعد الدخان، وخفَت الضجيج، كما لو أن القصف قد انتهى. لكنه لم ينتهِ. فبعد ثوانٍ، بدأ كل شيءٍ من جديد. أرادت ريحانة أن تحتضن طفليها، أرادت أن تضع يدها على آذانهما، لكن مايا التصقت بالنافذة، وسُهيل ذهب إلى السطح برفقة صابر. وكان بإمكانها أن تسمع وقع خطواتهما يتردد خافتًا من أعلى.

رفعت مايا سماعة الهاتف، ثم أعلنت: الخط منقطع.

ثم استدارت إلى محول الطاقة (الترانزستور)، فلم تجد سوى أزيز تيار ثابت ضعيف.

أما سُهيل وصابر، فراحا يراقبان، من على سطح منزل السيدة تشودهاري، نيران المدينة المشتعلة. وباغتهما سماعُ كل شيء: سفك دماء الأطفال، حركة السُّحب البطيئة، موت النساء، تنهيدة الطيور المُحلِّقة، سيل الدماء على الأرصفة.

تحدث سُهيل أولًا، فقال: سننتظر حتى يُرفع حظر التجوال.

تطلع صابر إلى زيه العسكري، كان اللون الأخضر داكنًا، حتى بدا مخفيًّا تقريبًا، لكن الهلال ونجمته الخماسية يلمعان ببياضهما فوق صدره، وفي السماء القرمزية، وعلى امتداد الأفق الوامض. ثم قال أخيرًا: أنا ضابطٌ في الجيش الباكستاني.

- وماذا ستفعل؟

- لستُ موقنًا.

تغضنت الندبة فوق شفته حين زمَّ بشفتيه. فقال سُهيل: عقاب الفرار هو الموت.

- لا آبه لذلك، لأنني لم أظن يومًا أن الأمور ستصل إلى هذا الحد.

في تلك اللحظة، لم يُعنِّف سُهيل صابر لقلة وعيه بالأمور.

عاد الشابان إلى الحفل؛ كانت السيدة تشودهاري ما تزال مضطجعة على كُرسي العشاء، والسيدة سينجوبتا تجلس إلى جانب فراش ميثون وهي تضع يدها على صدره. وأخذت مايا المِذياع إلى المطبخ لترى ما إذا أمكنها التقاط أي إشارة. ورافقتها ريحانة وراحت تضع قطع الثلج في كأسٍ لأجل سيلفي، التي توترت أعصابها وجفَّ حلقها.

لم يكن أمامهم ما يفعلونه سوى الانتظار. افترشت مايا الأرض بلجَاجة وتشبُّثٍ أمام المذياع؛ وتجول صابر في غرفة الاستقبال، يزيح الستائر جانبًا، ويفتح النوافذ ويُغلقها. وجثمت سيلفي على الأريكة، يهتز جزؤها العلوي ذهابًا وإيابًا وهي تستند إلى يديها. وأشعل السيد سينجوبتا سيجارًا بُنيًّا رفيعًا.

لاحقًا، نهضت السيدة تشودهاري من مقعدها كما لو أنها قد تلقت وحيًا. ثم قالت لصابر: ستقع المشكلات، الكثير من المشكلات.

أدركت ريحانة من نبرة صوت السيدة أنها على وشك الإدلاء بتصريحٍ ما.

تابعت المرأة: وأنتَ تعلم هذا. وأريد منكَ أن تحرص على أن لا شيء يحدث لابنتي.

أجابها صابر: ستكون ابنتكِ في مأمن.

- كيف لك أن توقن من هذا؟

أجاب صابر: بالطبع أنا موقن مما أقول.

ثم التفت إلى سيلفي، التي أطرقت في الأرض دون أن تحر جوابًا.

- ولكن ماذا لو حدث شيءٌ لك؟ ماذا لو جاء أحدٌ لأذيتها؟

- مَن تقصدين؟

- مَن يدري؟ الناس! الجيش!

انهارت السيدة تشودهاري في مقعدها مُجددًا بعدما أنهت جملتها. فأجابها صابر مطمئنًا: أمي، لن يحدث لسيلفي شيء.

- ثمة طريقة واحدة للتأكد من هذا. يجب أن تتزوجها الليلة.

- **زواج؟**

أوضحت السيدة تشودهاري بصوتٍ تغمره الرجفة رويدًا رويدًا: أنتَ لا تفهم، إنك مُجرد طفل، لكنني شهدتُ أمورًا كهذه من قبل. والحل الأسلم هو أن تحرص على أن تظل جميع الفتيات غير المتزوجات في مأمن. أتظن أن هذه البوابة ستمنع دخول المُجرمين؟

رأتها ريحانة وهي تهمس بشيءٍ للملازم، وتشير إلى سيلفي، كان رأسها متدليًا فرفعته، ورفعت إصبعها، ثم كفكفت عينيها بمَحرمتها. أومأ الملازم إلى السيدة تشودهاري في حيرة، وهو يُربِّت على كتفها.

حين حلَّ منتصف الليل، تباطأت وتيرة القصف إلى انفجارات قليلة متفرقة في الأفق. قادت السيدة تشودهاري سُهيل وريحانة إلى المطبخ، وقالت: سُهيل أنا بحاجتك. لا بُد أن تتزوج سيلفي على الفور. وعليك أن تشهد على العقد. يجب أن يحضر شاهدان على عقد الزواج. ولهذا فسيكون السيد سينجوبتا هو الشاهد الآخر. أعلم أن الأمر ليس صحيحًا تمامًا، ولكن علينا أن نتدبر أمورنا.

قالت ريحانة: سيدة تشودهاري، أهذا وقتٌ مناسب حقًّا؟

كان رأسها يدور تأثرًا بعبثية الموقف التي بصدده.

استطردت السيدة تشودهاري: بالطبع هذا هو الوقت المناسب. هل من وقتٍ آخر مناسبٌ لهذا؟ لن يكون أمامنا أي وقتٍ آخر فيما بعد. لم يتبقَ لنا وقت! ماذا لو لم يعد الملازم لأشهرٍ طويلة؟ ماذا لو مات؟ (صمتت قليلًا) ما رأيكِ أن تختاري لنا بعض الآيات يا ريحانة؟ وتتلينها علينا أيضًا.

بمجرد أن غادرت السيدة تشودهاري لتغير ملابس سيلفي بسارٍ آخر نظيف، غمغمت مايا: يا له من أمرٍ سخيف، سيظن المرء أن سيلفي تحظى ببعض المنطق عن أمها.

مدت ريحانة يدها إلى الرف الذي علمت أن سيلفي تحتفظ فيه بمصحفها الكريم، وقالت: ساعدني في الإتيان بهذا المصحف يا سُهيل.

قال سُهيل: لم أعد أحبها.

كما لو أن ريحانة قد طرحت عليه السؤال، ثم أكمل: انتهى حبها من قلبي في اللحظة التي سمعت فيها بأمر الجندي.

أبقت ريحانة على صمتها، لكن مايا تطلعت إليهما بنظراتٍ حادة، وعبارات الاعتراض تقف على طرف لسانها. فصرَّح سُهيل كما لو أن المرأتين اللتين يتحدث إليهما معارف جُدد: أنا لا أومن بالعنف. ولا يسعني أن أدعم أي صورة من صور العنف. وعلى أي حال، هذا هو خيارها. لا بُد وأن يُسمح للنساء بأن يخترن عن أنفسهن.

قالت مايا: لا تكن أحمق، أنتَ تعلم أنها واقعةٌ تحت ضغطٍ فحسب. يا لها من فتاةٍ ضعيفة حقًّا.

أردف سُهيل: اصمتي.

قلَّبت مايا عينيها والتفتت إلى المذياع وهي تقول: اذهبا أنتما. أنا لا علاقة لي بهذه التمثيلية.

فتحت ريحانة المُصحف.

ومرة أخرى، جلس كل من سيلفي وصابر على الأريكة الصغيرة ذات المقعدين. ومرة أخرى، أطرقت سيلفي ناظرةً إلى حجرها. كان بوسع ريحانة أن ترى شفتيها المرتعشتين، وأرادت أن تركض إلى الفتاة وتسألها ما إذا كانت واثقة مما تفعله، ما إذا كانت موقنةً من رغبتها في الزواج من الملازم. ولكن بينما كانت على وشك عبور الغرفة، وفي واحدة من تجليات سيلفي

ومقاطعاتها النادرة لهدوئها، ارتسم على شفتي سيلفي ابتسامة عريضة بارزة الأسنان. أدركت ريحانة أن هذه الابتسامة كانت موجهة إلى والدتها، لكنها أعملت الصمت في كل الشكوك التي راحت تدور في جميع أنحاء الغرفة.

قالت سيلفي بصوتٍ بدا أعلى مما تحتاج إليه: سُهيل، ما رأيك أن تلتقط لنا صورة؟

سألها سُهيل: أتمتلكين كاميرا؟

أجابت سيلفي: ما زالت لديَّ كاميرتك.

وفتحت درجًا إلى جانب الأريكة، وتابعت: لقد سمحت لي باستعارتها، أتذكر، لأنني أردتُ التقاط صورةٍ لروميو وجوليت؟

وناولته أغلى ممتلكاته، كاميرا ياشيكا إلكترو 35، كانت ريحانة قد ابتاعتها من أجله في عيد مولده الثامن عشر.

أجاب سُهيل: أجل بالطبع.

وأخرج كاميرا ياشيكا من حقيبتها وأخفى وجهه خلف العدسات. تساءلت ريحانة عما رآه خلف هذه العدسة؛ هل رأى الندم على شفتيها، في إيماءة يديها وحركتهما، في بريق وجنتيها، وتسارع أنفاسها المُنهكة؟ وماذا عن سيلفي؟ هل ستفتقد فترات الصمت الطويلة بينهما، ورسائل الحُب التي يتبادلانها عبر قصاصات الورق المُلقاة من النوافذ؟

وجَّه سُهيل الكاميرا إلى الزوجين الجالسين على الأريكة.

- ابتسِما!

ثم التقط الصورة.

وإذ أوشكت ريحانة على فتح المُصحف، انطفأت الأضواء. وكان عليها أن تتلو آيات الزواج من حِفظها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1]

تبادل سيلفي وصابر خواتم الزفاف، ثم قالت السيدة تشودهاري: دعنا نستمع إلى إحدى قصائدك يا سُهيل!

- كلا يا خالة موني، لا أستطيع حقًا.

---

(1) سورة الروم، الآية 21.

فقالت السيدة تشودهاري: بربك، ولا حتى من أجل صديقٍ قديم؟

قالت ريحانة: ربما تكون الموسيقى فكرةً أفضل.

حاولت ريحانة أن تُنقذ ابنها، فتابعت: لِمَ لا تطلبين من مايا أن تُغني لنا قصيدة غزل؟

لكن، ظلت مايا موليةً ظهرها إليهم وتظاهرت أنها لم تسمع ما قيل. ومن أسفل حجابها، هزت سيلفي كتفيها بقوة. فحاولت السيدة سينجوبتا تهدئتها، وقالت: لا تخافي يا حبيبتي.

لم تبدُ سيلفي أكثر حزنًا أو أقل من أي عروسٍ أخرى.

وعلى الجانب الآخر، ألحَّت السيدة تشودهاري قائلة: إننا جميعًا عائلة واحدة الآن. لا بُد أن نستمع إلى قصيدة.

وهكذا استقبل سُهيل الزوجين على الأريكة الصغيرة، وأغلق عينيه، وراح يقول شِعرًا:

عندما تأمرني بالغناء يبدو قلبي وكأنه سينفطر بالكبرياء..

وأنظر إلى وجهك لتنهمر من عيني الدموع.

كل ما هو خشنٌ ومنفر في حياتي يذوب في لحنٍ عذب..

وعشقي يفرد جناحيه مثل طير سعيد في تحليقه عبر البحار.

أعلم أنك تستعذب غنائي. أعلم أنني ومن خلال كوني مُنشدًا..

أقف أمام حضورك. ألامس حافة البعيد بجناح أغنيتي المرفرف الأقدام..

التي لا أستطيع أن أصبو إلى لمسها.

منتشيًا بفورة الغناء أنسى قدري وأدعوك
بالصديق أنتَ الذي هو سيدي.[1]

وهذا كل ما في الأمر. ظل الحشدُ الصغير عالقًا في غرفة استقبال السيدة تشودهاري، يستمعون إلى دوي المدافع الرشاشة. ومضت الليلة كالحُلم، لا يتخللها حركة ولا كلمة متبادلة بينهم.

***

مع بزوغ الفجر، هدأت طلقات الرصاص. كانت الشمس بأشعتها الذهبية تشق طريقها ببطءٍ في الشرق، تسبقها خيوطٌ ضبابية من اللونين الوردي والبرتقالي. وافترشت ذرات الغبار أماكنها على الأشجار وأسطح المنازل. اتخذ الحشدُ الصغير قرارهم بالعودة كلٌّ إلى منزله. وكانت السيدة تشودهاري نائمة على كُرسيها، تستند بيدها إلى ذقنها. أزاحوا الباب الأمامي لينفتح لهم، فوجدوا جوليت تحوم حول روميو المُستلقي أرضًا. أحنت جوليت رأسها، وراحت تمسح بأذنيها على وجهه وهي تدور حوله في دوائر. أصدرت أنينًا خافتًا؛ وكانت خياشيمها رطبة ومُحتقنة، لكن روميو لم يُحرك ساكنًا. وضع سُهيل يده على بطن الكلب، وقال: إنه ميت، لا بُد وأنه أصيب بنوبة قلبية.

في المنزل، نصحت ريحانة طفليها بأن يحاولا الخلود إلى النوم، لكن أحدًا لم يتحرك من غرفة الاستقبال. وعند الظهيرة، توقفت شاحنة أمام الكوخ الصغير، يهدر محركها في الأرجاء. حين تسقط إبرةٌ في شارع هادئ، يتعاظم الصوت مهما كان. ودبَّت الحياة في مكبر الصوت.

- أيها البنغال، أنزلوا أعلامكم. أنزلوا أعلامكم. أنزلوا أعلامكم. إن حمل الأعلام لجُرم. ستواجهون عقوبة الاعتقال. أنزلوا أعلامكم.

كان الصوتُ رفيعًا وأخنف. وكما لو أنها إضافة جاءت بعد تفكير، أضاف الصوت: أنزلوا أعلامكم أيها الخونة النذلاء.

---

(1) هذه الأبيات من القصيدة رقم 2 من ديوان شعر نظَّمه الشاعر البنغالي (طاجور)، الذي حاز جائزةَ نوبل في الآداب عام 1913، بعنوان: «قرابين الغناء» ترجمة: ظبية خميس، عن المركز القومي للترجمة. تُرجم الديوان إلى الإنجليزية من جانب الشاعر نفسه. (المترجمة)

- مايا، العَلم!

ركضت مايا إلى السطح عارية القدمين، وبعد بضع دقائق، كانت مستلقية على الأرض والعلم يُحيط بكتفيها. ثم رفعت إصبعها نحو السقف، وشرعت تحصد أعداد الذباب. كان بإمكانهم سماع نباح جوليت المُهتاج من ممر السيارة أمام منزل السيدة تشودهاري.

جلسوا جميعًا في أماكنهم، في انتظار حدوث شيءٍ ما. راح سُهيل يجوب الشرفة والحديقة والسطح. وغطت مايا في النوم فوق العَلم. أما ريحانة فراحت تفحص الثلاجة، وحاولت معرفة إلى متى سيكفيهم هذا الطعام. أحصت أعداد الدجاج، وقدَّرت كمية الأرز. حدَّثت نفسها قائلة: هذا يكفي لثلاثة أيام. يمكنني أن أجعل الطعام يكفي لثلاثة أيام. عادت إلى المطبخ، وشرعت تُقدِّر الكمية مُجددًا. كوَّمت حبات البصل واليقطين والكوسا؛ هذه خمسة أيام.

عادت الشاحنة مرة أخرى، وتردد صوتٌ يقول: سيُرفع حظر التجوال غدًا في الثانية مساءً بعد الظهيرة لأربع ساعات. وسيبدأ حظر التجوال عند السادسة مساءً. عودوا إلى منازلكم عند السادسة مساءً. سيُطلق الضباط النيران على الفور. أُكرر، على الفور. سيُرفع حظر التجوال من الساعة الثانية مساءً إلى السادسة مساءً.

ظلت جوليت تعوي على صوت الشاحنة وهي تتراجع في طريق 5.

بمجرد أن رُفع حظر التجوال، غادر سُهيل ومايا إلى الجامعة. وتطلعت ريحانة من النافذة حين رأت المُلازم صابر يخرج من البوابة برفقة سيلفي ويُلقي بوداعٍ قصير. ظلت ريحانة في الكوخ الصغير، وتساءلت عن الساعات التي مرت عليها منذ آخر مرة نامت فيها، وما إذا كان يجدر بها أن تكون مرهقة، حين اندفع أحدهم عبر الباب؛ وكانت هذه السيدة سينجوبتا.

- عجزنا عن صرفهم.

- مَن تقصدين؟

- ألم تري ما حدث؟ اذهبي إلى الشرفة.

حدَّقت ريحانة من فوق الجدار المُطل على الحديقة الملحقة بالمنزل شونا. كان ثمة شيءٌ يتحرك، يحف بالحشائش. فسألت: ما هذا؟

- إنهم أُناس، لاجئين يا ريحانة.
- كم عددهم؟
- عشرون، ثلاثون، لا أدري. كل ما أعرفه أنهم بدأوا بالقدوم إلى هنا. هل يمكنهم البقاء؟

قالت ريحانة: أجل، بالطبع. بالطبع يمكنهم البقاء.

- لا أعلم أي واحدٍ منهم. ولكننا الهندوس الوحيدون في الشارع.
- هل من بينهم أطفال؟
- القليل. أغلبهم عائلات، والقليل من المُشرَّدين. أجدهم لا يقولون الكثير عن أنفسهم.

قالت ريحانة: سأذهب لإحضار بعض الطعام.

أخرجت ريحانة دجاجاتها المُجمدة من الثلاجة. غمست اثنتين منها في مرق من الكاري الحار والطماطم، والثالثة غمستها في مرق الكورما المصنوع من الخضراوات والزبادي لأجل الأطفال. ولما نفد الزبادي؛ استبدلت به الحليب. وصنعت ملفوف الكُرنب وفطيرة البطاطس الحارة، وأعدت طبقًا من البامية المقلية مع البصل، وأعدت أخيرًا حساء السبانخ واليقطين. انتابها القلق هنيهةً بشأن إتيانها على الطعام بأكمله، لكنها سرعان ما نفضت هذه الأفكار عن رأسها. مَن يدري ما حدث لهؤلاء الناس، وما الذي قادهم إلى هنا؟

حين انتهت ريحانة، أخذت صواني الطعام إلى المنزل «شونا» شاقةً طريقها عبر الأغطية المتناثرة. رأت أطفالًا، كما توقعت تمامًا، ونساءً، وعجائز من الرجال تُوغل التجاعيد في وجوههم، وهم يتطلعون إليها ويحاولون الابتسام إليها في امتنان. لكنهم لم يتحدثوا بشيء، ولا حتى لبعضهم بعضًا. بل جلسوا في صمت، يغربلون محتويات صِرارهم، ويُحصون مجموع ما استطاعوا إنقاذه.

لمَّا تطلعت إليهم ريحانة، تملكتها رغبة مفاجئة في معرفة المزيد عنهم. وشعرت ببادرة استيعابها لعواقب ما حدث الليلة الماضية، والتفجيرات، والحالة الهستيرية التي وقعت فيها السيدة تشودهاري. أرادت أن تعرف كيف قضى هؤلاء الناس ليلتهم الماضية، وكيف قادهم القدر ليكونوا في تلك البقعة الآن. غلبها شعورٌ بالبلبلة والارتباك، وكان عليها أن تتبيَّن كُنهَه، كنه ما حدث

لهؤلاء الناس بعيدًا في بيوتهم، عليها أن تتبيَّن طبيعة الحزن الذي أجبر هؤلاء الناس على الفرار من منازلهم بحثًا عن المأوى أمام عتبة بيتها.

***

قالت ببساطة: الجامعة.

- الأفضل لا يا سيدتي.

كان هذا جواب سائق الريكاشة.

- إلى الجامعة.

كررت كلماتها وهي تصعد فوق العربة المجرورة وتدفع بغطائها إلى الخلف.

هزَّ رأسه وبدأ رحلته، منعطفًا إلى شارع ميربور روود. كان المرور يسيرًا جدًّا في الشارع؛ وراحت السيارات القليلة على الطريق تهدر بمحركات تُغمغم في هدوء. ولم يُطلق أحدٌ نفيره، وحين قطعت الريكاشة طريقها عابرةً إلى نلكيت، سمحوا للريكاشة بالمُضي بإيماءةٍ منهم.

جال بخاطر ريحانة أن كل شيءٍ بدا على حاله تقريبًا. كانت بوابة السوق الجديدة مُغلقة، وضُبِّبت الدكاكين القليلة حول مدخله، واختفى البائعون المتجولون الذين كانوا يبيعون ثمار الكاكايا والبرقوق الإسباني (أمرا). ومع ذلك، لا يزال توقيت ما بعد ظهيرة يوم الجمعة كأدبه، حين تُغلق الدكاكين أبوابها من أجل صلاة الجمعة؛ أو ربما نذيرٌ لقصف آخر. فقد اعتادوا على الكثير من الهجمات العسكرية مؤخرًا.

دعس سائق الريكاشة على عجلة السرعة وهما يمران بالمنعطف قبل الدخول إلى مجمع الجامعة، وهنا بدأ الهواء المحيط يتغير: انخفضت طبقة من الضباب لتقترب من الرصيف، كلا، لم يكن ضبابًا، بل دخانًا، يجوب الشوارع في صمت، ويترك مذاق رمادٍ عَلقميًّا في الفم. يزداد كثافته كلما اقترب سائق الريكاشة بريحانة إلى السكن الجامعي. ثم توقف السائق، وأحلَّ الوشاح عن رأسه ثم ربطه حول وجهه، وأشار إلى ريحانة لتفعل المِثل بساريها؛ فرفعت الساري إلى أنفها، وباليد الأخرى أحكمت قبضتها حول إطار الريكاشة، فقد كان الطريق متعرجًا في هذا المكان. وحين أطرقت ريحانة إلى الأسفل، رأت بقايا المُخلفات منثورة على امتداد الشارع. وظنَّت ريحانة أنها رأت طاقية صلاة ونظارات طبية سليمة. لا بُد وأن أوقع الناس حاجاتهم وهم يركضون

هاربين. أرادت أن تلتقط النظارات الطبية وتسأل أحدًا عنها، لترى ما إذا كان أحدهم يبحث عن نظاراته، لكن عربة الريكاشة كانت قد عبرت إلى جانبها. والآن رأت شريطًا أحمر طويلًا رفيعًا على الطريق؛ فمالت لتلتقطه، لم تكن موقنةً مما تفعله، فقد كان مبتلًا وتلمع عليه قطراتُ الماء.

كلما أوغلا في طريقهما، تزايدت كثافة الحصى والركام؛ وأدركت ريحانة الحشد المتزايد في الشوارع؛ جاهد سائق الريكاشة ليعبر الطريق المُتعرِّج والناس المحتشدون من حولهما. الآن عرقلتهم الحجارة وجذاذات من الطلاء وطبقات من الغبار الذي استقر على الطريق وأحاله إلى لونٍ أبيض تشوبُه مسحة رمادية.

وصلوا أمام مبنى كورزون هول؛ وكان الشريط الأحمر قد علق بالعربة وتبعهم طوال الطريق، حتى سقط في مجرى سائل، كان أحمر اللون هو الآخر، وعلى جانبٍ من هذا السائل الأحمر، رأت ريحانة زوجين من الأيدي، وأصابع متشابكة في وضعية الصلاة أو التوسل، وإلى جانب هاتين اليدين رأت وجهًا. فمٌ منمنم، لا يظهر منه سوى بقعة وردية شاحبة، كما لو كانت بادرة كدمة.

كانت فتاةً صغيرة. غطى شعرُها النصفَ الأعلى من وجهها. ومن أسفل خصلات الشعر المعقودة معًا، أمكن ريحانة أن ترى عينًا مغمضة في ألم.

نأت ريحانة بنفسها بعيدًا؛ ورُغم أنها لم تنظر إلى المشهد سوى لدقيقة واحدة، شعرت وكأنها أطول دقيقة شهدتها، وانتابها شعورٌ دفين أن بإمكانها ملامسة أنفاس الفتاة وهي تُغادر من فتحتي أنفها ومن بين شفتيها المُنمنمتين.

قالت لسائق الريكاشة: تحرك!

ولم ترَ أي شيءٍ بعد هذا. في وقتٍ لاحق، ستقول إنها رأت كل شيء: رأت الجثث تتراكم فوق الأرصفة مثل الكعكات المُتراصة في نافذة عرض، سائقي عربات ريكاشة ميتين وكعوبهم لم تُغادر بدَّالات العربة، وثقوبًا بحجم دبابة في جُدران السكن الطلابي: مبنى رقية هول ومبنى چاجناث هول ومبنى محسن هول. بينما تعبر العربة المجمع، أغلقت ريحانة عينيها، أغمضتهما في ألم حاجبةً نظرها عن رؤية حُطام مدينتها.

***

حينما عاد سُهيل ومايا، ظلا على حالهما صامتين، ووجهيهما مغطين بالرماد. واتضحت أحداث الليلة شيئًا فشيئًا؛ أولًا، أُلقي القبض على مُجيب،

وجرى ترحيله بالطائرة إلى غرب باكستان. وبدأ الجيش هجماته على الجامعة، وفَجَّر السكن الطلابي، والمقصف، ومركز المعلمين، والطلاب. وفي طريقها إلى البلدة القديمة، هَدمت الدبابات الأحياء الفقيرة التي كانت تقع على جانبي سكك حديد فولباريا؛ كان الجيش بحاجةٍ إلى خط السكة الحديدية هذا ليعبر المدينة، وهكذا أوقعوا بمدافعهم الرصاص على الأكواخ التي أُقيمت من الورق المُقوى وألواح الصفيح، وكانت هذه البيوت الواهية تتماسك معًا بالصمغ ومُلصقات الأفلام السينمائية. ثم أوغلوا في الضواحي الهندية مستقلين سيارات جيب، فقد كانت الدبابات كبيرةً للغاية ولا تتسع لها الحارات الضيقة. اعتلوا سيارات الجيب وراحوا يُطلقون النيران عبر النوافذ، وفتحات الأبواب، والقمصان، والأفئدة.

في المساء، سمعت ريحانة والطفلان الإعلان عبر المذياع:

أُعلن أنا، الرائد ضياء الحق[1]، القائد الأعلى المؤقت لجيش تحرير بنجلاديش، بموجب هذا الإعلان، وبالنيابة عن قائدنا الوطني العظيم الشيخ مُجيب الرحمن، أُعلن استقلال دولة بنجلاديش. وأُعلن أيضًا أننا قد شكلنا بالفعل حكومة قانونية مستقلة تحت قيادة الشيخ مُجيب الرحمن. وأُناشد جميع الأمم لاستنفار الرأي العام في بلدانهم المعنية ضد الإبادة الجماعية الوحشية في بنجلاديش.

هكذا كان الأمر: وصلت الحرب إلى أعتاب الديار بحثًا عنهم. وما لم تكن تتوقع حدوثه، فقد وقع بالفعل؛ وعليهم الآن أن يعيشوا في ظُلماته. أحاطت ريحانة نفسها بذراعيها وأحكمت قبضتيها، تحث القوة القديمة لتنهض بداخلها مرة أخرى.

***

---

(1) يُقصد به الضابط محمد ضياء الحق، الرئيس السادس لدولة باكستان بعد إعلان القانون العسكري عام 1977، وظل في حكمه حتى وفاته في حادث طائرة عام 1988. (المترجمة)

أبريل

إذاعة بنجلاديش الحُرة

تكيفت المدينة على حياة الاحتلال؛ تكيفت على الجنود المُدرعين مستقيمي الظهور يحرسون الشوارع، وأزيائهم العسكرية منشاة مشدودة الأنسجة، ووجوههم الشاحبة تُكشِّر عن أنيابها؛ تكيفت على الدبابات تقبع في منتصف الطرق، وتكيفت على نقاط التفتيش حيث يميل الجنود عبر نوافذ السيارات ويصرخون بالأوامر إلى السائقين الذين يرفعون أيديهم إلى أعلى ويهزون رؤوسهم، مُعلنين استسلامهم. تكيفت على الصمت المُطبق؛ لأنه ما من خُطب أو مظاهرات أو مواكب تصدع في الأرجاء، بل مُجرد صمت مُخيف وسكون عجيب، لا يُقاطعه سوى عويل صافرة حظر التجوال مرتين يوميًّا؛ وفيما عدا ذلك، بات كل شيءٍ باهتًا، إلا من حفيف الأشجار وقيظِ أبريل الحارق ليتبين خيط النهار الأبيض من خيط الليل الأسود.

انتشرت شائعاتٌ وحشية في الخفاء؛ وهي أن الجيش يحفر مقبرةً شاسعة لإخفاء الجثث. فقد كان ثمة مخزنٌ في مكانٍ ما على تخوم المدينة، حيث كانوا يُعذبون المساجين. حتى إن الحيوانات في حديقة حيوان ميربور، ومن بينها النمر البنغالي، قد ماتت جميعًا فزعًا ورُعبًا. خلاصة الأمر هي أنه لم يبدُ أن أحدًا موقنًا من شيءٍ تمام اليقين. راحت الصحف تُعلن: «أنقذَ يحيى باكستان!» وصارت دكًّا، التي ظلت مركز الصراع لوقتٍ طويل، مدينة محاصرة مُقفرة، تحفظ أسرارها مخبئة بين طيات أراضيها.

هؤلاء الناس الذين لم يكونوا يومًا من سُكان المدينة محوا آثارهم الباهتة من شوارعها وعادوا إلى قُراهم: الجزارين والخياطين وبائعي الحليب وسائقي الريكاشة، والصبي الذي يرسم فنانات السينما على الظهر القلَّاب لعربات الريكاشة، حتى الأطفال الأصغر سنًّا الذين يصنعون الشاي في الغلايات الصدئة على الأرصفة- غادروا جميعهم في صمت، زاحفين في هدوء إلى خارج المدينة، يحملون صُراهم على أكتافهم، ويجعلون من ظهورهم مهدًا لأطفالهم.

وإذ شهدت ريحانة الجلاء عن المدينة المهجورة، راحت تُحصي النعم التي تغرق فيها.

الطفلان في مأمن.

وكذلك السيدة تشودهاري وسيلفي.

وسيدات لعبة الكونكان. قضت السيدة أكرم ليلتها مغلقةً نوافذها ويداها على أذنيها. لاحقًا سيقول زوجها إنها كانت تُعاني نوبةً هستيرية، وراحت تصرخ بشأن قيام الساعة، ونهاية العالم. كان على عائلتها أن يربطوا عقالها في أعمدة السرير ويُكممون فاها بأيديهم، لكنها لا تذكر أيًّا من هذا. وحين جاءت لزيارة ريحانة، بعد يومين من رفع حظر التجوال، حاولت إخفاء آثار الأحبال على رسغيها، فارتدت أساور واسعة مُرصَّعة بقطعٍ من زجاج المرايا المصقول. الأهم هو أنها على قيد الحياة.

مات الكلبُ روميو، ودفنته السيدة تشودهاري أسفل أطول شجرة من شجرات جوز الهند في حديقتها.

أما السيدة رحمان، فكادت أن تقع في حظٍّ عثِر. كانت قد قبلت دعوةً على العشاء برفقة صديقة قديمة من أيام الدراسة. وكان زوج هذه الصديقة يملك دُكان خياطة في البلدة القديمة، وهكذا اتخذا سكنًا فوق دُكان الخياطة في البناية نفسها، على طريق نوابور. وفي اللحظة الأخيرة، تذرَّعت السيدة رحمان بإصابتها بألم الرأس واعتذرت عن عدم الحضور، هابت الطرق الخانقة المُكدسة التي سيتحتم عليها المرور خلالها، وتذكرت الأثاث الكئيب، وحساء كاري العظم الذي تناولته المرة الأخيرة. انتابها شعورٌ بالذنب حيال صديقتها، لكنها واست نفسها حين اتخذت قرارًا بإرسال هدية إلى صديقتها في اليوم التالي مباشرةً، ربما ساري أو زوجين من الأقراط.

كان طريق نوابور ضِمن مسار الجيش وهو يتخذ طريقه عبر البلدة القديمة إلى الضاحية الهندية، شاكاريبوتي. ربما اتخذ الجيش مُنعطفًا خاطئًا؛ أو ربما أمسكوا بخرائطهم مقلوبة؛ أو ربما استغرق الأمر منهم وقتًا طويلًا جدًّا ليصلوا إلى هناك، وكانوا نافدي الصبر، والدماء تفر من أجسادهم. أطلقوا مدافعهم الآلية يمينًا ويسارًا، حتى وجدت إحدى رصاصاتهم المنزل المعنيَّ على طريق نوابور. فرت صديقة السيدة رحمان بخدٍّ مكشوط يدمِي، أما زوجها الذي جثم أسفل طاولة العشاء يحتمي بها، فلم ينجُ.

طفلا ريحانة في مأمن، وهذا هو أهم شيءٍ. لا يسعها سوى الشعور بالامتنان للسيدة تشودهاري على إقامتها حفل خطبة سيلفي في تلك الليلة تحديدًا، حين كان من المتوقع لهما ببساطة أن يكونوا في أحد مباني الجامعة.

راح سُهيل ومايا يبحثان عن أخبار أصدقائهما؛ كان جوي وعارف من بين الطلاب الذين سمعوا بالشائعات حول الهجوم على المدينة. وهكذا اقتحموا مقصف السكن الطلابي وسرقوا جميع الكراسي، التي ظلوا يُكومُونها عند مقدمة طريق نيكت. وأشعلوا النيران في قوارير زجاجية وألقوا بها في الشوارع. ولكن حين عبرت الدبابات فوق الحواجز المُعرقلة وأحالت الكراسي إلى شظايا من الخشب، هرب الطلاب، وراحوا ينتشرون مثل الأمواج عبر المباني واختبأوا داخل مبنى كورزون هول، وهكذا أخطأتهم الرصاصات.

لكن شارمين! لم يتمكنوا من العثور على شارمين.

في بداية الأمر، تملَّك مايا غضبٌ طفيفٌ لأنها فوَتت كل شيء. كان جميع أصدقائها يحملون في طياتهم حكاياتٍ وقصصًا عن تلك الليلة، وإذ ظلت تُردد: جيدٌ أنني لم أكن في الحرم الجامعي، انتابها شعورٌ طفيف بالندم لتهميشها وعدم مشاركتها. أرادت أن تملك أي علامة، أي أثر، يقول إن ما حدث قد حدث لها. كدمةٌ على الخد، قطعٌ في بلوزتها. وانتظرت مايا مجيء شارمين، أن تثبت وجودها أمام بوابة منزلها، أن تمنحها شيئًا من مشاعر تلك الليلة.

لكن حلَّ اليوم الثالث، ولا أثر لها أيضًا.

قالت ريحانة مُطمئنة ابنتها: لا بأس، لا بُد أن هناك تفسيرًا لاختفائها.

لم تعلم ريحانة ماذا عليها أن تقول، فكل شيءٍ تعرفه عن شارمين منعها من الشعور بالخوف على الفتاة. كانت فتاةً ضخمة البنيان، هائجة مثل بحرٍ

عاصف، لا يليق بها أن تختفي هكذا ببساطة. لا بُد أن مايا قد فكَّرت في الشيء نفسه، لأنها رفضت السماح للقلق بأن يغزو قلبها نحو صديقتها.

في اليوم الرابع، قرر آل سينجوبتا الرحيل. وجدتهم ريحانة في منزل شونا وحاجياتهم مبعثرة على امتداد أرضية غرفة الاستقبال، تشوه مظهر سجادة السيدة سينجوبتا ذات بتلات الأزهار الوردية.

استهلت السيدة سينجوبتا حديثها: علينا الرحيل.

كان من البادي أنها هي مَن حثت زوجها على الرحيل؛ فقد كانت شديدةَ التوتر، وراحت تُهندم ساريها على كتفها وتُرتب طيَّاته. لم تحر ريحانة جوابًا، واكتفت بإيماءة تفهُّم.

أوضح السيد سينجوبتا: لم تعد المدينة آمنة للهندوس كما تعلمين.

كان اللاجئون قد مكثوا لعدة أيام، مُتخذين المرج الأخضر بيتًا لهم، مُتيقظين للمراقبة في الليل يتحرون الرؤية بمصابيح زيتية وأعمدة من الخشب الذي استطاعوا الإتيان به من أُطر أبوابهم. ثم رحلوا بدورهم أيضًا، رحلوا إلى قُرى مُوغلة بعيدة عن المدينة، أو عبروا الحدود إلى الهند. كانوا قد أعربوا عن شُكرهم وامتنانهم لريحانة وعطفها، ثم جمعوا حاجياتهم وأغلقوا رِتاج البوابة من خلفهم.

سألت ريحانة: هل ستذهبون إلى الهند؟

أبدى السيد سينجوبتا دهشته، وهو يتساءل: لماذا؟ كلا، لماذا نذهب إلى الهند؟ إننا ذاهبون إلى قريتنا «بابنا». لم نذهب إلى هناك للبقاء منذ وقتٍ طويل، يجدر بميثون أن يرى منزل أجداده ويلتقي أبناء عُمومته.

باعد السيد سينجوبتا الستائر الشبكية عن النافذة من خلفه، وتطلع إلى ابنه الذي يُلاحق غُرابًا في الحديقة.

قالت ريحانة: بالطبع أنتَ تعلم ما هو أفضل لكم. ولكن هناك إخباريات مُقلقة. قُرى تتعرض للحرق. ويستهدفون الهندوس.

- ما هي إلا مجرد شائعات. صارت المدينة خطِرة، لكنهم لن يتوغلوا بعيدًا عن حدودها. سيستغرق الأمر منهم يومين فقط ليصلوا إلى المدينة الصغيرة، بسبب الطرق الموحلة غير المرصوفة. فلماذا يزعجون أنفسهم؟

ثم أصدر صوتًا ما بين ضحكة مبتورة ونخيرًا عميقًا.

علَّقت ريحانة في مزيدٍ من الإلحاح: أهالي قريتك، أعني أيمكنك أن تثق بهم؟

- أهالي قريتي! بالطبع! لقد مكثت عائلتي بينهم في تلك القرية لأجيالٍ طويلة. سيدة حق، أتريدين ترحيل جميع الهندوس إلى الهند؟

استنتجت ريحانة مدى الإهانة التي سببتها للسيد سينجوبتا. تناهى إليها الآن إنذار واضح بالاختبار، تدقيقًا، لمعرفة على أي جانب من الخلاف تقف هي. شابك السيد سينجوبتا ساقيه ثم بسطهما مرة أخرى، وراحت السيدة سينجوبتا تعبث بأطراف ساريها في توتر. حين تطلعت إليها ريحانة، ذكَّرتها السيدة سينجوبتا بنفسها في سنٍّ صغيرة حين كانت أكثر ثقةً بنفسها، حين كانت تتمتع برفاهية الانسحاب وقتما تشاء، لتسمح لشخصٍ آخر أن يتخذ القرارات بدلًا عنها، ويرسم حدود النقاش.

مالت السيدة سينجوبتا بجذعها نحو ريحانة وأخذت بيدها، ثم قالت: نشعر بالأسف الشديد لتركِك هنا بمفردِك. هل ستكونين على ما يُرام؟

أجابت ريحانة: بالطبع!

رُغم أنه قد تبادر إلى ذهنها فجأةً أنها لن تحظى بأي أموالٍ حتى عودة آل سينجوبتا. استشعرت ريحانة من نظرة السيدة سينجوبتا إليها أنها السبب وراء هذا الاعتذار. ثم أخرجت صديقتها مظروفًا ووضعته بين راحتي يديها، فأجابتها ريحانة: أوه، كلا يا سوبريا، لا يجدر بكِ فعل ذلك.

قالت السيدة: إنها الطريقة الوحيدة التي تمكننا من التفكير في المغادرة.

ثم التفتت إلى زوجها، الذي بدا أنه تعافى من شعوره بالإهانة وأومأ موافقًا على كلامها بحماس، فتابعت السيدة: هذا ليس بالكثير، لكن لا يمكننا تركِك خالية الوفاض هكذا.

قالت ريحانة بإصرار: لن أسمح بهذا.

متسائلةً في قرارة نفسها كم من الوقت عليها أن تتظاهر بعدم حاجتها إلى المال. غمغمت ريحانة بعضًا من عبارات الاحتجاج، لكنها أخذت المظروف في نهاية الحال، مُحذرةً الزوجين أنهما إذا غابا طويلًا فربما تبحث عن

مستأجرين جُدد. وكانت فكرة انتقال أي أحد إلى دكَّا في الوقت الراهن تجعل الجميع يضحك.

أشارت السيدة سينجوبتا بذراعها حول الغرفة وهي تقول: أنا آسفة لأننا تسببنا في هذه الفوضى.

- لا تقلقي، سنهتم أنا ومايا بالأمر.
- حقًّا؟
- أجل. خُذوا فقط ما تحتاجون إليه. أعلم أنكم ستعودون قريبًا، أنا موقنةٌ من هذا.

نادي السيد سينجوبتا ابنَه في الحديقة، وقال: ميثون! تعال لتُودِّع خالتك!

رُغم ما بذلته من جهدٍ جهيد لتبدو لا مبالية، شعرت ريحانة بالدموع الحارقة تلدغ عينيها وهي تحتضن السيدة سينجوبتا، ثم قالت بالبنغالية: الله حافظ. (وشدت على كتف صديقتها) سأبقى في انتظاركم.

بحلول منتصف أبريل، تراءى للجميع أن الهجوم على دكًّا لم يكن سوى شرارة البدء. فقد راح الجيش يشق طريقه عبر البلاد، يُخضِعون الضواحي واحدة تلو الأخرى، ويتركون من ورائهم أثرًا من القرى المحترقة. جرى تداول قصصٍ عن فتيان يهربون من منازلهم للانضمام إلى المقاومة، يتسللون في منتصف الليل متأبطين أحذيتهم، ليعبروا الحدود ويبحثوا عن الرائد ضياء الحق، الضابط نفسه الذي أذاع إعلان الاستقلال عبر المذياع.

جاء جوي وعارف في أحد الأيام إلى الكوخ الصغير يقودان شاحنة، مملوءة بصناديق من مختلَف الأحجام، وشرعا يُفرغان الشاحنة من حمولتها ويُكدسانها إلى جانب البوابة.

سألت ريحانة: ما هذا؟

أجاب جوي: خالتي، نحتاج إلى مساعدتكِ. نحتاج إلى تخزين بعض الأشياء في منزلكِ.

خرج سُهيل من غرفته، وسأل: مِن أين حصلتما عليها؟

سألت ريحانة: ماذا يحدث؟

كان ثلاثتهم يتصرفون كما لو أن ما يحدث أمرٌ روتيني للغاية، كما لو أن الناس يأتون بشاحنات معبأة عن آخرها بأشياء غامضة كل يوم.

قال سُهيل: أمي، وصلت إلينا تقارير عن مخيمات للاجئين عبر الحدود، وهم بحاجةٍ إلى الدواء.

- مِن أين حصلتما على هذه؟

انتظر سُهيل جوابًا من جوي، فقد كان عارف يُحصي الصناديق المتبقية في الشاحنة.

- مستشفى بي جي.

أحاط سُهيل خصره بيديه، خيَّمت فترة صمت والفتيان ينتظرون أن تطرح ريحانة سؤالها عن كيفية إقناعهما للأطباء في مستشفى بي جي ليمنحوهما شاحنة مكدسة من الدواء.

قررت ريحانة أن لا تسأل. فإذا سألت، سيتعين عليهما إخبارها بأنهما قد سرقا الدواء.

قالت ريحانة أخيرًا: فكرةٌ جيدة، أحضِروا الصناديق جميعها إلى الداخل. هل تودون المكوث للغداء يا فتيان؟

ابتسم عارف إلى ريحانة من أعلى الشاحنة، وألقى إليها بقُبلة في الهواء وهو يقول: كنا نعرف أنكِ ستتفهمين.

عادوا مرة أخرى في اليوم التالي، وحملوا ثمانية صناديق من الحليب المُجفف، وثلاث عُلبٍ من لفائف الصوف القطني، وأربعة براميل من الأرز، وست عشرة حاويةً من الحساء. ودِلاء ومجارف. وضعت ريحانة صناديق الطعام في الممر بين المطبخ وغرفتها. وصار عليهم الآن أن يسيروا بالجنبِ ليصلوا إلى المطبخ. تراصت كراسي طاولة العشاء أعلى الطاولة نفسها، وخزنوا الدواء أسفل منها. وصاروا يتناولون الوجبات وأطباقهم في حجورهم.

هدَّأ المنزل المُزدحم بالزوَّار من قلق مايا، كانت تضع وجنتيها على عُلب لفائف الصوف القطني، وتتحسس بإصبعها أعلى صناديق الدواء.

مضى أسبوعان تقريبًا، وما تزال شارمين مفقودة. لا يعلم أحدٌ مكان الفتاة، لكن غيابها كان ملموسًا في الكوخ الصغير، إذ راح كل واحد يتوقع في

صمتٍ ما يمكن أن يحدث لها. ورُغم كل ذلك، رفضت مايا الحديث عن الأمر. كانت تتجول في المنزل مثل سحابةٍ من الغُبار، وحاولت ريحانة إثارة الحديث عن أمر شارمين، وفي كل مرة تقترب من مايا للحديث، تشعر وكأن فعلها هو استباحةٌ لحزن ابنتها.

سألت ريحانة أخيرًا: أين والدتها؟

- إنها في ميمينسينغ.

فسألت ريحانة: ربما ذهبت شارمين لزيارتها؟

- لقد اتصلتُ بعائلتها. ولم تذهب إلى هناك.

- هل لديها أشقاء من البنين؟

- ليس تمامًا.

تذكرت ريحانة أن والدة شارمين قد تزوجت مرة أخرى، وأنجبت أطفالًا آخرين، وهكذا صار لديها زوجُ أم. ولهذا كانت شارمين تعيش في السكن الطلابي، ولهذا كانت دائمًا ما توجد في الكوخ الصغير في أثناء الأعياد، ولهذا أيضًا كانت ملابسها تختلط بملابس مايا في الخِزانة، وفرشاة أسنانها تستقر في كابينة دورة المياه. كانت شارمين تملك سهمًا في منزلهم، وكانت ريحانة على معرفةٍ بكل تلك الحقائق. ولكن لمَّا باتت حياة شارمين مَوضِع التركيز، شعرت ريحانة بالذنب لبغضها وجود الفتاة في الكوخ الصغير أحيانًا. ربما أمكنها أن تمنح الفتاة بعض الدفء الأمومي؛ قد تكون عاجزة عن إنقاذها، ولكن ربما استطاعت أن تمنحها الحُب.

ما تزال ريحانة غير مُدركة لما ينبغي لها أن تفعل بشأن ابنتها، فسألتها: أأنتِ جائعة؟

- كلا.

لم تعلم ريحانة ما ينبغي لها قوله؛ إذا قررت مايا أن لا تتحدث بأمر شارمين، فستعجزُ ريحانة عن مواساتها. ولم تجد سبيلًا تخترق به حُزن ابنتها، الحُزن الذي راح يلتف حولها حتى غشَاها مثل سحابةٍ سوداء. أحيانًا ما تتساءل ريحانة عما إذا كان مُقدرٌ لها أن تُحب طفلًا حبًّا يفيض عن حبِّها للآخر. كان حبُّها لابنتها حبًّا عليلًا فظًا، بذلت فيه الجهود المُضنية. لكن سُهيل هو مولودها الأول، وله طبيعةٌ حانية رقيقة، على عكس مايا التي كانت

تتمتع بقسوة شديدة، وهَجرتها الرأفة والحُنو حين تبنَّت الهتافات الجهورية لمواكب الشارع وترديد الشعارات. نطق لسانها بالكثير من العبارات المؤثرة، وباتت الأفكار مثل بلاء حلَّ على الفتاة؛ فاستولت عليها قلبًا وقالبًا حتى تغيَّر مظهرُها مثل جوهرها: إذ تبدَّلت زوايا وجهها وصارت أكثر حِدة، فما عاد شابًّا يافعًا جميلًا. وأضف إلى هذا، التزامها الدائم بارتداء اللون الأبيض للأرامل، ولهذا شعرت ريحانة دومًا بالإساءة والمهانة.

لم يتبقَ لها سوى فُتاتٍ من جمالها وشخصيتها الوديعة: ضفيرتها السميكة التي تزحف على ظهرها مثل نهرٍ أسود متضخم، وصوت غنائها؛ تملَّص كلاهما من مَذبح التضحية. أحيانًا ما كانت تُهدد والدتها بصورٍ لنساء قصيرات الشعر، خصلات الشعر القصير التي تحملق فيها من أغلفة المجلات، وقصَّات الشعر الصبيانية التي تجرَّأت بعض صديقاتها على طلبها في صالون التجميل. ولكن رُغم تهديداتها، لم تقوَ مايا على قص شعرها الذي يُميزها بلا شك بأنها ابنة ريحانة، بقوامه اللامع المستقيم، ومسحته الزرقاء الداكنة، وسماكته ووزنِه. حتى إن ريحانة لمحتها ذات مرة تعتني بشعرها، تُمشطه وتُمسده بزيت جوز الهند، رُغم أن ريحانة حين تعرض عليها المساعدة، لا تلقى منها سوى تحديقٍ صاعق وجوابٍ قصير «لا شيء لتفعليه».

حين تُغني، لا يسعها أن تُخفي ما يُغطي ملامحها من غضاضة وحنان، مثل سديم شتاءٍ بديع. لا تظهر القسوة في صوتها؛ في واقع الأمر، يحمل صوتها مسحةً أنثوية طفولية، تُقاوم ما تعلمته من أساليب أضافت الصلابة والخشونة إلى كلماتها المنطُوقة. حين تفتح فمها، يخرج من بين شفتيها ومن حنجرتها ومن قلبها اليافع، غناء طرب رخيم. كانت قد تعلمت أُغنيات الغزل من والدتها، لكن اتجاهاتها السياسية أحالتها إلى الأغنيات المحظورة التي كتبها «طاغور[1]» وقد لاقت بها هذه الأخيرة أكثر من غيرها. وهذا لأن أشعار طاغور لا تتضمن في فحواها نبرة الحزن الرثائية للحب المَهجُور،

(1) طاغور: شاعر ومسرحي وروائي بنغالي. ولد عام 1861 في القسم البنغالي من مدينة كلكتا وتلقى تعليمه في منزل الأسرة على يد أبيه ديبندرانات وأشقائه. درس طاغور اللغة السنسكريتية لغته الأم وآدابها واللغة الإنجليزية؛ ونال جائزة نوبل في الآداب عام 1913 وأنشأ مدرسة فلسفية معروفة باسم فيسفا بهاراتي أو الجامعة الهندية للتعليم العالي في عام 1918 في إقليم شانتي نيكتان غرب البنغال. (المترجمة)

بل بالأحرى تُناشد صورة نقية من صور العاطفة، نادى بها طاغور بكثرة، طاغور الذي كان يحمل حبًّا بسيطًا للرب والطبيعة والجمال.

تستقر أصابعها على آلة الأرغن بنياقة، مقوَّسة الأصابع، تُضيف أظفارها المتآكلة الإجلال على جدية المهمة؛ وحاجبان مُقطبان في سبيل نقل معاني الأغنية، وفي النهاية لم تمتثل لشيءٍ قط سوى للموسيقى. تراها في غنائها، ولو لفترةٍ وجيزة، مُتضرعة، كما لو أنها في حضرة ذاتٍ عُليا عليها أن تعترف بوجودها بطريقةٍ أو بأخرى، رغم أنها ملحدةٌ ورِعة.

ورأت ريحانة أن مايا هي أكبر إخفاقاتِها؛ لأن ابنتها لم تستطع إلى قلبها سبيلًا.

***

في اليوم الذي جاء فيه جوي وعارف دون الشاحنة، صحبا فتى آخر، فتى هندوسيًّا اسمه بارتو، كانت عائلته قد رحلت عن المدينة.

قال سُهيل لريحانة: لا تدعيهم يدخلون.

لكنهم سبقوا وتسلقوا البوابة. كان عارف ينتقل بين قدمٍ وأخرى، ويُعدِّل من نظارته ذات الإطار المستدير بطرف إصبعه. وظهرت حقيبةٌ سوداء بين بارتو وجوي. وعجزت ريحانة عن تبيُّن السبب وراء تحاشيه لأصدقائه.

أحاط جوي فمه بيديه وصاح: سُهيل! صديقي! ألن تأتي! اخرج!

حين لم يُجب سُهيل، خرجت ريحانة إلى الشرفة وسألتهم عما يريدونه. بدا مظهرهم فجًّا، كأنهم لم يستحموا أو يُغيروا ملابسهم. تجعَّد شعر جوي مثل فاصلة فوق رأسه، وانسدل شعر عارف بين أذنيه. أما بارتو فكان يُحدِّق إلى ما وراء ريحانة وإلى نوافذ الكوخ الصغير ليرى ما إذا كان سُهيل سيخرج من أيها أم لا.

قال عارف: السلام عليكم يا خالتي، هل سُهيل هنا؟

هؤلاء هم أصدقائه، ولن يُمانع بلا شك إذا دعوتهم إلى الداخل. فقالت: أتودون المجيء إلى الداخل؟

تطلع كلٌّ من جوي وعارف إلى الحقيبة السوداء، ثم أجاب جوي: كلا، سننتظر هنا.

راح عارف يعبث في عُلبة كبريتٍ، ثم أخرج علبة سجائره وقدمها إلى بارتو، الذي هزَّ رأسه رافضًا، فأشعل هو واحدةً، ثم سأل: هل هو بالداخل؟

فكرت ريحانة في الكذب عليهم، لكنها عدلت عن الأمر في النهاية، وأجابت: أظنُ أنه منزعج.

أزعجها عدم معرفة السبب وراء تغير رأي سُهيل المفاجئ؛ في لحظة كان ملتصقًا بأصدقائه، وفي اللحظة التالية، لا يريد أن يرى أيًّا منهم.

- نريد التحدث معه فحسب. أيمكنه الخروج إلينا من النافذة؟

- لا أدري، سأرى.

عادت ريحانة إلى داخل المنزل، فوجدت سُهيل يقطع غرفة الاستقبال ذهابًا وإيابًا، وأربطةُ منامته مُفككة وتتأرجح بين رُكبتيه. وحين رآها سُهيل، قال وهو يشد الأربطة: أخبريهم أن يرحلوا من هنا.

- لقد قطعوا كل هذا الطريق...

فقال سُهيل: لا يهمني.

صمتت ريحانة هنيهة، ثم انفجرت في سخط: حسنًا، أنا أستسلم. سأذهب إلى شونا. وأنتَ قرر بنفسك ما ستفعله مع أصدقائك.

***

كان كلٌّ من ريحانة ومايا في شونا، منغمستين في توضيب آخر متعلقات السيدة سينجوبتا حين دخل عليهما سُهيل، ووقف مستندًا إلى فَتحة باب غرفة الطعام، يشاهد ريحانة وهي تُغلف أطباق السيدة سينجوبتا في قصاصاتٍ من ورق الجرائد. كانت معظم قصاصات الجرائد فارغة، إلا من أشرطة إعلانية كبيرة لصالح صابون تيبات وكريم تصفيف الشعر بريلكريم تُؤطِّر المساحات الفارغة.

استغرقت مايا في مساعدة ريحانة لحِفظ الأطباق المغلَّفة في صناديق كرتونية، ولكن بمجرد أن رأت سُهيل، هجرت الصندوق الكرتوني ورفعت يديها عن العمل، ثم سألت: ماذا يحدث؟

أجاب سُهيل: لا شيء. جاء عارف وجوي ليريا ما إذا كنا بخير. إننا ننتظر ما ستؤول إليه الأمور.

- ماذا تنتظرون؟

- رأى الصحفيون الأجانب في فندق انتركونتيننتال كل شيء. أتصدقين ما فعله هؤلاء الأوغاد؟ لم يحاولوا حتى إخفاء أفعالهم المُسجلة. سيُذاع كل شيء في الأخبار الدولية.

- وأصدقاؤك، ماذا أرادوا؟

- إننا بحاجة إلى الدعم من الأمم المتحدة.

استفزته مايا قائلة: لا تُغير الموضوع، أنتم تُخططون لشيء.

- لا شيء، ما الذي سنخطط له؟

- كانوا يملكون شيئًا، حقيبة، وقد أخبرتني أمي بهذا. أكانا يطلُبان منك إخفاء شيء؟

استفزته مايا، وكانت ريحانة تعلم أنه لطالما كره الكذب.

حدَّق إلى مايا مباشرةً، كما لو أنه يتحداها لتسأله مُجددًا. فسألت: أنت ذاهب معهم، أليس كذلك؟

ذاهب؟ إلى أين سيذهب؟ أرادت ريحانة أن تقول: انتظر. ظننتُ أنكم ستتجادلون على أمرٍ بسيط، أمرٍ تافه ليس ذا أهمية، ليس على أمر الذهاب. لو أنهم أخبروني أن نقاشهم يتعلقً برحيل، لوقفتُ أمام الباب بنفسي ورفضتُ السماح لهم بالدخول.

أزاح سُهيل خصلات شعره عن عينيه. وجاهدت ريحانة نوبة من الفزع تزحف من قلبها إلى أطرافها.

قالت مايا: أخبرني فحسب يا أخي، أرجوك، أريد أن أعرف فحسب.

ثم أولت وجهها إلى صندوق الأطباق، كما لو أنها تقول: **أنتَ مدينٌ لي**.

***

قال سُهيل في اليوم التالي: أمي، ثمة أمر عليَّ أن أُحدثكِ به.

يُشرق البدر متأرجحًا فوق سماء دكًا؛ يغزو بضوئه نوافذ الكوخ الصغير، يزيح آثار الظُلمة، ويُلقي بظلاله على ذقن سُهيل، وعلى قبضته التي راحت تنقبض وتنبسط.

- لا تُخبرني.

بدا سُهيل آسفًا للغاية، وهو يقول: عليَّ الذهاب.

- تذهب؟ إلى أين؟ إلى أين ستذهب؟

أجاب سُهيل:

- سمعنا عن حركة مقاومة عبر الحدود. تمردت جميع الكتائب البنغالية. ألم تسمعي ضياء الحق؟

- هذا أمرٌ يدور بين الجنود. ما شأنكَ أنتَ؟

أجاب سُهيل:

- يحتاجون إلى متطوعين، وسيذهب عارف وجوي وبارتو أيضًا.

- ظننتُ أنكَ مناهضٌ للحرب.

تعلَّقت ريحانة بالكلمة. مناهضٌ للحرب! شخصٌ لا يندفع إلى لانضمام إلى الحرب؛ شخصٌ يتخلف عن الركب ولا يفطر قلب أمه عليه.

- إنني أُعاني يا أمي، وأدركتُ أني لا أملكُ خيارًا في أمري.

فقالت ريحانة:

- بالتأكيد تملك الخيار؛ أنتَ دومًا تملك الخيار في أمرك.

أسقطت ريحانة رأسها بين يديها وحاولت أن لا تبدو يائسة، ثم قالت وهي تغصُّ بكلماتها قليلًا: ماذا لو لحق بك مكروه؟

كان قد أغفل زرًّا من قميصه؛ قميصه المُفضل من طراز المُربعات الإسكتلندية باللونين الأحمر والأزرق. وحين انحنت ريحانة لتحشر الزر الضال في فتحته، وضع يده على رأسها، كما لو أنه يمنحها بركته. فقالت ريحانة بنبرةٍ واهنة: ظننتُ أنك كرهت الحرب.

- هذه ليست حرب، إنها إبادة جماعية.

- أهذا كله بسبب سيلفي؟

- كلا، بالطبع لا.

صمت سُهيل قليلًا، بيد كما لو أنه يحبس أنفاسه، ثم تابع: لا يمكنني المكوث هنا ولا أفعل شيئًا يا أماه. الجميع يُقاتل، حتى أولئك الذين خالجهم الشك، أولئك الذين أرادوا البقاء جزءًا من دولة باكستان.

- وكيف سترحل؟

- ابن عم لعارف يملك سيارة، وسيوصلنا جميعًا إلى الحدود.

لم يُخبرها بميقات الرحيل. ربما لو أعاقته، فلن يذهب أبدًا، وقد رغبت ريحانة بشِدة أن يعتمد الأمر عليها هي لا عليه. وهكذا قالت: لا يمكنني اتخاذ قرارٍ الآن. أيمكنني أن أقرر لاحقًا؟ أيمكنني أن أقرر غدًا؟ سنذهب إلى المقابر.

أجاب سُهيل: لن أرحل قبل بضعة أيام. هيًّا بنا إلى النوم الآن.

أومأت ريحانة بإيجابٍ؛ ثم واتتها فكرة مفاجئة: ماذا لو غادر في منتصف الليل، مثل الفتيان الآخرين، دون أن يُخبرها؟ ربما هذا أفضل. كلا، كلا، لن يكون أفضل في شيء.

فقالت: لا ترحل دون أن تُخبرني.

- لن أفعل.

- عِدني بهذا.

- أعدكِ.

- أَقسِم بحياتي.

- أُقسم بحياتكِ يا أمي.

***

استقلت ريحانة برفقة سُهيل، في اليوم التالي، عربة ريكاشة إلى المقابر. أبقت على صمتها طوال الطريق، رُغم رأسها الذي يطن بالأصوات والصراخ. وكان الصوت يقول «لا تذهب. أرجوكَ، لا ترحل».

مرَّت العربة بمجموعةٍ من طلاب المدارس في الشارع، فتساءلت ريحانة عما إذا كانت أفكارهم هي الأخرى، مثل أفكار سُهيل، مليئة بهواجس الحرب؛ عما إذا كانوا يُقلِّبون الفكرة في عقولهم كما يُقلِّبون السكاكر في أفواههم؛ وعما إذا كانوا ينتظرون اللحظة المناسبة لإخبار أمهاتهم بالأمر ثم يختفون بدورهم.

كانت المقابر نقيةً بِكرًا، ومن فوقها سماءٌ شاسعةٌ قاسية.

حدَّثت إقبال قائلة: ها هو ابنك. حتمًا ما كنتَ لتقبل بهذا؛ ابنك يريد أن يُقاتل في سبيل بلاده. وقال إنه لا يملك خيارًا في أمره. كم أود لو أغضب منه، لكني عاجزةٌ عن هذا. ولهذا أترك الأمر إليك.

دوى الصمتُ في أُذنيها؛ وخشخشة مُقتضبة لأعشاب المقابر الجافة، وطنين عربات الريكاشة العابرة، والطرف المُشتعل لسيجارة رديئة أشعلها حارس المقابر عبر الزجاج المفتوح لمصباح الكيروسين خاصته. هدرت الأصوات؛ وصاحت؛ واخترقت ذرات الهواء... ألَّا ترحل رجاءً.

قالت ريحانة أخيرًا بصوتٍ مرتفع: لا تذهب. لا بُد أن هناك طريقة أخرى للمساعدة.

تطلع إليها سُهيل بنظرةٍ تقول: دعينا لا نتجادل في هذا الأمر أمام أبي. لكن ريحانة استقوت بوجود إقبال؛ فمن بين الاثنين، كان إقبال هو من سيحتج على رحيل ابنه، وسينهيه عن هذا الفعل، أجل، ينهيه. كان إقبال سيقول: أنا أنهيك عن الذهاب. أنا أنهيك! ربما يجدر بها أن تحاول النطق بهذه الكلمة؛ إن لها وقعًا شديدًا لا يلين.

لكن أنَّى لها أن تمنع شيئًا؛ وقد تملكها شعورٌ مفاجئ مُفجع بالإنهاك، فعلَّقت على إثره: ما برحتُ أتمنى أن أُغير رأيك.

كان ما يزال مرتديًا قميصه من طراز المربعات الإسكتلندية باللونين الأحمر والأزرق؛ وياقةٌ مُدببة إلى الأسفل. رأته يُجادل نفسه، يجري الحسابات في أعظم شيءٍ يمكن لأي إنسانٍ أن يفعله، الشيء الذي سيتطلب منه أعظم تضحية. راح يُوازن بين شعوره بالذنب ورغبته في القتال. لا بُد وأنه تصورها وحيدةً في المنزل، برفقة مايا فحسب، مايا الصُّحبة الصامتة. ثم تصوَّر نفسه مرتديًا زيًّا عسكريًّا. أي مشهدٍ هو أسوأ من الآخر؟ سيتعين عليه الاختيار.

أدركت ريحانة أنها أيضًا كانت لتُجري هذه الحسابات. كانت لترتحل حول العالم بالطريقة نفسها، وتحاول أن تعثر على الشيء الذي تنصَّل منها كُليًّا. تراءى لها كم يشبهها سُهيل في مأزقه هذا؛ لطالما كانت المعرفة نافذةً مفتوحة أمام الجميع.

ما انفك القتال يدور في عقل سُهيل؛ وراحت يداه تحومان على جيب قميصه. في تلك اللحظة، أضاء شاهد قبر إقبال كما يُضيء جانب السفينة.

- لا بأس يا بابا. ألقِ الوداع على والدك.

كان هذا كل ما أمكنها قوله.

ضم سُهيل يديه إلى بعضهما في صورة دعاء، ثم رفعهما إلى وجهه.

أنا لا أقدر على إيقافه، ربما لو كنتَ هنا يا إقبال، لأمكنك أن تُوقفه. لكني لا أقدر، وهذا شأنٌ عظيم لا أقوى عليه.

***

ارتفعت الشمس في كبِد السماء، وراحت ريحانة تُشاهد ابنها وهو يحزم حقائبه. تلهَّفت أصابعها لمساعدته، ولهذا حاولت أن تصب انتباهها على شيءٍ آخر. الكتب في مكتبته. المُلصقات المُعلقة على الحائط: ماو تسي تونج، تشي جيفارا، كارل ماركس. لن يُخبرها عن توقيت رحيله، ولا عن الكيفية التي خطط بها الخروج من المدينة.

قال سُهيل: من الأفضل لكِ أن لا تعرفي.

كشفت ريحانة عن نسخةٍ أخرى من شخصيتها، نسخةٍ حانقة مُولعة بالجدال، حين أمطرته بالأسئلة: لماذا؟ لماذا من الأفضل أن لا أعرف؟

- إذا سألكِ أحدٌ، بوسعكِ أن تقولي لا أعرف.

كانت مُنهكة القوى، لكنها أرادت أن تظل عنيدة صلبة. هكذا ستتضمن تحديد شروط رحيله، فقالت: كلا، يجب أن أكون هنا حينما تغادر. أخبر عارف وجوي أن يأتيا لنقلك من هنا. لا حاجة لكَ بمزيد من السرية. أخبرهما أن يأتيا إلى هنا فحسب. أريد أن أعرف اللحظة التي ستخطو فيها قدماك خارج هذا الباب، اللحظة التي ستعبر فيها البوابة. أريد أن أقرأ لك آية الكُرسي وسورة يس.

زفر تنهيدة، ثم أجاب: حسنًا.

وراح يطوي قُمصانه.

أما مايا فقد ظلَّت طُوال الوقت واقفةً أسفل إطار الباب، وقدماها على العتبة المرتفعة. وفي تلك اللحظة قالت: جئتُ بشيءٍ من أجلك.

كانت رزمةً مُغلفة بورقٍ أحمر رقيق؛ وبدا ما بداخلها شيءٌ وثير.

سألت ريحانة: ما هذا؟

فأجابت مايا: افتحه لاحقًا.

لطالما رغبت ريحانة في شقيقٍ. شخص تمنحه هدايا الوداع عند رحيله؛ شخص تُحبه دون جزع.

***

مضت ريحانة لزيارة السيدة تشودهاري، وجال بخاطرها أنه ربما تسرد عليها بعض الأخبار: عن سُهيل وعن الفتيان الذين تركوا إمداداتهم المسروقة في ممراتها، واختفاء شارمين. تصورت السيدة تشودهاري وهي تقبض على يديها وتخبرها أن كل شيءٍ سيعود إلى وضعه السليم، كما هو دأبها دومًا.

كانت السيدة تشودهاري جالسةً في شرفتها، تتطلع إلى أشجار جوز الهند في حديقتها. وحين مالت ريحانة بجذعها لتضع قبلةً على خدها، وجدت شعر السيدة تشودهاري ملطخًا ومدهونًا بمعجون الحناء.

قالت السيدة تشودهاري بأنفاسٍ تعبق برائحة البيض: أي أخبارٍ من آل سينجوبتا؟

- لا شيء. ظننتُ أنهم قد يرسلون إلينا خطابًا. أين هي سيلفي؟

لم تكن ريحانة قد رأت سيلفي منذ تلك الليلة.

أجابت السيدة تشودهاري: في غرفتها. تُصلي على الأرجح. هذا هو كل ما تفعله هذه الأيام.

أزاحت السيدة بعيدًا طبقًا من شرائح البابايا الاستوائية التي أحضرتها لها الطاهية، ثم قالت: ما هذا؟ أحضِري لي السمبوسك!

- غير مسموحٍ بالأكلات المقلية يا سيدتي. هذه أوامر الآنسة سيلفي.

- لا أهتم. سآكل السمبوسك متى ما أريد. اذهبي!

ثم فرقعت أصابعها الثقيلة بإنتاجٍ غزير من خواتم الذهب.

ابتسمت لها ريحانة برحابة صدر، وأدركت أنه في بعض مناطق المدينة، ما تزال الحياة مستمرة كعهدها بها. تتجادل النساء حول السمبوسك، ويحمل الناس حقائب اليد إلى العمل، وينخرطون بوجوهٍ عابسة في أعمالهم على الآلة الكاتبة.

أساءت السيدة تشودهاري فهم صمت ريحانة المُطبق، فقالت: لا تقلقي يا عزيزتي. سيعود آل سينجوبتا قريبًا.

- هذا وقتٌ صعبٌ للغاية يا سيدة تشودهاري.

- هراء. ستعود الأمور كسابق عهدها قريبًا. وسينتهي كل شيء في لمح البصر.

لمَّا نطقت السيدة المُضيفة بتلك الكلمات، لم تنعم ريحانة بأي نوعٍ من الارتياح. بل تساءلت ما إذا كانت السيدة تشودهاري قد خرجت من منزلها منذ وقوع المَذبحة؛ تساءلت ما إذا كانت قد رأت المدينة المُغلَّفة بالموت. لقد مات كلبها، وهذا هو نهاية الأمر. استشعرت ريحانة موجاتٍ من الحرارة والبرودة تضرب جسدها؛ فأمسكت بالمقعد وترنَّحت.

- أوه يا عزيزتي، أنتِ على وشك الإغماء!

وصفَّقت السيدة تشودهاري بيدها مُجددًا، ثم قالت لخادمتها: أنتِ، تعالي إلى هنا يا عديمة الفائدة، أحضِري بعض الماء المُثلَّج. أسرعي!

أغمضت ريحانة عينيها وانتظرت؛ وُضع الماء المُثلَّج على شفتيها؛ فتجرعت منه، واستندت بظهرها إلى الأريكة. وحدَّثت نفسها «سأرقد هنا لبضع دقائق. بضع دقائق فحسب».

***

همس سُهيل: غدًا. سنغادر غدًا.

رُغم أنها قد تركته بمُفرده ليحزم حقائبه، لم يسعها سوى أن تفتح الحقائب مُجددًا لتنظر ما أخذه معه. فوجدت بضعة قمصان، ورداءً أشبه بتنورة هندية. لامست اليد البلاستيكية لفرشاة أسنانه، فكان أشبه بتمشيط شعره بأصابعها. ثم غادرت إلى المطبخ، تغمرها رياحُ الطمأنينة.

كانت قد أعدَّت وليمة، وهكذا حافظت على هدوئها طوال اليوم.. أن يكتظ جدولها بكثير المهام.

طاجن كاري الروبيان. والأرز البُخاري باللحم. وطاجن من سمكة السيف، والذي كان عليها أن تُزيل عظامها وتُشكِّل من لحمها كُريَّات. ودجاج مشوي. وكباب اللحم الشامي. وحساء العدس، هذه المرة كان أكثر سماكة.

ثم حدَّثت نفسها «هذا هو واجبي؛ أن أُرسل ابني إلى الحرب ببطنٍ مُمتلئ».

وشرعوا في الأكل.

كانت مايا ترتدي ملابس مُهلهلة تنسدل على جسدها في طبقات مُجعَّدة، وحين وُضع الطعام، دفعت طبق الأرز بالمِلعقة. فأدركت ريحانة كم غفلت عن ابنتها، واستحال الطعام في فمها مرًّا كالعلقم. وبات سُهيل هو الوحيد الذي يأكل طعامه، يُصفِّق بيديه معًا ويبتسم إلى طبقه.

غير أنهم لم ينطقوا بشيءٍ عما هو على وشك الحدوث. وبعدما تناولوا السكاكر والحلوى، فرك سُهيل يديه معًا واستعد للرحيل.

- سيُلاقونني في سادارجات.

- هل أُحضر لك ريكاشة؟

- لا.

سمعته ريحانة يقول دعيني أرحل فحسب. التفت إلى مايا، التي كان فمها مغلقًا مثل خطٍّ رفيع، وأمسك بكتفيها. بدت هشةً بين يديه، وحينما جذبها نحوه، تكوَّمت بين أحضانه.

همست مايا: اسحق هؤلاء الأنذال.

ثم استدارت وغادرتهما.

ارتعش ضوء المصباح.

قالت ريحانة: أكره ما على قلبي أن أدعك ترحل.

تراءى لها تطلعه إلى الخطوط المحفورة على جبهتها، تلك التي أطلقت عليها اسم «1959» و«1960». وتطلعت هي إلى الندبة أسفل ذقنه، تلك التي أطلق عليها «**سيلفي**».

قالت ريحانة أخيرًا: اذهب. وليكن الله معك.

اختفى بعد ذلك. نُظِّفت غرفته، وحُشِرت الملاءة بين طيَّات الفراش، ورُصَّت كُتبه على الأرفف. فوجدت فجوةً صغيرة حيث كان يصطف من قبل إلى جانب بعضهما «**قصائد غزلية كتبها ميرزا غالب**» و«**قصائد مختارة لديلان توماس**» بأوراقهما المُهترِئة المحبوبة وطيَّاتها التي تشبه زوابع الريح. ابتسمت ترحيبًا بروعة اختياره. كان سُهيل قد حفظ تلك القصائد عن ظهر قلب، وبلَت بين يديه كعوب الكُتب، لكنه بلا شك سيُنشد الأبيات على أصدقائه من الجُنود. هؤلاء الجنود، رُغم قسوتهم وحملهم السلاح، سينصتون له بطربٍ ونشوى.

بعدما رحل سُهيل، قررت ريحانة أن تُواجه ابنتها. غير أن مايا بدت مثل زهرةٍ ذابلة؛ حتى حين تجلس أمام أمها وجهًا لوجه، تبدو وكأنها ليست هنا. كانت تتصرف كما لو أنَّ أحدًا لم يُخبرها أنه حين تندلع شرارة الحرب، ليس عليها أن تفعل شيئًا سوى الانتظار؛ كما لو أن أحدًا لم يُخبرها أنه لن يُسمح لها سوى بتخيُّلها من بعيد؛ كما لو أن أحدًا لم يُخبرها عما ستُقاسيه من وحدة الأيام، واشتداد حرارتها، واستفحال ضجرها؛ كما لو أن أحدًا لم يُخبرها أن صديقتها ستكون أول مَن يرحل.

راحت مايا تقضي جُلَّ وقتها في الجامعة، تُغادر بمجرد أن يُرفع حظر التجوال الصباحي، غافلةً عن مائدة الفطور التي تُعدُّها ريحانة من أجلها، وتندفع عبر الباب لا تنطق سوى بضع كلماتٍ على عجلٍ، وتعود كل مساءٍ قبل أن تنطلق الصافرة مُباشرةً، مُنهكة القوى متوترة الأعصاب. وحين تسألها ريحانة عما فعلته طوال اليوم، تقول إن لديها **عملًا تنتهي منه**.

في حقيقة الأمر، بدا أن ريحانة تشعر بالارتياح عندما تُغادر مايا المنزل كل صباح. حتى إن الأشجار تبدو مُطمئنة. حاولت أن لا تُطلق العنان لخيالها في أنحاء المنزل الخالي. وراحت تقضي الأيام في اكتفاءٍ مشوبٍ بالذهول، تُحصي وتُعيد إحصاء الإمدادات، وتستمع إلى المذياع وتكتشف العنف الذي راح ينصب على البلاد صبًّا. الموت.. الاعتقالات.. أطفال لا آباء لهم.. أمهات خاويات الحجور.. آخرون تلاشوا من الوجود، تاركين مِن خلفهم مِشطًا أو زوجين من الأحذية.

جاءت كلٌّ من السيدة أكرم والسيدة رحمان للزيارة. فبادرت السيدة رحمان قائلة: قالت السيدة تشودهاري إنكِ بائسة.

كان سُهيل قد كلَّفها بأن لا تقول شيئًا عن رحيله، وهكذا راحت تُجيب ريحانة: إن الأمر صعبٌ للغاية. رحل الجميع؛ آل سينجوبتا. وتذكرون تلك الفتاة، شارمين، صديقة مايا؟ تعذَّر العثور عليها في أي مكان.

قالت السيدة أكرم: يجدر بنا جميعًا الرحيل، لم يعد الوضع آمنًا لأطفالنا.

أجابت السيدة رحمان سائلة: لماذا علينا الذهاب؟ لا يجدر بنا الهروب بعيدًا مثل المجرمين. هذه مدينتنا نحن. دعوهم يتبجَّحون ويتظاهرون أنهم استولوا على المدينة، أنا لن أرحل. لقد مررتُ بهؤلاء الجنود في طريقي إلى هنا؛ إنهم فتيانٌ صغار، أصغر من أبنائي. ويتوقعون مني أن أخافهم!

لم يخلُ استعراض السيدة رحمان من بعض الفُكاهة، لكن ريحانة لم تشعر برغبةٍ في الابتسام.

سألت السيدة أكرم: هل سترحلين يا ريحانة؟ أليس لديكِ شقيقات في باكستان؟

فأجابت السيدة رحمان: باكستان؟ ولماذا بحق الله يجدر بها الذهاب إلى باكستان؟ أتعلمين ما الذي سيفعلونه بنا هناك؟

أجابت ريحانة على مهلٍ، كما لو أنها قد فكَّرت بالأمر من قبل: كلا، لا أظن ذلك. لن يسمح الطفلان بهذا أبدًا.

- كما أخبرتكِ، يجدر بنا جميعًا أن نبقى هنا ونتخذ موقفًا.
- يجدر بنا أن نفعل شيئًا، أنا لن أستسلم بسهولة.
- لا تكوني حمقاء، أنتِ مجرد ربة منزل، ما الذي يسعكِ فيه أصلًا؟
- انتظري وسترين، أنا لستُ ماهرة في لعبة الكونكان فحسب، سوف أُعلمكِ بكل شيء.

***

لاحقًا بعد بضعة أيام، قضت ريحانة بأنها قد اكتفت من تكتُّم مايا، ولهذا قررت أن تُواجهها. أرادت أن تعرف ما تفعله الفتاة طوال اليوم في الجامعة. وهكذا استعارت ريحانة سيارة السيدة تشودهاري وأمرت السائق أن يأخذها إلى الحرم الجامعي. لم تدرِ في أي مكان يتوجَّبُ عليها أن تبحث –في النُّزل التي تعرضت للقصف أم في المقصف أم في مركز المعلمين والطلاب– لكنها أيقنت بأنها ستجد الفتاة، وما استطاعت التوقف عن التفكير في أن الفتاة لا بُد تفعل أمرًا سيئًا. كانت مُحبَطة ويائسة، وقد تكون واقعةً في مشكلة. وهكذا ستكتشف ريحانة وستضع حدًّا لهذا الأمر، مهما يكن. بالطبع كانت قلقة، وربما كان قلقها في غير محله، لكن من الأفضل أن تتأكد أن كل شيء على ما يُرام.

لم تزُر ريحانة الجامعة سوى مرةٍ واحدة فحسب، حينما دعاها سُهيل لتذوق لُقيمات «البوكا» المقلية الشهيرة في المقصف. كان قد راهنها أن لُقيمات البوكا المقلية في الجامعة أفضل من تلك التي يتناولونها في دكَّان هوروليكا سناكس في دانموندي. فأجابته ريحانة أن هذا أمرٌ غير معقول.

كانت هي وإقبال قد تذوَّقا جميع لُقيمات البوكا المقلية في دكَّا، وما استطاع أحدٌ أن يتفوق على تلك التي يُعدها دكان هوروليكا سناكس. أخبرها سُهيل أن هذا أمرٌ قد مضى عليه أكثر من عِقدٍ من الزمان، وأن الأمور قد تغيرت الآن. لم يستهوِ ريحانة يومًا أن يُذكِّرها أحدٌ يومًا أن الأمور قد تغيرت وأن زوجها ميت، لكنها تحمست لحماس ابنها، وهكذا وافقت على أن تحكم على الأمور بنفسها. ابتاعا دزينة من لُقيمات البوكا المقلية من هوروليكا سناكس، ووضعا العُلب على رُكبتيهما، وهما يستقلّان الريكاشة في طريقهما إلى الحرم الجامعي.

وفي المقصف، طلب سُهيل دزينةً أخرى. وهكذا وضع الأكواب الصغيرة من العجينة المقلية في صفٍّ أمام ريحانة. ثم صبَّ قليلًا من شراب التمر الهندي في كل واحدة، وراح يلعق شفتيه ويُصفِّق بيديه معًا وهو يقول: هوروليكا مقابل جامعة دكَّا! كيف ستكون نتيجة المباراة؟ توقف بعض الطلاب عن حديثهم وتطلعوا إلى الحشد الصغير. ووقف مالك المقصف أمام طاولة الخزينة وهتف لنفسه. ثم أخبر سُهيل ريحانة أنه توخُّيًا للإنصاف، يجدر بها أن تُغلق عينيها وتتذوق قطعةً من هذه ثم قطعةً من الأخرى.

في النهاية، اختارت ريحانة لُقيمات البوكا التي يُعدُّها المقصف. لقد تغيرت الأمور حقًّا. والآن أُحرق المقصف، إلى جانب مُعظم المباني الأخرى المُنخفضة في الجامعة، عن بكرة أبيها في ليلة المذبحة.

لم تحتج ريحانة إلى البحث عن ابنتها، فقد رأتها بمجرد أن عبرت السيارة من أبواب الجامعة. كان ثمة صفٌّ من الفتيات، ومايا في مقدمته، ترفع ركبتيها أعلى عن جميع الفتيات الأخريات، وتهتف بصوتٍ أعلى من جميع الأخريات. إذن كان هذا هو ما تفعله؛ لا تبدو خجولة أو مُحرجة من أن السلاح الذي تحمله ليس سوى عصا خشبية. صاحت مايا: هيَّا-اثنان-ثلاثة-أربعة! هيَّا! هيَّا! هيَّا!

أمرت ريحانة السائق أن يُوقف السيارة. وراقبت المشهد حيث راحت الفتيات يَسِرنَ من أمامها. توقف بعضهن وتتطلعن إلى ريحانة عبر النافذة. ابتسمت إحداهن في خجل، ولوَّحت إليها الأخرى. أما مايا فقد ظلت عيناها متطلعتين أمامها مباشرةً، ولم تلحظ والدتها. توقفت الفتيات على بُعد بضع خطواتٍ من السيارة، وحرَّكن أيديهن بالعِصي الخشبية، مُتظاهراتٍ بتحميل السلاح وتصويبه وإطلاق الرصاص، ثم إعادة تحميله. كُنَّ يرتدين سواري بيضاء مُنشاة تؤطِّرها خطوط زرقاء رفيعة. بَدون كما لو أنهن عاملات غسيل

الملابس، بوجوهٍ حادة متجهمة، لكن لم تكن منهن مَن هي أكثر تجهمًا من مايا.

جلست ريحانة في السيارة وراقبت ابنتها، في انتظار أن ينتهي التدريب أو أيًّا ما كان هذا. وحالما انتهى الأمر، فتحت ريحانة باب السيارة ولوَّحت باتجاه مايا. كانت مايا تتحدث إلى شاب ولم تلحظ، لكن الفتى الذي راح ينفث حلقات دخان سجائره في الهواء، رأى ريحانة تُلوِّح لابنتها وهمس بشيءٍ إلى مايا. ثم أشار بإصبعه. مشت متبخترةً نحوها، وراح وجهها يُقطِّب مع كل خطوة.

قالت مايا: هل تتجسسين عليَّ؟

كان التدريب قد جعل منها فتاةً عدوانية، وتفكَّكت ضفيرتها، والتصقت الشعيرات المُتناثرة المبتلَّة بجبهتها.

- كلا، أنا... أنتِ تغيبين كثيرًا. وهذا وضعٌ خطِر، أردتُ فحسب أن أرى أين أنتِ.

- حسنًا، الآن تعلمين.

وأزاحت شعرها عن وجهها، ثم تابعت:

- أنا أحاول المشاركة.

- المشاركة بفعل هذا؟ تركضين في كل مكان بأسلحةٍ خشبية؟

كان هذا هو ديدنها، أن تستهل هجومًا كلاميًّا، فقالت: لماذا عُدتِ بنا؟

- ماذا تقصدين؟

- لماذا عُدتِ بنا من لاهور؟ لماذا تكبدتِ عناء إعادتنا إلى هنا؟ أنتِ لا تحملين أيَّ مشاعر إلى هذا المكان.

ماذا تقصد بحديثها؟

- هذا موطني، وموطن والدكِ.

- لماذا إذن لا تسمحين لي بفعل شيء؟

- أريد أن أحميكِ فحسب. كل شيءٍ أفعله إنما أفعله من أجلكِ وأجل شقيقكِ. والآن من فضلكِ، اركبي السيارة، تكاد أجراس حظر التجوال أن ترن.

- لن آتي.

- ماذا؟

- لن آتي. اذهبي أنتِ إلى المنزل، وأنا سأبقى هنا.

- بل ستأتين معي الآن. اركبي السيارة.

شعرت ريحانة بانعدام جدوى ما تفعله، لكنها أصرَّت، وأمسكت بمرفق مايا وسحبتها نحو السيارة. أدهشها ما رأته من قُوتها. حاولت مايا أن تُخلِّص ذراعها، فأحكمت ريحانة من قبضتها، وقالت ببرود: لا تفتعلي مشهدًا.

لم تُحدِّث إحداهما الأخرى في السيارة، وحالما وصلتا إلى المنزل، استدارت مايا إلى أمها وراحت تصيح: أراكِ أخفقتِ في هذا أيضًا. وعجزتِ عن الإبقاء على أخي، ولا يمكنكِ الإبقاء عليَّ أيضًا.

الإبقاء عليَّ. كانت الكلمات مثل السهام المسمومة في أُذنيها.

- أنتِ لا تُدركين ما تقولين يا مايا.

- لقد فقدتِ عقلكِ. منذ.. منذ أن مات أبي، وأنتِ مهووسةٌ بأن تُبقينا في المنزل. أنتِ مجنونة! وتريدين أن تسجنينا!

حاولت ريحانة أن تُغير الموضوع، فقالت: أنا آسفة بشأن شارمين، أعرف أنكِ مستاءة.

- إياكِ أن تتحدثي عنها. لن يسعكِ أن تفهمي أبدًا.

- بالطبع أفهم.

- أعني أنكِ لن تفهمي أبدًا كيف هو الأمر بالنسبة لي ولسُهيل.

- لا تقحمي أخاكِ في الأمر.

قالت مايا: سُهيل، أين هو الآن؟ ربما ميت، قتله أحد الجنود الباكستان!

كان هذا مفاجئًا، لم تقصد ريحانة أن تضربها بتلك القسوة، ولم تنتبه إلى ما فعلته إلا حين رأت الحُمرة القانية على خد ابنتها. وضعت مايا يديها على وجهها مشدوهةً، ثم بدت في شيءٍ من الطمأنينة.. وبعد هنيهة قالت: كان يجدر بكِ أن تتركينا في باكستان.

أرادت ريحانة أن تعتذر لها عن الصفعة، وأرادت أن تهزها حتى تسترد الفتاة صفعتها. لكنها ظلَّت هادئة، تحدِّق إلى ابنتها فحسب، وتتمنى أن لا ترى مايا الرعشة الواهية في فكِّها.

تجنبت الفتاة الكلام؛ لا مزيد من المُجاملات، لا مزيد من «صباح الخير»، لا مزيد من «لستُ جائعة». ومع رحيل سُهيل وآل سينجوبتا، واعتكاف السيدة تشودهاري وسيلفي في منزلهما، خالج ريحانة شعورٌ بالأُلفة نحو المدينة المهجورة. تأخذ مايا طبقها وتتناول طعامها في صمتٍ في غرفة سُهيل. ويظل الضوء مشتعلًا طوال الليل، وبات ما تعرفه ريحانة عن ابنتها لا يأتي إلا من الخط الأصفر الباهت الذي يزحف من أسفل الباب، والأصوات البسيطة التي تصدُر عنها: صوت تشغيل مروحة السقف، وحفيف فَرش السرير وهي تُزيلها عنها، والصفير الخافت لتقليب الصفحات. ظل الحال على ما هو عليه طوال أسبوعين، وراحت أيام أبريل (نيسان)، بحرارتها الشديدة الخانِقة، تتابع يومًا وراء الآخر.

وذات يومٍ صاحت مايا فجأةً: الجنود بحاجةٍ إلى أغطية. وسنجمع السواري القديمة.

- ستخيطين الأقمشة؟

- أجل. نحتاجُ إلى المواد الخام. الملابس التي ستتخلصين منها.

وقبل حتى أن تُدرك الأمر، خطرت لريحانة فكرة قادتها إلى خزانة معدنية قديمة لم تفتحها منذ سنوات. وجدت المفتاح الثقيل خلف الرف السفلي من المطبخ، حيث تحتفظ بالمعُونات الطارئة من الأرز والحمص. فقد علَّمتها حياةٌ متغيرةُ المصائر أن لا ينفد شيءٌ من عندها أبدًا. دومًا ما تُخبئ القليل من كل شيء؛ إصبع من الزنجبيل، أعواد من القرفة، حِفنة من الأرز، في حال إذا ذهبت في المرة القادمة لابتياع هذه البقوليات واستعصت عليها لسببٍ أو لآخر، إما بسبب الفقر وإما ثروات البلاد التي لا يُعوَّل عليها.

انسلَّ المفتاح برشاقة داخل القفل، رُغم سنوات إهماله الطويلة. وحين أدارت المفتاح ولفَّت المقبض لإطلاق الرتاج، تعرَّفت ريحانة إلى الصوت القديم للمعدن المكشوط، وأعدَّت نفسها لاستقبال رائحة كُريَّات العث والحرير. أصدرت الأبواب صريرًا في احتجاج على تغيُّر وضعها بينما قبضت ريحانة على المصارع لتفتحها وتتفحَّص مُحتويات الخزانة المُنفصلة. تقبع

بداخلها السواري التي وهبها إياها إقبال طوال مدة زواجهما التي دامت ثمانية أعوام. وبعد موته، غسلت السواري وكبستها بالمكواة وعلَّقتها بالترتيب الذي قُدمت إليها به.

تذكرت كل مناسبة، الساري الذي وصل إليها في عُلبة من الكرتون باللونين الأحمر والأبيض لمتجر الساري؛ ما يزال ينبعث منه عِطر السوق ورماد سجائر الفتيان الصغار، الذين وُكِّلوا بإحضار السواري المنشَّاة من الأرفف العلوية.. يلفونها برشاقة حول أفخاذِهم اليافعة. ثم يتمايلون مُتبخترين كما تفعل النساء، تتدلى الأوشحة الطويلة من أذرعٍ منبسطة ليعرضوا التطريز المُتقن، والألوان المائية.

لم يكن من العسير عليها ترتيب السواري؛ فبمُضِي السنين، كان ثراء إقبال وعرفانه لزوجته يعني المزيد والمزيد من المُشتريات الجريئة. فتحولت الملابس القطنية البسيطة إلى أقمشة الشيفون الرقيقة، وأُهملت الملابس ذات الطبعات في سبيل الملابس المُطرزة، ودائمًا ما تكون خيوط كل ساري أثقل مما قبلها، بتصاميم ونقوش أكثر إتقانًا وصقلًا، وأقمشة من حرير باهظٍ، وقبل أسابيع قليلة من وفاته، أهدى إقبال زوجته ريحانة دُرَّة الأقمشة وأنفسها، ساري أزرق من حرير البنارسي النفيس.

تطلعت ريحانة إلى السواري، وحاولت أن تسترجع الشعور الذي منحتها إياه: أن تكون مُغطاة الجسد حُرة الروح في الآن نفسه، واللفات الضيقة للأقمشة حول فخذيها وساقيها تحُدُّ من حركتها، والمساحة المكشوفة بين البلوزة والتنورة، تمنحها مشاعر غير متوقعة، الإثارة التي تُحدثها نسمةُ هواء ضلت طريقها أسفل الساري، عبر نافذةٍ مفتوحة، واستشعار الحرارة في أماكن عجيبة، كالظَّهر والبطن المكشوف. كان الأمر أشبه باجتماع الليل والنهار، فالساري، كما يُحكم قبضته حول الجسد، يُحرره أيضًا، وهكذا فإن جسدًا واحدًا، لامرأةٍ واحدة، يمكن أن يُدرك شيئًا عن إشكاليات بني جنسها.

حدَّقت السواري إلى ريحانة كما تُحدِّق إليها الصور في الألبوم: تثير مشاعرها وتُلقي إليها بقليل من الاتهام. لم تكن ريحانة قد ارتدت أي واحدٍ منها لأعوامٍ طويلة. ولم تشعر بأي أسفٍ حيال خسارتها، بل غمرها الأسف بأنها لن تحظى بأي مناسبة لارتدائها بعد الآن. وفي النهاية، كوَّمت السواري بإهمالٍ على ذراعيها، وأسرعت إلى غرفة الاستقبال، مُقدمةً إياها إلى ابنتها.

قالت:

- هاكِ، أغطية من أجل جنود الحرية، سأساعدكِ في الخياطة.

حدَّقت مايا إلى أمها، ثم قالت بهدوء: طلبتُ منكِ الأقمشة القُطنية، ما الجدوى من كل هذه الأقمشة الباهظة؟ ستثير الأغطية الحكَّة.

- ضعيها حشوةً داخل الأغطية، سيحل الشتاء قريبًا، وسيُبقي الحرير الجميع دافئين.

أثار مشهد السواري شيئًا داخل قلب مايا، فراحت تقول بلُطف: أرجوكِ لا تتخلي عنها.

- ولِمَ لا؟ أنتِ لا ترتدين شيئًا سوى الأبيض.

كانت ريحانة مُدركةً لنبرة اللوم في صوتها. لماذا تخرج الكلمات المُوجهة إلى ابنتها دومًا بنبرةٍ شديدة الحِدة، رُغم نياتها الطيبة؟

تجهَّم وجه مايا، ثم قالت: من الحماقة أن تتخلي عن هذه السواري، لا أرى لها نفعًا؛ يجدر بكِ أن تعيديها إلى مكانها.

***

استدعت ريحانة السيدة رحمان والسيدة أكرم إلى الكوخ الصغير. ثم قادتهما عبر درجات السلم إلى السطح وهي تقول: اتبعاني.

كانت ريحانة قد أعدَّت حصيرة من الخُوص وبعض الوسائد. وكانت السواري مُكدَّسة في سلة، وإلى جانبها، ترقد عُدة الخياطة التي تملكها ريحانة. كانت عُلبة الخياطة تحتوي على صفٍّ من الإبر، ومجموعةٍ من بكرات الخيط الأسود. إضافة إلى أنماطٍ صغيرة مقصوصة، ومجموعة من الكُشتبانات. ووسادة إبرٍ صغيرة على شكل حبة طماطم.

قالت السيدة رحمان: ما هذا كله؟

وانسلت قدماها خارج خفاها، ثم ارتمت بتثاقلٍ على الحصيرة. وأضافت: أتريدين فتح متجر خياطة؟

أجابت ريحانة:

- ألا تعلمين، أننا في حالة حرب، تقول ابنتي إن عليَّ فعل شيء، طالما أردتُ أن أنتمي إلى هنا. وها أنا أفعل شيئًا.

شعرت ريحانة بدمعةٍ تزحف عابرةً مُقلتيها؛ فمالت برأسها إلى الخلف. وبعد هنيهة تابعت: ها أنا أفعل شيئًا. أخيطُ الأغطية من أجل اللاجئين.

ثم شعرت بشفتيها تنفرِجان كاشفتين عن أسنانها. فسألت السيدة أكرم: ماذا يحدث؟ أين سُهيل؟

كانت ريحانة تتوق لإخبارهما، لكنها أجابت: ليس هنا، لقد أرسلته إلى كراجي.

- حقًّا؟ ظننتُ...

- ألا تعلمين ما يفعلونه لكل طُلاب الجامعة؟ يختطفونهم. ماذا تتوقعين مني أن أفعل، أجلس هنا فحسب وأدعهم يأخذونه؟

أشارت السيدة رحمان إلى الأقمشة الحريرية، وقالت: ريحانة، ليس عليكِ استخدام هذه، يمكننا العثور على بعض الأقمشة القطنية القديمة.

جزَّت ريحانة على أسنانها، وأجابت: ولِمَ لا؟ على الجميع أن يضحوا بشيء، فِلمَ لا أضحي أنا أيضًا؟ إنها بلادي أنا الأخرى.

استطردت السيدة أكرم مستهلةً كلامها: بالطبع هي بلادكِ أنتِ أيضًا...

- إن ابنتي لا تظنُّ هذا.

- أقالت هذا حقًّا؟ لا بُد وأنها لا تعني ما قالته؛ أنتِ تعلمين طبيعة الأبناء مع آبائهم.

- لقد صفعتُها.

وضعت السيدة أكرم يدًا على ذراع ريحانة وقالت: رباه يا ريحانة.

- لم يكن بيدي حيلة، بل صفعتُها فحسب. لقد انفلت عِيارُها.

قالت السيدة رحمان: يجب أن تتحلي بالصبر يا ريحانة.

فأجابت المقصودة: الصبر؟ لا أملك من أمري شيئًا سوى الصبر على هذين الطفلين. يركضان في كل أنحاء المدينة، هذه الثورة، وهذه الديمقراطية.. لا أملك شيئًا سوى الصبر على هذا كله!

- هذا ينطبق على سُهيل، أجل، وإنما...

- ماذا تقصدين؟

تبادلت المرأتان نظراتٍ حذرة، ثم بادرت السيدة رحمان قائلة: نعلم أن الفتاة ليست سهلة المعشر تمامًا. ولكنكِ دائمًا ما كنتِ قاسيةً بعضَ الشيء على مايا.

- قاسية؟ أنا؟ أنا مُجرد شخصٍ وحيد، وعليَّ أن أفعل كل شيء. أهذا معقول، معقولٌ إنسانيًّا؟

كانت ريحانة على دراية بصدق استنتاجهما. وقد أشعلت هذه المعرفة النيران في قلبها، غير أنها عجزت عن حمل نفسها على الاعتراف بالأمر. أنتما على حق، لقد ظلمتُها.

لم تُفصح عن شيءٍ بداخلها وأجابت مُنهيةً الحديث: تريدان مساعدتي. ابدآ في الخياطة.

***

هطل المطر في اليوم الأخيرِ من شهر أبريل. وراحت ريحانة تشاهد الغيوم القُطنية تصيح في الأرض الجائعة المُتصدعة. تصورت المطر يهطل على النزوح الجماعي على طريقي جيسور وميمنسينج وعلى النوافذ والبطون المنتفخة، ليحاول محو الدموع التي تنهمر بقدر ما تتسع السماء على الجماعات الراحلة تدريجيًّا. وتسقط على ابنها سُهيل وأصدقائه، وهم يعبرون عُشب المراعي المُزدهر وحقول الأرز المنخفضة وسنابل القمح المصبوغة بالصفرة، وهم يبحثون عن الحرب، لا يتقلَّدون سوى ابتساماتٍ تكشف عن أسنانٍ رطبة باللُّعاب، وقصائدهم، وحداثتهم التي تتحدَّى الموت.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مايو

تِكّا خان، سفاح البنغال![1]

(1) تِكّا خان هو عميد في الجيش الباكستاني، والمهندس التنفيذي المسؤول عن الإبادة الجماعية التي وقعت في بنجلاديش عام 1971، والتي نتج عنها ما يتراوح بين 300 ألف و500 ألف من الضحايا. (المترجمة)

شرعت السيدة رحمان والسيدة أكرم في أعمال الحياكة بالحماس نفسه الذي كانتا تُظهرانه للعبة الكونكان. كانت النساء الثلاث يجتمعن في الكوخ الصغير كل أسبوع، وفي حوزتهن مُعدات الحياكة. استطاعت السيدة رحمان أن تحصد إمدادًا مستمرًّا من السواري القديمة من أقاربها ومعارفها المختلِفين. واستعانت بكل مَن تعرف من أقاربها البعيدِين وأصهارها وخياطتها، للمُشاركة في الجهود المبذولة للحرب. ولا شك أن لديها من الفطانة ما تبينت معه أن لا أحد بالحماقة التي تجعله يتخلى عن أفضل ملابسه.

أما السيدة أكرم، التي كانت تُعتبر المرأة المدللة من بينهن، أدهشتهما بما تنتجه من غُرز سريعة. وكانت هي مَن اقترحت وضع ألياف الخيش بين السواري، لتجعلها أكثر تماسكًا.

قالت السيدة أكرم: دعونا نُطلق على أنفسنا أخوات الحياكة. أو، أنا أعرف اسمًا، مشروع السطوح!

- تودين الآن أن تُطلقي علينا اسمًا، ألم تكوني أنتِ مَن قالت إننا لا نصلح لشيءٍ سوى ألعاب الورق؟

اعترضت السيدة أكرم والإبرة بين شفتيها: لم أقل هذا قط. هذا ليس من نوع الهراء الذي قد أتفوه به.

حدَّثت ريحانة نفسها أن ما قالته صديقتها صحيح؛ فلم يعد هذا حديثًا تتفوه به. مرَّ شهران بالفعل، وشعرت أنهما من الماضي البعيد. لقد حلَّ شهر

مايو، وما تزال الحرب قائمة منذ شهر مارس. وما كان عجيبًا بات مألوفًا. اعتاد البنغال على رؤية الأزياء العسكرية الخضراء أينما ذهبوا؛ واعتادوا العودة صاغرين إلى منازلهم حين تدوي صافرة حظر التجوال؛ واعتادوا الشوارع الخاوية المُغبَّرة والدكاكين المغلقة وأبواب المستشفيات المُوصدة، والباعة المتجولين ذوي الأقفاص نصف الممتلئة. صار مشهد الحرب مألوفًا، ووجد كلٌّ سبيله ليتعايش مع الأمر.

كانت مايا ما تزال غاضبة من ريحانة، وضُرِب الشِّقاق بينهما وخيَّم الصمتُ عليهما. كانتا تُدحضانه غيدًا ورواحًا. وأحيانًا، بينما تنتظر ريحانة عودة مايا من الجامعة، تُقرر أن تقول شيئًا وتُصلح الأمر؛ كان بوسعها أن تشعر بالكلمات اللينة تتردد بين شفتيها. **أنا آسفة لأني صفعتكِ.** لكنها لم تقوَ على النطق بها؛ وبمجرد أن تعود الفتاة إلى المنزل، وبمجرد أن ترى ريحانة وجهها المُتجهم، والطريقة التي تصفع بها رتاج الباب، يندفع السخط بداخلها مرة أخرى. لِمَ لا تبتسم، لِمَ لا تمنحها إشارةً على أنها قد تلين يومًا ما؟ ولكنها لم تفعل، ودبَّ الجُمود في قلب ريحانة هي الأخرى، وحُشرت الكلمات في مكانٍ ما بين قلبها وشفتيها.

كلما مرَّ الوقت، ازداد الأمر صعوبةً. نظَّمت ريحانة المنزل؛ وحزمت الإمدادات التي تركها الفِتيان في الكوخ الصغير؛ وأنهت تطريزاتها. قضت وقتًا بين جدران الوحدة يمتد إلى الأبد، وبات الفعل الوحيد المشترك بينها وبين مايا الآن هو الاستماع إلى المذياع. في الصباح، تستمعان إلى إذاعة بي بي سي البنغالية، وبعد الظهيرة تستمعان إلى إذاعة فويس أوف أمريكا. عدا أن البرنامج الذي تنتظرانه بترقُّب كان إذاعة بنجلاديش الحُرة، كل يوم في الساعة 4:30، ويُذاع من موقعٍ سري مخفي في المنطقة المُحررة.

وصلت أعداد اللاجئين النازحين إلى غرب البنغال إلى مليون لاجئ. وأوضحت منظمة الصليب الأحمر الدولية أن مخيمات اللاجئين على امتداد الحدود بين الهند وبنجلاديش قد ازدحمت عن آخرها وتُعاني نقص المياه النظيفة وقلة النظافة وفقر المُنشآت الطبية المُلائِمة. وتعهدت رئيسة الوزراء الهندية أنديرا

غاندي بدعمها لشعب بنجلاديش، وأوضحت أن شعب البنغال المُحب للحرية سينتصر قريبًا على الحُكم الفاشي للجبابرة الباكستانيين.

وهكذا حالما عاد سُهيل إلى دكّا، كانت المدينة قد استكانت مُجددًا إلى نوع من الروتين. عاد إلى المدينة في منتصف الليل، ووقف عند مؤخرة سرير ريحانة. لاحقًا، ستقول الأم أنها أدركت وجوده أمامها على الفور، وأنها تعمَّدت الإبقاء على عينيها مُغلقتين، تستطيب شعور الارتياح الذي غمرها مع عودته، عودته حيًّا، لكن في حقيقة الأمر، استغرقت ريحانة في النوم طوال الوقت، منذ دخوله عبر البوابة، وتجنبه الهادئ للأثاث وصناديق الدواء، والنفس العميق الذي أخذه قبل أن ينطق أكثر كلماتها المُفضلة.

- أمي.

ألصقت خدها بخده. انبعثت منه رائحة البنزين والسيجار، وحين لامست قميصه، استشعرت يدها وِحدةً عميقة تُوخز روحه.

قالت: هل أكلت؟

ثم ضحكت من نفسها. ومع ذلك، نهضت عن كُرسيها واندفعت إلى المطبخ حين راح هو يُوقظ مايا. لم تحظَ ريحانة سوى هنيهة لتُنعم النظر فيه. كان يرتدي قميصًا رماديًّا وسروالًا أزرق؛ كلاهما مُتسخ، وبدا وكأنهما أكبر من مقاسه كثيرًا. كانت حدقتاه مُحاطتين بحلقةٍ من اللون البني الداكن، ونبتت له لحية. استشعرت شيئًا أجنبيًّا في شخصه لا تُخطئه العين، كما لو أن أياديَ أخرى قد شرعت تُشكِّله، أياديَ ليست مُحبة ولا حنونة كيَديْها. لم تتمالك نفسها من العودة بذاكرتها إلى السنوات التي قضاها برفقة بارفين. **إن طفليَّ لم يكونا دومًا طفليَّ**. وشرع الجرح القديم ينزُّ بداخلها.

فكَّرت مليًّا فيما ستطهوه، وسمعته يُوقظ شقيقته. صاحت مايا: أخي!

كان هذا أبهج تعليقٍ نطقت به مايا منذ شهور، وسمعتها ريحانة تقول لشقيقها: أخبرني كل شيء، هل ذهبت إلى جبهة القتال؟

سرعان ما اصطفت صنوف الطعام على الطاولة، من بيضٍ بالكاري، والقليل من شرائح الباذنجان المقلي، وبقايا حساء العدس. شمَّر سُهيل عن

ذراعيه بلهفة، ومن بين اللقيمات التي ملأت فمه راح يُخبرهما كل شيءٍ عن جيش المناضلين في سبيل الحرية.

فقال:

- اقتادنا جوي إلى النهر، ومن هناك أخذنا العبَّارة. كانت تعجُ باللاجئين. سمعنا أفظع القصص عن تلك الليلة. الكثير من حكايا الهندوس خصوصًا.

قالت مايا: لم يعد آل سينجوبتا بعد.

أومأ سُهيل في إيجاب، وصمت هنيهة حالما يأخذ قضمة أخرى، ثم ابتسم إلى والدته بامتنانٍ. وحين رمق الباب خلسةً، أدركت ريحانة ما كان يُفكر فيه. فقالت: إنها بخير. لكننا نادرًا ما نراها.

أومأ سُهيل بإيجابٍ وأكمل قصته: لم نعلم إلى أين نذهب، كل ما سمعناه هو أن الأفواج البنغالية عبرت الحدود، وأقاموا مخيمًا. علمنا أن خال راجو يعمل في القوات العسكرية، وفكَّرنا في البحث عنه. بعد ثلاثة أيام، وجدنا المخيم. كانت الأفواج البنغالية في الشرق قد تمرَّدت كلها. وكانوا يحشدون بعضهم حين وجدناهم. كانت إقامتنا مؤقتة في بادئ الأمر، ثم انتقلنا إلى أجارتالا، على بُعد نحو خمسة عشر ميلًا عن الحدود. صارت الآن مثل مدينة صغيرة، بُني بها مشفى، وثكنات للضباط. كان هناك آخرون في شيتاجونج وسيلهيت وراجشاهي؛ سبعةُ قطاعاتٍ في المجمل.

قالت مايا: كُنا نستمع إلى المذياع.

سألت ريحانة: أين تنام؟

كانت تستشعر رغبته في الحديث عن أمورٍ أكثر أهمية، وإنما لم تتمالك نفسها. وهكذا أجاب سُهيل:

- خيامٌ يا أمي. الوضع ليس مُريحًا للغاية. ولكن حينما أعود، عليكم أن تزودوني ببعض الأغطية وطبقًا. لقد كنتُ أتناول طعامي من أوراق الموز!

إذن سيعود سُهيل. حاولت ريحانة أن لا تُبدي خيبة أملها. ها هو ابنها، يحيا حياةً غريبة، وهو الذي اعتاد أن يُحب إلفيس بريسلي، كما تذكرت فجأة. مالت إلى الطاولة وكدَّست المزيد من الأرز في طبقه.

التمعت عيناه وهو يُكمل حديثه: انضم الجميع إلينا، الجميع، الشبان كلهم يُقاتلون جنبًا إلى جنب، لا أحد يهتم مَن تكون أنت، انضم الجميع: الفلاح والجندي، معًا، كما كنا نحلم بالضبط.

ثم تغضَّنت ملامح وجهه، قبل أن يضيف: لكن الوضع سيئ كما تعلمين.

سألت مايا: وماذا ستفعل أنت؟

أخذ سُهيل نفسًا عميقًا، وأجاب: خضعتُ للتدريب، كفدائي.

منحت الكلمة ريحانة صورة غامضة لرجلٍ خارج عن القانون. فسألت: فدائي؟ هل هي مهمة خطِرة؟

قالت مايا مُتعجبة: بالطبع مهمة خطِرة يا أمي! إنها حرب! ماذا تظنين؟

- أعلم ما هي الحرب يا مايا.

- ألستِ متحمسة قليلًا حتى؟ أمةٌ بأكملها تجتمع معًا.

- متحمسة؟ لستُ متحمسة، أنا مريضة، مريضة بالقلق؛ هذا ابني! ابني!

غادرت ريحانة الطاولة وسارت نحو المطبخ، تُتمتم بشيء حول الحلوى. كان بإمكانها أن تسمع تنهيدة ابنتها وهمس سُهيل بشيء يُحاول معه أن ينشر السلام بينهما.

جال بخاطر ريحانة أن أي شكوك ساورت سُهيل ذات مرة حول أن يصبح جنديًّا، قد اختفت كليًّا. فكما هو الحال في كل شيء، كان قد أخذ الأمر على عاتقه بشيءٍ من الإخلاص الوحشي. لقد صار فدائيًّا؛ رجلًا يُدافع عن بلاده. وسيموت في سبيلها إن اضطر إلى هذا. تساءلت ريحانة في قرارة نفسها ما إذا كان يجدر بها أن تُعِد نفسها لأي مُفاجئة، أن تتخيل حياةً دون ابنها، أن تحفر أخدودًا حيث اعتاد أن يكون، وأن تستأنِس صدمة غيابه. ولمَّا خطرت ببالها هذه الفكرة، أدركت أنها لا تملك خيارًا. لا يسعها التخلي عنه، لا امتثالَ للقدر ولا في سبيل الأمة، وإذا اختار هو الرحيل عنها على أي حال، لن تجد طريقة لتحاشي حدوثه.

***

كان الفجر على وشك البزوغ لمَّا انتهوا من تناول طعامهم.

- استرح قليلًا يا سُهيل.

لكنه التفت حوله، كمن يُقرر ما إذا كان سيتحدث أم لا، ثم قال أخيرًا:

- أمي، مايا، أحتاجُ إلى أن أطلب منكما أمرًا.

لوَّح بيديه ليجذبهما قريبًا منه. وسحب كرسيًّا نحوه لمواجهتهما، وهو يتحرك مُغلقًا الستائر في وجه الفجر البازغ. أطفأ المصابيح وسمح لشرارة لهبٍ صغير تنبعث من مصباح الكيروسين تُلقي بالظلال على وجهه. ضمَّ راحتي يديه معًا، واستهل حديثه:

- ستحدث بعض العمليات الفدائية هنا، في دكًّا. ونحتاجُ إلى مكان في المدينة.. مكان لتخزين الأسلحة. مكان آمن للاختباء قبل العمليات وبعدها.

تطلع إلى أمه، فلم يجد منها ترددًا. فتابع:

- إن مهمتنا هي بلبلة الوتيرة العادية التي تسير بها المدينة. ونحرص أن يعلم العالم بأكمله بما يحدث. لن يقف الناس مكتوفي الأيدي، ويشهدوا اغتصاب أراضي بنجلاديش.

أخذ سُهيل نفسًا عميقًا، ثم أكمل:

- لقد عدتُ إلى هنا كي أبحث عن مخبأ، وأستقطب المزيد من الرجال من أجل الكتائب الفدائية.

تصورت ريحانة الرحلة التي قطعها سُهيل ليعود إلى هنا، ومراوغة المتاريس المنصوبة في أنحاء المدينة، والمناورات القوية التي تمسح أحواض النهر، والشاحنات الخضراء التي تحمل جنودًا مُدجَّجين بالأسلحة. تصورت أن ثمة رجلًا مسؤولًا، رجلًا عسكريًّا، يُلقي بنظرةٍ واحدة فحسب على ابنها، ويُدرك أنه الشخص المناسب لإعادته إلى دكًّا. ودت لو يتعاظم غضبها منه ويتضاءل اعتزازها به، لكنها وجدت نفسها ترغب في الموافقة، ليس لأجل اكتسابها ثقة سُهيل فحسب، وإنما لعجزها أيضًا عن إلقاء اللوم على أحدٍ غيرها، حين أحسنت تربيته وجعلت منه رجلًا مستعدًّا لتحمل المسؤولية. كان هذا هو الرجل الذي تمنت أن يصير إليه، حتى لو أنها لم تتخيل يومًا أن ابنها أو العالم من حولها سيؤول إلى ما آل إليه. وأدركت ما يطلبه منها.

- تريد أن تستخدم شونا؟

- أجل.

يقف شونا موليًا ظهره إلى الشمس. شونا الذي أعاد إليها طفليها. شونا الشاغر، الذي يقف معتدًا بنفسه، شونا سيد الكثير من الأحلام.

- المنزل منزلك يا سُهيل. حقٌّ مشروع لكَ.

ما لبث سُهيل أن هيَّأ شونا ليكون المقر الرئيسي للعمليات الفدائية في دكًا. فبعد أيامٍ قليلة من وصوله، راقبته ريحانة وهو يحفر خندقًا، بمساعدة الفتيان الآخرين، في المرعى الخشن إلى جانب أغصان الورد ليحفظوا أسلحتهم. اعتادوا العمل ليلًا، مُستبصرين بكشَّافات صغيرة لاختراق الظلمة. وذات مرة، حين غالب فضول ريحانة رباطة جأشها، تسللت إلى داخل أحد هذه الخنادق، لكن كل ما رأته كان مجموعةً من الصناديق الخشبية الصلبة وشيئًا يتلألأ من أسفلها، وكأنه يغمز إلى الشمس، مما خفف من حدة شمس مايو (أيار) الحارة. هيَّأ سُهيل وأصدقاؤه الحجرات الخلفية في شونا من أجل المُجندين الجُدد. كانت لا تراهم سوى فتيان صغار، ما يزالون في ريعان الشباب. وعندما يحتاج الفتيان إلى شيءٍ ما، يأتون إلى الكوخ الصغير، ويطلبونه بأدب. مِطرقة.. كوب من الماء.. صابون.. ولم يمكثوا طويلًا قط.

أبقى النشاط المُنتشر في شونا مايا قريبةً من البيت. فقد قضت ساعات طويلة تساعد الفتيان في كتابة البيانات الصحفية. وجدوا لها آلة كاتبة قديمة، ورأوها تنكب عليها باشتياق، متجهمةً إلى الحروف، تضرب المفاتيح بقوة بإصبعيها. وقال سُهيل إن الآلة الكاتبة بدت بين يديها مثل مدفع رشاش. وفي المساء، لمَّا أصرَّت ريحانة على مايا أن تأكل معها في المنزل، حملت مايا الآلة الكاتبة الضَّخمة وعادت بها إلى المنزل. كانت الصفحات تُرفرف مثل أجنحة بيضاء لطائر صيفي.

راقبت ريحانة الظلال المُحتشدة تدخل وتخرج من شونا، وراحت تتخيل الحوارات التي يجرونها والخطط والأسرار. حاولت أن تُواكب النشاط القائم في المنزل المُجاور، فنظَّمت شؤون الكوخ الصغير. اقتصدت في المال الذي تركه لها آل سينجوبتا، ودوَّنت جدولًا صارمًا للغسيل، والتنظيف، والتسوق، والطبخ. إضافة إلى الإمدادات الطبية التي بحاجةٍ إلى التخزين. وهكذا وجدت نفسها مشغولة ومُستغرقة في العمل طوال الوقت. ولم يُتح إلا القليل

من الفرص للتركيز على اختفاء شارمين أو غضب مايا أو صمت السيدة تشودهاري وسيلفي في المنزل المجاور.

المُشكلة الوحيدة التي قابلتها هي الحياكة؛ كان من المقرر أن تأتي السيدة أكرم والسيدة رحمان إلى الكوخ الصغير، وبحوزتهما مخزون جديد من السواري، ولكن لا يمكن إخبارهما بشأن شونا. خالج ريحانة شعورٌ بالذنب لإخفائها الأسرار عن صديقتيها، لكن سُهيل قال إنها مسألة تتعلق بسلامتهم؛ فقال: «**يجب أن تتظاهري أننا لسنا هنا**». ليسوا هنا؟ كان هذا كل ما تمكنت من التفكير فيه، ولكن كان على ريحانة أن تضع خطة لتُبعد أصدقاءها عن الكوخ الصغير.

وهكذا قضت ريحانة أن ليس أمامها سوى أمر واحد: أن تصنع المُخلل. أوشكت ثمار المانجو على الأشجار على النضج: فباتت خضراء بلون العُشب، ولاذعةً بمرارةٍ تضرب اللسان. طلبت من الفتيان قطفها من على الأشجار. فلمَّا كانوا أصغر سنًّا، كانت هذه مهمة الطفلين. كانت مايا هي الأفضل من بين المتسلقين: تلتف قدمها حول الأغصان وتتشبث بها، وحين تبسط ذراعيها وتقطف الثمار، ملقيةً بها إلى ريحانة بالأسفل، تظل ريحانة تصيح: احترسي! احترسي!

ستُقطِّع ثمار المانجو إلى شرائح، وتطهوها على نارٍ هادئة مُضيفة إليها الفلفل الحار وبذور المُستردة. ثم تُعبئها في المرطبانات وتتركها على السقف لتنضج. وُضِعت قاعدة بشأن عدم لمس المُخلل في أثناء فترات الطمث. عجزت عن تذكر مَن أخبرها بتلك القاعدة؛ والدتها؟ كلا، ربما لم تُقطِّع أمها يومًا شريحة مانجو واحدة في حياتها الحالمة القصيرة. لا بُد أنها واحدة من شقيقاتها. مارزيا، فقد كانت أفضل طاهية من بينهن، وواضعة القواعد. لكن ريحانة قد قضت منذ وقتٍ طويل أن هذه القاعدة ليست سوى قاعدة سخيفة. كفى به جهدًا كابدته ريحانة لتُدرج صنع المُخلل في جدول أعمالها، ما بين إعداد الثمار والطقس، والذي لا بُد أن يكون طقسًا جافًّا شديد الحرارة.

راحت تسترجع وصفة المُخلل في ذهنها، بينما تساءلت عما ستقوله عنها شقيقاتها في هذه اللحظة تحديدًا. تُبقي على الفدائيين في شونا.. تخيط أقمشة السواري على السطح.. وابنتها تتدرب على استعمال السلاح. حملها تخيل وجوههن المصدومة على الرغبة في الضحك. تصورت الخطاب الذي ستكتبه إليهن. ستقول: شقيقاتي العزيزات. إن بلادنا في حالة حرب: بلادكن

وبلادي. وبتنا الآن على جانبين مختلفين. أنا أصنع المُخلل من أجل المجهود الحربي. أترين كم أنتمي إلى هنا وليس إليكن.

عرَّى الفتيان الشجرة من ثمارها وأحضروا إليها ثلاث سِلال من الفاكهة مُمتلئة عن آخرها. ونقَّبت ريحانة عن كل مرطبان زجاجي يمكنها أن تجده، وحين نفدت منها، قررت استخدام الأواني الفخارية التي كان يُحفظ فيها الزبادي في زمنٍ مضى حين كانت تجد الزبادي الطازج في السوق كل يوم.

شغلت المرطبانات نصف السطح، وتزايدت الرائحة الكريهة التي تُوخز الأنف لتُغطي المساحة المتبقية. وحينما تأتي السيدة رحمان والسيدة أكرم في اليوم التالي، سيتشممان رائحة المُخلل المُجفف من عند البوابة ويرفضان الحياكة.

***

في اليوم التالي، بينما تفحص ريحانة المُخلل لتتأكد من تهيئته على نحو مناسب، سمعت جلبةً بسيطة عند البوابة. جال بخاطرها أنها لا بُد السيدة أكرم، ومسحت يديها في وشاحها. دومًا ما تأتي باكرة. انحنت ريحانة على سور الشرفة وكانت على وشك أن تُلوِّح بيدها حينما رأت شخصًا آخر، امرأةً تخرج من سيارة، وليست صديقتها تهبط من الريكاشة. ربما أخطأت المرأة في العنوان. اقتربت ريحانة من المشهد، وكانت على وشك أن تُنادي المرأة وتسألها ما إذا كانت تائهة حينما رأتها تُطيل عنقها وترفع مزلاج البوابة.

قالت المرأة: ريحانة؟

كانت لتتعرف إلى هذا الصوت في أي مكان. راحت تهبط السلم درجتين في المرة الواحدة، وقلبها ينتفض في صدرها.

كانت المرأة تطرق على الباب حين اقتربت ريحانة من الحديقة، وقالت: بارفين.

صفَّقت بارفين يديها وتطلعت إلى وجه ريحانة بعينين مُتلهفتين، وهي تقول: ريحانة! حمدًا لله! كُنا قلقين للغاية.

قالت ريحانة: تفضلي بالدخول.

وحدثت نفسها أن حافظي على هدوئك. هذه المرة لم تأتِ بارفين لأخذ طفليك. راقبتها ريحانة وهي تعبر الباب وتستكين على الأريكة، وتزفر تنهيدة قلقة. ثم مالت برأسها مستندةً إلى الوسادة وجالت بعينيها في الغرفة.

تذكرت ريحانة أن عشر سنواتٍ قد مرَّت. انقضى العِقد، كنفحةٍ من الهواء، حين تطلعت إلى ذلك الوجه؛ كانت تلك الأرملة المُرتجفة الغبية التي تخلت عن طفليها. فاض فمها بطعم المرارة. فقالت ريحانة وهي تنوي أن يبدو صوتها باردًا لا غاضبًا: ما الذي أتى بكِ إلى دكَّا؟

أجابت بارفين: لماذا؟! إنها الحرب. ماذا تظنين؟ إن أخاكِ فايز قد تولى مسؤوليةً غاية في الأهمية. غاية الأهمية. لم نُرد المجيء بالطبع، ولكنكِ تعلمين فايز، رجلٌ بارٌّ وصالح. دومًا ما يريد خدمة بلاده.

انتابت ريحانة موجة من الحيرة. أي مسؤولية؟ وأي بلاد؟

- لم نأتِ سوى الأسبوع الماضي. وحاجياتنا لم تأتِ بعد، ما يزال المنزل غارقًا في الفوضى. لكني فكرتُ أن عليَّ رؤية أختي. ماذا ستظن بنا إذا سمعت بالأمر؟

لم تعرف ما تُجيب به، فقالت: حسنًا، مضى وقتٌ طويل.

- طويلٌ للغاية!

طال الصمتُ بينهما. لم ترغب ريحانة في الإتيان على ذكر الطفلين؛ وهكذا تركت لها حرية المبادرة بالسؤال إن هي أرادت المعرفة. عندما عاد الطفلان من لاهور، رفضت ريحانة أن تتحدث عن تلك السنين التي فرَّقتهم. لم تُرد أن تعرف عنها شيئًا، وكان كل ما سألت عنه إن كانا يتغذان جيدًا، إن كانا قد تعرضا للضرب، وإن كان قد وقع لهما أي حادث مُريع. فتشت في أنحاء جسديهما بحثًا عن كدمات. وأدركت أن جزءًا ما بداخلها كان يتمنى لو يرى بعض الأعراض الجُسمانية، شيئًا من سوء المعاملة الواضحة، تُخبرها أن طفليها بدورهما يحملان علامات انفصالهما الطويل عنها. رفضت أن تسمع أي شيءٍ يتعلق بالعواطف البسيطة والحياة التي عاشاها في غيابها. وتحديدًا لم ترغب في معرفة ما إذا كانت بارفين نجحت في دورها كأمٍّ بديلة لهما أم لا.

صفقت بارفين بيديها على ركبتيها، وقالت: إذن، الطفلان. هل هما بخير، بإذن الله؟

- أجل، ما شاء الله، إنهما بخير.

أوشكت ريحانة أن تُخبر بارفين أنهما ليسا بالمنزل، وكم هو مؤسف أن يُفوِّتا زيارتها، لكن بارفين قاطعتها ونحت إلى موضوعٍ آخر، فسألت: وما زلتِ تعيشين هنا؟ أهذا منزلكِ المُؤجَّر، في الخلف؟

- أجل.

- هل لديكِ مستأجرين؟

- أجل، آل سينجوبتا.

تجهَّم وجه بارفين، وعلَّقت: هندوس؟ أعطيتِ منزلكِ لهندوس؟

فقالت ريحانة: إنهم مستأجرين لديَّ منذ أعوام طويلة؛ فباتوا في مقام العائلة.

- حسنًا، افعلي ما تشائين يا ريحانة، ولكني ما كنتُ لآمن على منزلي في أيدي هؤلاء الناس...

وتغضن وجه بارفين بالاشمئزاز، كما لو أنها ارتشفت لتوها من كوبِ حليبٍ فاسد.

تجاهلت ريحانة تعليقها الأخير؛ فقد كانت منشغلة بكشف القناع عن غرض هذه الزيارة، وأسباب سلوك بارفين المُتعجرف. بيد أن آثار الماضي النجس بينهما قد اندثرت، ولكن ما كان لريحانة أن تندهش من شيءٍ كهذا؛ فهذا هو ديدن العائلات: يُحطمون بعضهم، ثم يتظاهرون أن شيئًا لم يحدث، ويعودون إلى عاداتهم القديمة، وإهاناتهم المعتادة؛ كما تفعل بارفين الآن، وهي ترمق بنظراتٍ مختلسة الحالة الرثة لأثاث ريحانة.

- ... كما أننا سنتخلص منهم أيضًا.

عادت ريحانة إلى وعيها وتداركت الحوار الدائر، فسألت: ممن تتخلصون؟

- ألم تكوني منصتةً لما أقول يا ريحانة؟ إنني أتحدث عن العناصر النجسة في أمتنا العظيمة: الهندوس والشيوعيين ومُؤيدي انفصال الدولتين! هذا هو سبب مجيئنا إلى هنا، يا له من واجبٍ عظيم، ويا لها من حظوة.

أهذه هي المأمورية؟ اختلست ريحانة النظر عبر النافذة إلى شونا. تجلس بارفين على بُعد أقدامٍ قليلة من مخبأ الفدائية. حين طمأنت ريحانة نفسها أنه ما مِن حركة واضحةً في المنزل المجاور، استكانت، وغمرتها بهجةٌ مفاجئة

لهذه الخديعة؛ أن ترى بارفين تفترش الأريكة في استرخاء بينما يدفن الأولاد المدافع في الحديقة المجاورة. كادت ريحانة أن تعرض على بارفين وجبةً خفيفة، حين سمعت طرقًا على البوابة، تبعه صوتُ تأرجح الباب المنفتح.

- يا هلا يا هلا! نأسف على التأخير.

كان الطارق هو السيدة أكرم والسيدة رحمان. سمعتهما ريحانة وهما تعبران مصف السيارة وتقولان: ما هذه الرائحة؟ ريحانة، هل افتتحتِ مصنعًا للمُخلل على سطح المنزل أم ماذا؟

أسرعت ريحانة إلى الباب وأرشدتهما إلى الدخول، ثم قالت وهي تحاول أن لا تبدو متكلفة: تفضلا بالدخول، تفضلا. أقدم لكما سِلفتي بارفين... سِلفتي، هاتان هما صديقتيَّ، السيدة أكرم والسيدة رحمان.

رمقت السيدة رحمان بارفين بنظرة تقييم واضحة، ثم قالت بصوت ناظرة مدرسة: السلام عليكم.

ورددت السيدة أكرم تحيتها: السلام عليكم.

قالت السيدة رحمان: سمعنا جميعًا الكثير عنكِ. ماذا أتى بكم إلى دكًّا؟ ظننتُ أنكم تعيشون في لاهور.

أجابت بارفين ضاحكة: جئنا إلى هنا لإصلاح الأمور!

قالت ريحانة: لقد جاءوا للعمل في الجيش.

راحت ريحانة تدعو الله في سرها أن تحتفظ السيدة رحمان بأفكارها لنفسها.

قالت السيدة أكرم: آه، حسنًا، فهمت.

ووقفت المرأتان بارتباك حول الباب، لا تعلمان إن كان يجدر بهما الجلوس أم لا.

سألت السيدة رحمان: ماذا عن هذا المُخلل؟ الرائحة كريهة!

قالت بارفين: أوه، أهذا هو سببها؟

قالت ريحانة: آسفة يا أصدقاء، علينا أن نبحث عن مكانٍ آخر.

سألت السيدة رحمان: أأنتِ ممسوسة؟ لا بُد أن سهرتِ الليل بطوله.

- حسنًا، فكرتُ في أنه يجدر بي الإكثار من المُخلل بقدر ما أستطيع، مَن يدري ما سيحدث لشجرتي؟

أجابتها السيدة أكرم بإيماءة موافقة، ثم قالت: هذا صحيحٌ تمامًا. المُستقبل مجهولٌ كليًّا.

سألت السيدة رحمان: ولكن مَن سيأكل هذا القدر من المُخلل؟ لقد أصابني المغص من مجرد التفكير في الأمر.

قالت السيدة أكرم: ربما يمكنكِ بيعه.

- مم، فكرةٌ جيدة، وهكذا يمكننا شراء المزيد من الخيوط.

قالت ريحانة، متلهفةً للتخلص منهما: سنرى.

لحسن الحظ أن بارفين تجاهلت حديثهما؛ ونهضت عن كُرسيها وشقت طريقها إلى طاولة العشاء، حيث احتفظت ريحانة ببواقي خبز البراثا من وجبة الفطور؛ لم تلمس مايا حصتها من الخبز.

قالت ريحانة: هل لنا أن نؤجل الأمر يومًا أو يومين حتى نجد مكانًا آخر أكثر مُلاءمة؟

غادرت سيدتا لعبة الكونكان، بعدما ربَّتتا على ظهر ريحانة، وهمستا في أذنها أن: «أخبرينا كل شيءٍ غدًا». بعد دقائق قليلة، رحلت بارفين هي الأخرى، بعدما دعت ريحانة لإحضار الطفلين إلى منزلها الجديد. حدث كل شيءٍ في غمضة عين، حتى إن ريحانة كادت أن تقنع بأن هذا لم يكن سوى حلم، وأن آثار عطر بارفين لم يعلق بالحوائط، وأن كلماتها لم توسوس في أذنيها، وأن رؤية شعرها المعقوف اللامع وساريها الشفاف قد تلاشت وباتت ضبابية. لكن في حقيقة الأمر، لم يكن الأمر حلمًا، ولم يكن نسيانه مُمكنًا. وبقيت ريحانة بمفردها طوال فترة ما بعد الظهيرة، تسترجع المشهد، وتتساءل عن السبب الذي من أجله قررت بارفين المجيء بعد كل ما حدث.

مضى أسبوعٌ آخر كسابقِه؛ يروح سُهيل وأصدقاؤه ويجيئون من شونا وإليه؛ وريحانة تتابع مرطبانات المُخلل تنضج على السطح؛ وشمس مايو

تخترق النوافذ كل صباح، وتُهدد بخنقهم جميعًا. ثم جاءها سُهيل في الكوخ الصغير، وقال: نحن جاهزون يا أمي.

- لأي شيءٍ جاهزون؟

- جاهزون للعملية. لقد جندتُ فريقًا، وتلقينا الأوامر.

لم تفكر ريحانة مليًّا فيما سيفعلونه حقًّا حين راحوا يحفرون الحديقة ويهيئون المنزل. بدا الأمر لها أن هذا هو العمل المُوكلون به، لكنهم لم ينجزوا سوى الاستعدادات فحسب. لأجل العمل الحقيقي.

- ماذا ستفعلون؟

- سنزرع متفجراتٍ في فندق انتركونتننتال. وسنصدر بيانًا.

وضع سُهيل يده على خده وفرك فكه بلطف.

- بيان؟ أي بيان؟ هل سيُقتل أحد؟

- كلا. نأمل أن لا ينتج عنه أي ضحايا.

والآن صار يشير للموتى بالضحايا.

- أفي هذا خطرٌ عليك؟

- تريدين مني أن أكذب، أليس كذلك؟

أجابت في قرارة نفسها: «أجل، من فضلك».

- بالطبع لا.

قال سُهيل: ليس خطرًا. أنا مراقبٌ فحسب.

ثم شدَّ على رسغها، وأكمل: شكرًا لكِ يا أمي. لطالما وددتُ أن أشكركِ.

- كل ما يُسعدني هو أنكَ بقربي.

أرادت أن تطلب منه أن يعدها بأن لا يحدث له شيءٌ، وأنه سيكون في مأمن، وأنه لن يُقتل أو يتشوه أو يحدث له أي مكروه. لكنها سألت عوضًا عن ذلك: متى ستُنفذون العملية؟

- غدًا، في الصباح الباكر، قبل شروق الشمس.

- سأدعو لكم.

كان هذا ما استطاعت النطق به.

استكانت يده على فكه مُجددًا، وبدا وكأنه يُفكر في أمرٍ ما، ثم نطق أخيرًا: لِمَ لا تأتين قبل أن نرحل؟ يمكنكِ أن تلتقي بالجميع.

- لن يُمانع أصدقاؤك؟

- سيسعدهم مباركتكِ. بعضهم لم يروا أمهاتهم منذ وقتٍ طويل.

تفهمت ريحانة مقصده. وغمرتها حفوةٌ من الاعتزاز بما طُلب منها. ثم وضع سُهيل يده على خده مجددًا.

- هل تُعاني ألمَ الأسنان؟

افترَّ ثغره عن ابتسامةٍ خافتة، ثم تجهَّم وجهه قليلًا، وهو يقول: ألمٌ بسيط لا يستحق قلقكِ.

كان ألم الأسنان أمرًا اعتادت أن تقلق بشأنه. أما الآن فها هي قلقةٌ على ساقيه وقلبه وحياته بأكملها.

***

قبل فجر اليوم التالي، عبرت ريحانة الحديقة، وسارت عبر البوابة الحديدية الضيقة التي بنتها من قبل لتفصل بين المَبنَيين. كانت قد أعدَّت خبز البوري المقلي، نصفٌ محشوٌّ بالبطاطس والنصف الآخر محشوٌّ بالحمص والحلاوة. بيد أن الفخر بمهارة الطبخ في هذه الأيام بات دربًا من الحماقة، لكنها لم تُقاوم الاستمتاع بارتفاع قبب الخبز، والمذاق الحلو المثالي للحلاوة المُخبأ بين طيات الخبز. كانت هذه هي زيارتها الأولى لشونا منذ أن استولى عليه الفدائيون. حين تطلعت إليه من الخارج، لم يظهر عليه أي اختلاف؛ وعلمت ريحانة أن بعض النباتات قد انتُزِعت من مكانها، ثم أُعيدت مرة أخرى، فبدت شعثاء غير مُقلَّمة. وحدَّثت نفسها: «يجب أن أتذكر ريَّ النباتات غدًا».

أول شيءٍ لاحظته حين خطت بقدمها إلى الداخل، هي الظلمة الحالكة. أُسدلت الستائر، حتى إن ضوء القمر الضعيف ومصابيح الشارع الأضعف ضوءًا لم تتسلل إلى الداخل؛ وشعرت كما لو أن عينيها مغلقتان لتستغرق في النوم. ولمَّا تكيَّفت عيناها مع الظلمة، أوسعها أن تتبين أجسادًا تفترش الأرض، ثم لمحت بُقعًا من الضوء تتحرك، واستنبطت من الرائحة أنها سجائر.

قالت ريحانة في الظلمة: مرحبًا؟

أجاب أحدهم: بارتو، أشعل المصباح.

سمعت ريحانة صوت خربشة، ثم رأت شرارةً من عود ثقاب. ومن بعدها أُضيء مصباح إعصاري. تناقل المصباح فيما بين الحضور، وأُضيء كل وجهٍ بضوءٍ برتقالي، واحدًا تلو الآخر، كما لو أنهم طاقم من الممثلين يُقدمون أنفسهم. ابتسم بعضهم وأومأ البعض الآخر؛ ورفع أحدهم يده إلى جبهته وحيَّاها. لم يسعها سوى التفكير في السعادة البادية على وجوههم. سعادةً لا خوف. لا يبدو عليهم أنهم قد يواجهون الموت، أو ما هو أسوأ. بل وكأنهم على وشك أن يلعبوا مباراة كريكت، ووجدوا أنفسهم ينعمون بنسيم عليلٍ بعد الظهيرة، مُرتاحي البال بلا هموم.

حاولت تبيُّن الوجوه، لكنها عجزت عن التفرقة بينهم. كانوا أشبه بظلالٍ ضبابية خلف حجابٍ من دخان السجائر، شيوخًا ويافعين في الوقت نفسه. وحين انتقل المصباح إلى جوي، نهض عن مجلسه واقترب من ريحانة. رفع المصباح لأعلى، ورأته ريحانة يضحك ضحكةً خافتة، وهو يقول: حفنة من الأنذال يا خالتي، نثير الفوضى في منزلكِ.

- لا تكن سخيفًا يا بني. منزلي هو منزلكم. لا أرى شقيقك، أين هو؟

أجاب جوي: إن عارف في أجارتالا. وُكِّلت إليه مأمورية أخرى.

سبقتها مايا إلى هناك، وراحت تدور بطبق خبز البوري على الجالسين. استرجعت ريحانة آخر مرة اجتمعوا فيها على هذا النحو، ومايا تؤدي الأغنيات وشارمين تنفخ في آلة الهارمونيكا. أرادت ريحانة أن تحتضن ابنتها بين ذراعيها، وتُخبرها أنها لم تنسَ هذه الذكريات.

وقف جوي إلى جانب شقيقه، وقال: سيأتي أحدهم لنقل الصناديق، وسنجلب المزيد من التبرعات.

قال عارف[1]: سمعنا بشأن مجموعتك للحياكة. سيُعجب بها رجال التحرير كثيرًا، لو أمكنكِ رؤية المخيم يا خالتي، لا شيء في أسرِّتها ناعم أبدًا!

ضحك الفتيان الآخرون من وراء الظلال.

قال أحدهم وفمه مملوء بخبز البوري: أوف، والطعام، الخبز صلبٌ صلابة العصي، ومليءٌ بالثقوب.

---

(1) تُدرك المترجمة أنه قد ذكر آنفًا غياب عارف في مهمة في أجارتالا، ولكن الخطأ المذكور من النص الأصلي، وللأمانة لم نُغير شيئًا ونقلناها كما هي. (المترجمة)

شدَّ سُهيل على ذراع ريحانة، وقال: أمي، أُقدم لكِ قائد وحدتنا.

وقادها إلى ركنٍ من الحجرة، ثم همس: كان رائدًا في الجيش الباكستاني.

قال الرجل: مرحبًا.

كان يقف أمام المِصباح مباشرةً، ولم يتسنَّ لها أن تستشف منه الكثير، عدا استدارة كتفيه وقبضته القوية التي أدارها حين قدَّمت يدها إليه، وهي لا تعرف كيف تُحييه.

قالت وهي تشدُّ على يديه بالمقابل: أوه، مرحبًا.

قال الرائد: كم هو لطيفٌ منكِ أن تتنازلي عن المنزل يا سيدة حق.

- أجل، أجل بالطبع.

- الأمة بأكملها غاية في الامتنان.

ربما ظنَّ أنها سلَّمت إليهم المنزل بدافع الشعور بالواجب؛ ما تزال قبضته المُحكمة مؤثرةً على أصابعها، وبينما هي تتطلع إليه الآن، تمنت لو أن ظنه صحيح. ليس وكأن فعلها يقل نُبلًا حين فعلته بدافع حبها لابنها؛ حتى مع ذلك، بدا لها فعلًا أكثر نُبلًا وفخامة، حين وقفت في هذه الغرفة، في حضرة هذا الرجل الطويل: أن تفعل شيئًا من أجل بلادها وليس مُجرد خدمة لأطفالها. ربما كان فعلًا نابعًا حقًّا بدافع الواجب نحو بلادها.

قاطع صوتُ المؤذِّن الآتي من بعيد شرودها وذكَّرها بمرور الوقت. فصاحت إلى الجمع الرابض حولها: معذرةً سامحوني. إنه أذان الفجر. سأترككم للصلاة، لكننا لم نتناول الحلوى بعد.

أجاب سُهيل مقترحًا: حين تنتهين من صلاتكِ، سنتناول الحلوى معًا.

- حسنًا.

ثم خيَّم صمتُ مُربك، أتبعته ريحانة بسؤالها: أيود أيٌّ منكم الانضمام إليَّ؟

جالت بعينيها حول المكان؛ فرأت بعض الفتيان مُطرقين إلى الأرض. كانت موقنة أن بعضهم بحاجةٍ إلى شيءٍ من الطمأنينة، شيءٍ من اليقين، قبل أن يخرجوا إلى مأموريتهم.

قال سُهيل أخيرًا: أمي، إن بارتو هندوسي.

- لا يُهم.

سمعت ريحانة أحدهم ينطق بهذا الجواب من مؤخرة الغرفة. ومع ذلك لم يُحرك أحدٌ ساكنًا.

أوشكت ريحانة على الانتقال إلى غرفة نوم السيدة سينجوبتا حين قال الرائد: ولِمَ لا؟ سيدة حق، أنتِ تقفين في المُقدمة.

- حقًّا؟ ألا تُمانع؟

غمرت ريحانة البهجة، رُغم يقينها بأنه لا يجدر بها حقًّا فعل هذا؛ فالنساء لا يُفترض بهن أن يأمَمْنَ الصلاة. ولكنها اتجهت صوب النافذة المختبئة خلف الستائر ناحية الغرب، واصطف الفتيان من خلفها. حتى إن مايا انضمت إليهم، ووقفت بين سُهيل وجوي. جذبت ريحانة ساريها لتُغطي رأسها ودست حافته خلف أذنيها لتُحكم ربطه.

الله أكبر.

أشهد أن لا إله إلا الله.

حي على الصلاة، حي على الفلاح.

سبحانك اللهم وبحمدك، تقدس اسمك، وتعالى جدك.

أعوذ بعظمتك.

جلَّ جلالك.

حي على الصلاة، حي على الفلاح.

***

جافى ريحانة النوم، وبُعيد بزوغ الفجر، ودَّعت سُهيل وأصدقاءه، وراحت تُحصي، مرارًا وتكرارًا كما تُحصي أيام الصيف الطويلة، كل المساوئ التي قد تقع لهم. كان الفتيان في عُمر الزهور؛ ينبضون بالحماسة؛ وتجرفهم الإثارة والمخاطر، ولكن ماذا يعرفون هم؟

مضى اليوم وقد أدت جميع صلواتها، الظهر والعصر والمغرب.

وفي المساء، حين أعلن المُذيع في إذاعة بنجلاديش الحرة وقوعَ انفجار في فندق انتركونتيننتال، أطلقت مايا صيحة فرحة وركضت في أنحاء المنزل، تُلوِّح بالعلم ذي اللونين الأخضر والأحمر.

- أمي! أنصتي!

وألصقت المذياع بأُذن أمها.

طالبَ صحفيُّون أجانب بتصريح من الحكومة الباكستانية للولوج إلى جبهات القتال الأمامية للحرب الأهلية بعد أن كشف الانفجار الواقع في فندق انتركونتيننتال عن حجم المُقاومة التي تلقاها قوات الاستعمار. وأنكرت الحكومة الباكستانية جميع التقارير التي نُشرت عن وقوع إبادة جماعية، واتهم الرئيس يحيى خان نظيره الشيخ مُجيب الرحمن وجماعته في كُلكتا بنشر شائعاتٍ مزيفة ضد الحكومة الباكستانية.

***

إذن نجحت العملية، ولكن هذا لا يعني أنهم أفلتوا بفعلتهم. أغلقت ريحانة عينيها، وقرأت آية الكُرسي للمرة الألف هذا اليوم على ما بدا لها. جافاها النوم، وظنت أنها سمعت مايا في الحجرة الأخرى، تقول: «أمي! أسامحكِ يا أمي! أسامحكِ»! فقفزت ريحانة عن فراشها وركضت إلى غرفة مايا، فوجدتها جالسةً بأصابع متأهبة أمام الآلة الكاتبة. ودقَّ قلبها ألمًا بين حنايا صدرها.

سألتها مايا وقد أمالت رأسها: ماذا تفعلين؟ أرأيتِ شبحًا؟

***

حين سمعت ريحانة ضوضاءً آتية من ممر السيارة، أدركت أن حادثًا قد حدث. كانت موقنةً من هذا أيُّما يقين؛ ويا لها من سكينةٍ تغمدتها حين

اكتشفت أنها على حق. لم يلبث سوى ساعةٍ واحدة على موعد العشاء؛ وكانت قد وضعت قِدر الأرز على الموقد. هرولت إلى خارج المطبخ ورأت سُهيل وجوي يدفعان عربةً خضراء نحو المنزل، والمُحرك مُطفأ. كان هناك آخرون داخل السيارة، رُغم أنها عجزت عن تبين وجوههم. ركضت مذعورة عبر الحديقة، ثم عبرت البوابة، لتلقى بهم وهم يُخرجون الرائد من السيارة. كان سُهيل وجوي كلاهما مُغطى بالدماء، وبرفقتهما رجلٌ غريب، هزيل الجسد يرتدي معطفًا أبيض، يبدو الذُّعر على مُحياه. أما الرائد، فكان بينهما، هامدًا شاحب الوجه.

قالت ريحانة: يا إلهي، لقد مَات.

جذب سُهيل الرجل من كتفيه، فتدلَّى رأس الرجل إلى الجانب، ثم همس سُهيل لصديقه: ارفع ساقيه!

كان العرق ينزُّ من وجه سُهيل ويتساقط كقطرات الماء عند ذقنه. أمسك جوي بساقي الرائد وحمله مع صديقه إلى الباب الأمامي.

ظلَّ جوي يردد: اللعنة! اللعنة!

أرقداه على السجادة المُطرزة ببتلات الأزهار. وحاول أحدهم أن يلف خرقة قماش حول ساقه. كان متيقظًا، يئن من الألم، ويقذف برأسه يمينًا ويسارًا؛ وعندما أدار وجهه، رأت ريحانة شظية مثلثة الشكل من الخشب تستقر في خده. وقف سُهيل عند قدمه بينما يُشير جوي بمُسدسه إلى الطبيب.

- عالجه.

- لا يمكنني. أحتاجُ إلى أدوات، دواء ومُخدِّر.

- عليك أن تتدبر أمرك بما تحويه الحقيبة.

لم تكن سنُّ الطبيب لتتخطى سنَّ بقيتهم، ربما تخرَّج لتوه في كلية الطب، فتى هزيل ضعيف ذو شعرٍ أملس.

أجاب الطبيب: يجب أن تأخذه إلى المشفى!

- أجننت؟ هل تعلم عدد مَن يبحثون عنَّا؟

لوَّح الطبيب بذراعيه، وقال: لا يمكنني. لا يمكنني فعل ذلك.

وجدت ريحانة نفسها تركع إلى جانب الرائد، وتتطلع في عيني الطبيب الشاب، وهي تقول: اسمعني، هذه حالة طارئة. ابذل ما في وسعك فحسب.

وظلت مُحدِّقةً إليه حتى أومأ لها برفق.

قال الطبيب وهو يتطلع إليها وحدها: علينا أن نُخرج الشظايا من ساقه. هناك العديد من الجروح الأخرى الصغيرة، لكن الجرح الأهم هو الساق. والوجه. لا أدري ماذا سأفعل في وجهه.

قال جوي: ضع لصوقًا على الجرح. سنأخذه إلى المشفى الميداني في الصباح.

- لا يمكنه الذهاب إلى ما هو أبعد من هنا.

- عالِجه! علينا التحرك الليلة!

كانت هذه كلمات جوي وهو يُسدد مسدسه إلى صدغ الطبيب.

قالت ريحانة: جوي، عزيزي، هذا الرجل يحاول المساعدة.

- من فضلك، أبعِد مسدسك. إنني إلى جانبكم.

- عالِجه فحسب.

قال الطبيب: المسدس! أبعده أولًا!

وراح يرمش بعينيه طاردًا الدموع المُنهمرة منهما.

خفض جوي سلاحه، لكنه أبقى إصبعه مكورةً حول الزناد.

أخرج الطبيب سرنجة من حقيبته، وملأها بمُحتويات زجاجة صغيرة مقلوبة. ثم راح يُعالج ساق الرائد. ظلت ريحانة بجانبه، وكفى بها غرابة أنها لم تتأثر بمظهر طرف الرائد المُمزق، واللحم المكشوف، وبياض العظام اللامعة عبر الغُرفة المُعتمة. لم تتردد حين طلب منها الطبيب أن تنزع بنطال الرائد، وتبدأ في تنظيف الجروح الصغيرة. أعطاها ملقطًا وأخبرها أن تُخرج الشظايا منها. انحنت ريحانة على ساقه، وراحت تعمل في هدوء، متجاهلةً الانتفاضات التي يختلجُ بها جسد الرائد.

بعدما أنهت ريحانة عملها بالملقط، بدأ الطبيب في خياطة الجروح. ثم قال: شكرًا لكِ يا سيدة حق.

كان بوسعِها أن تستشعر من كلماته أنه لم يكن ممتنًّا لها على مساعدته في تنظيف الجروح فحسب.

والآن، ما تزال شظايا الخشب مغروزة في خدِّ الرائد.

همس سُهيل إلى جوي بشيءٍ، فحطَّ عنه سلاحه، وبدلًا عن ذلك، جثم على الأرض وأمسك بمصباح الكيروسين فوق ذراع الطبيب، ثم قال: خالتي، اذهبي أنتِ واستريحي.

ذهبت ريحانة إلى مطبخ السيدة سينجوبتا لتُحضر كأسًا من الماء. كانت تأخذ جرعةً كبيرة من الماء، وتتنهد في الكأس، حين اقترب منها سُهيل وعانقها بقوة. وشعرت به يبكي على كتفها.

همس سُهيل: أمي، كان هذا خطئي.

- ماذا حدث؟

- كان هذا دوري. كان من المفترض بي أن أُحدد التوقيت على المتفجرات. لكني حين وقفتُ هناك، تجمدت أوصالي، وعجزت عن التحرك. دفعني الرائد جانبًا، وفعلها بنفسه، ولكن فات الأوان؛ وعلق هو في الانفجار. كان من المُفترض أن أكون أنا، لكني أخفقت.

لم تدرِ ريحانة ماذا تقول، فأمسكت برأسه وراحت تُمسِّده برفق.

- لا أدري، لا أدري إن كنتُ أصلحُ لهذا، لستُ ذا نفعٍ، التصويب والتدريب. ما كان يجدر بي أن أذهب من الأصل.

- ليس خطأك. مهما يكن ما حدث، لا يمكن أن يكون خطأك.

قال سُهيل: لقد أنقذ حياتي. ولكنتُ ميتًا الآن لولاه.

***

أنهى الطبيب عمله.

- خيَّطتُ الجروح، ولكن لا يمكنني أن أعدكم بعدم حدوث عدوى. هو بحاجةٍ إلى دواء. وحتى مع وجوده، ربما يفقِد ساقه.

سأل جوي: أيمكننا أن نأخذه بعيدًا؟

- ربما بضع شوارع، لا أبعد من ذلك.

- هناك مشفى ميداني في أجارتالا، بالقرب من مُعسكرنا.

- عبر الحدود؟ مستحيل.

قال سُهيل: أمي، عليكِ أن تسمحي له بالبقاء هنا.

كانت ريحانة مُنهكة، والدماء تغطي المكان بأكمله؛ وتلفت سجادة السيدة سينجوبتا. أرادت أن تشعر بالأسف نحو الرجل، لكنها عجزت عن الإتيان بالشعور. كان مظهره بغيضًا، يرقُد على السجادة، وفمه مفتوحٌ عن آخره في فظاعة. لكنه أنقذ حياة ابنها.

عدا أن مايا هي من نطقت: كلا، لا يمكنه البقاء هنا.

ظلت الفتاة صامتةً منذ أن وصل الفتيان، تحوم على هامش المشهد. والآن ها هي واقفةٌ أمام الرائد، ترفع كلتا قبضتيها.

قال سُهيل: مايا، من فضلك. ما مِن خيارٍ آخر.

- إذن تبقى أنت. تبقى أنتَ هنا وتتولى العناية به. لا تُلقي بالأمر على كاهلنا.

- لا يمكننا البقاء هنا. إننا مطلوبون للعدالة.

- هذا كله خطؤك أنتَ.

- أجل، هذا خطئي أنا!

اتسعت عينا سُهيل، محمرتين بالغضب والضيق. ثم أضاف: أمي، عليكِ أن تقبليه عندكِ. أرجوكِ قولي إنكِ سوف تقبلينه عندكِ.

كانت ريحانة ممزقة بين طفليها، فسألت: أواثقٌ أنه ما من مكانٍ آخر يذهب إليه؟

شهقت مايا وقالت: أمي، أتريدين رجلًا آخر يموت في داركِ؟

رجلٌ آخر؟ أكانت تتحدث عن والدها؟

قال الطبيب: لا يمكن لهذا الرجل أن يتحرك من مكانه.

ثم تطلع إلى مايا، التي كانت تستند إلى أمها وتأخذ أنفاسًا عميقة، كما لو أنها كانت تعدو. ثم قال: أنا سأبقى. سأبقى هنا وأحرص على أن لا يموت.

تنفست ريحانة الصعداء، وسألت الطبيب: ما اسمك؟

- راجيش.

- مايا، مايا، تطلعي إليَّ من فضلك. دكتور راجيش سيبقى هنا ويتولى العناية بالرائد. لا أحد سيموت. حسنًا؟ لا أحد سيموت. لقد أردتِ فعل

شيءٍ، تذكُرين؟ هل أردتِ فعل شيءٍ؟ ها هو ذا. سنتولى العناية به. لقد أنقذ أخاكِ. يكفي، يكفي. لا تبكين.

وراحت تُمسِّد على شعر ابنتها.

فتحت ريحانة عينيها، ولوهلةٍ نسيت أين هي.. لا تستشعر سوى أنها في المكان الخاطئ، ثم تذكرت ونهضت، بادئ ذي بدء، تُزيح الشعر عن جبهتها، وتتلمس الضفيرة المُنهكة، التي تناثرت خصلاتها وأعيد تضفيرها، على غير العادة. كانت نائمة على الأريكة في وضعٍ غريب. وحين جالت بنظرها حول الغرفة، رأت بقايا آثار الليلة الماضية -الضمادات المُلطخة، وآثار الأقدام المُوحلة على امتداد الغرفة، وفُتات الشريط اللاصق والخشب الباقية من الانفجار- وتفسَّر لها شعور الإعياء الذي ينتشر في أطرافها.

أُرقد الرائد في غرفة ميثون. وحين قاربته ريحانة، رأت ستائر الدانتيلا منسدلة، وتحت ضوء الصباح الباكر، رسم النمط ظلالًا على وجه الرجل. هناك على جبهته، زهرةٌ نجمية الشكل؛ وهناك على فخذه، صفٌّ مُرقط من القلوب. غطَّ الرجل في النوم دون أن يُصدر صوتًا، ساكنًا سكون الجبال، لكن الحال مختلفة مع ظلال الدانتيلا، التي تتزعزع قليلًا مع كل نفسٍ خافت.

بدا الرائد في سباته ضخم الجثة. يمتد ذراعاه وقدماه إلى خارج الفراش، وتنبسط يداه مثل شبكاتٍ عنكبوتية مُنتشرة. كان الطبيب قد غادر بعد الفجر، مُعلنًا استقرار حالة الرائد، وقاطعًا وعدًا بأن يعود في اليوم التالي وبحوزته الدواء والمَزيد من الضمادات. كان قد أخبرها أن الليلة الأولى هي الأسوأ، وعليها أن تظل إلى جانبه.

وها هي ما تزال إلى جانبه.

لم يُخفِ الليل من قُبحه شيئًا. واستقرت على وجهه ندبةٌ مُقوَّسة ذات ملمسٍ خشن ومظهرٍ مُلتهب. ندبةٌ مُتعرجة تبدأ من الحافة الخارجية لحاجبه الأيسر وحتى طرف شفته العُليا. وكدمةٌ ضاربةٌ إلى الزرقة تنطبع على الجانب الآخر من وَجهه. أما بقية جسده، عدا ساقه المُضمدة بالطبع، بدت وكأنها لم

تُمس في مشهد غاية في الغرابة. في حقيقة الأمر، بدا بقية جسده صحيًّا، وبشرة رقبته وذراعيه مشدودة تلمع تحت ضوء الصباح الخافت.

تطلعت ريحانة إليه، فاجتاحتها موجةٌ من الفَخر في حضوره الراسخ، كما لو أنه ملاكٌ صريع، قبيحٌ ومهزوم، لكن ما يزال مُباركًا.

باغتها الشعور بالجوع؛ لم تتذكر متى كانت آخر مرة تناولت فيها طعامها. اشتهت فاكهة الليتشية[1]، بالطبع لا تقصد حبات الفاكِهة الجافة التي يستوردونها من الصين، بل تقصد الأنواع المحلية ذات الجلد الناعم المَرن. حملها التفكير في الليتشية على استحضار مُشهياتها الأخرى؛ ربما يجدر بها أن تبتاع بعض اللحم وبعض الأرز الجيد. ستذهب إلى السوق الجديدة. شعرت بالرَّغبة في المجازفة في الخروج، ومُغادرة المنزل ومرأى الفوضى التي وقعت في الليل.

***

كان نهارًا مُشرقًا، تغِيب عن سمائه الغيوم، كان يومًا من الأيام التي تحبس فيها السماء أنفاسها ويبدو كل شيءٍ في أحسن حال وأبهى حُلة. ظلت السوق على حالها التي كانت عليها منذ أن بدأت الحرب: كل أسبوعٍ يُغلق دُكان أو دكانان آخران أبوابهما، وتتكوم الخضراوات ذابلة ومغطاةً بالغبار، والسمكُ صغير الجحم ذابل العينين. أما ريحانة فقد أنعشها التفكير في مُساومة الباعة أو العثور على كنزٍ صغير، ربما دجاجة طازجة أو ثمار بابايا من أواخر الموسم.

انقشعت بهجتها بمُجرد أن وطأت قدماها السوق. فقد لمحت من بين الأكشاك والمراكبية رجالًا يرتدون الزي العسكري؛ يجوبون متمهِّلين في جميع أنحاء السوق والبنادق تتدلى بإهمالٍ من على أكتافهم. مرَّت ريحانة بدُكان حلوى ورأت جماعةً منهم يجلسون حول طاولةٍ بلاستيكية، ويضحكون مِلء أفواههم، حتى كان بوسعها، وهي على مسافةٍ مِنهم، أن ترى قمم ضروسهم. وبصق أحدهم بصوتٍ مسموعٍ في البالوعة.

راحت تمشي منكَّسة الرأس، تُحاول أن لا تلفت أنظار أحدٍ إليها، والضيق يعصف بقلبها جرَّاء خوفها، خصوصًا في هذا المكان، الذي شهد مُعاناتها

(1) الليتشية: فاكهة استوائية ذات جلدٍ أحمر خشن. (المترجمة)

طوال عِقدٍ من الزمان. هنا كانت تُباع الأقمشة التي صنعت منها الأزياء المدرسية لطفليها، هنا حيث كانت تحسب المؤونة الأسبوعية وتُخطط لمهام مطبخها. هنا حيث ابتاع لها إقبال ساري الزفاف –اعترف لها أنه قد دفع واحدًا وعشرين روبية فقط– هنا حيث كانت تأتي لشراء عطايا العيد، وهدايا الزفاف، وملابس أعياد الميلاد لأجل الطفلين. كانت السوق الجديدة هي روحُ المدينة في نظر ريحانة، تألف روائحها وأزقتها المُتعرِّجة كما تألف مدينتها دانموندي. والآن باتت مكانًا غريبًا على حين غرَّة، والهواء مُثقلٌ بالبليَّة.

قال لها سُهيل ذات مرة: احذري من الجزارين؛ إنهم يتحدثون الأردية.

- ولماذا؟ أنا أتحدث الأردية أيضًا. ماذا إذن؟

- هؤلاء الناس مُعاونون للجيش.

كان سُهيل يشير إلى المجتمع البيهاري الذين يتحدثون الأردية، وشيع أنهم يقفون جنبًا إلى جنب مع الجيش. جاء انقسام المدينة إلى متعاطفين ومعاونين. بدا على ريحانة الانزعاج والضيق، لكنه أخبرها أنه لا بُد من طريقة يمكنكِ بها التعرف على مَن يجدر بكِ الشك فيه ومَن يجدر بكِ الوثوق به. فما عادوا يثقون في غرائزهم، ولا حتى أصدقائهم.

اتخذت ريحانة ممرًّا ضيقًا نحو حارة الجزَّارين. كانت الأكشاك مُبعثرة في مشهدٍ عشوائي، وقِطعُ اللحم تتدلى من كل واحدٍ منها مثل جواهر رطبة. لطالما وجدت ريحانة بهجتها في شراء اللحم؛ وتستغرق وقتها لتُمعن النظر في البياض اللؤلؤي للعظام، والدم الأحمر الياقوتي، وأوتار العقيق العميقة.

ثم وجدت نفسها أمام جزَّارِها المألوف.

أطرقت إلى الأرض، فلا يتسنى له أن يعرف من هي، وراحت تسأل: أي نوعٍ أفضل اليوم؟

- لديَّ قطعةُ لحمٍ جيدة من الضلع يا سيدتي. والضأن جيدٌ أيضًا اليوم.

فكرت ريحانة في الرائد، وخده المُتورِّم، ثم قالت: أحتاجُ إلى عظم. لصُنع الشوربة.

- أتُحبين الشوربة؟ حسنًا.

كان الجو شديد الحرارة. ورأت ريحانة الذباب يحوم من حولها، ثم ينقض على اللحم المُعلَّق، وطنينه يتضخم بفعل السقف المُنخفض للسوق. ثم رأت

الجزار يمدُ ذراعيه ويعرض عليها قطعةً ظنَّ أنها ستعجبها. كَانت جانبًا كاملًا من ضلع بقرة صغيرة، ويبرز منها صفُّ العظام مثل أسنانٍ معقُوفة، وشرائح اللحم مُقطعةٌ بدقة، حتى إن تموُّجاتها البنفسجية عكستٍ الضوء. هاجمت رائحة الدماء المعدنية الممزوجة بالعفن أنف ريحانة، فارتجفت وأعرضت بوجهها عنها. وهكذا تعرَّفها الجزار على الفور.

استرجعت ريحانة سبب مُداومتها على شراء اللحم من هذا الرجل تحديدًا: أناقة ملابسه، فلم يكن هناك قطرةُ دماءٍ واحدة على قميصه أو يديه. كان يرتدي بزَّة كورتا ناصِعة البياض، وقُبعة، كما لو أنه في طريقه إلى المسجد.

سألها باللغة الأردية، وقد رأى غُرَّتها: كيف حالك يا سيدتي؟

أجابت بهدوء: آه، بخير.

ثم أضافت دون قصدٍ منها: إننا في حالة حرب.

- أعرف ذلك.

ثم بقيت على صمتها، كما لو أنها تتهمه بشيءٍ ما، فكان عليه أن يُجيبها: ليس لديَ مكانٌ آخر أذهب إليه يا سيدتي.

غير أن الكلمات خرجت من فمِه جوفاء، وأدركت ريحانة مدى غرابة اللغة على أُذنيها إذ فجأة: فقد باتت لغةً عدائية دسيسة. وتراءى لها أخيرًا أنها صارت لغة أعدائها؛ أعدائها وأعداء سُهيل وأعداء الرائد. حاولت أن تثير في نفسها شعورًا مُختلفًا، بعض الغضاضة نحو شعرائها، بعض التعاطف مع هذا الرجل، الذي لم يكن سوى جزارٍ فحسب.

قال الجزار وهو يُقدم إليها اللحم: هاكِ تفضلي.

استشعرت ريحانة الخوف في عينيه، ولكم أسعدها هذا، ثم صفعها الشعور بالخزي لتلك البهجة. أخرجت سريعًا ورقة نقدية فئة خمس روبيات، والتفتت، وهي تُزيح الذباب الذي تجمع حول رأسها فجأة.

***

كان الرائد مُستيقظًا حين عادت. استشعرت ريحانة عدَم راحته؛ فلم يُحرك رأسه حين دخلت، بل اكتفى بأن رمش بضع مراتٍ وحاول أن يُحرك فمه. كانت عيناه لؤلؤتين سوداوين. ضغطت رز تشغيل مروحة السقف، ومسحت العرق الذي كان قد تجمَّع على جبهته. احتاج الرائد إلى الماء؛ فخرجت تبحث

عن مايا، ووجدتها تحدق عابسةً إلى كتابٍ وتكتب على هوامشه بخربشةٍ دقيقة غير مقروءة.

- ماذا تفعلين؟

أجابت مايا وهي تكشف عن كعب الكتاب: أقرأ كتاب **هكذا تحدث تشي جيفارا**.

- لقد طلبتُ منكِ الاهتمام بالرائد.

- إنه نائم.

- كلا، بل مستيقظ.

- حسنًا، والآن يمكنكِ أنتِ الاعتناء به.

ثم عادت إلى كتابها مرة أخرى.

- ألا تستلطفينه؟

غمغمت مايا، دون أن ترفع عينيها: ولِمَ لا؟ إنه يُدافع عنَّا؟

أمعنت ريحانة النظر إلى ابنتها من كثب، وحاولت –لا تدري كم مرةً فعلت هذا؟– العثور على شيءٍ غفلت عنه. كانت نوبة الهلع التي هاجمت مايا الليلة الماضية قد اختفت، واختفى معها الحوج.

ثم راح المطر يهطل بغزارة.

زفرت ريحانة تنهيدة مُثقلة، وهي تأخذ كأس الماء إلى الرائد، متَّشحةً بغطاء من البلاستيك وهي تَعبر الحديقة إلى المنزل الآخر. وبينما هو يشرب ماءه، لاحظت ريحانة أن شفتيه ليستا قبيحتين كبقية جسده. أعرب لها عن شُكره وهو يُطلق أنفاسًا مطمئنة، فتطلعت إليه كما لو أنه عاجزٌ عن رؤيتها؛ وحدَّقت بنظرةٍ وقحة.

***

وصل جوي في المساء. كان يفرك صدره بيده وهو يطلب من ريحانة حديثًا منفردًا. فقال: أحتاجُ إلى الحديث معكِ يا خالتي... الأمر هو أن الجيش الباكستاني يعتقد بوفاة الرائد. فقد رأوا المبنى ينهار من حوله؛ وما من فرصةٍ لنجاته.

جال جوي ببصره حول الغرفة، متجنبًا النظر إليها، ثم أضاف: ونظن أن بإمكاننا استغلال هذا الأمر لصالحنا.

- ماذا ستفعلون؟

- سيبقى هنا حتى يتعافى، إذا كان هذا مناسبًا معكِ.

استرجعت ريحانة منظر ساق الرائد؛ ربما يستغرق الأمر أسابيع، أو حتى شهورًا. فقالت: ظننتُ أن الأمر سيستغرق بضعة أيامٍ فحسب.

فأجاب جوي: يمكننا نقله، ولكنه الآن مختبئ، ومن الأفضل له أن يبقى هنا.

ما تلك الورطة التي أوقعَت نفسها بها؟

سألت: إلى متى؟

- ربما شهر. ويمكنه إصدار الأوامر، من خِلالي. سأنتقل بين المعسكر وبينكم ذهابًا وإيابًا.

- وماذا عن سُهيل؟

فرك جوي صدره مرة أخرى؛ وكان السواد يُؤطِّر أظفاره. ثم قال: إليكِ ما في الأمر، صار الوضع خطِرًا عليه الآن أن يأتي إلى هنا كثيرًا. ولهذا سنجد له مكانًا آخر.

- ألا يمكنه البقاء هنا معك؟

- سيُعرضكم بقاؤه هنا للخطر. أنتِ والرائد ومايا. وعلى أي حال، غالبًا سيمكث في أجارتالا.

رفعت ريحانة يديها في استياءٍ، وقالت: افعل ما تشاء يا بني.

***

كما تبين لاحقًا، لم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن ترى ريحانة سُهيل مُجددًا. فبُعيد غداء أحد الأيام، بعد بضعة أيام من تلقِّي ريحانة تلغراف، قضت بقية اليوم وهي تسند رأسها على ذراع الأريكة، تنتظر مجيئه. كانت تعرف أنه سيأتي؛ ولن يدعها تتحمل هذه المسؤولية وحدها. فقد قضت فترة ما بعد الظهيرة بأكملها تستمع إلى قعقعة آلة مايا الكاتبة؛ وكانت سرعة ضرباتها على الآلة قد ازدادت وامتلأت بالثقة.

وبحلول المساء، كان يقف أمام باب المنزل. حدَّق إلى ريحانة بنظرةٍ خاوية، وشدَّ على يدها. كان يرتدي حُلَّة كورتا بيضاء، تُشبه حُلَّة الجزَّار، عدا أنه تَمنطَق بقُبعةٍ خضراء تحمل نجمةً معدنية حمراء مُلصقةٌ عند المقدمة.

وحين دخلت مايا إلى غرفة الاستقبال، رأت شقيقها يُحدِّق إلى الحديقة. فاستهلت حديثها:

- هلا، ماذا تفعل هنا؟

اقترب منها ثم جذبها بين ذراعيها. ثم قال: شارمين في دكَّا.

- ماذا؟ كيف عرفت؟

- أعرف.

دقَّ قلبه، ثم أضاف: إنها في الثكنة العسكرية يا مايا. المشفى.

- إذن دعنا نذهب إليها.

لم يُحرك أحدٌ ساكنًا.

فاستطردت مايا: لماذا تجلس هكذا؟ لا بُد أنها مريضة. كيف انتهى بها الحال إلى هناك؟ ولكن يمكنك أن تُخبرني كل شيءٍ لاحقًا.

ثم افترَّ ثغرها عن ابتسامة، بدت أسنانها مغطاة بمسحةٍ من الزرقة، تُشبه زرقة الغيوم. ليتها لاحظت رأس شقيقها المُنكَّس، لكنها تجاهلت كل شيء، وراحت تُملِّس على الجزء الأوسط من شعرها، وتُبدل قبقابها بحذاءٍ للخروج.

قالت بإنجليزية مخلوطة بالبنغالية، تستخدمها عادةً حينما يغزوها التوتر، أو تكون في عجلةٍ من أمرها: اذهب اذهب، هيَّا هيَّا.

نطق سهيل أخيرًا: لقد ماتت.

عكست لحيته، التي باتت كثيفةً الآن كشملةٍ سوداء مُصمتة، كثافة حاجبيه وشحوب وجهه. ركضت مايا إلى الحديقة، وشرعت تُحدثهم عبر النافذة. وكان عليها أن تصيح ليُسمع صوتها.

- لماذا كانت في المشفى إذن لو أنها ميتة؟

- لقد كانت في المشفى يا مايا. كانت في المشفى طوال الوقت.

- ماذا؟ وكنتَ تعلم هذا؟

أجاب سُهيل: أجل. ولكن لم أرَ جدوى من إخبارك. لم يكن بيدنا ما نفعله.

- لماذا؟ لماذا لم تُخبرني؟ كنتُ سأُخرِجها من هناك بنفسي.

كأنما طرأ أمرٌ على ذهنها فجأةً، أدركت ريحانة أن الحقيقة أشدُ قبحًا مما تصورته. أدركت، وهي ترى ابنتها عبر النافذة المفتوحة، أن مايا منذ ذلك الحين وإلى الأبد ستتذكر البُقعة التي شهدت نطق شقيقها بالأخبار، هناك تحت ظِلال شجرة المانجو؛ وذرَّات الهواء تهتز بالترقب؛ والسماء المُظلمة بعد هطول المطر، كما لو أن الليل قد حلَّ، لا تشي تلك الظلمة سوى بحلول الليل، لكنه لم يحل بعد؛ وزهور الياسمين والجهنمية تعكس ضياءً خافتًا، ويفوح عبيرُها وتنبسط أوراقها الوفيرة؛ والرائد النائم، أو ربما الميت، في ركنٍ بعيدٍ من شونا.

ثم أخبرها كل شيء.

- لقد ماتت في المشفى.

كان ليخرج إليها لتهدئتها، لكنها أمسكت بقُضبان النافذة ورمقته بنظرةٍ مُروعة. فتابع:

- كانت حُبلى.

- حُبلى؟

أشاحت مايا وجهها عن الجمع، وركلت سفح الشجرة بقدمها. ثم قالت: لقد كرهت الرجال، كرهتهم! كرهت الجنس، أكنتَ تعلم هذا؟ لم تمارس الجنس قط. مارسه الجميع، ولم تفعل هي.

أرادت ريحانة أن تنسحِب من المشهد، أو تُخبر ابنتها أن تصمت، لكنها أحجمت نفسها واكتفت بالتحديق، وسمحت لدمعةٍ أن تسيل بهدوء من عينها.

قالت مايا: أريد أن أعرف أسماءهم.

- أسماء مَن؟

- هؤلاء الذين اغتصبوها. أريد أن أعرف أسماءهم.

- إنهم جنودٌ يا مايا. جنود تِكَّا خان.

صاحت مايا: تِكَّا خان...

وكما لو أنها ستُدلي بتصريح، تابعت: سفاح البنغال!

ثم ركلت سفح الشجرة مُجددًا، ومدَّت يدها لتُعانق بها فرعًا ضعيفًا؛ بدت كما لو أنها قد تتأرجح منه، لكنها اكتفت بالوقوف هناك، بذراعين مرفوعتين ووجهٍ يُعانق لُحاء الشجرة.

***

في تِلك الليلة، حلمت ريحانة بزوجها إقبال؛ حلمت به يطرق بابها. في حياته، لم يطرق الباب قط. كان يعود إلى المنزل كل مساء في تمام السادسة مساءً. وريحانة، مثبتة العينين على ساعة الحائط، تنهمك في إعداد المشروب المُرطب للمساء: كأسٌ من الويسكي. اعتادت في بادئ الأمر أن تخلطها بالماء، ثم صارت تخلطها بالصودا، وفي نهاية المطاف بمرور السنين، صارت تخلطها بمكعبين من الثلج.

ورُغم أنها تنهمك في انتظاره طوال اليوم وتعلم أنه لن يتأخر عن موعده أبدًا، فإنها تجلس في هدوءٍ وظهرها مُسندٌ إلى الباب، ويديها مُتشابكتين في حِجرها بدلًا من التحديق إلى النافذة أو تحل الرتاج أو حتى تنتظر في الشرفة، فيتسنى له أن يراها بمجرد أن يخطو بقدميه عبر البوابة. كانت تُغلق عينيها وتتشمم عبير الياسمين الذي يسافر مع ذرات الهواء عبر تعريشة العنب، والليمون الأخضر على شجرته، ينضج وينتفخ بمرور كل ساعة.

جلست وانتظرت، انتظرت حتى وهو يتشبث بالبوابة، لتنفتح أمامه على مِصرعيها؛ وبقيت على انتظارها وخطواته تقترب منها شيئًا فشيئًا، وبينما – وأدركت تمامًا متى سيأتي هذا الوقت– هو على وشك أن يُخرج يده من جَيبه ويضم أصابعه ليطرُق، تركض عبر الغرفة، وتُحل الرتاج، دافعةً كل الأبواب لتنفتِح أمامه في حركة انسيابية واحدة.

يتكرر المشهد كل مساء، وكل مساءٍ يتمثل أمامها شيءٌ جديد ساكنٌ بلا روح.

وحين استيقظت، كانت غاضبة. فقد أرادت أن تُخبره كم هو مدينٌ لها، مدينٌ لها بالبقاء وإصلاح الفوضى، مدينٌ لها بالبقاء حتى النهاية، تلك النهاية التي لم تأتِ قط؛ مدينٌ لها بالكِفاح حتى النهاية، أو على الأقل بالصمود في وجه المعركة.

تنقَّلت ريحانة في أنحاء المنزل، وخداها مُحمرين بالذكرى. فوجدت سرير مايا خاليًا؛ كانت الأم قد قضت الليلة معها، تُطعمها من الأرز المطبوخ وتُمسِّد جبهتها بيديها. ومن آن لآخر، تذهب ريحانة لتطمئِن على الرائد، وفيما عدا ذلك، كان المنزلان غارقين في الهدوء، إلا من حفيف أوراق الأشجار الحثِيث وصوت مناضح مياه مفاجئة على فتراتٍ قصيرة. أخبرها سُهيل أنه سيحافظ على هدوء الوضع في شونا لبضعة أيام، حتى يُقررا ما سيفعلانه بشأن مايا. فلم يعد الوضع آمنًا عليها هنا في المنزل؛ الآن وقد عرفت بأمر شارمين، لم يعد بوسع أحد التنبؤ بما ستُقدِم على فعله. وهكذا غطَّ الجميع في النوم، وريحانة أكثرهم غطيطًا في نومٍ عميق لم تَنوه، والآن ها هو سرير مايا فارغ.

جابت أرجاء المنزل تبحث من طرفٍ خفي، تُنصِت إلى باب المرحاض، وتسترق النظر إلى حوض المطبخ وطاولة الطعام. ثم خرجت إلى الحديقة، فرأت ضوءًا خافتًا يأتي من شونا. جذبها الضوء نحو المنزل؛ وراحت تترنح في الظلمة وهي تعبر الحديقة، وحامت خارج النافذة، حيث أمكنها أن تُحدد الظلال التي يُلقيها مصباح كيروسين رغَّاش.

إنها مايا. إنها مايا في غرفة الرائد.

كانت تُطوِّقه. وإذ فجأةً، جلست على حافة الفراش ورفعت الغطاء ليكشف عن باطن قدمه الأسود. راقبت ريحانة المشهد في صمت؛ وعجزت عن حمل نفسها على مُقاطعته. أحنت مايا رأسها أسفل الفراش وغمست يدها في سطل ماء، فأخرجت خرقة قماش مبللة وراحت تعصِرها برِفق، تساقَط الماء عائدًا إلى السطل، مختلطًا بصوت أقدامٍ عارية على أرضية أسمنتية باردة. ألصقت مايا القماشة على باطن قَدمَي الرائد، القدم اليسرى أولًا، ثم اليمنى، ثم كلاهما معًا. ظنَّت ريحانة أنها سمعت تنهيدة الرائد، رُغم أنه لم يُحرك ساكنًا قط، وإذ فجأة، ازداد المشهد غرابة حين أحنت مايا رأسها واحتضنت قدمي الرائد. ورأت ريحانة بُكاءها، ودموعها التي تنهمر على السروال العسكري المُشمَّر للرائد.

وحين تطلعت مايا إلى أعلى، رأت والدتها تشاهد من النافذة ففرَّت، تاركةً من خلفها سطل الماء حيث كان، والماء الداكن يتماوج ويُضيءُ عينًا رامشةً برَّاقة.

كان أول ما خطر ببال ريحانة من أفكار هي إبعاد ابنتها عن المنزل، وما أثقله من شعور بالذنب حين فكَّرت في الأمر؛ فقد تراءى لها من قبل وجوب بقاء ابنتها قريبةً منها، برفقتها. أو ربما يجدر بها هي الذهاب مع ابنتها، حيثما تذهب. لكن كيف لها أن تترك سُهيل، أن ترحل عن شونا والرائد وجوي. لم يكن الخيار مكفولًا في هذا الأمر؛ رُغم أن الأمر بأكمله بدا لها كحادث عارِض. وها هي عالقة؛ لا يسعها الرحيل الآن. أما مايا فعليها الرحيل. فكَّرت ريحانة في أمرٍ، ثم أنكرت على نفسها الأفكار؛ ستثير حنق ابنتها إن أرسلتها إلى كراجي للبقاء مع خالاتها. وعلى أي حال، ليس لدى ريحانة فكرة عن تقبُّل شقيقاتها لأخبار الحرب؛ فلم يُكاتِبْنها منذ أن بدأت الحرب. كم أرادت أن تُلقي باللوم على خدمات البريد، لكنها تعلم جيدًا أنهن يتناولن سيرتها سرًّا بالسباب، وفي قلوبهن لا ينادينها سوى بالغدَّارة. **خائنة**.

في نِهاية المطاف، جعلت مايا الأمر يسيرًا على أمها. فجاءت إليها بعد ظهيرة اليوم التالي، بعينين مُحمرَّتين من شدة فركهما. ثم قالت: سأذهب إلى كُلكتا. لقد رتبتُ الأمر مع أخي.

لم تدرِ ريحانة بماذا تُجيب ابنتها؛ فكل ما احتفظت به من عبارات لأجل مايا –الكلمات الرقيقة، وعبارات الاعتذار، وندمها على يقينها بالعجز عن منح ابنتها الحُب كما ينبغي– كلُّ هذا تزاحم ليستقطِب انتباهها. وهكذا أساءت مايا تفسير صمت ريحانة، فقالت: أرجوكِ لا تغضبي. لا أود أن أراكِ غاضبة.

- أوه، كلا، لستُ غاضبة، أنا آسفة.

- لا أريد أن أتركَكِ وحدكِ.

ابتسمت ريحانة إلى ابنتها، وأجابتها: لا بأس. لا تقلقي بشأني.

قالت مايا: لقد أحببتها صدقًا!

وحاولت أن تمنع نفسها عن البكاء؛ ارتجف ذقنها، وظلت تزدردُ ريقها وتعتصر شفتيها معًا. ثم تابعت: عليَّ أن أفعل شيئًا؛ هذا ليس عدلًا.

أومأت ريحانة بإيجاب.

تأملت مايا الأفق ولم تنبس ببنت شفة لوقتٍ طويل. ثم قالت أخيرًا وقد زال الألم عن صوتها: يحتاجون لأناس يكتبون البيانات الصحفية. وسُهيل يعرف أحدهم في المقر الرئيسي. ربما يمكنني الوصول إلى المناطق المُحررة.

- توخِّي الحذر. إنني أقلق بشأنك. أنا دائمة القلق بشأنكِ.

فقالت مايا:

- وأنا دائمة القلق بشأنكِ أنتِ!

دُهشت ريحانة لسماع تلك الكلمات، لكنها أدركت مدى صِدقها، وها هو هنا، الشيء الذي ظلَّت تبحث عنه، نافذةٌ صغيرة في قلب ابنتها المُوصد. ليس الخجل هو عِلة قلبها الموصد، لكنه الكَبد والإنهاك. أنهكها الحبيب، والغائب. وأنهكتها أمها الأرملة. عانقت ريحانة ابنتها، تلك الفتاة النحيفة الهشَّة، وبدلًا من أن تنصحها بتوخي الحذر، تفاجأت بنفسها تقول: اكتبي قصصًا جيدة.

***

يونيو

«أحبك يا بورجي[1]»

(1) العنوان الأصلي للعبارة هو: «I loves You, Porgy» هي أغنية من غناء نينا سيمون، وجاء حرف «S» مزيدًا ومخالفًا لقواعد اللغة الإنجليزية، في إشارة لاختلاف اللهجات تبعًا لاختلاف الأجناس. فقد كانت نينا سيمون ذات بشرة سمراء، وأرادت أن تُعرب عن ثقافتها الإفريقية لتميز لكنتها المختلفة للغة الإنجليزية. (المترجمة)

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

طوال شهر يونيو، اجتاحت جنود تِكّا خان السهول الصيفية لبنجلاديش. نَهبوا المنازل وحرقوا السطوح. اغتصبوا، وقتلوا. كانوا يصفُّون الرجال صفًّا ويُطلقون عليهم النيران ليسقطوا في البحيرات. مارسوا أساليب التعذيب القديمة والحديثة. تلبَّسوا رداء المُستكشفين، لكنهم روَّاد الوحشية؛ يومًا بعد يوم يتفوَّقون على بطشهم، يومًا بعد يومًا يشعرون بمدى قُربهم من الإله، فقد قيل لهم إنهم يحمون باكستان ويحمون الإسلام، وربما يحمون الله عز وجل ذاته، من فساد البنغال؛ وفي هذه الرحلة المحمومة، هذه الرحلة الإلهية، لم تعرف عزيمتهم قيودًا.

كانت المقاومة البنغالية ضعيفة وفردية، واعتمد القائد ضياء الحق على الروح الشبابية لجنوده، وكانوا يُحرزون انتصاراتٍ صغيرة: يُفجرون جسرًا هنا، وكمينًا مرافقًا لحراسة الجيش هناك، ومحطة سكة حديد واقعة تحت سيطرة الجيش. كانوا يحتفلون بهذه الانتصارات مع مُذيعي الراديو، الذين يهتفون بالنصر في بيوت مُستمعيهم، ساكني هذه المدينة الذين يقضون فترات ما بعد الظهيرة الطويلة ذات الحرارة الشديدة، يُعانقون أجهزة المِذياع اللاسلكية.

بعد أن اتخذ الرائد قراره بالبقاء وغادرت مايا إلى كُلكتا، تضاءل العالم من حول ريحانة. ونُصحت بأن لا تغادر المنزل إلا لمامًا؛ فإذا احتاجت إلى شيء، يُجلَب إليها. والأفضل لها أن تذهب إلى السوق مُستقلةً سيارة السيدة

تشودهاري، ولكن لتبتاع طعامًا يكفِيها وحدها. ويجدُر بها زيارة جيرانها من آن لآخر؛ ويجدر بها أن تفتعل القلق، وأن تتحدث عن الحرب، ولكن حديثًا مبهمًا. كان الاتفاق قد جرى بأنه إذا سألها أحدٌ، يجدر بها أن تقول إنها أرسلت مايا وسُهيل للبقاء مع شقيقاتها في كراجي.

ظلت الأوضاع هادئةً في شونا. وكان جوي يأتي من آنٍ لآخر ليعتني بالرائد، والطبيبُ يأتي ويرحل، ولكن فيما عدا ذلك، لم يشهد المنزل المُجاور سوى نشاط ضعيف. ولم يكن هناك من أحدٍ سوى ثلاثتهم: ريحانة والرجلين في المنزل الآخر. راحت تقضي لياليها برفقة مصباح الكيروسين المُشتعل، وكل صوتٍ يثير دقاتٍ عنيفة في قلبها. ظنَّت أنها سمعت وقع أقدامٍ، وطرقاتٍ طفيفة على الباب؛ ظنَّت أنها شعرت بأحدهم يجذِب قدمها وهي نائمة. ولا عزاء للرائد الذي يسكن المنزل المُجاور؛ فقد أشعرها بالعُري.

حين يُهددها توتُّر أعصابها ويتغلب على رِباطة جأشها، تُحاول أن تسترجع أوقاتًا ليست عصيبة، حين لم يقع حادثٌ ذو أهمية، حيث كان مرور المواسم، وبهجة رؤية هلال العيد، ورائحة ثمار المانجو الناضِجة على الأشجار، هي الأحداث الأكثر روعةً في التقويم. غير أن حياتهم لم تشهد أي نوعٍ من الاعتيادية، على الأقل ليس النوع الذي تُغربل ريحانة ذكرياتها من أجله. دومًا ما يُحدِث بعض الجلبة، سواءٌ في المدينة أو خارجها، في إسلام آباد، حيث تُسنُّ قوانين العقوبات واحدًا تلو الآخر؛ وحتى في أماكن أبعد من ذلك، مثل موت تشي جيفارا، الذي حزن له سُهيل كما لو أنه فقد أخًا له. كل زوبعةٍ تحدث في الفنجان السياسي تجد طريقها لأعتاب بيتها، ولما شبَّ ابنها، باتت المصائب تعبر الباب وتتوغَّل في أنحاء الكوخ الصغير، وتحفر آثارها في وجه الفتى المُنهك الجاد، والظلال التي يُلقي بها في أنحاء الممرات وعلى طاولة العشاء؛ ثم توغَّلت في حياة مايا، الفتاة التي تميزت بتفاقُم غضبها وعلو صوتها عن شقيقها حتى. كلا، لم يمرَّ عليهم أي زمانٍ آخر دون حادثٍ؛ كانت حياتهم مسكونة بسيرة لينين وكاسترو ومُجيب الرحمن وأنور السادات؛ لم يمرَّ عليهم سوى هذا الزمان، هذه الحياة، وهذه الحقبة الحافلة بالأحداث، الحقبة التي وجدوا أنفسهم مُلزمين بالعيش فيها دون خيار ولا معرفة، لا يملكون فيها سلاحًا سوى رغباتهم ومحبتهم، لإرشادهم ودعمهم.

وفي هذا الأمر، كما هو دأبها، ممزقةٌ ريحانة بين الغُفران والتأنيب. ثمة جزءٌ بداخلها يريد السماح للأطفال بفعل أي شيء، نزوات الصبا، غلواء

الشباب، وشطط بلا حساب. وجزءٌ آخر بداخلها يريد حجبهما عن هذا كله، ويُبقيهما في أمان داخل المنزل. في الحالتين، عاملت ريحانة مايا وسُهيل كما لو أنهما قد جاءا إلى الدنيا لتحصيل دينٍ قديم، وعدٍ قديم لا يمكن الوفاء به، ليس في هذه الحياة؛ ويا له من احتياجٍ مستمرٍ سحيق لا ينضب. وسواءٌ أكان احتياجهما هما أم احتياجها هي، لا يسعها الجزم.

لأول مرةٍ منذ أعوامٍ طويلة، وجدت ريحانة نفسها في المنزل وحدها، واستشعرت فقدانها للرغبة في إعادة حشد مجموعة الحياكة. ما عادت راغبةً في الضحك مع صديقتيها؛ وأرادت زحزحة السواد الذي عمَّ البيت الخاوي، كان الحزن القديم ذاته نوعًا من الهدوء والسكينة، هذا الذي تأبى التخلِّي عنه.

استشعرت ريحانة شيئًا أقربَ إلى المتعة في تكرار طقوس الوحدة التي آلفتها بُعيد رحيل الطفلين إلى لاهور منذ تلك السنوات الطويلة. راحت تفركُ المنزل فركًا حتى صار ناصعًا لا تشوبه شائبة؛ وهشَّت الغربان بعيدًا عن جِرار المُخلل؛ وراحت تقضي أوقاتًا طويلة في الاستحمام برفاهية أسفل ماء السطل؛ وحفرت أجزاءً كبيرة من حديقتها، وأعدتها لإعادة زراعة اليقطين، والكوسا، والبامية، وزهور الياسمين.

لا يأتي الماء إلا بين الساعة العاشرة والساعة الثانية عشرة كل يوم؛ وكل صباح يتحتم عليها أن تملأ أواني البرياني وثلاثة سُطل معدنية، وتنقع الملابس والخضراوات وتنظِّف السمك من أحشائه.

ثم خرجت إلى المقابر لتُخبر إقبال بشأن الرائد. وحالما وصلت إلى هناك، شعرت برغبتها في الاعتذار، لكنها فقدت اليقين حول ما تعتذر بشأنه. حسنًا، كان الأمر واضحًا وضوح الشمس في كبد السماء.

ما كنتَ لتُعجب بما يحدث.

مرَّ صفٌّ من النمل شاطرًا شاهد القبر إلى نصفين.

سامحني؛ لم آتِ إليكَ طوال شهرٍ أو يزيد. ذبُلت الزهور على أرضية القبر بفعل الحرارة؛ وكان حارس المقابر النَّذل هذا قد وعدها بري الزهور، لكنه نسي بلا شك، رُغم أنها منحته خمس آناتٍ هندية إضافية في آخر زيارة لها.

إنني آوي شخصًا لا أعرفه، شخصًا يمكن أن يُورطنا جميعًا في مشكلات كبيرة. كلا، ما كنتَ لتُعجب بهذا الأمر قط. وإذا أردتَ الشكوى، يجدر بكَ

الشكوى إلى ابنك، هو من أتى بذلك الرجل إلينا وتوسَّل إليَّ أن أسمح له بالبقاء. هل يمكنني الرفض؟ لا، عجزتُ عن الرفض.

***

بعد نحو أسبوعين من حادث الرائد، أتى جوي إلى باب الكوخ الصغير. بدا وكأنه كان يركض: وبرزت رُقعٌ مبتلة عبر قميصه حول رقبته وأسفل إبطه. ووجنتاه تلمعان، والعرق ينز من جبهته مثل الدموع.

قال برفق: خالتي، أيمكنني الدخول؟

- بالطبع.

ثم قال مترددًا: ألا أزعجكِ؟

هزَّت ريحانة رأسها مشدوهة؛ لم يُعرف جوي يومًا بأدبه في الحديث. حام قليلًا حول طرف الأريكة، أحنى أصابعه وفرك براجمه معًا.

كانت ريحانة قد أنهت إعداد الغداء لتوها، فسألته: أأنتَ جائع؟

هزَّ رأسه نفيًا. ورأت هي عوارض منكبيه ملتصقان بقميصه، قميصه من طراز المربعات الإسكتلندية باللونين الأحمر والأزرق، ذي الياقة الطويلة المُدببة للأسفل. تعرَّفت هذا القميص. أرادت أن تسأله من أين حصل عليه. لا بُد وأن لديه تفسيرًا معقولًا لهذا؛ أن يملكا القميص نفسه. تفسيرٌ بسيط. ظلَّ جوي ينزُّ عرقًا ولا ينطق بشيء، وبدأت ريحانة تُصاب بالهلع. فسألت: هل من مشكلة؟

- أجل، أنا، عليَّ الذهاب.

- إلى أين؟

أطرق برأسه لتقترب من يديه؛ ووجهه غارقٌ في العرق، ولم يُحرك ساكنًا ليمسح وجهه، ثم أجاب: عليَّ الذهاب إلى أجارتالا. لبضعة أيامٍ فحسب. وسأعود مرة أخرى.

- هل حدث شيءٌ؟ هل يتعلق بسُهيل؟

أجاب: سُهيل؟ كلا، كلا يا خالتي. إنه في أجارتالا؛ وبخير؛ لقد أرسلوا تلغرافًا الليلة الماضية.

- أوصل إليكَ تلغرافٌ؟ لماذا لم تُخبرني؟

تحرَّقت شوقًا لسؤاله عن القميص، والتلغراف، وعن سبب رحيله. تابعت سائلة: ماذا يحدث يا بني، لِمَ لا تُخبرني؟ هاكَ، اشرب بعض الماء.

ندت عنها نبرة صوتٍ مُتكلِّفة باللطف. ثم تابعت: اجلس هنا، وأخبرني.

- مات أخي.

كان صوته واضحًا مثل صوتٍ ينبعث من أقراص الفونوغراف. ما شاءت تصديق حديثه.

- عارف؟

غمرها شعورٌ بالارتياح أثار الإحساس بالذنب في أعماقها. ثم سألت: أأنتَ موقن من هذا؟

تابع بنفس الصوت الواضح الهادئ: كان يُنفذون عملية. ثم نصبوا لهم كمينًا. أُصيب عارف بطلق ناري في صدره؛ ومات من فوره.

قارنت ريحانة هذا الفتى بابنها. فشعرت بشيءٍ غير معتاد في وجهه: الشفة العليا السميكة، تتلألأ الآن بالعرق، وعيناه جامدتان تنضحان بالغضب. وتلاشى من وجهه أي أثرٍ للطفولة.

حكَّ جوي جبهته بكم قميصه من طراز المربعات الإسكتلندية باللونين الأحمر والأزرق، وراح يُملِّس شعره إلى الخلف حتى استقر على هيئته مُبللًا وجافًا عند الأطراف.

أكمل حديثه: هذه الأمور كثيرًا ما تحدث في الحروب. أتعلمين ما أخبرنا به قائدُ كتيبتنا؟ هل أخبركِ سُهيل؟ لقد قال: «لا أحد يرغب في فدائي حي».

أقال حقًّا فدائي **حي**! ماذا يعني بهذا؟ وتجرع جوي الماء الذي أعطته إياه.

استطرد قائلًا، وهو يرفع صوته: جميعنا موتى! ليس عارف فحسب، هذا ما أحاول قوله.

اقترب وجهه المُبلل منها؛ وعجزت هي عن إحجام سؤالها بعد ذلك. فسألت: لماذا ترتدي قميص سُهيل؟

أطرق برأسه ناظرًا إلى نفسه، وسمعت شفتيه تُصدران همسة قبل أن يُجيب: لقد تبادلنا القمصان. ارتدى سُهيل قميص عارف. وأخذتُ أنا قميصه. وأخذ عارف قميصي.

***

التقطت ريحانة قُفازيها وأمسكت بمقص العشب؛ وقد انتابتها رغبةٌ في ضرب أي شيء. وما كانت الحديقة جميلة ولا مُقلَّمة جيدًا، ومنظومات الأشجار في مظهرٍ أشعث، والألوان يعمها شيءٌ من الفوضى، والكثير من اللونين الأحمر والأبيض، رُغم أن هذا لم يكن خطأ ريحانة. كان مناخُ السَّهل يصب غضبه عليهم؛ ولم يُعزز من الألوان الباهتة للوحة الألوان، بل اكتفى بتعزيز الألوان القوية فحسب: البياض الناصع، والأحمر الوحشي، والفوشيا، والبنفسجي. وهكذا لم يسع ريحانة سوى الإفراط في زراعة الياسمين والزنبق البلدي والزنابق البيضاء. عادةً ما تكون زهور الداليا والأقحوان بيضاء اللون أيضًا، أما زهور القُرنفل والفلوكس فهي الظل القرمزي من غروب شمسٍ قصير ودامٍ. ولهذا أحبت ريحانة ورودها الصفراء. ففي وسط كل هذه الألوان الصارخة التي تعمُّ حديقتها، كانت ورودها الصفراء هي أجمل النباتات وأرقَّها.

وجدت رُقعة من الأعشاب الضارة تنمو في الركن الشرقي من الحائط الذي يفصل بين الفضاء حول الكوخ الصغير وشونا. وتفتحت بها زهورٌ أرجوانية مُفعمة بالحيوية، مُرقَّطة ذات أشواك، كما لو أنها تعلم أن وقتها قد انتهى. أمسكت بها ريحانة بيديها وجذبتها بقوة. فلم تتزحزح من موضعها. ثبتت ريحانة إحدى قدميها على الحائط الفاصل، وبَرمت الأعشاب الضارة حول رُسغها، ثم أخيرًا اجتُثَّت من الأرض، وفي أعقابها جذور طويلة عقدية.

مات صبيٌّ آخر. وما تزال ريحانة تسأل الله مُجددًا، كما هو دأبُها كل يوم، أن يحفظ سُهيل. لماذا يُبقي الرب على حياة صبي ويأخذ حياة آخر؟ لم تعلم. بارك اللهم في سُهيل في أجارتالا، وابنتي مايا في كُلكتا. كانت مايا قد هاتفتها مرةً واحدة، بعد بضعة أيام من رحيلها، ولم تُخبرها من أي مكانٍ تُهاتفها، ولا أين تُقيم. بل قالت إنها بخير، وإنها سعيدةٌ، فلا تقلق.

***

وضعت ريحانة جدولًا صارمًا من أجل الرائد: يأتي الطبيب لزيارته بعد الظهيرة يومًا بعد يوم، يفحص الغُرز، ويُحدِّد الدواء وفقًا لحالته. ثم تُحضر ريحانة إلى الرائد طعامه على صينية وتتركه ليأكل بمُفرده. ثم تُعطيه نصف لوح من الصابون وتسكب كأسًا من الماء على يده اليُمنى. وبعد الغداء، يغفو قليلًا. وحين يستيقظ، تجلب له الشاي وتناوله أقراص الدواء المسائية. أما

الرائد، بالكاد يستطيع الكلام، فقد اختار أن لا يقول شيئًا. ودومًا ما يومِئُ لريحانة شكرًا لها وعرفانًا، ومع ذلك، لا يبتسم أو يُلوِّح لها حين تتمنى له ليلةً سعيدة في المساء. لكنه أحب طهيها؛ فدومًا ما يلعق الطبق من جميع محتوياته، عدا اليوم الذي تأتي فيه بالسمك. يحاول عادةً إخفائه أسفل حفنة من الأرز، أو يخلطه بحباتٍ من المُخلل الممضوغة التي تتراص على جانب طبقه. أي بنغالي هذا الذي لا يُحب السمك؟ وهكذا عمدت ريحانة إلى إضافة المزيد من المُخلل واستبدلت بالسمك بيضًا مخلوطًا بالكاري؛ ربما لو وجدت دجاجة في السوق، ستحاول شراءها من أجله.

ظنت ريحانة أن أولى كلماته إليها ستكون «شكرًا لكِ» أو «أنا غاية في الامتنان لكِ» ولكن عوضًا عن هذا، استهل حديثه معها قائلًا: لن يطول الأمر الآن. افترضت أن ما يعنيه هو أن الوقت لن يطول قبل أن يتعافى بما يكفي ليرحل عن شونا. فلا شك أنه لا يقصد بقوله إن الوقت لن يطول قبل أن تنتهي الحرب. وظنت أنه في الحالتين يرتدي رداء التفاؤل، نظرًا إلى حالة ساقه المشوهة.

كان عليها أن تميل إلى الأمام لتسمعه، وأن تُمسك بشعرها إلى الخلف حتى لا يسقط على وجهه. ولهذا خطَّت لنفسها ملاحظةً أن تُضفر شعرها في جديلة. تشممت أنفاسه وهي على وضعها، فندت عنه رائحة البطيخ. ووجدت نفسها تتساءل كيف لأنفاس شخصٍ أن تشبه رائحة البطيخ. وأجابت نفسها أن هذا لا بُد نتيجةً لعدم تدخينه السجائر.

في اليوم التالي، سألها على حين غرَّة: لماذا ترتدين الأبيض دومًا؟

ارتأى لها كم هي ملاحظة فظة منه، لكنها دُهشت من نفسها حين أجابت: حتى تقتنع بأني ممرضة ولستُ مجرد أرملة مسكينة.

ابتسم لجوابها، وغزا صدرَ ريحانة الضيقُ، فماذا لو أنها بدأت نوعًا من المزاح مع هذا الرجل. ولكن ما كان هناك داعٍ للقلق؛ بالكاد نطق الرجل بكلمةٍ واحدة طوال أسبوعٍ بعد هذا الحوار، وأخذ يبتسم إليها باقتضابٍ حين تأتي له بالغداء والعشاء.

ثم فاجأها في أحد الأيام وقال: أنا آسفٌ بشأن زوجكِ.

فأجابت ريحانة: لقد مضى وقتٌ طويل على هذا. (ثم سألت) أأنتَ متزوج؟

أجابها: أجل، كنتُ متزوجًا.

أي جوابٍ هذا؟ نظرةٌ، وميضٌ من شيءٍ، عبر وجه الرائد، شيءٌ أشبه بالغضب. وتساءلت هي عما سيكون عليه الحال لو اقتربت من الرجل قُربًا يثير بداخله الغضب.

في اليوم التالي سألها: ماذا حدث لزوجكِ؟

تبادر إلى ذهنها أن هذه التفاصيل ليست من شأنه، لكنها شعرت بالرغبة في الجواب بطريقةٍ أو بأخرى.

- أُصيب بنوبة قلبية.

- فجأة؟

- بهذه البساطة.

- ولماذا لم تتزوجي مرة أخرى؟

ما يزال يطرح أسئلةً جوابها ليس من شأنه، ولكن وما دام أنها بدأت، فسيكون من العسير عليها أن تتوقف عن الجواب دون أن تبدو فظة. فقالت: لديَّ أطفال؛ هذا سببٌ أدعَى أن لا أتزوج مرة أخرى.

- ظننتُ أن هذا سببٌ قوي للزواج.

قالت ريحانة:

- كلا، كلا. الأطفال هم أسوأ سببٍ تُفكر فيه للزواج مرة أخرى.

- ألم تريدي أن تحظي بشخصٍ يعتني بهم؟

- أنتَ لا تعلم ما كابدته من صعوباتٍ للاحتفاظ بهم.

وأخبرته بشأن القضية التي أُوكلت إلى المحكمة، ثم تابعت: كان عليَّ أن أُعيد الطفلين. احتجتُ إلى المال. الكثير من المال. احتجتُ مالًا لرشوة القاضي، ومالًا لتذكرة الطائرة إلى لاهور. ونصحتني السيدة تشودهاري: «ابني منزلًا عند مؤخرة قطعة الأرض». كان هذا ما نواه زوجي أيضًا من قبل. وكان هذا ما قررتُ فعله. لكني احتجتُ...

- المال.

- أجل، احتجتُ إلى المال. ولم أملك منه شيئًا. تُوفي والدي. وشقيقاتي يعشن في كراجي. أخبرنني برغبتهن في القدوم، لكنهن عجزن عن المجيء. لم تسر الأمور معهن على نحو جيد؛ فكانت معاناتهن لا تنقطع. وكنتُ أنا من يبعث إليهن دومًا بالمعونة.

وتذكرت الرسائل الجوية المُخطَّطة التي كانت ترسلها مع الحوالات البنكية.

جال الرائد ببصره حول غرفة نوم السيدة سينجوبتا، وميَّز الحوائط السميكة، والطلاء الأبيض النظيف، والأبواب المزدوجة الثقيلة التي تؤدي إلى شرفة شاسعة. نطقت عيناه بسؤالٍ: **كيف فعلتِ هذا؟**

***

فكَّرت ريحانة في إخبار الرائد بشأن سرِقة المال. وحدَّثت نفسها أن الفكرة قابلة للتطبيق؛ ففي نهاية الأمر، يتحتم عليها أن تُخبر أحدًا؛ ما من سبيلٍ لها أن تُبقيَ على الأمر بداخلها للأبد. فشيءٌ كهذا سيدمرُ المرء ويُفسد سريرته بمرور الوقت. وهذا الرجل يتمتع بطيبة كل مَن لاقتهم، وربما يفوق على الجميع طيبةً، ففي حقيقة الأمر، بعدما يرحل هذا الرجل، ربما لن تراه مرة أخرى أبدًا. وربما يموت. إنها لتوبة، أستغفر الله. قرأت ريحانة آية الكُرسي إذا ما توفي. ثم قرأتها مُجددًا، آسفةً في قرارة نفسها على التفكير في موته.

فكَّرت في إخباره، ويكون هذا الاعتراف بمنزلة أول فعلٍ أناني تأتي به منذ وقتٍ طويل جدًّا. شيءٌ تفعله لنفسها فحسب؛ فعلٌ لن ينفع أحدًا في شيء، ولن يُفيد بشيء، لن يسدَّ جوعًا، ولن يُربيَ أطفالًا. تدربت على اعترافها أمام المرآة الداخلية لخزانتها المنفصلة المعدنية، وتخيلت السر يختفي من أيامها. توانت عن الاعتراف مستمتعةً بالسر في أحلامها، تُدرك في قرارة نفسها أنه سيزول قريبًا. وتساءلت ما إذا كانت ستفتقده أم لا.

لكنها تؤجل الاعتراف له بالحقيقة يومًا بعد يوم. وراحت تزوره وتتحدث معه بشأن أمورٍ أخرى. وكان يُنصت إليها بأناة، يومئ إليها، وإن لم يكن بالكثير حتى لا يدفعها للاعتقاد بأنه يشعر بالملل. دومًا ما يتطلع إلى فمها، لا إلى عينيها. ولكم أحبت ذلك، فكان يُقلقها عدم الارتياح الذي تشعر به حين يُحدِّق أحدهم في عينيها.

***

متى ما قررتْ طرح سؤالٍ عليه، تجد نفسها مُستغرقةً في الحديث بدلًا عن ذلك. فذات يومٍ على سبيل المثال، وجدت نفسها تقول: بعد وفاة زوجي، فقدتُ مَلكة الكلام.

أمال الرائد رأسه إلى جانبه، سألها: لماذا؟

- لأنني لم أحظَ بأحدٍ أحكي له عن مآسيَّ.

فأومأ لها بإيجاب.

بيد أن المحادثة قد انتهت، ولكن لتنتهي بشيءٍ من البهجة، استشعرت ريحانة ملاءمة أن تُضيف: كان إقبال مُنقذي.

- دائمًا ما تقول النساء هذا.

أطبق شفتيه حول أسنانه، فجاهدت الكلمات لتخرج من فمه.

والآن بات عليها أن تُفسِّر قولها، فقالت: بلى، صحيح. كان علينا أن نرحل عن كُلكتا. وكان علينا –أعني أبي– بَيْع كل شيء. كانت شقيقاتي قد انتقلن إلى كراجي، لكني لم أرغب في الذهاب إلى هناك. كنتُ لأتزوج من أي شخص.

- ألا تشعرين بالغضب لموته؟

- أجل، أحيانًا؛ فقد تركني على حين غرَّة.

فكَّرت في إخباره عن رحلاتها إلى المقابر: المُفاوضات والمُناشدات والإيمان الراسخ الذي يثير الحرج بأنه ربما يعود إليها، وأن الأمور قد تعود إلى نِصابها الصحيح كما كانت عليه من قبل. لكنها رأت أن هذا انكشافٌ سابق لأوانه، أو ربما فات أوانه. وعلى أي حال، لا يبدو هذا الرجل من النوع الذي ينغمس في مثل هذه العواطف.

قال إذ فجأةً: ماتت زوجتي.

- أوه. أنا آسفة.

- لم يكن زواجًا حقيقيًّا. كانت هندوسية، لكننا أحببنا بعضنا. أيُحسب هذا الحب؟

أجابت ريحانة وهي تُفكر في زواج سيلفي: أجل، يُحسب بالطبع.

- كان أبي رجلًا شديد التديُّن.

- أما أبي فلا.

- لم يكن متدينًا؟

ومضت صورةٌ قديمة لأبيها أمام عينيها: رجلٌ وسيم ذو كَياسة، تتشابك ساقاه أمامه في ثقة.

أجابت ريحانة: لم أعرفه حق المعرفة. كنتُ صغيرةً للغاية، ولكني أذكر الأشياء التي أحبها. تبغ الغليون، وثاكري. ويليام ميكبيس ثاكري- اعتاد أن يدفعني لقول هذا. كان يعزف البيانو، فقد كنا نملك بيانو ضخمًا. لطالما كان أكثر القطع رفاهية في المنزل. ومع تغير كل موسم، يأتي أحدهم ليؤلِّف نغماته.

- أكان لديكم مؤلف بيانو؟

- مؤلف بيانو، ومُعِد للطاولة. وسائس للخيل. وثلاثة شعراء.

عدَّدت القائمة من الذاكرة، مثلما تُعدِّد جدول الضرب. ثم تابعت: ثمانية طُهاة، واثنان رؤساء للخدم واثنتا عشرة سيارة.

لم ترَ ريحانة أيًّا من هذه الرفاهية. وحين كبُر عُمرها بما يكفي لتعي التمييز بين الأمور، كان الفقر قد أضناهم حيلًا.

- وماذا عن أمكِ؟

- تُوفيت قبل أن ينفد المال. عام 1936. كنتُ في الثالثة من عُمري.

***

كانت ريحانة قد عثرت على دجاجة تُباع في السوق الجديدة. ومن النظرة التي رأتها على وجه الرائد، أدركت ريحانة أنها قد منحته شاحنةً مملوءة بالذهب. لعق أصابعه ولحس جوانب الطبق، وحينما انتهى، تجشأ بهدوءٍ في راحة يده. ثم سألها عن إقبال مُجددًا، وهكذا راحت تُخبره عن الرحلة التي قطعها إقبال إلى لندن عام 1957، حين قدَّم طلبًا بشراء سيارة الفوكسهول.

- إليكَ الحاجيات التي ابتاعها لي زوجي من لندن: معطفًا صوفيًّا أسود من هارودز، وساعة نسائية ذهبية من رولكس وعُلبة مُستديرة من شوكولاتة كوالتي ستريت. احتفظتُ بالمِعطف في صندوقٍ مع كرات العث. وقسَّمتُ الشوكولاتة إلى جزأين. أكلت مايا نصيبها في يومٍ واحد، وقضت اليوم التالي تُمسك بطنها وتتأوه من الألم. وفي اليوم الثالث، توسلت إلى سُهيل ليُعطيها نصيبه. فأعطاها إياه -ما كان ليُقاوم

توسلاتها قط- ومع ذلك احتفظ بواحدة جانبًا، قطعة الشوكولاتة بالكراميل الدائرية، أتعرفها؟ المُغلَّفة برقيقة معدنية أرجوانية؟

لم يكشف لها الرائد بجوابه ما إذا كان قد تعرَّف القطعة المقصودة أم لا.

تابعت ريحانة:

- احتفظ بها سُهيل طويلًا حتى وصل إليها النمل. لكني لا أظن أنه أحب الشوكولاتة في المُجمل. أما بخصوص ساعة الرولكس الذهبية، حسنًا، انتهى بي المطاف برهنها. لكنها كانت جميلة للغاية، هديةٌ غاية في الجمال. وهذه هي حكاية رحلة زوجي إلى لندن عام 1957.

رصَّت ريحانة أطباق العشاء، ونقلتها بعيدًا.

سألها الرائد: ألم يتقدم أحدٌ إلى خطبتكِ؟ بعد وفاة زوجكِ؟

ربما ظنَّ الرائد بهذا السؤال أنه يُغير مجرى الحديث، لكنه في حقيقة الأمر يقترب شيئًا فشيئًا من الحقيقة التي تختبئُ في طيَّات شونا. حدَّقت بنظرها إلى شفته المشقوقة، ومدَّت يدها إلى الأمام، كما لو كانت تريد لمسها، لكن يدها استقرت على الفراش، وراحت تُهندم المُلاءة، وتحشرها أسفل الفِراش. وحدَّثت نفسها أن الوقت قد حان لتغييرها.

***

في اليوم التالي، سمعت ريحانة ثلاث طَرقاتٍ حادة على الباب. فأسرعت إلى غرفة الاستقبال، ودقَّات قلبها تتسارع؛ ففي هذه الأيام، قد يكون الطارق أي شيء لا يخطر ببالٍ: سُهيل، أخبارٌ من سُهيل، خِطاب من مايا، تلغرافٌ يقول إن كليهما ميتٌ أو واقعٌ في الأسر أو جريح، بطريقةٍ أو بأخرى. أو ربما يكون الجيش، أو جاسوسًا، أو شخصًا يتظاهر بأنه جاسوس، أو شخصًا يتظاهر بأنه ليس جاسوسًا. قد يكون الطارق أي أحد وكل أحد.

كانت الطارقة امرأةً تحمل صينية من الفضة، ويتراص فوقها إناءٌ من البورسلين الأزرق، ومَحرمةٌ بيضاء تُغطيه. طُرِّزت المَحرمة بزهور التوليب الذهبية على امتداد حوافها. واستشعرت ريحانة وجود طعامٍ ساخن ذي رائحة نفاذة داخل الإناء: والتقطت أنفها رائحة الزبيب بينما كانت المرأة الواقفة عند عتبة الباب تُلقي عليها التحية.

قالت المرأة بنبرةٍ تحمل شيئًا من الاعتذار: أنا والدة جوي. جوي وعارف.

كان وجهها مُكتنزًا، مقعَّر الخدين بالغمازات.

أجابت ريحانة: سيدة بشير، بالطبع. تفضلي بالداخل.

أجاءت تسأل عن عارف؟ أجلستها ريحانة على الأريكة، وحاولت أن لا تُحدِّق إلى وجهها. وحدَّثت نفسها: «**مهما كان مدى تحديقكِ إليها، لن يتسنى لكِ تبيُّن ما إذا كانت تقول الحقيقة أم لا**».

- أتودين تناول فنجانٍ من الشاي؟

- كلا، من فضلك، لقد أتيتُ لأجل هذا.

وأشارت المرأة إلى الصينية الفضية، التي كانت قد وازنتها على حجرها. هبَّت رائحة الزبيب في أنحاء الغرفة. صمتت السيدة بشير هنيهة، ثم وضعت راحتيها على محرمة التوليب. كانت يداها كبيرتين ذات أظفار مُهملة.

- من فضلك، أيمكنكِ أن تعطي هذه لجوي؟

خرجت الكلمات سريعة من فمها، كما لو أن المرأة قد خشيت أن تخونها شجاعتها وتتخلى عنها دون سابق إنذار.

هل تعلم أن عارف قد مات؟ إذا كانت لا تعلم، أهذا يعني أنها تقول الحقيقة، أم أن هذا يعني أنها تقول كذبًا؟

- أنا آسفة، لا يمكنني فعل هذا.

- إنه شيءٌ بسيط؛ طبق مقلوبة الدجاج فحسب.

- لا أدري أين هو ابنكِ.

مات ابنكِ. والابن الآخر، الذي يرتدي قميص ابني، رحل ليدفنه.

- أجل، أجل، بالطبع لا تعرفين.

صمتت هنيهة، ثم قالت: ربما يمكن لسُهيل أن يُعطيه إياه.

تطلعت السيدة بشير إلى الباب، وتسنى لريحانة أن ترى الفزع، والفضول المشوب بالحذر والقليل من الغيرة، ربما، نحو امرأة أخرى، امرأة حربٍ أخرى، تلك التي ربما تعلم شيئًا لا تعلمه هي.

أجابت ريحانة بحذر: سُهيل في كراجي، مع خالاته.

سُهيل يرتدي قميص عارف، وعارف يرتدي قميص جوي، وجوي يرتدي قميص سُهيل.

- ربما يمكن لأحدهم أن يُرسله إليه. إنه طبقه المفضل.

أجابت ريحانة، كما لو أنها كررت الكلمات آلاف المرات من قبل: لا أعلم أحدًا.

- أرجوكِ يا سيدة حق، أنتِ أمٌّ أيضًا!

أنتِ أُم. كم من المرات حدَّثت نفسها هذه العبارة تحديدًا؟ أنا أُم. أولًا وقبل كل شيء، أنا أم. لستُ أرملة، وبلا شك، لستُ زوجة. لستُ سارقة. أنا أُم. لكنها الآن صارت شيئًا آخر، أُمًّا، هذا صحيح، ولكنها ليست أُمًّا لطفليها فحسب. بل صارت أُمًّا من نوعٍ آخر. أدركت هذه الأم كيف هو شعور الحنين إلى أطفالها، ولكنها أيضًا تفهَّمت مخاطِر هذا الحنين.

- أنا آسفة. أعلم أنكِ تفتقدين أولادكِ.

- هل رأيتهم؟ كيف حالهم؟ كيف حال جوي، وولدي عارف؟

لا تعلم أن ابنها مات. راحت ريحانة تتصور عارف راقدًا في مقبرة ما، لا يطمئن ولا يُنعى. أرادت أن تلمس يد المرأة الخشِنة، لكنها قد تكون خدعة سهلة. وربما ليس ابنها من مات. كان على ريحانة أن تتظاهر بأنها لا تعرف شيئًا عن الأمر. ولاختبار رباطة جأشها، تطلعت ريحانة مباشرةً إلى عيني السيدة بشير، وقالت: لا أعلم شيئًا. أنا لم أرهم منذ أن بدأت الحرب.

ولمَّا نطقت بكلماتها، تذكرت البَركة التي نفحتها في وجه جوي ذلَك الصباح حين رحل إلى أجارتالا، ونظرة الاحتياج في عينيه وهي تهمس بالكلمات، واللين الذي طغى على لسانه وهو يُعرب لها عن شكره ويُلامس قدمها تبرُّكًا.

تابعت ريحانة:

- سيدة بشير، من فضلك خُذي مقلوبة الدجاج إلى منزلكِ؟

نهضت ريحانة فيما تصوَّرت أنه سلوكٌ غرٌّ، وفتحت الباب الأمامي.

قالت السيدة بشير، وهي تدفع الصينية الفضية نحو ريحانة: بل خذيه أنتِ. من فضلكِ، خذيه أنتِ. واعتبريه هدية صُنعت لأجلكِ.

- أنا آسفة يا سيدة بشير، اذهبي من فضلك.

قالت السيدة بشير برفق: أعلم أنه هنا، أعلم ذلك. أنتِ كاذبة.

وسقطت دموعها المصبوغة بلون الكحل مُنسابة على وجنتيها. ثم تقدَّمت خطوةً نحو الباب، وهنيهةً فكَّرت ريحانة أنها قد تُلقي بالأرز الساخن في وجهها، لكن المرأة لم تفعل. بل مسَّدت على المحرمة المُطرزة بالتوليب، وسارت مبتعدة، تاركةً ريحانة عند عتبةِ الباب تُردد وصفة إعداد مقلوبة الدجاج في قرارة نفسها، وتتساءل إذا كان لديها ما يكفي من الدجاج لإعداد هذا الطبق حين يعود جوي.

***

أثارت زيارة والدة جوي القلق في نفس ريحانة. فبُعيد انتهائها من صلاة المغرب، خرجت للاطمئنان على الرائد. وانتابها شعورٌ غريب بالعُري وهي تدلف إليه دون صينية الطعام تسبقها، أو ملاءة السرير لتغيرها أو حتى قنينةً من دواء وصفها الطبيب راجيش.

قالت ريحانة: كانت والدة جوي هنا. لكني صرفتها.

كان الرائد يتطلع إلى مرآة صغيرة ليفحص ندبته، فأجابها: لقد فعلتِ الصواب.

ثم دسَّ المرآة أسفل وسادته.

- لكن ابنها مات.

جاهد الرائد ليرفع جسده مستندًا إلى مِرفقيه، وهو يجرُّ ساقه المكسورة، حتى تمكن من الجلوس ومواجهتها، ثم قال: يتحتم عليكِ الإتيانُ بهذه الأفعال أحيانًا، أفعالٌ شاقة.

فقالت ريحانة: لستُ موقِنةً مما إذا كنتُ وطنيةً أم لا.

كان ذهنها يضج بالمُجلدات المفضلة لها من الشعر الأردو التي تقبع على رف كُتبها، إلى جانب المصحف مباشرةً.

- حسنًا، لماذا إذن ما تزالين هنا، في دكَّا؟

- للاعتناء بك بالطبع.

ما كان يجدر بها أن تقول ذلك. ولهذا صمتت هنيهة، لتستعيد حضور ذهنها، ثم تابعت: أُحب العيش هنا. هذا مَوطني، وموطن أبنائي. ولن أستبدل به أي شيءٍ آخر أبدًا. صدقني، لقد خُضتُ هذا الاختبار.

- إذن، أنتِ وطنية حقيقية.
- لطفٌ منك أن تقول هذا. ماذا عنك أنتَ؟
- هذا أعظم شيءٍ فعلته في حياتي. لو أنني غادرتُ هذا الفراش!

اعتُصِر قلبها قليلًا حين فكَّرت في رحيله.

تابع الرائد: كانت حياتي قبل هذا مُقفرة.

- أكنتَ ضابطًا في الجيش؟
- انضممتُ إلى الجيش منذ سنوات، لأنني اضطررتُ إلى الهروب، من القرية، ومن كل شيء. طاردتني أسرابٌ من الذكريات لا آخر لها.

تطلع إليها، كما لو أنه يسألها ما إذا كانت تفهم ما يعنيه، فقالت: ولكن لهذا السبب تحديدًا، قررتُ أنا البقاء.

وقعت ثلاثة أحداث في نهاية يونيو: عاد جوي من أجارتالا، ووصل الطبيب راجيش بأخبارٍ سيئة، وأهدت ريحانة الرائد جهاز الفونوغراف. كانت هذه فكرتها هي؛ فقد بدا واجمًا للغاية حين فحص الطبيب ساقه وقال إنه بحاجةٍ إلى ثلاثة أسابيع أخرى من الراحة على الأقل. أزالت ريحانة الغبار عن جهاز الفونوغراف، وجرَّته عبر الحديقة إلى شونا. ثم مضت تبحث في غرفة سُهيل حتى وجدت بضع أسطوانات تسجيلية. أحدها كُتب عليه «**أنقذني!**» والأخرى كانت تحمل صورةً بالأبيض والأسود لإلفيس بريسلي وشفتاه تُداعبان ميكروفونًا. أما إبرة الفونوغراف، فقد فقدت حِدَّتها بفعل الغُبار، واضطرت ريحانة أن تبصق على إصبعها وتُزيل الغبار. ولتلميع الخشب، غمست ريحانة خرقة قماش في قليلٍ من زيت الزيتون، كانت تستعمله أحيانًا لترطيب مِرفقيها.

كان شعوره أشبه بمَن أُهدي شهرًا كاملًا من طبق كاري الدجاج. ارتسمت على شفتيه ابتسامةً عريضة، حتى تمددت الندبة إلى أن لامست خصلةً من الشعر خلف أذنه. ثم همس: شكرًا لكِ.

وأغمض عينيه ومال برأسه متجهًا إلى السقف، ثم قال: كيف عرفتِ؟

في الأسبوع الأول، كرر تشغيل أسطوانتَي التسجيل اللتين أعطته إياهما ريحانة. ومن ثمَّ، سمعت في أحد الأيام مقطوعةً موسيقية جديدة. لا بُد أن جوي قد أحضر له أسطوانات تسجيلية جديدة؛ أو ربما أحضرها إليه شخصٌ آخر؛ امرأة مثلًا. فعلى كل حال، لا تعلم ريحانة بما يحدث في شونا بعد حلول الظلام. كلا، لن يفعل بها هذا، لن يُحضر امرأةً إلى منزلها.

في بادئ الأمر، كانت الأسطوانات مألوفة: بعضُ قصائد طاغور، والقليل من أغنياتٍ بنغالية شعبية، تحوَّلت كلماتها إلى شعاراتٍ وطنية. وذات يومٍ، سمعت أغرب مقطوعة موسيقية تنبعث من غرفته. كانت قد أحضرت له وجبة الفطور: بيضًا مخفوقًا، وأربعة مثلثاتٍ من الخُبز المُحمص، وكأسًا من الحليب. ووقفت عند الباب، تُنصت لمدةٍ بدت لها هنيهةً، غير أنها لا بُد كانت فترةً أطول، فقد لاحظت أن البيض قد تماسك واستحال إلى اللون البرتقالي. أي موسيقى هذه؟ لم تسمع ريحانة موسيقى تُشبهها من قبل. ركضت عائدةً إلى الكوخ الصغير، وأعدَّت بيضاتٍ جديدة، وهي تؤنب نفسها على إهمالها، وارتدت عائدة إلى شونا. ولكن مرة أخرى، تجمَّد جسدها عند مدخل الباب.

كان صوتُ امرأة؛ وأمكن ريحانة أن تسمع أنفاسها الرقيقة في كل مقطع، ولسانها يُداعب لوحة الأزرار والبيانو الهادئ الأملس في الخلفية، وكلما تقدَّمت الأغنية، أمكن استشعار حُزنٍ وأنين خافت أجش وصوائت ممدودة. كان صوتها يحمل في طيَّاته ألف عامٍ من الحُزن. حاولت أن تستشف الكلمات الإنجليزية من الأغنية، فسمعت: «**أنا أحبك، بورجي**».

مَن هو بورجي هذا؟ بدت الأغنية أشبه بالطقس، شيءٌ تجده في كل مكان ولا مكان في الوقت نفسه، تتوالى الكلمات بعضها فوق بعض مثل حبَّات مطرٍ مُتشابكة؛ طقسٌ جاف ثم يليه طقسٌ مُمطر، ويرتفع المقياس كما تهب الريح العاصفة. أحيانًا ما يبدو الأمر كما لو أن المرأة تحبس أنفاسها ثم تُطلِقها؛ كانت صغيرة، تكاد تخطو عُمر الصبا، ثم يزداد صوتها عمقًا، ويُبدي ثقةً ذكورية دفينة. خيَّم طقسُ الأغنية على الغُرفة؛ وانتقل عبر الممر حتى استكان في روح ريحانة.

لمَّا استجمعت شجاعتها لتدخل إلى غُرفة الرائد، تفاجأت بنفسها منقطعة الأنفاس. حدَّثت نفسها أن السبب -لا بُد- هرولتها وحملها للصينية الثقيلة، ومحاولتها أن لا تسكب الحليب. حاولت أن تُؤجج في نفسها بعض الحنق نحو الرائد. فوضعت الصينية أمامه بقوة أشدُّ مما قصدت.

فقال الرائد: اسمها نينا سيمون.

نينا. بدا لها اسمًا بنغاليًّا.

كانت ريحانة قد استشعرت في فمها مذاقًا ذائبًا، كما لو أنها قد عضَّت على ثمرة جوافة حمراء ناضجة.

***

- أتُحبين الموسيقي؟

سألها الرائد حين عادت من أجل الصينية. فأجابته:

- تُذكِّرني بوالدي.
- أكان يُحب موسيقى الجاز؟
- كانت هناك فرقة ذات يوم. أُقيم حفلٌ في قاعة الرقص، وعجَّ المكان بالرقص والشامبانيا. ربما كان واحدًا من حفلاته الأخيرة.

كانت ريحانة تتحدث كما لو أن الذكرى جديدةٌ عليها هي الأخرى، تابعت: أجل. شامبانيا في كؤوسٍ رقيقة على شكل آنية، ونساءٌ قصيرات الشعر. كان هناك الكثير من الآلات الموسيقية. ودوت موسيقى صاخبة مُبهجة؛ ليست كهذه.

قال الرائد: نينا سيمون لا تُشبه أحدًا غيرها.

نظرت ريحانة إلى أغلفة الأسطوانات التسجيلية المُتناثرة إلى جانب سرير الرائد؛ رجلٌ داكن البشرة ذو شفتين تُحيطان ببوقٍ يُحدِّق إلى الناظر بنظراتٍ جِدِّية.

ثم سألته: مِن أين جئت بهذه الموسيقى؟

- أأعجبتكِ؟

أجابت كاذبة: كلا، لم تُعجبني.

- حسنًا.

لماذا لم يحتج؟ أي شخصٍ هذا الذي لا يُعجب بهذه الموسيقى؟

سألها: ماذا يُعجبكِ؟

- أي نوعٍ من الأسئلةِ هذا؟

- سؤال بسيط. إذا لم تعجبكِ هذه، فماذا يُعجبكِ؟
- أنتَ تقصد، أي نوعٍ من الموسيقى يُعجبني؟
- كلا، أعني، ماذا يعجبكِ؟
- في أي شيء؟
- أي شيء.

كيف لها أن تُجيب هذا؟ لم يسألها أحدٌ من قبل مثل هذا السؤال قط. لماذا لم يسألها أحدٌ من قبل هذا السؤال؟ كم أدهشتها قُدرة المرء على المُضي في حياته دون أن يتعرض له أحدٌ قط بهذا السؤال. واستغرقت في التفكير هنيهة.

ثم أجابت بأناةٍ: أُحب الزهور في حديقتي. ومُفضلتي هي الزهور الصفراء. وأُحب صنع مهلبية البيض. إنه طبقٌ صعب التحضير كما تعلم. خطأٌ واحد ويتحول البيض إلى مخفوق.

استشعرت ريحانة هبوب الريح الساكنة بداخلها مُجددًا، تعصف.. تموج.. تدور.

تابعت: والسينما. أُحب السينما.

كانت هذه كذبة أخرى؛ إنها تعشق السينما.

***

كان جوي هو مَن أحضر آلة العرض السينمائي. جاء اليوم الأخير من شهر يونيو، وكان المطر قد أخذ في الهطول كل مساءٍ حين تختبئ الشمس بلونها الوردي القاني أسفل خط الأفق.

لم تُدرك ريحانة طبيعته في بادئ الأمر؛ فحين رأت الصندوق الأسود الصلب، ظنَّت أنه قد يكون شيئًا آخر لدفنه في الحديقة، سلاحًا، ومن ثمَّ فتح جوي الإبزيمين على الجانب، ورأت ريحانة بكرة جهاز التسجيل والعدسات؛ رُغم أنها ظنت أن ما تراه هو نوعٌ من الكاميرات، لأنها لم ترَ يومًا واحدًا بهذا القرب الشديد. كانت ابتسامة جوي هي ما بدَّدت قلقها: ابتسامةً مليئةً بالشيطنة والفخر، الوجه الجديد الذي اكتسبه جوي ليُغطي حزنه.

- من أين حصلت عليه؟

- سينما ناز. صاحبها رجلٌ هندوسي، قتلوه في مارس الماضي.

إذن هذا هو ما يقضي الوقت في فعله: أعمال النَّهب والسرقة.

- إذن فقد أخذت جهاز العرض فحسب؟

لم ينبس الرائد ببنت شفة، ولا تدري ريحانة لِمن كانت الفكرة. ظنَّت أنها قد تكون فكرة جوي؛ وهذا لأنه راح يرتكب سلوكياتٍ إجرامية بعض الشيء مؤخرًا، ليثبت إمكانية وجود البهجة، والخُبث أيضًا، في هذا العالم. أو ربما يفعل هذا لنسيان وجه شقيقه الميت.

- كان مُلقًا هناك، مُغطى بالغبار.

- لا يجوز أن تأخذ الأشياء هكذا.

قال جوي: ربما لن يعمل.

وبمجرد أن نطق جوي بهذه الكلمات، أدركت ريحانة أنه سيحتفظ به لا محالة.

- بالطبع يعمل. ولِمَ لا يعمل؟ لقد شاهدتُ دزينة على الأقل من الأفلام هناك.

وراحت ريحانة تُحصي الأفلام التي شاهدتها في رأسها: **العطلة الرومانية**[1]، **المجتمع الرفيع**[2]، **الأحجية**[3]، **الصقر المالطي**[4]، **النوم الكبير**[5]، **كازابلانكا**[6]. أُصيب رأسها بدوار مفاجئ. فقالت: هلا نُجربه؟

ألقت نظرةً على ما في الصندوق، فوجدت: **المغولي الأعظم**.

- كيف عرفتَ؟

- أخرجتُ هذه الأسطوانة من الجهاز للتو.

لا يمكن أن يكون وجوده مصادفةً. لا بُد أن سُهيل أخبره. قالت ريحانة: شكرًا لك، شكرًا لك. هذا يعني لي الكثير.

---

(1) Roman Holiday (1953)

(2) High Society (1956)

(3) Charade (1963)

(4) The Maltese Falcon (1941)

(5) The Big Sleep (1946)

(6) Casablanca (1942)

أجابها جوي مبتسمًا، واتسع مُحيط وجهه لابتسامته: اعتبريه هديةً من الفدائيين.

***

تراكمت الدموع في عينيها حتى قبل أن يبدأ التتر. وضبط جوي التركيز، ثم سار إلى مُؤخرة الحجرة نحو الباب.

- ستُغادر؟

أجاب جوي: هذا الفيلم لا يصلح لي، سأصير ليِّن الطباع!

تجاهلته ريحانة بالفعل؛ فقد ظهر «أكبر» على الشاشة، يدعو الله أن يرزقه بالذرية. وراح يقول: ربِ لا تذرني فردًا.

همست ريحانة: لن تفهم الحوار، إنه باللغة الأُردية.

همس الرائد مُجيبًا: لا يُهم.

- أتريد معرفة القصة؟

فأجاب: أخبريني سريعًا، قبل أن يبدأ الفيلم.

ركَّزت ريحانة عينيها على الشاشة، حين كان أكبر يشق طريقه عبر الصحراء إلى نادر شاه، وراحت تقول: إنها قصة مُعقدة؛ قصة حب، نشأت بين الأمير سليم، ابن أكبر، وخادمة تُدعى أناركالي. وبعد ذلك ....

مدَّ يده إلى الأمام، ووضع إصبعًا على ذراعها، ثم قال: أنا أفهم.

ظهرت أناركالي في المشهد، تسير مُتصلبةً مثل التماثيل. افترَّ ثغرها عن ابتسامتها الجانبية. وتحدَّثت؛ فترددت عذوبة صوتها الأجش في أنحاء الغرفة. وراح قلبها يخفق بين أضلعها. رقصت أناركالي رقصتها اللولبية، وهكذا وقع الأمير سليم في حُبها. وفي أوج غضبه، اعتقلهما أكبر. قال الأمير سليم: احتفظ أنتَ بهندُك الغالية، وسأتمسك أنا بحبيبتي أناركالي.

همست ريحانة: اضطرت إلى التظاهر بخيانتها له.

رفع الرائد إصبعه إلى شفتيها، وقال: صهٍ.

وتحركت ظلال الفيلم على وجهه.

***

قالت ريحانة: أترى، إنها ألطف قصة حب.

- صحيح. أنتِ على حق.

- ما كان ينبغي لجوي حقًّا أن يسرق جهاز العرض السينمائي.

- كنتِ ستأخذينه بنفسكِ لو أُتيحت لكِ نصف الفرصة.

أخذت ريحانة نفسًا عميقًا، لن يُتاح لها وقتٌ أفضل من هذا. الغرفة غارقةٌ في الظلام، ومروحة جهاز العرض ما تزال دائرة، يصدر عنها طنينٌ ثابت بَيد أنه يُضيء نافذة العرض البيضاء التي تُرفرف أمام فراش الرائد.

استدارت ريحانة إلى الرائد، فلم يُحرك ساكنًا ليُطفئ جهاز العرض السينمائي، كما لو كان يعرف بأنها على وشك إخباره شيئًا. ربما كان هو من خطَّط لكل هذا، وحمل جوي على سرقة جهاز العرض السينمائي، ومُشاهدة المغولي الأعظم، هذا الفيلم الذي لن يفهم منه شيئًا. لو أن الأمر كذلك، فها هي على استعدادٍ للوُقوع في الفخ؛ لأنها أرادت أن تُخبره السرَّ بقدر ما أراد هو أن يعرف.

قالت ريحانة:

- بعدما انتُزع الطفلين مني، ظننتُ أني سأموت. لم أكن أدري ما عليَّ فعله، وأسوأ ما في الأمر هو أنني رُحت أفكر حقيقةً بأنهما أفضلُ حالًا مع تلك المرأة. لم أكن أملك شيئًا لأمنحهما إياه، ولا أملك حتى المال الذي سأدفعه إلى القاضي. كنتُ امرأةً غاية في الجُبن، اعتقدت أن هذا كله أفضل حل لكل الأطراف، وسمحت لفايز أن يأخذ الطفلين بعيدًا عني. لن أسامح نفسي على ذلك أبدًا.

تطلعت ريحانة إلى الرائد، وانتظرته ليقول شيئًا، شيئًا مثل: «**ما الذي كان بإمكانكِ فعله؟**» أو «**يا لكِ من امرأةٍ مِسكينة**». كانت مثل هذه العبارات هي ما اعتادت سماعها طوال الوقت، الكلمات التي تعقَّبتها في كل مكان. أما هو فكان ينتظر منها الإتيان بالمزيد.

تابعت ريحانة:

- أغلقتُ الأبواب في وجه الجميع، ورفضتُ رُؤية أحد. وطردتُ الخدم، فلم أملك المال لإبقائهم على أي حال. وأحيانًا ما كانت تأتي ابنة السيدة تشودهاري لزيارتي، وأحيانًا ما كنتُ أُحب زيارتها، لكنها كانت تُذكِّرني

بأطفالي، فأبعدتها عن زيارتي. أظن أنني كنتُ قاسية، لكنها فتاةٌ غاية في اللطف، وقد نسيت كل ما حدث من قبل.

صمتت ريحانة قليلًا، مُتسائلةً ما إذا كان يجدر بها المُضي في إخبار الرائد بشأن سُهيل وسيلفي.

استطردت ريحانة:

- جاءت إليَّ السيدة تشودهاري ذات يوم. كنتُ نائمة، في مُنتصف النهار، أتلحف معطف إقبال. ودخلت عبر الحديقة، فلم أعتد قط إغلاقَ تلك البوابة، وقالت إنَّ لديها فكرة. قالت إن عليَّ اقتراض المال من البنك وبناء منزلٍ على هذه الأرض. لم تضم الأرض حينها سِوى الكوخ الصغير، وبُقعة شاسعة من الأرض، تتناثر عليها بعض الحشائش البرية؛ البقعة ذاتها التي اعتدتُ أن أمنع الطفلين دومًا من اللعب فيها. لطالما حلمتُ وإقبال ببناء منزلٍ كبير ذات يوم، لكن الأمر لم يخطر ببالي بعد وفاته. وهكذا قالت لي السيدة تشودهاري: ارهني الأرض، وخذي قرضًا، وابنِي المنزل.

استرجعت ريحانة ذكرياتها؛ فلطالما بدا الفضاء الشاسع أشبه بحقل أرز، تتخلله حشائش طويلة كثَّة الفراء، وشجرة المانجو في المنتصف، تُشبه إصبعٍ تشير إلى السماء.

أضافت ريحانة:

- لكني لستُ سوى امرأة.. دون أي ضامن ذكر، ولهذا رفضت البنوك طلبي. ومن ثمَّ أخبرتني السيدة تشودهاري أن رجلًا من معارفها، يُدعى السيد قريشي، صديقٌ قديم لشقيقها، قد وافق على مُقابلتي. ذهبتُ إلى البنك، بنكُ حبيب، أتعرفه؟ فرعه الرئيسي في موتيجهيل.

كان السيد قريشي هذا مُحتالًا. لكن هذا لم يكن خطأ السيدة تشودهاري، كان يجدر بي أن أصحبها معي، ولكني ذهبتُ بمفردي. لا بُد أن حالي كان مُزريًا، ووضعي كان تائهًا، فحاول الرجل استغلالي.

وها هو ذا، تتمسح عظام وجنته بفمها، ويده تستقر على كُم بلوزتها، واستنشقت عبيره الذي كان يحمل رائحة فطور الكاري الذي كان قد تناوله ذلك الصباح، وقطعة الصابون القديمة العفنة، ووحشة الاحتياج المرضي.

ظل الرائد باقيًا على صمته، ورأته هو يعض على الجزء الداخلي لشفته، والجانب الأيمن منها، الجزء الذي لم تطوله الندوب.

تابعت ريحانة:

- وهكذا لم أحصل على أي قروض. ثم قضت السيدة تشودهاري بأن عليَّ العثور على زوج. لا بُد أنك تظن أنني أنصت إلى كل ما تقوله السيدة، وهذا صحيح، فقد كنتُ آنذاك كمن يسير نائمًا. وكنتُ في أمسِّ الحاجة إلى شخصٍ يُخبرني ماذا أفعل. طوال حياتي بأكملها، كان القرار الوحيد الذي اتخذته هو الزواج من إقبال. وكان القرار الوحيد، لأنني... حسنًا، لقد أخبرتك بالفعل.

ما يزال الجزء الأصعب من الحكاية قادمًا. يا للمسكين تي. علي، الرجل الضرير اللطيف وزوجته الوهمية.

- اقترحت عليَّ السيدة تشودهاري تي. علي. كان قد انتقل لتوه إلى الضاحية. وكان يكبرني سنًّا بأعوامٍ كثيرة –كان في الحقيقة رجلًا عجوزًا– وماتت زوجته منذ زمن. كان ضريرًا، هل قلت هذا قبلًا؟ أجل، كان ضريرًا. لكنه رجلٌ ثري؛ فقد كان والده تاجر شاي؛ وقد ورث عنه ثروة.

راحت الكلمات تنسكب من فمها متعثرة.

- كان الرجل هادئ الطباع، وفي أول مرة التقينا –دعتنا السيدة تشودهاري على العشاء – لم يُوجِّه إليَّ ولو كلمة واحدة حتى. بل تناول طعامه، وألقى بوداعٍ مُهذب على السيدة تشودهاري، ثم رحل. وقالت هي أنها واثقةٌ من إعجابه بي.

كدتُ أفعلها. كان تي. علي قد أكد استعداده للتفكير في الزواج مرةً أخرى، ولكن كان عليَّ أن أُبقي على صورة زوجته في غرفة الاستقبال. دعاني إلى منزله لأرى الصورة. لم أكن موقنةً مما إذا كان يجدر بي الذهاب أم لا، لكن الفضول قتلني، وفكَّرتُ أنه ربما كان رجلًا لطيفًا فحسب –ربما غريبًا بعض الشيء– ولكن إذا اتفقنا على الزواج، كنتُ سأطلب منه مُباشرةً ما إذا كان بإمكانه أن يمنحني المال لرشوة القاضي، وشراء تذاكر إلى لاهور.

***

كان منزل تي. علي مبنيًّا على الطراز التقليدي، من طابق واحد تتوسطه باحةٌ مركزية شاسعة وشرفة واسعة وغرفٌ تؤدي إلى خارجٍ الشرفة. من على بُعدٍ، بدا المنزل أشبه بحصن.

حين دخلت ريحانة إلى المنزل، رأت الرجل جاثمًا على كُرسيٍّ في غُرفة معيشة خافتة الإضاءة. كان يرتدي حُلَّة بلون الشوكولاتة البُنية وربطةُ عنق بلونٍ أحمر قانٍ. ويده تستقر على صدره، للوهلة الأولى فكَّرت ريحانة أنه ربماً أُصيب بنَوبةٍ قلبية، وأوشكت أن تلعن حظها العاثر. لكنه فيما بعد رفع يده، وبداخلها رأت ريحانة إطارًا بيضاويًّا صغيرًا. كان يقبض على الإطار بإحدى راحتي يده، ويُمسِّده باليد الأخرى. وظل يردد: حبيبتي روز، جميلتي روز. أما الغُرفة، فقد غلب عليها الأثاث الخشبي ذو الطابع الذكوري، والسجاد القديم، والحوائط ذات الطلاء العسلي، والصورة التي هيمنت على كل شيءٍ حولها. تفوح من الغرفة رائحة الرطوبة والطلاء المُتهالك، والألوان التي انصهرت وامتزج الواحد منها بالآخر. كانت روز امرأةً شابة، ذات وجهٍ موغل في الشحوب حتى إنه أعلن موتها، ويدين رقيقتين انكمشتا في حِجرها. أوحت ملامحها أنها امرأةٌ إنجليزية، هؤلاء النساء اللاتي كنَّ يرتدين قبعات كبيرة مائلة وقفازات، حتى في أثناء الطقس الدافئ. كانت ترتدي ثوبًا يصل إلى كاحليها، بلونِ البازلاء الخضراء الفاتح، وياقة عالية مُحاطة بشريط من الدانتيل وصفٌّ متراص من الأزرار يبدأ من ذقنها إلى خصرها.

فكَّرت ريحانة في طبيعة شعورها حين يُحدِّق إليها هذا الحضور الأثيري. وعبرت عتبة الباب في حذرٍ شديد.

قالت ريحانة بلُطف: علي ساب.

فأجابها وهو يُربتُ على المقعد: لكِ صوتٌ رقيق يا عزيزتي. أقبلي واجلسي. هل تودين بعض الشاي؟ العصير؟

قالت ريحانة: شكرًا لك.

صمتت هنيهة، ثم استطردت: إن زوجتك فاتنة.

- أجل، كانت غاية في الجمال. لم نحظ سوى ببضع سنين معًا.
- أنا آسفة للغاية.

دخل الغرفة رجلٌ بحُلة سوداء وقبقاب، يحمل صينية. وحين وصل إلى حافة السجادة الطحلبية، خلع عنه قبقابه وتقدَّم في طريقه عاري القدمين.

وضع الصينية أمام ريحانة، وعليها يستقر كأسان طويلتان من سائلٍ ورديٍّ، تعلوه رشة من الرغوة.

قال تي. علي ومسحةٌ من الفخر تزحف إلى صوته: هذا شربات ماء الورد. فأنا أزرع الورد.

كان الشربات شديد الحلاوة، وجعل فم ريحانة يرتعش.

- لذيذ.

غمرها الدفء حين فكرت في أغصان الورد لديه. وسمحت لنفسها بأن تتخيل حديقته، وتميل على نباتاته، والشمس تلفح عُنقها. ربما أمكنها الزواج به. لا شك أن المنزل شديد الاتساع. إذن ماذا عن الصورة؟ إن المرأة ميتة على أي حال.

قال الرجل، وهو يرفع عصاه باتجاه الصورة: ما رأيكِ بها؟

أجابت ريحانة: إنها فاتنة.

نظَّف الرجل حلقه، وقال: إليكِ ما في الأمر، لقد أُصبتُ بداء السل. واشتد المرض عليَّ، وأخبرني الطبيب أنه لم يتبقَّ لي الكثير. وقالت هي: «كلا، لن أدعه يموت». والتزمتْ جانب فراشي وأمسكت بيدي، لا أتذكر ما حدث؛ لقد أخبروني كل شيءٍ بعد ذلك. قالت زوجتي: «إننا لم نرزق بأطفال. أذكر أنها قالت هذا، وراحت تتضرع إلى الله أن لا يأخذني منها قبل أن نُرزق بأطفال. وراحت تدعو الله في كل وقتٍ وفي كل يوم».

احتشدت الدموع في عيني تي. علي. فأشاح بوجهه بعيدًا عن ريحانة، وسحب منديلًا ورقيًّا من جيبه، وتحرر من نظارته الطبية ببراعة. ثم استطرد:

- تماثلتُ للشفاء بفضل الله. كان هذا في عام 1943. ومن ثمَّ ماتت هي في العام نفسه. أُصيبت بداء السل، وعجزتُ أنا عن إنقاذها.

ازداد وَهن صوته وبات مُخضبًا بالدموع، وهو يتابع: كانت امرأةً لا مثيل لها.

ثم أومأ برأسه وراح يُحرك فمه، كما لو أنه يمضغ الذِّكرى. تركت هذه الكلمات أثرها على وجهه، فبدا عجوزًا، حاولت ريحانة أن تُخمن سِنه. لكنه قاطع تفكيرها قائلًا: هاكِ، دعيني أريكِ.

نهض عن مقعده وسار عبر غُرفة الذكريات مستندًا إلى عكازه. كانت خطواته رشيقة مطمئنة. وغمر ريحانة شيء من الارتياح وهي تتبع خطواته. أمسك بمقبض الباب مفتوحًا ودعاها للدخول؛ فمرَّت بالقرب منه، ولاحظت رائحة النفتالين والغبار والحلوى: رائحةٌ ليست بالسيئة، تبعث على الطمأنينة.

سار قبالتها مرشدًا إياها عبر ممر مظلم؛ ثم مدَّ يده وأمسك بمقبضٍ وأداره، ثم قال: أترين، لقد تركتُها على حالها كما كانت.

تحرك تي. علي عبر الغرفة في رشاقة، وهو يشير إلى الأشياء. وبدا لها كما لو أنه -هنا، في هذا المنزل، في هذه الغرفة تحديدًا- برأ من العمى. في الركن البعيد، كان بيانو ينتصِب في موضعه، والغطاء مرفوعٌ عن مفاتيحه مثل شفةٍ مبرومة. وإلى جانبه يسكن كرسي، ينسدل على ظهره فستانٌ وردي خفيف. لامس تي. علي الفُستان وقال إنه آخر شيءٍ ارتدته زوجته. كانت هناك طاولة زينة ذات مقعدٍ من المخمل الباهت، اتشحت متاريسه بصدأ أسود. عُرض على الطاولة فُرشاة شعرٍ ذات مقبضٍ فضي، وصندوق مجوهراتٍ، وعُلبة من مسحوق التجميل ذات إسفنجة منكَّسةٍ على وجهها، على أهبة الاستعداد لتمسح الوجه الفاتن لروز.

سألت ريحانة وهي تقترب من الآلة الموسيقية: أتعزف البيانو؟

أجابها: أنا؟ كلا.

كانت عبارة «***لوحة مفاتيح متكاملة***[1]» مخطوطة بخطٍّ مائل فوق إحدى وُريقات النوتة الموسيقية ذات الرسوم السوداء.

استطردت ريحانة، وهي لا تدري بماذا تُجيبه: إنه رائع للغاية.

اشتدت حرارة الغرفة، وصار هواؤها خانقًا. ودفعها هذا الجو إلى الرغبة في الهمس، الرغبة في تمشيط شعرها، ومسح شفتيها بشيءٍ من أحمر الشفاه.

التفتت لتُواجه المرآة وتتفحص وجهها. استحالت وجنتاها إلى حُمرة قانية من شدة الحرارة، وانتبهت لاعتيادية مظهرها، والبياض المُنشَّى

---

(1) العبارة الأصلية هي: The Well-Tempered Clavier وهي عنوان كتاب من تأليف جون سبستيان باخ، يضم مقدمات وأشكالًا في جميع الأزرار الـ 24 الرئيسية والثانوية للوحة الأزرار. (المترجمة)

لفستانها. ومرَّت أمامها صورة السيدة تي. علي بفستانها الحريري، وشفتيها الشاحبتين، وتنورتها المقاومة للتجعُّد.

تخيَّلت العيش هنا، في هذا العالم البارد المُعبَّد بالغبار. وحجبت عن ذهنها صور الكوخ الصغير، وشجرة الليمون، وطنين النحل حول زهور الياسمين. كان عليها أن تُقدم على ما نوت فعله. كان عليها أن تتحمل. لم يكن إقدامها بدافع الحب، لكنه لم يكن أسوأ شيءٍ قد يحدث لها.

أمسكت ريحانة بفُرشاة الشعر؛ فتركت خلفها وجهًا لامعًا وسط الغبار، حيث يسطع الخشب المَطليُّ من أسفلها. وبينما تحركت لتُعيدها إلى موضعها، اصطدمت الفرشاة بعُلبة مسحوق التجميل.

استدار تي. علي ليواجه ريحانة، وقال: من فضلكِ لا تلمسي هذا.

وأسرع نحوها ليلتقط منها الفرشاة. تأبط مرفقها، ثم سار بيده على امتداد ذراعها، حتى وصل إلى فرشاة الشعر في يدها، وسرعان ما أمسك بها. انكمشت ريحانة إثر لمسته لها، وحميمية تأبطه لذراعها، ويديه الباحثتين في كل جانب. لم تدرِ سبب إقدامها على هذا الفعل، كل ما تعرفه هو التفاف أصابعها حول المقبض ورفضها التخلي عن الفرشاة. ظلَّا يجاهدان كلٌّ في جانبه لبضع ثوانٍ، حتى انزلقت الفرشاة من يد ريحانة.

في تلك الأثناء، كان تي. علي يقبض على الجانب المقابل، فطارت الفرشاة من قبضته، واصطدمت بالمرآة. لم تتحطم في بادئ الأمر، بل راحت دوامة من الشقوق تتفتح مثل عينٍ، وتنحرف للخارج، وتنتشر في جميع أنحاء المرآة طولًا وعرضًا. ثم شرعت القطع تتساقط، رويدًا رويدًا، ومن ثمَّ في غمضة عين، سقطت في تدفق عنيف.

ألقى تي. علي بنفسه على المرآة.

- ماذا تفعل؟

- أنتِ أيتها الفتاة الحمقاء!

تناثر شيءٌ من اللعاب على شفته وهو يصيح في وجهها. ثم ركع على يديه وركبتيه، وراح يُنقِّب في الزجاج المُهشَّم.

- أنا آسفة للغاية، لم أقصد إزعاجك.

- خربتِ كل شيء!

- من فضلك يا سيد علي، يجب أن تنهض.

- اخرجي! اخرجي من هنا! هذه غرفة حبيبتي روز!

شدَّت ريحانة على يد تي. علي، فأجهش بالبكاء، وقال: قلتُ لكِ اخرجي!

كان يتجاهلها، ويُغمغم بشيءٍ في نفسه. حاولت ريحانة مُجددًا أن تُحرك يديه بعيدًا عن المرآة المكسورة. وإذ فجأة، لمحت صندوق المجوهرات، فاغر الفاه، يرقد على جانبه بين زخَّات من الزجاج، فالتقطته دونما تفكير. وغطى صوتُ تهشم الزجاج أسفل قدميها على صوتُ تعشُّق القفل في أخدوده. ثم دسته أسفل ذراعها. وراحت دقات قلبها تزداد طرقًا بين أضلعها. كانت موقنةً من قدرته على رؤيتها؛ وأن خريطته الذهنية لهذه الغرفة ستكشف فعلتها.

غير أنه ظل ساكنًا وقال: ألم تذهبي بعد؟ قلتُ لكِ اتركينا في سلام. ارحلي عنَّا. أوه، يا لحبيبتي المسكينة، يا لحبيبتي المسكينة روز.

وهكذا شقَّت ريحانة طريقها نحو الباب.

لقد علم بفعلتها؛ لا بُد أنه علم. فكَّرت في ترك العُلبة إلى جانب الباب؛ لم يفت الأوان بعد؛ وكان هذا أفضل من أن يُقبض عليها والعُلبة بحوزتها؛ ففي أي لحظة الآن سينهض مستندًا إلى طاولة الزينة وينقضَّ عليها؛ كان قادرًا على الرؤية، وأيقنت هي من قدرته هذه. أما وإنها في اللحظة التالية، وجدت نفسها خارج الغرفة، مُندفعةً عبر الممر؛ ومن خِلال غرفة الاستقبال، حيث رُفعت عن طاولتها كؤوسٍ شربات الورد؛ رفعت مِزلاج الباب الأمامي وخرجت إلى الشارع. ابتلعتها الظُّلمة في الحال؛ ومن ثمَّ حين وصلت إلى المنزل، انكمشت على نفسها فوق فراشها وراحت تنشج، وتبتهج، وتنشج.

قال الرائد: لقد سرقتِ.

كان الظلام دامسًا حتى عجزت معه ريحانة عن تبيُّن وجه الرائد. لكنها أجابت: أجل، أجل سرقت.

- من رجلٍ أعمى.

أدركت ريحانة أنه مُقدمٌ على كراهيتها لا محالة؛ لكن الأوان قد فات.

- أجل، من رجلٍ أعمى.

- وزوجته الميتة.

- أجل، لقد أخبرتكَ للتو. زوجة تي. علي.

سمعت ريحانة شيئًا -أهذا **بكاء**؟- ثم صفق على ركبته، مرة، مرتين. وتنحنح، وازدرد ريقه. ثم قال: أنا آسف، كل ما في الأمر...

- ما الأمر؟

- هل احتفظتِ بهذا السر طوال هذه السنين؟

- أجل، لم أُخبر أحدًا قط.

صفق على ركبته مُجددًا. صارت أنفاسه صاخبة الآن، ورُغم عجزها عن الرؤية في ظُلمة الغرفة، استشعرت فمه المفتوح عن آخره ومحاولته الحديث رُغم الصعوبة. ثم قال أخيرًا:

- ظننتُ أنكِ قتلتِ أحدهم على أقل تقدير.

- ما هذا الذي تقوله؟

كان قد تخلى عن مُحاولاته في قول أي شيء، وها هو الآن يضحك، هيهه هيهه هيهه- ضحكةً سخيفة مدعاةً للسخرية. استشعرت ريحانة غصَّة في مؤخرة حلقها، فسعلت، ثم عاودتها الغصة مُجددًا. فلاذت بالفرار في توبيخه، وقالت: أتظن هذا مضحكًا؟

- كلا، كلا. هذا ليس مضحكًا بالتأكيد. (صدر عنه صوتُ نخير) معذرةً!

- اللعنة! أأخبرك هذا السر المُريع، وكل ما يمكنك فعله هو الضحك.

أشاحت بوجهها عنه ساخطةً، وممنونة للظُّلمة التي أعجزته عن تبيُّن التعبير البادي على وجهها. قد تكون ابتسامة، وقد يكون تجهمًا. أما تلك الغُصة في حلقها، فقد تكون ضحكة، وقد تكون دموعًا. اختبرت ريحانة مشاعر مختلطة في تلك اللحظة: الحزن، البهجة، السخف. لم تأبه لما تشعر به، وتركته هناك، وطنين جهاز العرض السينمائي يصدح في ظلمة الوهج اللاحق للفيلم. مال الرائد برأسه إلى الخلف بامتنان، يضحك كما لو أنها منحته جائزةً لتوِّها.

***

يوليو

الطائر ذو الأجنحة الحمراء

لم تحِن أيام أغسطس بعد، فما يزال يوليو، شهر التضارُب والتضاد، جاريًا. في أغسطس، تكون الصباحات برَّاقة على نحو يصعب احتماله، والهواء كثيف، والأمزجةُ مُتداعية؛ فتنكبُّ الزوجات وصُناع فطائر البراثا والبَقلاوة على إعداد الفطور، ويستيقظ الأطفال مُخلِّفين وراءهم مُلاءات مُبللة، ويمسحون وجوههم في شراشف ناعمةٍ من الفِراء. ومن ثمَّ، في ساعة غامِضة بين الظهيرة والغَسق، تحبس السماء أنفاسها، وتسوء الأمزجة؛ يصير الهواء خانقًا فلا يصل إلى رئتي الناس، ولا يتزحزح، ويسكن كل شيءٍ كالجبال أوتادًا، ويُخيم صمتٌ، لا يقطعه سِوى عواء ساكني المدينة، ربما يتناولون غداءهم، أو ينقلبون يمينًا ويسارًا على فَرشهم، ويتجادلون ما إذا كان الطقس يشتد حرارةً حين تسكن أجسادهم أم تتحرك؛ نساءٌ مُلطخات الزينة يصفعن وجوههن بالمراوح اليدوية، ورجالٌ منتفخو الصدور يصفعون رقابهم بالمراوح اليدوية. ولكن بعد انتهاء هذا الجُمود، وبعد احتشاد الغُيوم وانتشار الظلمة، يهطل مطر الغبطة والمرح، ماءٌ حلو ينهمِر بغزارة، تتخلله تأوهات الرعد الكهربية، وموجات البرق. جميعها معًا تُمثل استعراضًا للمناخ، عيدًا للمحمومين بالحرارة والإنهاك؛ وفي كل يوم، تجد صبيًّا صغيرًا، أو رجلًا عجوزًا، أو حتى كلبًا، يتطلع إلى السماء وينتظر أول قطرة ماء ليستقبلها بلسانه مُمددًا خارج فمه، ووجهه مُفعمٌ بالأمل، وقد انقشعت من رأسه تمامًا كل ما اختبره من نزق الصباح.

غير أنها لم تكن أيام أغسطس؛ بل أيام يوليو، شهرٌ خجول كدِر؛ يختبئ في جُبنٍ أسفل تهديد ما هو آتٍ. هو لا شيء سوى الإحماء.

وفي يومٍ كهذا يتأرجحُ بين طقسٍ وآخر، يُسمع عويلٌ آتٍ من المنزل رقم 12؛ امرأةٌ تُنادي في جنون بالماء، ماء مُثلَّج لرأسها. وحين وصلت ريحانة إلى جانبها، قالت المرأة مُتعجبةً: ابنتي المسكينة! ابنتي المسكينة!

وفي الحديقة، راح كلبٌ يُدعى جوليت يعوي طوال فترة ما بعد الظهيرة.

هكذا وصلت الحرب أخيرًا إلى أعتاب السيدة تشودهاري.

تعلَّقت السيدة بالسرير ذي الأعمدة الأربعة، وضمادةٌ مُبللة تستقر على جبهتها. راحت مروحة السقف تدور على أقصى سرعتها، وهي تشطر الهواء بين أذرعها في عنف، بينما انهمكت سيلفي في التلويح بمروحة يدوية من الخيش على وجه أمها. وما بين هذا وذاك، ينبسط وجهها، وتلتصق الشَعرات بجبهتها.

قالت السيدة تشودهاري: أسرع! أسرع! ... سيلفي، أحضري ميزان الحرارة. حرارتي مرتفعة!

أعطت سيلفي المروحة اليدوية إلى ريحانة دون مُبالاةٍ، وذهبت لتُحضر ميزان الحرارة. كان أحدهم قد حاك غرزًا من حاشية حمراء حول طرف المروحة، فبدت أشبه بصدفةٍ بحرية مغمُوسة في طلاء أحمر.

صاحت السيدة تشودهاري: في لحظةٍ تجدين الجو حارًّا، وفي الأخرى تجدينه قارس البرودة.

أعملت ريحانة المروحة ذهابًا وإيابًا أمام وجه السيدة، وهي تُتابع خصلات الشعر المفكوكة تطير من جانبٍ إلى آخر. كانت حُجرة نوم السيدة تشودهاري مُكتظة بالتحف العتيقة التي تملكها العائلة. فهُناك الفراش الماموثي ذو الأعمدة الأربعة، ذاك الذي يتطلب سُلمًا لتصعد إليه، وطاولة الزينة ذات المرآة العاجية الثَّقيلة، وحائطٌ بأكمله يستند إليه خزانات الملابس المصنوعة من خشب الساج الصلب، جميعها مُزودةٌ بثقب مفتاح فاغر فاه في حجم قبضة رضيع. وبين ثَنيات ساريها، دسَّت السيدة تشودهاري سِلسلة مفاتيح ذهبية، تحمل مفاتيح الخزانات ومفاتيح الأقفال الأخرى المهمة في المنزل: مثل مخزن السكر والزيت، والبوابة الأمامية، والبوابة الخلفية، وغرفة الاستقبال (التي تبقى مقفلة، وفرشها مغطاة بالشراشف للمناسبات الخاصة)، وغرفة

المُبرِّد، وعلى رأسها، خزينة المجوهرات، المُخبأة في الحائط خلف الخزانة الحديدية الثقيلة للسيدة تشودهاري.

أما بقية المنزل فكان متحفًا لأفضل عصور العائلة؛ وغُرفة بعد غُرفة تضم ميراث العائلة الذي جُمع في عشوائية مُفرطة. فالبعض منها كان مكدسًا على نحو يصعب معه التنقل بين الأثاث، والشمعدانات الفضية التي فقدت بريقها، والتماثيل المُتلاحمة لأفروديت الميلوسية وناتاراج[1]. والبعض الآخر يكاد يكون فارغًا، إلا من ساعة أحد الأجداد تُطقطق بغير انتظام في إحدى الغرف؛ وقفص طائرٍ أحاديٍّ في غُرفة أخرى، يتأرجح بفعل النسيم الذي يهب من النافذة المفتوحة، ويتردد صدى صريره بين الجُدران المُقرَّحة من الرطوبة. نفذت رياح المُصادفة إلى منزل السيدة تشودهاري، تُنبئ بقدوم شيءٍ سيزحزح أجواء الحُزن الكامنة. قليلون فحسب هم من يعرفون سبب هذا الترتيب، وكانت ريحانة واحدة ممن يعرف: ما تزال السيدة تشودهاري تنتظر عودة زوجها المفقود منذ وقتٍ طويل.

عادت سيلفي بميزان الحرارة، ووضعته في فم والدتها المفتوح. ثم التفتت إلى ريحانة وهمست: لقد قُبض على صابر.

كانت نبرة صوت سيلفي فاترة لا مُبالية. حاولت السيدة تشودهاري أن تتحدث خلال شفتيها المُثبتتين بإحكام، فعاجلتها سيلفي قائلة: انتظري دقيقةً واحدة. ثم أضافت بعد هنيهة: أمي، أنتِ لا تعانين الحُمى.

قالت السيدة تشودهاري: ريحانة، هذا هو قدر ابنتي المسكينة. كنتُ أدرك أنه ما كان ينبغي لها أن تتزوج من ذلك الرجل.

- ماذا حدث؟

استهلت سيلفي حديثها قائلة: كانت كتيبته تُقاتل الجيش الباكستاني في ميمينسينغ.

تدخلت والدتها مُعلِّقة: لماذا كان علينا أن نتورط في هذه الأمور. أنتِ السبب وراء كل هذا يا سيلفي، أكان عليكِ الزواج منه لأنه ضابط فحسب. كنتِ متأثرةً للغاية. لوِّحي بالمروحة أسرع يا ريحانة، أشعر بجسدي يحترق. لكني لم أثق يومًا بالرجال العسكريين، قط. لا تعلمي أي نوعٍ من المُشكلات

(1) Nataraj: تصوير للإله الهندي شيفا، ورقصته الكونية. (المترجمة)

سيوقعكِ به. يا فتاة، ماذا كانت درجة حرارتي؟ 98؟ لا يمكن أبدًا. افحصيها مُجددًا. كلا، ليس بهذه الطريقة. عليكِ أن تغسليها أولًا. اذهبي، اذهبي واغسليها ثم عودي مرة أخرى.

استدارت سيلفي لتذهب، وفي تلك اللحظة لاحظت ريحانة أن رأس الفتاة مُغطى بالدوباتا[1]. في بادئ الأمر، ظنَّت أن سيلفي تستعد لصلاة الظهر، لكن حين فحصت الساعة فوق سرير السيدة تشودهاري، أدركت أن هذا توقيت مُنتصف النهار، وما يزال أمامها ساعةٌ كاملة قبل أذان الظهر.

عادت سيلفي وهي تقول: إنها مشيئة الله.

ثم وضعت ميزان الحرارة في جِرابه الجلدي.

قالت السيدة تشودهاري: هذا لا يتعلق بمشيئة الله في شيء. أترين ما حدث لها يا ريحانة؟ إنها تُغطي رأسها؟ التزمت الحجاب فجأةً؛ وتقضي جميع أوقاتها وهي تقرأ القرآن الكريم. حماقة، هذا هو ما تفعله. كان ينبغي لصابر أن يهرب ويُغادر البلاد، مثلما فعل سُهيل. إن في أطفالكِ شيئًا من العقلانية. ما الذي سيطر عليه ليدفعه إلى الانضمام لهذا الجيش السخيف؟ إن زوجكِ رجلٌ أحمق يا فتاة، أحمق وميتٌ لا محالة.

حاولت ريحانة أن تقول: ربما سيفرجون عنه.

لكن السيدة تشودهاري لم تكن تُنصت أصلًا، وراحت تقول: لقد فقدتُ شهيتي. لا أقوى على الأكل، ولا أقوى على النوم، وجسدي يشتعل حرارةً.

راحت ريحانة تُمسِّد جبين السيدة تشودهاري بضمادةٍ مبللة. وقالت: أرجوكِ يا عزيزتي، لا تُمرضي نفسكِ بنفسكِ.

- إننا لا نعلم أين هو ولا ما حدث له. وما كنا لنعلم في الأصل أنه أُسِرَ، لولا أن واحدًا من أصدقائه الجنود أرسل خطابًا إلى سيلفي. أريها الخطاب يا سيلفي.

أومأت سيلفي بإيجابٍ، لكنها لم تتحرك لتأتي بالخطاب. كانت تُدلِّك قدم والدتها، وتُحرك إبهامها في دوائر على امتداد كعبها. وعلى سرير المِظلة الأثري، ارتفع جسد السيدة تشودهاري الضخم، مثل كعكةٍ خُبزت طازجة.

---

(1) Dupatta: دوباتا هو وشاح يشبه الشال، ترتديه النساء ليُغطي رأسها ورقبتها وكتفيها، ويشتهر في شبه القارة الهندية، ويرمز إلى الاحتشام. (المترجمة)

- لا شيء نفعله يا ريحانة، ولا أدري حتى لماذا اتصلتُ بكِ. لا شيء! وأنا من ظننتُ أنه سيحمينا.

أغلقت السيدة تشودهاري عينيها، وأشارت لريحانة بالرحيل. ظفرت تنهيدة مُثقلة، وانقلبت على جانبها؛ وفي غضون دقائق قليلة، صدر عنها شخيرٌ خافت. حدَّقت سيلفي إلى ريحانة وقالت: شكرًا على المجيء يا خالة موني.

- سآتي لكما ببعض الطعام هذا المساء.

كان هذا كل ما استطاعت ريحانة قوله. كيف لصابر أن يقع في الأسر؟ وكيف عرفتا بهذا؟ وماذا عن نظرة سيلفي؛ كانت تجلس هادئة مُطمئنة تُمسِّد قدم أمها، بدلًا عن العويل وضرب صدرها مثل أي زوجة أخرى؟ وشعرت ريحانة بشيءٍ من الغثيان، كما لو أنها لم تتناول طعامها طوال اليوم.

***

بعد الغداء، وقفت سيلفي على أعتاب الباب الأمامي، تحمل حقيبة تسوُّق قُماشية صغيرة. تلهث مُنفعلةً، كما لو أنها قد عبرت الشارع قفزًا، وتنبعث منها رائحة الجسم الصيفية تلك؛ حين تُحجب رائحة العرق أسفل الرائحة الفوَّاحة التي يتركها صابون التلك. كانت ترتدي حُلَّة هندية من قميص طويل الأكمام وسروالٍ فِضفاضَين، ووجهها مُحكم التغطية بالدوباتا.

راحت سيلفي تُزيل غطاء رأسها وهي تقول مُوضحة: أمي نائمة.

راقبت ريحانة المشهد وشعر الفتاة ينسدل مفكوكًا، ثم قالت وهي تصب كأس ماءٍ: هاكِ. اشربي.

تجرعت سيلفي الماء دفعةً واحدة، ثم وضعت الكأس وهي تقول في إيمانٍ راسخ: سبحان الله!

ثم أضافت، كما لو أنهما بالفعل في وسط حديثهما: إنه لمن قبيل التكبر أن أقول إن الله وجدني، أو أني وجدتُ الله. مَن نحن لنجد الله، الذات الإلهية المُنزه عن جميع المخلوقات؟ إنه في كل مكان، وكل نفسٍ، وكل قلب. كل ما على المرء فِعله هو التأمل.

أشرقت عيناها بازدهار، ثم تابعت: ليس هذا سوى وهم، ألا ترين ذلك يا خالة موني؟ هذه الحياة المادية، هذه المُعاناة.

وراحت بيديها المرتبكتين تعبث في وشاح الدوباتا، وتُمسِّد أكمام قميصها، ثم تابعت: كنتِ أنتِ مَن علمتني الصلوات، أتذكرين؟ لم تتحلَّ أمي بالصبر. بل كنتِ أنتِ. وستُرزقين بالبركة على هذا الفعل ما حييتِ.

أومأت ريحانة لسيلفي إيماءة شكرٍ مُفاجئة، مُسترجعةً ذكرى العظام الرفيعة ليد الفتاة، وهي ترفعهما مرة واثنتين وثلاث مرات إلى جبهتها.

- يغفر الله لنا كل شيء، ولكن شريطة أن نتوب. أتضرع إلى الله كل يوم أسأله المغفرة.

- وعن أي شيءٍ تتوبين؟

كان وجه سيلفي شديد النقاء؛ بدت شفافة، غير مُتمايزة، وطُمست جميع الألوان في لونٍ وردي شاحب، عدا وجنتيها، يضجان بالحُمرة والحيوية. أخذت سيلفي نفسًا مترددًا، وأمكن ريحانة أن ترى ماضي الفتاة بأكمله في لحظة واحدة: حُب خانِق تُكنُّه لوالدتها تشوبه غرائبية اللامبالاة؛ البيت الشاسع المزدحم؛ وعِبءُ فقدان والدها، وإدراكها أنها لو كانت خُلقت ولدًا، لربما بقي. دومًا ما تخيلت ريحانة أنها تستطيع رؤية ما بداخل نفس سيلفي؛ شعور الذنب الذي تحمله كان قد ذكَّرها بشعورها بالذنب هي الأخرى، وعِبئها الذي تحمله في نفسها. أما الآن، كانت سيلفي، في بساطتها، عاتية تشبه الضواري.

ظلَّت قابضة على حقيبتها، وهي تُحاول أن تقول شيئًا. وحينما فتحت فمها أخيرًا، خرج حديثها رسميًّا، أشبه بالإلقاء.

- أردتُ أن أعطيكِ هذه. كنتُ لأحرقها، ولكني أردتُ أن أُقيم دليلًا على نفسي، فحين أمنحها إليكِ، هذا يعني تخليَّ عنها. وهكذا ستعلمين. أردتُ شخصًا، بل أنتِ، أردتكِ أنتِ.. أن تعرفي.

أما الآن، فصارت الكلمات تندفع من فمها الواحدة وراء الأخرى.

- الله مُطلعٌ على كل شيء، ولهذا يُفترض أن تكون حقيقة أن الله مُطلعٌ على كل شيء كافية، لكني أشعر بالخِزي أن أقول إنها ليست كافية.

وضعت سيلفي يدها على جبينها، ومسَّدت الجزء الأوسط من شعرها.

قالت ريحانة أخيرًا: أنا آسفة بشأن صابر يا ابنتي. أواثقةٌ أنها ليست مُجرد شائعة؟

- ليست شائعة.

- كيف عرفتِ؟

- من سُهيل.

كما لو أن الخطأ خطؤه أو خطأ ريحانة، لكنها بكلماتها تغفر لهما.

حينها شعرت ريحانة بتوقف نبضات قلبها، وراحت تسألها وهي تُجاهد ألا ترفع صوتها: هل رأيته؟ أين هو؟

- كلا، لم أره. أنا في حجاب. لا أظهر أمام الأجانب.

أجانب؟ ماذا حدث لسيلفي؟ أيُّ مِلَّة هذه التي تمكنت من قلبها؟ لا شك أنها ليست المِلَّة المعهودة. لم تكن ريحانة نفسها امرأةً متدينة. كانت تُصلي كل يوم، مرة واحدة على الأقل، صلاة المغرب، أهم صلاةٍ في اليوم. وحين تُوفي إقبال، استغلت الصلاة لتمنحها شيئًا لفعله، شيئًا لا يُذكِّرها على الفور بالمُعاملة القاسية التي تلقَّتها؛ ولم تخجل ريحانة من العزاء والسلوان الذي وجدتهما فيها. لقد عاقبتها الحياة بما يكفي؛ أما الرب الذي تُصلي له لم يكن إلهًا مولعًا بالعقاب، ولا الثأر، ولا القسوة؛ بل كان إله السكينة، إله العزاء والسلوان. تقبَّلت ريحانة السكينة باستحقاقٍ وثِقة، وفي المُقابل، لم تسأل ربها سوى القليل، لم تسأله الصفح والغفران، ولم تسأله تغيير المصائر. فقد أدركت، كما تعلمت من تجاربها، أن هذه أمورٌ لا تُقضى.

وفي تلك الأثناء، راحت سيلفي تغوص في حقيبتها، لتُخرج رزمةً مُربعة، مُغلَّفة بشريطٍ طويل من الحرير الأحمر الداكن. وإذ هي تُفكك العُقدة المربوطة، تناثرت من الرزمة بعضًا من بِتلات الزهور المُستوية، صارت حوافها بُنية هشَّة. أزالت عن الرزمة غطاءها، وفي داخلها رأت ريحانة كومةً من قصاصات ورقٍ مطوية. اختلفت أشكالها وأحجامها، فبعضها كان مُسطَّرًا، مثل الدفاتر المدرسية، وبعضها الآخر دون سطور، نُقش عليها بخطٍ يدوي صغير مُنمَّق. لمحت ريحانة عبارات إنجليزية وبنغالية وشيئًا من الأُردية، ومن ثمَّ أدركت حقيقتها.

قالت سيلفي: إنها من سُهيل.

وحين لم تُجب ريحانة، تابعت الفتاة: أردتُ حرقها. ثم فكَّرتُ، ربما تريدينها أنتِ. إذ ربما.

- إذ ربما ماذا؟

- إذ ربما حدث له حادث.

أتبعت سيلفي كلماتها بتنهيدةٍ عميقة، ثم قالت: لا يُمكنني الاحتفاظ بها بعد الآن.

تساءلت ريحانة ما إذا كان يجدر بها أن تشعر بالإهانة، لأجل سُهيل. غير أنها أجابت: لكنها تخصكِ.

- في بادئ الأمر، كنتُ قلقة أن يجدها صابر. أما الآن، فأنا لا أريد الاحتفاظ بها فحسب. هذا ليس تصرفًا صحيحًا.

- أأنتِ واثقة؟

رُغم أن وجه سيلفي لم يكشف عن أي أماراتٍ للمُعاناة، ظلت قبضتها مُحكمة حول كومة الخطابات.

- أجل، أجل بالطبع أنا واثقة. يمكنكِ قراءتها. لا شيء بها سوى الشعر، الكثير من الشعر. ظننتُ أنكِ قد تُريدينها.

- حسنًا. أعطيني إياها، وسأحتفظ بها.

ما تزال سيلفي قابضة على الخطابات، وهي تُجيب: أو تحرقيها. كنتُ سأحرقها.

مرَّت عليهما بضع ثوانٍ. ثم التقطت سيلفي بِتلات الزهور بحذرٍ وأعادت طيَّ الرزمة، وأصابعها تمسح على النسيج، وتُحكم شَده على الخطابات، مثلما يُحكَم القناع على الوجه.

ولمَّا أطلقت سيلفي سراح الرزمة أخيرًا، استشعرت ريحانة هاجسًا داخليًّا، كما لو أن ابنها قد مات وهذه الخطابات ما هي إلا هدية، مُقايضة، حياته مُقابل كومة من الخطابات. وحدَّثت نفسها أنها لن تُقدم على فتح الخطابات.

حاولت ريحانة تغيير الموضوع، فكررت حديثها: أنا آسفة بشأن صابر.

وحدَّثت نفسها أن حمدًا لله، حمدًا لله أن ابنها ما يزال حيًّا. ثم راحت تقول لسيلفي: إذن، أخبركِ سُهيل بشأن صابر؟

وحدَّثت نفسها مُجددًا أن ابنها ما يزال حيًّا، وتردد صدى تلك الكلمات في صدرها، فأدركت أن قُدرتها على طرح السؤال هي السكينة بعينها.

سألتها ريحانة مُجددًا: هل تحدثتِ إليه؟

- أتى إلى المنزل، فقلتُ له «أنا في حجاب». لكنه أصرَّ. ففتحتُ النافذة، لكني بقيتُ خلف الستارة. وقال هو «لقد وقع صابر في الأَسر. ويُبقونه في مكانٍ ما. وسأعثر عليه». ثم قال: «لا تقلقي، سأعيده إليكِ».

فتى أحمق، أحمق!

ما مِقدار ما تعلمه هذه الفتاة؟ أحكمت ريحانة قبضتها على الخِطابات. خِطابات ابنها الأحمق المسكين.

***

ذهبت مُباشرةً إلى الرائد. وقالت وهي تثبت عينيها على ساقه المكسورة: أريد أن أرى سُهيل. أكنتَ تعلم أنه هنا في دكَّا؟

كانت تعلم الجواب.

- كنتَ تعلم أنه هنا، ولم تُخبرني؟

وكما عهدته ريحانة، لم يُقدم الرائد أي تعليل، بل اكتفى بجوابه: إنها مُخاطرةٌ كبيرة.

- لا أهتم. أريد أن أراه فحسب. لم أطلب منك شيئًا من قبل، وكنتُ أهتمُّ بك. والآن عليك أن تفعل هذا من أجلي.

بَيد أنَّ التردد تملَّك منه؛ فراح جسده يُطلق رائحة عنبر تثير الغثيان، وأصابعه ترتجف لتستقر على أزرار زيه باللونين الأخضر والرمادي. تجاهلت ريحانة وخزَة الشعور بالذنب التي شعرت بها حين ذكَّرته بما يدين لها به.

وبعد ثلاثة أيام، تلقَّت التعليمات.

تقرَّر لها أن تُغادر في الصباح كما هو دأبها، برفقة سائق السيدة تشودهاري. وستُكلفه بأخذِها إلى السوق الجديدة. وفي طريقها إلى هناك، ستتذمر بشأن كل ما يتعين عليها شراؤه، وأن الخيَّاط قد أخطأ حياكة تنورتها الداخلية الخضراء، وأنها بحاجةٍ إلى عِظام لحم الضأن لإعداد حساء «حليم» من أجل السيدة تشودهاري، وأين لها أن تجد عِظام لحم الضأن في وقتٍ كهذا. وحين تصل ريحانة إلى السوق الجديدة، ستترجل من السيارة وتطلُب من السائق أن يُقلَّها بعد ساعتين. وتسير مُباشرةً إلى حارة القُماش من السوق، وتقف أمام دُكان التنانير الداخلية الذي يُدعى ميس بريتي. ستطلب تنورة داخلية خضراء، وعليها أن تُحدِّد بأنها تُريد لون ريشة الببغاء. سيُعطيها

بائِع التنانير الداخلية حقيبة، بها تنورة داخلية خضراء وكيلو من عِظام لحم الضأن. وسيخرُج بائع التنانير الداخلية من الدكان ويرشدها إلى مخبأ سُهيل.

***

قادها بائع التنانير الداخلية إلى مُجمع سكني قذر في نيلكت. وأشار إلى بناية ذات أربعة طوابق، وأخبرها أن تصعد السلالم إلى الطابق الأخير، ثم حياها قبل أن يرحل: الله حافظ، النصر للبنغال!

في وقتٍ ما من تاريخ هذا المبنى، طُليَ بلونٍ أصفر. والآن، صار المبنى قوس قزحٍ بألوان العَفن: صُبغت الجدران الخارجية بلونٍ أخضر طُحلبيٍّ لامع، حيث يتجمع ماء المطر؛ وقُشِّر الطلاء في عِدة مواضع، وظهرت قوالب الأسمنت الرمادية الشاحبة أسفل منه، أما بقايا الطلاء الأصفر فصارت برتقالية في بعض المواضع، وبُنية في مواضعَ أُخرى. تناثرت الثياب المُبتلة على أحبال الشرفات، من تنانير رجالية وبلوزات وسراويل منامات مُخضبة بالماء. رأت ريحانة زوجًا رماديًّا من سراويل رجالية تحتية، إلى جانب ما بدا لها حمالة صدرٍ مُنهكة، وإلى جانبهما رداء نوم لطفلٍ صغير. شعرت بموجةٍ قديمة من الحنين إلى التجمُّع، إلى العائلة: الرجل والمرأة والطفل. هذه هي معادلة السعادة، والترتيب المثالي للأشياء. تُكابد المعادلات الأخرى جميعها في ظل معادلة السعادة.

حين اقتربت ريحانة من المبنى، هاجمتها رائحة السمك المُجفف. كان بعض الناس يرون السمك المُجفَّف طعامًا شهيًّا، أما هي فظلَّت طوال سنين معيشتها في دكَّا، لا تتحمل قُربه البتة. ثم رأت ريحانة حبل غسيل آخر يحمل صفًّا من السمك الصغير. ورافقتها الرائحة وهي تصعد السلالم ومنها إلى الشقة في الطابق الأخير؛ فقد قُطعت لها الوعود بأن ابنها ينتظرها بداخلها. فطرقت الباب في نفاد صبر.

قال ابنها، بمجرد أن دخلت: أماه.

كانت الكلمة التي نطقها بالأُردية هي لغة سرية جمعت بينهما منذ أمدٍ طويل: تعني أنه عاد صبيًّا، عاد فتاها الصغير مُجددًا.

قالت ريحانة: ابني، ابني المسكين سُهيل.

ولكم غمرتها السكينة في حضرته. بدا كل شيءٍ حولها بعيدًا للغاية ومُتناهيًا في صغره من تلك اللحظة: الحرب والرائد وسيلفي. دفعته بعيدًا عنها، وتفحَّصت وجهه. فرأت نظرته المشرقة، وجبينه الجاد. قال مُجددًا: أماه.

وخلف قناع الصلابة والقسوة، ما تزال ريحانة قادرة على سماع صوت ابنها، ابنها الذي لم يُكتب له يومًا أن يكون جُنديًّا. إنه هو، ودومًا ما تحرص على التدقيق لتطمئن بأنه ما يزال قابعًا وراء هذه الصلابة.

قال سُهيل: سمعتِ بأمر صابر، أليس كذلك؟

جالت ريحانة ببصرها حول الغرفة قبل أن تُجيبه. بَيد أن حياة امرئٍ بأكملها قد كُدِّست في مساحة ضئيلة، مثل رواية قصيرة للغاية. رأت سريرًا قابعًا في مُنتصف الغُرفة، يطغى على مِساحتها، والناموسية ما تزال مُنسدلة على أعمدته، مثل شبحٍ ضخم يُشبه فِيلًا. لا شكَّ أن النوافذ مُؤصدة، وشعاع الضوء الوحيد ينفذ إلى الغرفة من مصباحٍ وحيد يتدلى من السقف، ملقيًا بهالة برتقالية ضعيفة على الغرفة.

أجابت بحِدة: جاءت سيلفي لرؤيتي يوم السبت.

ثم تذكَّرت على حين غرة الخطر الذي أوقع سُهيل نفسه فيه، فأضافت: لماذا يا بُني؟ لماذا أخبرتها؟

- ظننتُ أنه يجدر بها أن تعرف الحقيقة.

- لكنها قد تكتشف المزيد. المزيد عنك، وعن الفدائيين، وعن شونا.

- إنها تعرف بالفعل.

قالت ريحانة:

- هل أخبرتها؟ متى؟

- كانت تعرف منذ بادئ الأمر. لقد رأيتها حين كنا نُهيئ شونا. ورأيتها لاحقًا بضع مراتٍ أخرى.

حاولت ريحانة أن تنأى عن الحنق قبل أن يُسيطر على نبرة صوتها، وهي تقول: أذهبت لرؤيتها؟

- بِضع مراتٍ فحسب.

لم تستطع ريحانة الكفَّ عن تكرار سؤالها: أذهبتَ إلى منزل السيدة تشودهاري؟

- أماه، أنا آسف. كان عليَّ رؤيتها. فبعد زواجها، كنتُ بحاجةٍ إلى التحقُّق.

شعرت ريحانة بنيرانٍ تشتعل في عينيها، فراحت تُجيبه: لا أصدق أنكَ قد تفعل شيئًا كهذا.

- ظننتُ... ولكن شيئًا ما قد حدث لها. هل لاحظتِ؟ لم أرها طوال بضعة أسابيع، وحين عدتُ أخبرتني أنها تُريدني أن أتوقف عن المجيء. قالت إننا سنُعاقَب، إن الله سيعاقبنا. وقالت إننا ارتكبنا معصية.

سألت ريحانة: أذهبتَ لرؤيتها؟ كم مرة؟

أرادت أن تسمع التفاصيل والتواريخ وعدد مرات زياراته لها.

- ليس بالكثير.

- كم مرة؟

- لا أذكر.

استطردت ريحانة: أنا غاضبةٌ للغاية يا سُهيل، حتى إني أعجزُ عن التحدث إليك.

للحظةٍ، فكرت ريحانة أن تتركه هناك في كآبته المظلمة. وشرعت تجوب الغرفة الصغيرة ذهابًا وإيابًا؛ وجدت كومة من الملابس إلى جانب الفراش، فراحت تَطويها. وأحصَت قطع ملابسه: قميصَين، وثلاث سُترات، وبزَّة كورتا واحدة، ومنامة واحدة، وزوجين من السراويل.

- فكرتُ في أنني لو أخبرتها، سأكتسب ثقتها مُجددًا.

تنورة رجالية واحدة، وزوج واحد من الجوارب.

- أماه.

- عِدني أنك لن تفعل هذا مُجددًا أبدًا.

- لا يمكنني أن أعدكِ؛ أحتاجُ إلى وقت أطول قليلًا.

ألقت ريحانة بالتنورة الرجالية في يدها، وقالت: إنها تريد إنهاء الأمر.

هزَّ سُهيل رأسه نفيًا. وحين التفت إليها، رأت الخُصلات المجعدة التي تنسدل على جبينه. ثم قال: لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. إنها تقول هذا لكنها لا تعني ما تقوله.

- لقد أعادت خطاباتك.

- ماذا؟

نطق سُهيل بعبارته وهو يقطع الغرفة إلى كومة الملابس ويقف على رأس ريحانة. فأجابته:

- أحتفظ بها في المنزل.

- لا أصدقكِ.

- بل أقول لكَ إني أحتفظ بها في المنزل.

صمتت ريحانة، ثم خمَّنت قائلة: لقد اقتبستَ من أشعار الرومي وأمير خسرو.

- هل قرأتها؟

- القليل فحسب.

لم يكن ما قالته صحيحًا؛ فلم تجرؤ ريحانة على نقض عهدها مع نفسها. ولكن لو أنها ستكتب خطابات عشق، فهذان تحديدًا من ستختارهما من الشعراء. ثم استشعرت أمامها فرصة، وانتهزتها. فقالت: سُهيل، اسمعني جيدًا. يقول الرائد إنه ما من شيءٍ لتفعله على أي حال. لا داعي أن تعرف سيلفي بالأمر. بل الأمر المهم هو أن تبقى هادئًا من الآن فصاعدًا.

- أخبرتِ الرائد؟

- بالطبع أخبرته. مَن عساي ألجأ إليه؟

باغتتها رغبةٌ مفاجئة بانتهاء هذا الاجتماع، حتى يتسنى لها أن تُخبر الرائد بكل ما دار بينهما، تُخبره عن الحب الأليم الذي تُكنُّه لولدها، والشقَّةِ القذرة، والفتاةِ التي لم تعد فتاةً، بل باتت لعنة، وأدركت أن هذا لن يحدث حتى تُخبره أن يوم الزيارة قد أتى بشيءٍ من أُكله.

- ليس أمامك شيءٌ لتفعله يا سُهيل. دع الأمر من قلبك، وصابر سينجو بمشيئة الله.

كادت البهجة أن تجد طريقها إلى قلب ريحانة هنيهةً، فرحًا بأسر صابر. فقد أمكنها أن تتبع بداية هذا الجنون إلى اليوم الذي خطا به صابر إلى غرفة استقبالها برفقة السيدة تشودهاري مُحمر الخدين يهدل في فخر.

- كلا يا أمي، بل ثمة شيء. ثمة ما يمكنكِ فعله.

ظنت ريحانة أنها أخطأت الفهم، فقالت مُستفهمة: أنا؟

- هذا هو سبب عودتي إلى دكَّا. إنه أنتِ. أنتِ من يمكنها إنقاذ صابر.

- لا أفهمك.

قال سُهيل:

- لقد أُخذ إلى السجن. ونعلم أنه في مكانٍ ما في هذه المدينة.

راح الضوء في الخارج يتلاشى شيئًا فشيئًا، وسُهيل جاثٍ على ركبتيه أمامها. استقرت يداه على ركبتيها، لكنها عجزت عن الشعور بهما. وبدا صوته كأنه يأتي من بُعدٍ آخر، من تحت الماء، أما صوتها فكان صاخبًا على نحوٍ غير معهود وهي تقول: أتريد مني أن أعرض عليهم أخذ محل صابر؟ أيجدر بهم أن يُعذبوني بدلًا عنه؟ أهذا ما تريده أنتَ؟

بالكاد ترى ريحانة ابنها؛ فقد صار مثل صُورةٍ ضبابية من شعرٍ وفم.

قال الصوت الآتي من أسفل الماء: يمكن لعمي فايز أن يُخرج صابر.

- فايز؟ عمكَ فايز؟ لا.

هدرت موجة من الصوت الآتي من تحت الماء: أنا أؤكد لكِ.

- لماذا؟

- إن له علاقة وثيقة بالجيش، لسنا متأكدين من ماهِية هذه العلاقة، ولكنَّ له تأثيرًا قويًّا.

واتسعت عينا سُهيل الحمراوان عن آخرهما.

تلاشت الكلمات، وغرقت الغُرفة في أعماق السكون، قبل أن تهمس ريحانة: أترسلني إليه لأستجديه؟

- إنها الطريقة التي سأكتسب بها ثقة سيلفي مرة أخرى.

- أنتَ جاد.

- أجل.

انتظرت ريحانة ليستوعِب عقلها الكلمات: الذهاب إلى فايز وبارفين لتستجديهما، وإنقاذ صابر. حين تصورت الأمر في ذهنها، غمرها شعورٌ غريب بالارتياح. إنها مُهمة من أشد المهام بُغضًا وبشاعة إلى النفس؛ لكنها فُرصة أيضًا. يمنحها ابنها فرصةً لتتوب. فلطالما أدركت أن سنوات التفاني الذليلة والأمومة والسَّرقة، لن تكفي أبدًا. ولم يسعها سوى الترحيب بفرصةٍ تحمل نوعًا من تضحية جديدة.

ومع ذلك لم يتلاشَ الشعور بالظلم من داخلها، فقالت: أتطلُب مني فعل هذا؟

- سيظن أنكِ تفعلين هذا من أجل السيدة تشودهاري. يمكنكِ القول إنها قد توسلت إليكِ لتذهبي إليه. وأخبريهم كم أنتِ مولعةٌ بابنتها.

- لقد فكرتَ في كل شيء.

- أماه، افعلي هذا من أجلي أرجوكِ. إنه الأمر الوحيد الذي آبه له.

قالت ريحانة:

- الأمر الوحيد؟ وماذا عن الحرب، والوطن، واللاجئين، وكل هذا؟ فجأةً لم يعد شيءٌ من هذا يهم؟ في رأيك ماذا يحدث لو أعدتُ صابر إليها؟ أتظن أن سيلفي ستهرع إلى أحضانك؟

وقبل أن ينطق سُهيل بشيءٍ، كانت بالفعل تعرف الجواب.

- أجل، أظنُ ذلك.

- إنها متزوجةٌ منه هو. ليس منك أنتَ.

- ستعرف إلى أي مدى أنا مستعد للمحاولة.

أردفت ريحانة مُتسائلة: ماذا كنتَ تفعل طوال هذه الشهور؟ أتخوض حربًا أم تُلقي بالرمال على نافذة سيلفي؟

- أماه، لقد كنتُ حاضرًا حين مات عارِف. نظرتُ إليه فقال لي «لو أني أعيش ألف حياة، لخسرتها كلها». كيف يكون ما نفعله هو أعظم تضحيةٍ وأسوأ فعلٍ فعلناه في حياتنا؟ كل شيء، كل شيءٍ صار رأسًا على عقب. صار الخطأُ صوابًا. وعقلي مشحونٌ بأبشع الأفكار وأقذرها، أنا بحاجةٍ إليها فحسب. لا تسعفني الكلمات لأشرح الأمر. فحين أراها، عند النافذة، أشعر بحاجتي إليها.

كانت الدموع تسبح في فضاء عينيه، وراح يستطرد:

- أرجوكِ يا أمي، افعليها من أجلي، لمرةٍ واحدةٍ فحسب، ولن أطلب منكِ أي شيءٍ آخر ما حَييت، أرجوكِ يا أمي اذهبي وأخرجي صابر، أخرجيه من هناك. أماه، حبيبتي، أرجوكِ.

- هذا يكفي. توقَّف عن التوسل.

راح سُهيل ينشج الآن، تقوَّض وجهه من الإعياء، وغطى عينيه براحتيه، وهو يقول: دومًا ما كانت سيلفي هي المُختارة، منذُ قديم الأزل.

- حسنًا.

- ستفعلينها؟

- لقد استعبدتني بقدر ما استعبدتكَ هي.

تطلع إليها سُهيل، فأدركت أنه كان يفكر فيما سيُعوضها به يومًا ما، ليُسدد دينه. خيَّم الصمتُ على كليهما لبضع دقائق، ولم ينبسا ببنت شفة. كان ما يزال جاثيًا على رُكبتيه أمامها؛ ناولته خرقة من كومة الملابس بجانبها، فمسح أنفه. ثم ابتسم إليها وقال: ما رأيكِ في قصري؟

- إنه مُقزز. ألم يستطيعوا أن يجدوا لك مكانًا أرقى من هذا؟

- لقد كنتُ أثير حنق جوي. فهو يأكل من طهيكِ، وأنا عليَّ البقاء هنا.

- ولماذا لم تدعني أجلب لك شيئًا؟

بدا سؤال ريحانة مثيرًا للشفقة، فما الذي يسعها أن تجلبه له على أي حال؟

أجاب سُهيل: لا يمكنكِ العودة إلى هنا مرة أخرى.

- يمكنني أن أرسل أحدهم بالطعام والملابس.

- هذه مخاطرة كبيرة.

راح شيءٌ لا تعرف كُنهه ينهش بداخل ريحانة، وهي تُجيبه: مخاطرة! يوجد ما يكفي من المُتفجرات المدفونة أسفل جذور الأزهار لتنسف دانموندي بأكملها وبكل ما فيها. وأنتَ قلقٌ من أن تُعرِّضني للخطر؟

أحاط سُهيل ذراعيه الطويلتين حولها وهمس: شكرًا لكِ، شكرًا لكِ يا أماه، أنتِ تنقذين حياتي.

حدَّثت ريحانة نفسها أن «**حياتي هي حياتك**». ثم أردفت بصوت مسموع: هل ستبقى هنا طويلًا؟

- كلا، بمُجرد أن يُطلق سراح صابر، سأعود إلى الجانب الآخر من الحدود.

- لا ضمانة أن فايز سيطلق سراحه. ولا ضمانة إن كان حتى يستطيع ذلك.

قال سُهيل: بل يستطيع. أعلم أنه يستطيع. كل ما عليكِ فعله هو إقناعه.

***

عادت ريحانة إلى المنزل، وكان أول شيءٍ فعلته هو أن أخذت حمَّامًا لتُزيل عنها رائحة السمك العفنة. بدَّلت ملابسها وارتدت ساريًا جديدًا، ثم وضعت الأرز على الموقد المشتعل لإعداد العشاء. تسلَّل الغسق إلى السماء الرَّحبة، ولونه الأرجواني الخافت يحنو بلمساته اللطيفة على شونا والكوخ الصغير.

ثم حلَّت على غرفة الرائد.

كان مشغل الموسيقى صامتًا، ويداه متشابكتين معًا في حِجره. بيد أنه حلق لحيته، وتألقت بشرة ذقنه وخديه. وبقيَ جالسًا لا يفعل شيئًا، بل يُحدِّق إلى الحائط المُقابل فحسب، ذلك الحائط العاري إلا من صورة فوتوغرافية مُكللة ذات أُطر لوالدي السيدة سينجوبتا.

سألها الرائد دون تحية: أكان المكان بعيدًا؟ هل أضعتِ الطريق؟

- كلا.

- أعدتِ لتوكِ؟

- أجل.

- لماذا شعركِ مبلولًا؟

- أخذتُ حمامًا.

- ظننتُ أنكِ قلتِ إنكِ عدتِ لتوكِ.

- أهذا قلقٌ أم تطفل؟

لم ينبس ببنت شفة بعد ذلك. وبدت عليه رغبته الشديدة في معرفة ما حدث، ولكن لسببٍ أو لآخر، شعرت ريحانة بالغضب منه والحنق عليه، وأبَت أحداث ما بعد الظهيرة أن تجتمع في أي ترتيب معقول. أمَّا وإنها قد رأت

سُهيل أخيرًا، ما عادت تُفكر في أنهم يستغلونه لإتمام بعض المهام التفجيرية المهمة. بل أدركت أنه ليس سوى بهيمة مثل بقيتهم، لا ينفع سوى جسده، وعضُده، مثل أي جسدٍ آخر، وأي عضدٍ آخر. ولو أن الأمر سيَّان لهم، فلماذا كان عليهم أن يضموه إليهم؟

قالت ريحانة أخيرًا: يظن أن بإمكاني إطلاق سراح صابر.

- أنتِ؟ تُخرجين جنديًّا من السجن؟ كيف هذا؟

- شقيقُ زوجي. له بعض العلاقات مع الجيش.

اكفهرَّ وجه الرائد. فتابعت ريحانة: إليكَ ما في الأمر؛ سُهيل واقعٌ في حُب زوجة صابر.

خرجت الكلمات من فم ريحانة مُصادفةً. لماذا تسقط الكلمات من فمها هكذا في حضرة هذا الرجل؟ ومُجددًا لم ينبس ببنت شفة، ومُجددًا شعرت ريحانة بالامتنان، ربما لأنه لم يظهر على وجهه يومًا أي شعورٍ بالصدمة. ولتُضفي ريحانة شيئًا من الشعور بالتحسُّن على نفسها، أخبرته أن ينهض عن الفراش، ليتسنى لها أن تُغير الملاءة.

سألها الرائد، دون أن يُحرك ساكنًا: وأخبرته أنكِ ستفعلين هذا؟

- بالطبع فعلت.

- سآتي معكِ.

أضاف اقتراحه حنقًا على حنقها، فقالت بنبرةٍ قاسية: كيف لك أن تأتي؟ لا يمكنك حتى أن تسير إلى البوابة.

- قد يُلقى القبض عليكِ.

قالت ريحانة، وهي تعلم أن ما ستقوله ليس صحيحًا: إنه صهري، لن يزجني إلى السجن. لا يُفترض بي أن أشعر بهذا القلق حيال جارة لي. لا بُد أن هناك شكوكًا حول هذه الذريعة.

- وحينما يسألكِ أين تدينين بولائكِ في هذه الحرب، وماذا إذا كنتِ تؤمنين بوجود بنجلاديش أم باكستان، بماذا ستُجيبين إذن؟

- سأفعل ما يتوجب عليَّ.

- لا يجدر بكِ أن تُقدمي على هذا الأمر.

- أنتَ لم تُرزق بأطفال لتفهم الأمر.

شعرت ريحانة برقبتها تشتعل حرارة، وتشممت رائحة صابون ويل الذي فركت به وجهها، وبقايا زيت جاباكوسوم في شعرها، وحِدة الرائحة اللاذعة لمسحوق التلك أسفل ذراعيها.

كانت مروحة السقف في حُجرة الرائد ساكنة. ومع ارتفاع الحرارة الدائم، عادةً ما ترتفع حرارته في فترة ما بعد الظهيرة، ويرتجف جسده أسفل غطائه حتى ينخفض قرص الشمس ويختفي في الأفق.

مسحت ريحانة العرق الذي تراكم فوق شفتها، وهي تقول: لماذا لا تُشغِّل جهاز التسجيل؟

- هذه فكرةٌ مريعة، غاية في السوء.

- لقد أرسلتُ رسالةً إلى بارفين بالفعل. وهما ينتظران حضوري على الغداء يوم الجمعة.

***

لن أُخبر إقبال بكل هذا.

هكذا حدَّثت ريحانة نفسها تلك الليلة وهي تُطالع ناموسة تُحاول اختراق الناموسية.

فلو أخبرتُه، سينتهي بي الحال بالعُدول عن الأمر. أعلم مدى خطورة الأمر، واحتمالية عدم نجاحه، وأتخيل النظرة المُتعجرفة على وجه بارفين.. هاتان العينان الجاحظتان المُتسمتان بالبلاهة. كلا، ربما لن ينجح الأمر، فبماذا يقربني صابر على أي حال؟ أكان سيُنقذ ابني سُهيل لو أُتيحت له الفرصة؟ لن يفعل شيئًا. سيركض إلى الطريق المُعاكس على الفور. وماذا عن السيدة تشودهاري؟ كلانا يعرف الجواب عن هذا السؤال. وتلك الفتاة، سيلفي، إنها السبب وراء هذه الفوضى كلها.

وفي النهاية، ستنجح في حمل نفسها على العُدول عن الأمر. كلا، لن تقصد زيارة إقبال.

جاءت سيارةٌ سوداء من طراز مرسيدس-بنز لتُقلَّ ريحانة. أما السائق، فكان رجلًا يرتدي قميصًا أبيض ورابطة عنقٍ سوداء رفيعة. جلس في ثباتٍ وصلابة على مقعده، ينفخ دخان سيجارته إلى خارج النافذة. وحين رأى ريحانة تُغلق البوابة، وتستدير لتُحكم القفل، ترجَّل مسرعًا من السيارة ووقف في صلابةٍ إلى جانبها. كان رجلًا داكن البشرة نحيف القوام. سحق عُقب سيجارته بكعب حذائه، وانتظرها لتقترب من السيارة.

وحين صارت على بُعد بضعة أقدام من السيارة، رفع الرجل ذراعه في تحية صارمة لا تشوبها شائبة. ثم سأل: السيدة ريحانة حق؟

التصق لسان ريحانة بسقف حلقها، وكل ما استطاعت النطق به هو: أجل. باللغة الأردية.

- السائق قاسم. سأصحبكِ إلى منزل آل حق.

أجابت ريحانة: شكرًا لك.

صُفع الباب مغلقًا خلفها. كان هيكل السيارة الداخلي ضخمًا، تنبعث منه رائحة الكيروسين. كبس قاسم بقدمه مُزود السرعة، فانطلقت السيارة مُبتعدة. شعرت ريحانة بنفسها تتململ في غير ارتياح على المقعد الجلدي، والساري الذي ترتديه يتجعد من أسفلها وهي تتزحزح من جانب إلى آخر. كانت قد حرصت على أن تتحرى الدقة والحرص في ملابسها من أجل لقائها مع بارفين؛ فارتدت ساريًا يبعد في نعته عن الإغراء، مصنوعٌ نسيجه من قماش الأورجانزا الرمادي المُنشَّى، وستنتفخ طيَّاته بفعل الهواء، وسيجعل خصرها يبدو سميكًا. لم تُحاول كبس طيَّاته؛ أو حتى تمسيدها بيدها. لم تتزين بأي مواد تجميلية؛ وعقدت شعرها في كعكة حادة منخفضة، وربطتها بدبابيس سوداء بسيطة. فدومًا ما أرادت بارفين أن تكون المرأة الأجمل.

مرَّت السيارة من طريق ميربور، ثم استدارت لتتجه إلى كولاباجان. وازدادت سُرعتها وهي تعبر الحقول المفتوحة للعاصمة الثانية، وتقترب من المطار. غاصت ريحانة أكثر فأكثر في المساحة الجِبرية التي تجلس عليها، وحاولت أن تُحافظ على رباطة جأشها.

أخذت السيارة منعطفًا، وإذ فجأةً لم تتعرَّف ريحانة الشارع. كان طريقًا واسعًا، أشبه بطريقٍ سريع، ويمتد إلى مسافة طويلة لا تألفها مشوشة بالضباب. وتحولت أفكارها إلى مركز التعذيب الذي كان سُهيل قد وصفه لها.

اشرأب عنقها، لترى ما إذا كان أي من هذه المباني منخفضة الارتفاع تبدو مثل أماكن يمكن لها أن تُخفي أسرارًا قذرة.

- إلى أين نذهب؟

- لا تقلقي يا سيدتي.

تطلع قاسم إلى ريحانة عبر مرآة الرؤية الخلفية، وأشار إليها بإيماءة بسيطة، وهو يُتابع: سنصل قريبًا.

بعد بضع دقائق، وبعدما عبرت السيارة مجموعةً من قاطرات السكك الحديدية، اتخذت السيارة مُنعطفًا لتقف بجانب مقصورة صغيرة. وأمعن النظر فيهما رجلٌ يرتدي زيًّا عسكريًّا عبر النافذة المُعتمة.

صاح الرجل، ورذاذ اللعاب يتناثر على زجاج النافذة: افتح النافذة!

جاهدت ريحانة ممسكةً بمقبض النافذة لتفتحها حين قاطعها قاسم، وصاح من جانبه: ألا ترى لوحة الأرقام اللعينة!

وقف الجندي أمام السيارة وفحص لوحة الأرقام، ثم عاد إلى نافذة ريحانة، وتابع تحديقه، وسأل: من الراكب؟

- شقيقة المحامي حق.

قال الجندي: مَن؟ عليَّ أن أستوثق من السجل.

- ألا تعرف رجالك أيها اللعين! إننا نمر على نقطة التفتيش هذه كل يوم. وفجأةً صرت لا تعرف السيارة؟ أتريدني أن أخرج إليك وألقنكَ درسًا!

صمت الجندي هنيهة، ثم رفع كتفيه، كمن لا يبالي بالأمر منذ البداية، ثم قال: حسنًا، اذهب. ولكن يجب أن نُحرر تقريرًا.

ودقَّ على الزجاج الأمامي المُعتم بالمقبض الخشبي لمسدسه.

قال قاسم والسيارة تُسرع عبر الطريق: لا تقلقي يا سيدتي، لا مشكلة.

يعيش فايز وبارفين في جولشان؛ ضاحية تقع على الطرف الآخر من المدينة، تسوِّرها الأطراف الشمالية للمدينة، وتمر عبر المطار وثَكنات الجيش الدائمة. كانت جولشان مدينةً أكثر حداثةً وأقل استقرارًا من دانموندي؛ تتميز بالمساحات البنائية الواسعة، والحقول بينها شاسعة ومُشبعة بالماء، وتضم بين أطرافها بحيرة. أما منزل فايز فكان بعيدًا عن الطريق الرئيسي، يقع في شارعٍ تصطف على جانبيه أشجارٌ قديمة. ينتصب المنزل نفسه مستترًا خلف

بوابةٍ عالية، وسورٍ من القَرميد الصلب. فتح الحارس البوابة على مِصرعيها، ثم وصلت السيارة إلى ممر السيارة نصف الدائري، الذي يُؤدي بهما إلى الباب الأمامي. بابٌ أرجواني داكن، ضخم التصميم، من خشب الساج، يتوسط باحةً ذات ترابع باللونين الأبيض والأسود.

دقَّت ريحانة جرس الباب؛ فتردد صوتُ عصفورٍ مُزيف رقيق في أرجاء المنزل، ثم طرقاتُ حذاءٍ على أرضية ثمينة. مرَّت بضع ثوانٍ قبل أن يتأرجح الباب مُنفتحًا، وتظهر بارفين من خلفه، وهي تستقبل ريحانة بابتسامةٍ دافئة تستعرِض أسنانها.

قالت بارفين بتغنُّج: السلام عليكم.

كانت ترتدي ساريًا من قماش الشيفون الشفاف بلونٍ أصفر كناري، ويلتف حول رقبتها عقدٌ من حبات لؤلؤٍ دائرية كبيرة. وتلمعُ شفتاها المَرسومتين بالحُمرة. وأدركت ريحانة في مُستهل زيارتها أن بارفين قد رفعت وشاح الساري حتى يُغطي رأسها. فأضفى عليها غطاء الرأس من قماش الشيفون مظهرًا جعلها تشبه «جريس كيلي[1]». وتساءلت ريحانة إن كان ثمَّة قرار صدر بأن لا تظهر نساءٌ مكشوفات الرؤوس في دكًا بعد الآن؟

أجابت: وعليكم السلام.

قالت بارفين بلُطفٍ مبالغٍ فيه: تفضلي بالدخول. كم أنا سعيدةٌ لرؤيتكِ.

وراحت المرأتان تسيران عبر ردهةٍ مُتشحةٍ بالبياض الناصع، وبارفين تتابع حديثها: كان جدولنا مزدحمًا للغاية، وكنتُ أنوي الاتصال بكِ، وحين هاتفتِني كنتُ أفكر بكِ وأتساءل عن السبب الذي حملكِ على إرسال الأبناء إلى كراجي –سيكونان في أمانٍ هنا، ومع نفوذ فايز، لن يجرؤ أحدٌ على إيذائهما أبدًا– وعلى أي حال، سيذهب كل هذا في طي النسيان، أتتناولين شايًا؟ عبد الله! عبد الله!

يرتدي عبد الله، الخادم العجوز، زوجين من القفازات المُلطخة بالبقع وحُلَّة متوارثة عبر الأجيال، وشُمِّر السروال ليكشف عن عرقوبَي قدميه العاريتين.

---

(1) جريس كيلي: ممثلة أمريكية، صارت بعد ذلك أميرة موناكو عند زواجها من الأمير رانيير الثالث عام 1956. (المترجمة)

أعلنت بارفين حين ظهر أمامها عبد الله: إن سِلفتي هنا.

فأومأ بإيجابٍ وعيناه مثبتتان إلى الأرض. فتابعت بارفين: أحضِر إبريقًا من الشاي -الشاي الإنجليزي- ورقائق البسكويت في الوعاء المستدير، **البسكويت** وليس المقرمشات. دائمًا ما يخلط بينهما.

ثم قادت ريحانة إلى غرفة جلوسٍ مُشمسة، وأجلستها على كُرسي عميق ذي ذراعين ضخمتين. وفي مُؤخرة الغرفة، تراصت نوافذ على حائط واحد تطل جميعها على الحديقة، فراحت تجمعات الأشجار المُتشابكة والأحراش التي امتدت لمسافات بعيدة، تحجب عنهما ملامح المدينة.

قالت بارفين، والسعادة تغمرها إثر تخمينها المسبق: كنتُ أعلم أنكِ ستحبين المنظر.

أجابت ريحانة: يا لها من حديقةٍ جميلة.

- لا يسعني أن أنسب الفضل لي؛ فلا بُد أن الأشجار زرعت هنا منذ عهد البريطانيين. ولم أظن أني كنتُ سأحب العيش بعيدًا عن المدينة إلى هذا الحد، ولكن السكون يسود الأجواء هنا. والكثير من المنازل الجديدة تُقام. هذا المنزل مثلًا اكتمل بناؤه للتو.

استرجعت ريحانة الرائحة اللاذعة والصبغة المائلة للزرقة التي تنبعث من الحوائط. وإلى جانب الكُرسي ذي المسندين الذي تجلس عليه ريحانة وأريكته المماثلة، التي افترشتها بارفين مثل طائرٍ يفترش الأرض، استقرت أمامها منضدةٌ مُستديرة يغطي سطحها طبقة من النحاس الأصفر.

تابعت بارفين، وقد لاحظت نظرات ريحانة تجوب المكان: ما زلنا في طور الانتقال، والوضع ما زال على ما هو عليه.

- إنه رائع. رحبٌ فسيح.

انعكس وقع خطوات عبد الله المُشتتة على الحوائط الفارغة.

سألت بارفين: هل وصلت أليكِ أخبارٌ من سُهيل؟

- أجل، إنه بخير ما شاء الله.

- هل يُقيم مع إحدى شقيقاتكِ؟

كانت ريحانة قد تدربت على جواب هذا السؤال: كلا، كلا، بل يقيم مع صديق له من المدرسة. تعلمين كيف يفكر الأبناء، دومًا ما يُفضلون أصدقاءهم.

صديق له من مدرسة شاهين. لم يريا بعضهما بعضًا منذ سنواتٍ لكنهما دومًا ما يتبادلان الخطابات.

قالت بارفين: أجل، بالتأكيد. هذا هو سُهيل. يا له من شاب ذائع الصيت، دومًا ما تلتف الناس من حوله. مَن كان ليظن، كلا، لطالما كان صبيًّا هادئًا.

لطالما كان الحديث عن ماضيهما المُشترك أمرٌ غاية في الخطورة، لكن ريحانة أرادت أن تُخاطب ود بارفين، فقالت: أجل، أنتِ محقة. كان فتىً هادئًا. لكن حاله تبدل، بمجرد أن اكتشف الكُتب، فصار فجأةً لا يتوقف عن الكلام.

- سمعتُ أنه يُلقي خُطبًا عريقة في الجامعة!

كانت ريحانة حذرةً من أن تقع في المصيدة، فخُطب سُهيل كانت تحمل عناوين من قبيل «بكين أم موسكو؟ اشتراكية العالم الثالث» و«جناح: رجل دولة أم إمبريالي مُحرِّض؟».

استرسلت بارفين في أسئلتها: وشِعره!

فأجابت ريحانة: أجل، إن له ملكة الإلقاء.

- ماذا كانت كلمات قصيدة غالب التي ألقاها علينا؟ **حينما كان الوجود عدمًا، كان الله موجودًا ...**

وراحت تُغني بأردية مكسَّرة. وتابعت إلقاء القصيدة بأداء متخبِّط.

- رائع. يا له من صوتٍ مُدهش هذا الذي تملكينه.

هبطت نظرة بارفين من علٍ واستقرت على وجه ريحانة، ثم قالت: شكرًا لكِ. أحيانًا ما يقول الناس هذا، إنه تأثير كل السنوات التي قضيتها في دراسة التمثيل.

لطالما غمرت ريحانة الدهشة من إقدام الناس على مُضاعفة -لا سيَّما إنكار- ما يتلقونه من إطراءٍ لأنفسهم.

سألت بارفين: وما أخبار مايا؟

فعادت ريحانة مُجددًا تستحضر الخُطبة التي تدربت عليها من قبل.

فاستهلت حديثها: إن مايا في كُلكتا.

- حقًّا؟ لماذا؟

- ما يزال بعضٌ من أقاربي هناك، عائلة والدي. وكانوا متشوقين لرؤيتها.

- ظننتُ أنكِ أرسلتِها إلى كراجي.

- كلا، حسنًا، كان هذا وشيكًا.

عبست ريحانة قليلًا لتُبدي لها أن الأمر يتعلق بالمال أيضًا، وهكذا ألقت بارفين ببراثنها، فقالت: كان يجدر بكِ أن تُخبرينا.

- ما حبذتُ أن أتطفل عليكم.

- إننا بجواركِ دومًا للمساعدة.

فقالت ريحانة:

- في الحقيقة، ثمة أمرٌ ما...

- عبد الله، الشاي، ما الذي يؤخرك؟

دلف عبد الله إلى الغرفة في هدوء، ووضع الصينية على الطاولة ذات السطح النحاسي دون صلصلة إزعاج، فأومأت إليه بارفين مكافأةً له على حسن صنيعه.

ثم قالت: اسكب الشاي.

وقدمت البسكويت إلى ريحانة، فاختارت الأخيرة رقيقة بسكويت من الوعاء المُقدم إليها، وأبدت إعجابها بمقرمشات الزبدة، بفمٍ مليءٍ بالفتات.

قالت بارفين:

- الآن وقد صار أخوكِ... في **منصبٍ مهم**، بات مسموحٌ لنا بهذه الملذات البسيطة. ونحن نستحق ذلك، ألا تتفقين معي؟ خصوصًا في أوقاتٍ كهذه؟

أدركت ريحانة أنه في هذا المنزل، سيشار إلى الحرب بعباراتٍ مثل «أوقاتٍ كهذه» «وأوقاتٍ عصيبة»، كما لو أن الله قد ابتلاهم بهذه الأزمات دون نذير، ودون أن يرتكبوا جُرمًا يستحقون عليه هذا الابتلاء.

- أجل، أوقاتٌ عصيبة، أعلم هذا.

وقْعُ خُطى أقدام. شعرت ريحانة بإعياء حين دخل فايز إلى الغرفة في أُبهة، وذراعاه مُنبسطتان في ارتياح، وابتسامة رضا عميقة الأثر تُنير النصف السفلي من وجهه. أما النصف الأعلى فكان محجوبًا بنظارة سوداء ضخمة.

دوى صوته باحتفاء: أختاه! ما أروع رؤيتكِ!

نهضت ريحانة لتستقبل عناقه. كان فايز يرتدي بزَّة كورتا بيضاء دبقة، وطاقيةً تتماشى معها، وراحت تنبعث منه رائحة ماء وردٍ طفيفة ورائحة الأقدام المتسخة التي تشمها في المساجد.

قالت بارفين متعجبة دون أن تنهض من كرسيها: هذه سابقة من نوعها. أنتِ لا تعلمين يا سِلفتي، كم مضى من الوقت منذ أن أتى شقيقكِ إلى المنزل لتناول الغداء. بات مُستحيلًا أن تقنعيه بالحضور على الغداء، حتى في أيام الجمعة.

استكان فايز في كُرسيه وهو يزفر تنهيدة، وهمست ريحانة: كم أنا ممتنة.

قال فايز: ما كنتُ لأفوِّت غداءً بصحبة سِلفتي. (خلع نظارته وأشار بها إلى ريحانة) ما شاء الله، تبدين في صحة جيدة.

ثم فرك أرنبة أنفه، حيث تركت النظارة حزًّا.

بدا لريحانة قلة حيلتها حين جهلت بما تُجيب هذا الإطراء، فتطلعت إلى بارفين، والتي كانت قد اتخذت من مسند ذراع الأريكة مقعدًا لها. فتابع فايز: ألا تبدو لطيفة؟

قالت بارفين: أجل، بالتأكيد.

فقال فايز:

- أتعلمين ما يُعجبني بكِ يا سِلفتي؛ أنكِ تمكنتِ من الإبقاء على بهجتكِ رُغم كل ما عانيته من مصاعب. فما من مصيرٍ أسوأ للمرأة من أن تبيت أرملة، ومع ذلك، ها أنتِ ذي، تتكفلين بطفلين، في ريعان الشباب ...

قاطعت بارفين حديثه: بالتأكيد. لكلٍّ منَّا معاناته الخاصة. فعلى سبيل المثال، لم أُرزق بأطفال، ولكنك لم ترني أشكو يومًا.

تذكرت ريحانة، في الحال، اليوم الذي جاءت فيه لأخذ الطفلين من بارفين. راحت بارفين تنشج وتعوي وتلطم صدرها، وسقطت على قدمي ريحانة وتوسلت إليها أن تسمح لها بالاحتفاظ بهما. وقالت لها: **أحدهما. دعيني أحتفظ بأحدهما**. وقالت: سُهيل، أريد ابنًا. أريد الصبي. وتركتها ريحانة هناك، تتقلب ذهابًا وإيابًا على الأرضية الرُّخامية الوردية كما لو أنها تُخمد نيران اشتعلت بجسدها، وكل ما أمكن ريحانة التفكير فيه هو: يا لها من فتاةٍ مسكينة، ستُصاب بالزكام. كان عبد الله شاهدًا أيضًا، وفتح لريحانة الباب،

فخرجت منه، وهي تقبض على أيدي طفليها، كلٌّ في يد، كما تتشبث بأنفاسها من أجل النجاة.

قبضت ريحانة باستحياءٍ على نسيج الأورجانزا الرمادية التي صنع منها ساريها. أما فايز فراح يُمشِّط شاربه بإبهامه وسبابته. ثم قال أخيرًا: إذن، كيف حال ابنة أخي وابن أخي؟

أعادت ريحانة سرد القصص، حريصةً على أن تُضيف القليل من التفاصيل الحديثة. صديق سُهيل من مدرسة شاهين الثانوية. ولدٌ مهذَّب، يدرس المحاسبة في كراجي.

قال فايز: ما شاء الله! حمدًا لله أن الفتى يتمتع بالعقل الراجح ليبتعد عن المُشكلات. الوضع ليس آمنًا على الشباب الآن.

حدَّثت ريحانة نفسها: **هذا لأنك تختطفهم وتشوه أجسادهم**. لكنها أجابت: أجل، ولهذا أصررتُ على رحيلهما.

رفع فايز يده، وراحته مقلوبة، وقال: مؤثرات سيئة. (وكرر الإيماءة نفسها بيده الأخرى) شباب قابل للتحوير، وأنتِ تعانين مما نعاني الآن.

المذبحة الجماعية؟

- الفوضى!

الأوقات العصيبة. انسلَّت ذراع بارفين في جيب بزَّة الكورتا التي يرتديها زوجها، وخرجت ممسكةً بعُلبة فضية مربعة. تجاهلها فايز، وراحت هي تضغط على القفل لتنفتح العلبة بين يديها. ثم سحبت منها سيجارة، وأمسكت بها بين إصبعين مصبوغتين بطلاء صارخ. وإذ رفعت بارفين يدها إلى شفتيها، انتبهت ريحانة لنفسها وهي تُحدِّق إلى المرأة.

- لا داعي حقًّا لهذا الشعور بالصدمة يا سِلفتي.

تابع فايز خطبته متجاهلًا بارفين: إن وحدة باكستان مُهددة بالضياع.

ثم مال إلى الأمام نحو ريحانة، فلفحت وجهها أبخرة أنفاسه، وتابع: الوحدة الوطنية، الوحدة الدينية، هذا ما نحارب من أجله. إننا نحن مقاتلو الحرية.

قاطع عبد الله الحديث: الغداء يا سيدي.

- آه، الغداء. أقبلي يا ريحانة، دعينا نأكل معًا.

وفيما تحرك الجمع الصغير إلى غرفة الطعام، قبض فايز بقوة على مرفق بارفين. أما ريحانة التي اتخذت موضعها خلف الزوجين، تظاهرت بأنها لم تلحظ البقع الوردية التي تركها فايز على ذراع زوجته. وقال متمتمًا: أطفئيها.

أجابت بارفين بصوتٍ أعلى مما كان يجدر بها: ليس لدي ما هو أفضل من هذا لأفعله.

وهكذا صرخ رحمها الأجوف مُعلنًا وجوده.

***

أُعدَّت الطاولة، ذات الهيكل الخشبي الضخم من خشب الساج، لثلاثة أفراد.

قالت ريحانة لبارفين وهي تستقبل صفًّا من الأطباق:

- ما كان عليكِ أن تُكابدي كل هذا العناء.

- لم أصنع شيئًا، ولا حتى حددتُ أطباق القائمة. إنه الطاهي الذي كان هنا حين استلمنا المنزل. يصنع طعامًا يجعلني سمينة.

وضربت على بطنها التي تشبه الألواح الحجرية.

قال فايز وهو يُشير إلى يساره: اجلسي من فضلك.

جلست ريحانة إلى الطاولة تسبِر صنوفها، فوجدت أطباقًا من سمك الإيليش الغنية بالزيت وصلصة الكاري، وأطباقًا أخرى من سمك الرهيطة المُشبَّعة بالزيت. وإلى جانبها، طبقان رئيسيان من الدجاج: طبق الماسالا[1]، وطبق القورمة[2]. وعلى امتداد الطاولة تتناثر أطباق أرز البولاو بالكركم والقرفة والمكسرات، وإناء من حساء الدال الساخن، والعديد من أطباق الخضراوات المهروسة المشوية، والسلطة وطبقٌ من المُخلل.

قال فايز: ابدئي بالسمك يا ريحانة، إنه سمكٌ طازج، اصطدناه اليوم.

لم تجد ريحانة أي نوعٍ من السمك -خصوصا سمك الإيليش- في السوق طوال أشهر، وشعرت بالألم يغزو أسنانها.

---

(1) Mussalam: طبق من لحم الدجاج ومعجون الثوم وحشوة البيض المسلوق. (المترجمة)

(2) Korma: طبق من لحم الدجاج والخضراوات المطهوة ببطء في صلصة التوابل المصنوعة من القشدة والحليب والجوز. (المترجمة)

بعدما قدَّم عبد الله أطباق الأرز، قال فايز: هؤلاء الشبان، الأتراك الصغار، لأي شيءٍ يُقاتلون؟ إنها معركة لا نفع منها ولا ضرر. أتظنين أن مجيب يعبأ بهم؟ لقد ازداد سِمنة من الأموال التي يتقاضاها من الهند. المقصد هو أنه يجب أن لا تنقسم باكستان! ما رأيكِ يا أختي؟

علقت لُقمة السمك التي تناولتها ريحانة في حلقها جافة، وسألت الله المغفرة على كذبها، ثم أومأت بإيجابٍ وتمكنت أن تقول: أجل، أنتَ مُحق.

صاحت بارفين، وغطاء رأس جريس كيلي يسقط عن كتفيها: تحيا باكستان!

وفيما كانت أصابع فايز ما تزال مغموسة في رواسب حساء الدال في طبقه، قررت ريحانة انتهاز الفرصة. فنظَّفت حلقها، وكان طبقُها ما يزال مكدسًا بالطعام. ودفعت بالأرز والسمك جانبًا، لتبدو وكأنها قد أنهت طعامها. ثم قالت: أخي فايز، في الحقيقة، لقد أتيت لأسألكَ معروفًا.

قال فايز: تفضلي!

وسحب المَحرمة من ياقة بزَّته، ثم أضاف: ما يخصني يخصكِ.

كما لو أنه ما من سبب آخر يستدعي زيارتها.

تابع فايز: دعونا نغسل أيدينا ونتناول بعض الحلوى، وستحصلين على أيما ترغبين.

وأشار نحو المطبخ، فحضر عبد الله حاملًا وعاءً نحاسيًّا من الماء، وقطعةً من الصابون.

***

وفيما أعاد الجمع ترتيب جَلستهم في غُرفة الاستقبال، استهلَّت ريحانة حديثها مُجددًا، فقالت: الأمر هو أن جيرانًا لي قد وقعوا في مشكلة.

قطَّب فايز جبينه، وسألها: جيرانكِ؟ الهندوس؟

- كلا، ليس آل سينجوبتا. لقد رحلوا.

فقال فايز:

- أخبرتني بارفين أن لديكِ مستأجرين من الهندوس. الآن وقد رحلوا ما الذي يُفترض بكِ فعله؟ ما من سبيلٍ لتجدي مستأجرين جُدد في وسط هذه الفوضى. أظن أنهم لم يدفعوا الإيجار حتى؟

- كانوا في عجلةٍ من أمرهم...

- هذا ما أقوله دومًا! ألم أقل هذا آلاف المرات يا امرأتي، ألم أقل هذا؟ تراهم لا يتعاملون مع هذا البلد باعتباره بلدهم، فيرحلون من فورهم، ويهرعون إلى الهند، لم يكونوا **قط** جُزءًا من بلادنا باكستان. أقول بئس المصير لهم، دعوهم يعودوا من حيث أتوا. إذن، تحتاجين إلى المال، أليس كذلك؟

- إنها جارتي السيدة تشودهاري.

قالت بارفين: أوه، السيدة تشودهاري المعروفة. عزيزي، أتذكر السيدة تشودهاري؟ **أنتَ تعرفها**.

ولم تنتظر منه أن يُجيبها.

قالت ريحانة: أجل.

- وكيف حال عزيزتنا السيدة تشودهاري؟

ما كان الحديث يسير على الشاكلة المرغوب بها، لكن ريحانة أجابت: لطالما كانت السيدة تشودهاري غاية في اللطف معي طوال السنين الماضية.

قالت بارفين: أجل، نحن نعرف كل هذا، أليس كذلك يا عزيزي؟

ربَّت فايز على ركبة زوجته، ثم سأل ريحانة بنبرةٍ بدا عليها شيءٌ من الملل: ما المشكلة؟

- إنه زوج ابنتها.

سألت بارفين:

- تلك الفتاة الصغيرة تزوجت؟

أردفت ريحانة: تزوجت من ضابط.

أثار جوابها نظرة اهتمامٍ لا بأس بها. فسأل فايز:

- ضابط؟ مَن؟ هل أعرفه؟

قررت ريحانة أن تسرد الحكاية بأكملها دفعةً واحدة، وهكذا استطردت: كان ضابطًا في الجيش الباكستاني يا أخي، لكنه انضم إلى المُتمردين إلى جانب كل الكتائب البنغالية الأخرى. وراح يُحارب، ثم أُخذ أسيرًا. وسمعوا أنه في دكًّا، وقد أتيتُ إليك أسألك أن تُطلق سراحه.

وقبل أن تأخذ الكلمات مجراها، أراحت بارفين ذراعًا حامية حول زوجها، وقالت: ما كان يجدر بكِ أن تطلبي شيئًا كهذا يا ريحانة. هذا ليس أمرًا من شأن أخيكِ أن يفعله لأجلكِ. أمرٌ يخصكِ، أمرٌ يخص الطفلين، هذا أكيد، ولكن ليس طلبًا كهذا.

علَّق فايز باقتضاب: إنها محقة. ما كان يجدر بكِ أن تطلبي شيئًا كهذا.

- ألهذا أتيتِ؟ أهذا هو سبب مجيئكِ لرؤيتنا بعد كل هذه السنين؟

ونخرت بارفين دفعة هواءٍ من أنفها.

- أردتُ.. أردتُ المساعدة فحسب.

- إن هذه المرأة تُملي عليكِ نصائح سيئة طوال كل هذه السنين، وما تزالين تُفضلين الانحياز لها؟

- الفتاة المسكينة، سيلفي، إنها يائسة...

- ما كان ينبغي لها أن تتزوج من مُتمردٍ بنغالي إذن، أليس كذلك؟

فأجابت ريحانة:

- ما كانت تعرف أنه سينضم إلى المقاومة قبل أن تلقاه. وظنت السيدة تشودهاري أن تُزوج ابنتها من ضابط جيش.

ارتأى لريحانة في وجه فايز شيءٌ يُخبرها أن تزيد من الضغط عليه، فتابعت: لقد انجرف في الأمر ليس إلا. ماذا عساه أن يفعل؟ وكتيبته بأكملها تتمرد على الجيش. في الحقيقة، هذا الفتى ضعيف. وكان ضابطًا في الجيش قبل... (أوشكت ريحانة أن تقول المذبحة) قبل **مارس**، ثم انجرف في الأمر.

- انجرف؟

- أجل، أنتَ تعرف الشبَّان، لا يُدركون ما يفعلونه، وقد قلتَ هذا بنفسك. ويمضون قدمًا مع ما يقوله الآخرون أيًّا ما كان. هذا الفتى ليس قائدًا، بل مُجرد تابع. وها هو الآن قد ورَّط نفسه في هذه الفوضى؛ وحقيقة الأمر، أنكَ بهذا ستُنقذه بلا شك، كما تعلم، فإنك ستنقذه من نفسه.

وسيخرج من هذه المحنة شديد الامتنان لك، وسيعرف أنكَ أنتَ، أعني الجيش، هنا ليضع الأمور في نِصابها الصحيح، ويستعيد النظام، لا معاقبة أي أحد. بهذا ستُقدم إلينا -إلى بلادك- خدمةً عظيمة.

خرجت الكلمات من فم ريحانة مُتعثرة؛ لم تتوقف عن الحديث للتفكير أو حتى للتنفس، بل قرأت اهتمام فايز المتزايد، ومضت في حديثها. ثم أنهت حديثها متلهفة: ربما يمكن إنقاذ الفتى.

- إنقاذه؟

- يمكنكَ إنقاذه.

غرق فايز في التفكير في الأمر هنيهةً، حين راحت بارفين تعيد هندمة الساري حول رأسها، وحاولت أن تبدو كواحدة من المُحسنات.

- وكيف يتأكد لي أنه لن يعود إلى جيش التحرير؟ أليس من الأسلم الإبقاء على الفتى في المُعتقل؟

قالت بارفين بصوتٍ مرتفع: هذا صحيح. اسمعي إلى ما يقوله زوجي يا ريحانة، إنه يفهم جوهر الناس.

- اصمتي يا امرأة، دعيني أُفكر.

وبعد مُضي فترة معقولة من الصمت، قالت ريحانة: تحلى بالإيمان يا أخي. إذا أنقذت الفتى، فسيتغير حاله. سيتغير حاله إكرامًا لصنيعك الكريم معه. وحين يرى أنك تفتح تلك البوابات، لن يرغب أبدًا في الانضمام إلى تلك المُعارضة القذرة مرة أخرى.

ما أسهل تدفق كلمات الخيانة والغدر من فمها.

***

هذه المرة راح ينتظرها في غرفة استقبال شونا. وجلس على الأريكة المواجهة للباب وساقه مسنودةٌ لأعلى إلى وسادة. وقد ارتدى قميصًا جديدًا.

سألها: ماذا حدث؟

- لقد وافق!

حرَّك ساقه حتى صارت مُوجهةً نحوها؛ كان كعبه نظيفًا مفروكًا، ناعم الملمس، تضج بشرته بمسحةٍ وردية.

أجابها: ما زال بإمكانه تغيير رأيه. وقد تكون موافقته فخًا.

- قلتُ لك إنني خدعتهم. ولم يستشعروا هذا قط!

- لا أظن الوضع آمنًا هكذا.

بدأ حديثه يشبه حديث إقبال. ها هي الآن قد حققت نصرًا على فايز وبارفين، ما أجمله! وكل ما أمكنه أن يتحدث بشأنه هو السلامة. تحسست ريحانة وجهها فلفحتها حرارته، وهي تقول: لقد قلتَ إن الانضمام للمعارضة هو أعظم إنجازٍ حققته في حياتكَ، حسنًا، وهذا أعظم إنجار حققته أنا في حياتي. فعلتُ شيئًا من أجل ابني. ألا يمكنك أن تستوعب هذا؟

بدا وكأنه يُفكر فيما قالته، ثم أجابها: المُخاطرة كبيرة للغاية. ألم تُحققي ما يكفي؟

وحرَّك ذراعه ليشير إلى شونا والفدائيين الذين آوتهم ويشير إلى نفسه أخيرًا. فأجابت ريحانة وقد تملكها الغضب الآن: كلا. لم أُحقق ما يكفي. أريد أن أؤدي واجبي. ربما لا أفعل ما أفعله من أجل ابني، ربما أفعله من أجل شيءٍ آخر. ألا تظن أن بإمكاني أن أُحب شيئًا آخر عدا أبنائي؟ بل يمكنني. يمكنني أن أُحب أشياء أخرى.

- ولكن ليس بالقدر نفسه.

أذهلتها رجاحة عقله؛ واخترقتها نظراته كما لو أنها بِركة مياه.

أجابت:

- كلا، ليس بالقدر نفسه.

كان فايز قد بعث رسالةً مفادها أنه سيصل في العاشرة صباحًا. وفي السادسة، بُعيد صلاة الفجر، حين كانت الشمس ما تزال بعيدةً في الأفق خلف شونا، جاءت كلٌّ من السيدة تشودهاري وسيلفي إلى أعتاب بابها. لم تسألهما ريحانة عن سبب قدومهما المُبكر، ولم تسألا ريحانة بدورها عن سبب استعدادها كذلك. بل أخذت السيدة تشودهاري بيدي ريحانة بين يديها وابتسمت إليها في امتنان، وابتسمت معها عيناها المُخضبتان بصفرة باهتة ومُحددتان في بسالةٍ بالكحل.

قالت ريحانة: دعونا نتناول فطورنا.

- أجل، يا لها من فكرة جيدة. سيلفي، ساعدي خالتكِ موني في المطبخ.

سألت ريحانة: ماذا سنأكل؟ فطائر محشوة بالبيض؟

كانت ريحانة ماهرة في كسر بيضةٍ وسط الفطيرة دون تكسير قشرتها وخلط مكوناتها.

بُعيد تهيئتهن لطاولة الفطور وجلوسهن حولها، سمعن طرقاتٍ خافتة مترددة على الباب. نهضت ريحانة لتُجيب الطارق، لتجد السيدة رحمان واقفةً أمامها، مُرتديةً ساريًا ورديًّا من القطن، وتحمل سيقانًا من نبات مسك الروم الدرني في يديها. انتشر عبيرٌ زكي من الزهور في أرجاء المكان. واللطخات الرمادية على صدغ السيدة رحمان تشبه الأجنحة المعدنية. أكانت تصبغ شعرها طوال كل هذا الوقت، ولم أكن أعرف! ابتسمت ريحانة امتنانًا للمعرفة الجديدة، وبدا كل شيءٍ كما لو أن وقتًا طويلًا قد مضى.

قالت السيدة رحمان، وهي تبدو مجروحة العاطفة: لماذا لم تُخبريني؟ لم أكن أعرف أنكِ متورطة إلى هذا الحد.

عجزت ريحانة عن تبين جوابٍ مناسب، فقالت السيدة رحمان: ربما أمكنني المساعدة.

قالت السيدة تشودهاري وهي تقترب من وراء ظهر ريحانة: لقد هاتفتهما. ألن تدعيها للدخول؟

وقفت السيدة رحمان تتأرجح على ساقيها عند مدخل الباب، وما تزال أمارات الأذى باديةً على وجهها، وقالت: لا أريد أن أزعجكِ.

قالت ريحانة: كلا، تفضلي بالدخول، إننا نتناول الفطور فحسب.

- أوه، تفضلي، هذه من أجلكِ. إنها مقطوفةٌ من حديقتي. لم أدرِ ماذا أجلب غير هذا.

وفيما كانت ريحانة تُغلق الباب، رأت السيدة أكرم تقترب؛ كانت تترجل من الريكاشة برفقة امرأةٍ أخرى. مَن غير هؤلاء قد أخبرته السيدة تشودهاري؟

قالت السيدة أكرم، وهي تشق طريقها عبر موقف السيارة: ريحانة.. أخبرتنا السيدة تشودهاري بأنكِ ستنقذين صابر. هذه السيدة إمام. زوجها مُعتقلٌ هو الآخر.

***

علَّمت ريحانة سيلفي كيف تغمس فطائر الباراثا في الزيت الساخن، وأن تنتظر حتى يصير الفطير مقرمشًا، ثم تكسر البيضة في منتصف الفطيرة. أما السيدة إمام، فراحت تنقل فطائر البيض من المطبخ في دُفعات. وجلس الضيوف في دائرة في غرفة الاستقبال، ولم ينطقن سوى بأقل القليل. وبعد تقديم الشاي، أدركت ريحانة أنهن بانتظارها لتقول شيئًا. حديثًا جسورًا، وجريئًا، حديثًا يُخفف من صورة الرعب المُخزَّنة في عقولهن، موتُ الغرباء، وصوتُ الدبابات التي تجُوب المدينة، والضرب على الأبواب، واندفاع الرصاصات، الصوت الثقيل الرتيب لسقوط حبيبٍ وابن على الأرض.

قالت ريحانة: كل ما أملكه هو الأمل بأنه لو وقع ابني في خطر، فسيأتي أحدهم -ربما واحدةٌ منكن- لإنقاذه يومًا.

***

نفدت فطائر البيض، فمررت ريحانة بينهن طبقًا من جوز التنبول المُغلَّف. وغرق الجمع في صمت منتصف الصباح الخامل. والآن حان الوقت المناسب لهروبها من هذا الحشد.

فقالت دون أن تُوجه حديثها لأحدٍ بعينه: أظن أنه قد حان وقت الذهاب.

كانت السيدة تشودهاري بشفتيها الحمراوين وعينيها الناعستين، قد افترشت الأريكة. وتناثرت الأطباق المتسخة بالبيض والأكواب الفارغة حول الغرفة.

كادت ريحانة أن تُودعهن جميعًا حين ظهرت سيارة من على بُعد ونُفخ بوقها. شرعت السيدة تشودهاري في العمل، وصاحت: إنه هنا! أسرعي، أخيكِ هنا. يجب أن تذهبن الآن. استعدي وانتظري عند البوابة، فلا تُبقيه منتظرًا.

نهضت النساء واندفعن نحو الباب، انتظرت ريحانة منهن أن يُلقين الوداع، غير أنهن تحركن عبر موقف السيارة، ووقفن يتطلعن إليها.

قالت ريحانة، متصنعةً التهذيب: من فضلكن، لا تنتظرنني.

قالت السيدة تشودهاري: لا شيء لنفعله. سنرافقكِ.

وأومأت الأخريات بالموافقة.

قالت السيدة رحمان: سننتظر، هذا أقل ما يمكننا فعله.

- ولكن أنا.. من فضلكن، لا تتعبن أنفسكن.

قالت السيدة تشودهاري وهي تستطيب نُبلها: سنبقى، ولا تناقشينا يا فتاة.

- حسنًا، عليَّ... عليَّ أن أُغير حذائي فحسب.

- اذهبي، اذهبي! أسرعي!

ترددت ريحانة، وهي تقول: سأعود بعد دقيقة واحدة.

في غرفة النوم، فتشت ريحانة في الأحذية بعبث، ثم استقرَّت أخيرًا على زوجين بُنييْن ذي كعبٍ مربع قصير. وارتدت ساريًا قطنيًّا باللون الأخضر الخافت، وفي اللحظة الأخيرة، ارتدت أقراطًا من الذهب على شكل جرس.

ثم أعلنت مبتهجةً: حسنًا، أنا جاهزة.

قالت السيدة تشودهاري، وهي تضع يدًا ثقيلة على رسغها: أسرعي إذن، لا يجدر بكِ أن تتأخري.

شقت ريحانة طريقها إلى البوابة، والجمع الصغير يسير مُتثاقلًا من خلفها. فأخذت سيلفي ذراع ريحانة، وشرعت تُرتل برفقٍ في أذنها:

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ﴾[1]

***

ولما وصلوا إلى البوابة، قالت ريحانة: لقد.. لقد نسيتُ شيئًا.

وتراجعت مارَّة بالوجوه المشدوهة؛ وسمعت السيدة تشودهاري وهي تقول: الفتاة المسكينة، لا شك أنها متوترة. وظنَّت أيضًا أنها سمعت السيدة أكرم تسأل: هل غيرت رأيها؟ ثم فصلتها مسافة بعيدة عن الجمع، فلم يسعها سماع الجواب. فرَّت سريعًا، متجاوزةً موقف السيارة، وعبرت غرفة الاستقبال،

(1) آية الكرسي (سورة البقرة – آية 255).

ثم حلَّت قفل بوابة الشرفة الصغيرة، وانطلقت مسرعةً تدفع المُلاءات المُبتلة، تلك المُعلَّقة مثل أعلام الاستسلام. تخبطت في حلقة مفاتيحها وعبثت بها، لاعنةً أصابعها البطيئة، وأخيرًا حررت القفل ودفعته لينفتح الباب الخلفي لشونا.

كان الرائد بانتظارها، وتمنطق بزيه الرسمي الذي جاء به أول يوم؛ كانت ريحانة قد حاكت السروال مرة أخرى بخيوط خضراء. نهض الرائد عن مجلسه، ونظرته مركزةٌ عليها كما لو أنها كانت هناك قبل أن تصل.

نادرًا ما رأته واقفًا؛ دومًا ما كانت تحوم وتُحلِّق حوله. فعرفت قمة رأسه، وكثافة شعره وسماكته، وخط الشعر المُتعرِّج الذي يفصل الشعر عن جبهته. وعرفت وجهه.. على الأقل بالقدر الذي جَرؤت على معرفته. ولكن، منذ أول يومٍ حين التقيا وأخذ براحتها بين يديه الكبيرتين، لم تواجه ريحانة حضوره الكامل وقامته الشامخة.. وعيناه الرماديتين بلون الصوان.. وآفاق صدره الشاسعة.

لو بقي على حاله جالسًا، لأمكنها أن تتظاهر بأنه ما يزال مريضها، مسؤوليتها. أما وقد انتصبت قامته، صار لها غريبًا.

قال الغريب: لا تتطلعي إلى وجه أحد.

فأومأت بإيجاب وهي تتطلع إلى النسيج الضيق لقميصه.

قال رافعًا صوته، وقد قلَّص المسافة بينهما: في الحقيقة، لا تقولي شيئًا. لا تتحدثي على الإطلاق.

قالت ريحانة: حسنًا.

استهل الرائد حديثه: بعث الطبيب برسالة.

- ما هي؟

- كُتب لي الشفاء. وتعافت ساقي. حان وقت رحيلي.

استشعرت ريحانة تأجج مشاعرها، فكبتتها، وأجابت: الوداع إذن.

هزَّ رأسه نفيًا، وقال: سأبقى حتى تعودي.

هزَّت كتفيها في غير اكتراث، استعراضًا لشجاعتها.

- إذا لم تعودي في غضون ثلاث ساعات، فسآتي لكِ.

قالت ريحانة:

- أنا مُتأخرة، الجميع ينتظرونني.
- الله حافظ. (بالبنغالية)
- الله حافظ. (بالبنغالية)

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

قال الرائد:
- في أمان الله.
رافقتكُم السلامة.

***

لم يترجل قاسم من السيارة هذه المرة، ولم يفعل فايز كذلك. بل ابتلعت سيارة المرسيدس السوداء ريحانة بداخلها. قال فايز بجِدية: صباح الخير.

كان يرتدي حُلَّة بلون الفحم، مزينةً بمَحرمة لامعة، دُسَّت بعناية في جيب الصدر. وانبعثت من الحُلَّة رائحة الليمون اللاذعة. والشعر الأسود المُملَّس، الذي يخف عند الصدغ، يشي بأسنان مشطٍ رفيع.

«**لا تتطلعي إلى وجه أحد**». أشاحت ريحانة نظراتها عنهما لتستقر على مؤخرة رأس قاسم المربعة، الممشطة بزيت جوز الهند.

ظل فايز على صمته، متزينًا بنظارته الداكنة، جالسًا بالقُرب من النافذة، يحمل بين يديه صحيفة. شعرت ريحانة بالارتياح؛ فلم تأتِها أي رغبةٍ في الحديث. وصبت تركيزها على ما ستكتشفه في مركز الشرطة. كانت السيدة إمام قد قالت إن جثة زوجها لم تعد قط. فحاولت ريحانة دراسة أفكارها.

«**سآتي من أجلكِ**».

مرَّت الدقائق، والمدينة تمضي عن جانبها، وقد غسلتها أمطار الصباح. ظل فايز على صمته وجموده، حتى نسيت ريحانة أنه جالسٌ إلى جانبها. حاولت التفكير في نغمات الفيلم القديم الذي اعتادت أن تُغنيها مع والدها، فلم تتذكر أيًّا منها. ولسببٍ أو لآخر، ظل النشيد البريطاني «**ليحفظ الله الملك**» يتردد في رأسها، وكلماته «**ويُكلله بالنصر!**»

ما يزال فايز يُطالع صحيفته. لا بُد أنه يقرأ على مهلٍ؛ فلم يقلب الصفحة ولو لمرة واحدة.

«**سعيدًا ومهيبًا!**»

وبالقُرب من مركز شرطة تونجي، التفت فايز إلى ريحانة وقال بهدوء: لقد كذبتِ عليَّ.

كان صوته يرتجف كما لو أنه ينبعث من مزمار، واستشعرت ريحانة عبوس وجهه وتجهمه من خلف نظارته. وفوق كل هذا، ثمة الكثير والكثير من المعاني التي يحملها حديثه.

- لقد كذبتِ عليَّ. أنتِ كاذبة.
- لا بُد أن هناك سوء فهم.
- أنتِ كاذبة وخائنة.

اعتدلت ريحانة لتواجهه. واستشعرت أنه يعرف شيئًا؛ فحاولت استعراض قائمة الاحتمالات في ذهنها، وحددت أيها الأسوأ على الإطلاق (وهي أن يعرف بشأن شونا)، وأيها الأفضل على الإطلاق (لا شيء، لا شيء سيكون الأفضل).

- أنتِ خائنة وأبناؤكِ خائنون. ماذا لديكِ لتقوليه فتدافعين عن نفسكِ، أتنكرين خيانتكِ؟

لم تنكر ريحانة شيئًا.

- لقد أتيتِ إلى منزلي...

لم يعد الأمر كما سلف «ما يخصني يخصكِ».

- ... وأومأتِ رأسكِ بإيجاب حين تحدثتُ عن باكستان، وبداخلكِ تطعنين بلادكِ بخنجرٍ في ظهرها!

لاحظت ريحانة بقعتين بيضاوين من اللعاب تتجمعان علىٰ جانبي فمه.

قالت ريحانة أخيرًا: لا أدري عما تتحدث.

- أتنكرين خيانتكِ؟ أتكذبين عليَّ في وجهي؟

كررت ريحانة حديثها: ما أقصده هو أنه لا بُد من وجود سوء فهم في الأمر.

- سوء فهم؟

هزَّ يده نفيًا في وجهها، وتجعدت الصحيفة في قبضته، ثم تابع: أنا أقرأ جريدة هذا الصباح. أقرأ هذه القمامة الخائنة عن مدى شجاعة وإقدام جيش التحرير، ومدى فساد الجيش الباكستاني –ثم لفت العنوان انتباهي– وماذا

رأيت؟ ماذا؟ ابنةُ أخي -ابنتكِ تلك- إنها هي! شهرزاد حق مايا، هذا الاسم السخيف الذي منحها إياه أخي، اسم راوية الحكايات كما تقولين. حسنًا، لا شك أنها قد لفّقت قصة، أكاذيب، قصةً مليئة بالأكاذيب...

ظلت يده التي تقبض على الصحيفة على ارتعاشها ورجفتها. وأسندت ريحانة ظهرها إلى المقعد وقاومت رغبةً مُلحة في إغلاق عينيها.

- **كاذبة!**

وقذف بالصحيفة بعنفٍ حتى سقطت أمام قدميها. ظنت ريحانة أنه قصد إلقاءها فحسب، ولكن حين تركتها على حالها، صاح هو: **اقرئي**.

التقطت الصحيفة وقرأت: «سجلاتُ امرأةٍ شابة في زمن الحرب. كتبته: شهرزاد حق مايا».

أرادت ريحانة أن تقول: ليست هي.

ولكن ابتسامة فخرٍ زحفت إلى شفتيها من تلقاء نفسها، فغطت فمها بظهر يدها.

قالت ريحانة: ما كان يجدر بي أن أكذب عليك.

- لن أبدأ في إحصاء الأمور التي **ما كان يجدر بكِ** أن تفعليها. كان يجدر بكِ أن تسيطري على ابنتكِ.
- هذا ليس خطأها.
- وكيف تفسرين هذا؟ أسمحتِ لمايا أن تنضم إلى المقاومة؟ على الأقل، لدى ابنكِ شيءٌ من العقل.

إذن هو لا يعرف بأمر سُهيل.

تابع فايز:

- ماذا فعلتِ بأبناء أخي؟ ما كان يجدر بنا قط أن نسمح لكِ بأخذهم. لقد أفسدتِهم.

ومال إليها مُقتربًا، فأمكنها أن ترى انعكاسها وجبينها المنتفخ في نظارته الشمسية.

خالج ريحانة الشعور بالذنب على ذكر إقبال؛ وأدركت أنها لم تُفكر فيه منذ بعض الوقت. منذ وقتٍ طويل. وحدَّثت نفسها كم أن الأيام مكدسةً بأحداثٍ غاية في الغرابة. ثم تساءلت ماذا لو لم يزد الأمر سوءًا، أكانت لتصل إلى هذا

الوضع لو أن إقبال حيًّا؟ أكانت لتصل إلى هذا الوضع، تسأل فايز إطلاق سراح صابر؟ أكان ليُسمح لها بأن تريد شيئًا يحمل هذا القدر من الخطورة؟ أم كانت لتتعلم أن رغباتها من رغبات زوجها؟

غمرتها السكينة لما أدركت عدم اضطرارها إلى معرفة الجواب. ليس عليها أن تعرف ما إذا كان إقبال سيتحلى بالقوة والشجاعة للبقاء في دكًّا، أم أن الطفلين سيرثان منه عالمه الصغير المحفوف بالقلق. شرع رأسها يدور حين فكَّرت في كل الأمور التي كانت لتختلف مع وجود إقبال. ها هي الآن تسترجع غيوم الخوف المُخيمة عليها، ومدار القلق الذي لا ينتهي، والرجل العصبي الخائف الذي بذل قصارى جهده لكيلا يُزعج القدر، وأن يحيا دون تهديد، ودون مخاطرة. هل تساءلت يومًا عما سيكون عليه شكل الحياة دونه؟ وهل غمرتها البهجة، ولو قليلًا، حين مات؟ ورُغم الحزن المُفجع، أكان موته خلاصًا أيضًا؟

أرادت ريحانة أن تتظاهر بأن هذا ليس صحيحًا، لكنها الحقيقة بعينها.

كان فايز يقول: والآن أترين ماذا فعلتِ؟

ما الذي حمل فايز على تغيير معتقداته فبات مخالفًا لها فيما تعتقده؟ كيف تأتى له أن يكون على الجانب المقابل من عالم الأبيض والأسود الذي تحيا به؟ لم يسعها أن تتصور نفسها تؤمن بشيءٍ آخر عدا إيمانها بما سارت فيه من طريق؛ فقد كان إيمانها مُجرَّدًا كإيمانها بالله.

لم يكن فايز رجلًا سيئًا. وقد حان الوقت لتنطق ريحانة بالحقيقة.

قالت:

- لقد أرسلتها إلى هناك. إلى كُلكتا، لتنضم إلى جيش التحرير.

تضاعفت بقع اللعاب على جانبي فمه، وهو يُجيب: **أأرسلتها** إلى هناك؟ (زفر أنفاسًا غاضبة) أخبريني كل شيء. الآن.

احدودبت كتفا قاسم إلى أعلى لتُغطيا أذنه، كما لو أنه يحاول أن لا يسمع ما يدور بينهما. ورأت ريحانة ذقن فايز يرتجف غضبًا. حان وقتُ الإدلاء بالحقيقة.

- آسفةٌ لأني كذبت عليك. ما كان يجدر بي أن أكذب...

- يجدر بكِ أن تخجلي من نفسكِ.

قالت ريحانة: لكني لستُ خجلةً من نفسي.

ازدردت ريقها بضع مرات لتُهيئ نفسها لما هي مقبلةٌ عليه، وتابعت: كانت لها صديقة أسرها الجيش في مارس. كان اسمها شارمين.

- وما علاقة هذا بأي شيء؟

- أنصِت إليَّ. كان اسمها شارمين. أخذها أفراد الجيش وحبسوها في ثكناتهم، لا تبعد ميلًا واحدًا عن منزلك. تعرضت الفتاة للتعذيب حتى ماتت. وفعلوا بها ما فعلوه، أمورًا يصعب الحديث عنها. كانت في نفس عُمر مايا. كيف تُفسر هذا؟

- لستُ مضطرًّا إلى تفسير هذه الأمور لكِ.

- كيف؟ أتظن أن بإمكاني أن أتطلع إلى عيني ابنتي وأخبرها أن كل شيءٍ على ما يرام؟

- ولهذا أرسلتِها إلى جيش التحرير؟

- لا يجدر بي أن أخجل من شيء؛ بل يجدر بكَ أنتَ أن تخجل مما تقول.

- أنتِ لا تعرفين شيئًا.

وأشاح بوجهه عنها. فرأت ذقنه المُربعة، تلك الذقن التي جعلت منه الشقيق الأكبر صاحب اليقين والثقة.

تابع فايز: هذا هراء..

وصمت قليلًا قبل أن يُضيف: إن الفتاة ضحية حرب. وحين تؤمنين بشيءٍ، بعض الأمور يجب التضحية بها.

- أطفال؟

- دومًا ما ستجدين ضحايا.

- ظننتُ أن هناك احتمالًا بأنك لا تعرف بما يفعله الجيش. ولكني أقولها لك الآن؛ يمكنك أن تزيل أثر دماء الضحايا من يديك. لا شك أنك لا تود إثقال ضميرك بهذه الأفعال، أليس كذلك؟

استخدم فايز سبابته، لحل العقدة حول عنقه، وظنت ريحانة أنها رأت في عينيه بارقة شك.

أبطأت السيارة من سرعتها حتى توقفت، ثم قال قاسم: سيدي، مركز شرطة ميربور.

بدا أن فايز يفكر في أمرٍ ما، فقد بقي على صمته حالما جمعت ريحانة حقيبة يدها، ثم قال: اذهبي.

- إلى أين؟

أجابها وهو يشير إلى مبنى منخفض على الجانب الآخر من الحقل: إن مركز الشرطة هناك.

- ألن تأتي معي؟

- لستُ رجلًا قاسيًا يا أرملة أخي. تذكري ذلك. والآن اذهبي وأنقذي الرجل بنفسكِ. لا يمكنني المُخاطرة والتورط معكِ في أي شيء. لو لم أرسل أمر التسريح بالفعل، لأعدتكِ إلى المنزل على الفور.

ودسَّ يده في جيبه وأخرج مظروفًا، ثم قال: أريهم هذا.

- ولكن.. أتريد مني أن أذهب إلى هناك بمفردي؟

- لن أشغل نفسي بهذا الأمر بعد الآن.

وأشاح بوجهه عنها، فبقيت هي تتطلع إلى السواد الرقيق لشعره. استدارت ريحانة لترحل، وإذ فجأةً انهارت أمامها عواقب معرفته المُحتملة جميعها، فسألت: هل ستخبر أحدًا؟ بشأن مايا؟

أجابها بجفاء، وهو ما يزال يتطلع بعيدًا: كان يجدر بكِ التفكير في هذا حين سمحتِ لها بكتابة هذه القمامة.

لم يمنحها جوابًا فاصلًا عن سؤالها. الآن وقد عرف بأمرها، سيسعه فعل أي شيء. وسيسهل عليه أن يتبين حقيقة أن سُهيل ليس في كراجي، وكل ما عليه فعله هو الذهاب إلى شونا في منتصف النهار ليكتشف وجود الرائد.

قالت ريحانة: لا تنسَ أنها ابنة أخيكَ.. لحمك ودمك.

أرادته أن يلتفت إليها، فيتسنى لها أن تقرأ جوابًا في ملامح وجهه، لكنه اعتزلها.

ترجلت ريحانة من السيارة مُتعثرة، وصُفع الباب من خلفها. منحها قاسم ابتسامة اعتذارية مقتضبة، ثم انطلقت السيارة بعيدًا، تاركةً ريحانة من خلفها في صحوتها الخانقة حين تنفث الغبار.

قبضت المرأة على المظروف في إحدى يديها، وعدَّلت من ساريها. فكرت في أن تستقل عربة ريكاشة وتعود إلى المنزل، وستتفهم السيدة تشودهاري. وتطلعت إلى الطريق المؤدي إلى دانموندي، لكنها عجزت عن تحرير رأسها من وجه سُهيل وهو يتوسل إليها. وهكذا شقت طريقها عبر الحقل الذي غسلته مياه الأمطار، تتوقف من حينٍ لآخر فحسب لتُصلح من حزام كاحلها.

***

في الأعلى، تلبدت السماء بالغُيوم، والرياح تهب في نشوة هادئة. كان هذا قُبيل أمطار الظهيرة بساعةٍ أو ربما ساعتين. وفيما كانت تقترب من المدخل المُؤدي إلى مركز الشرطة، أدركت ريحانة أنها نسيت التدرب على ما ستقوله. توقفت أمام الباب، ذي القبضة المعدنية الصدئة التي بهت لونها بفعل آثار الأيدي عليها. كان حذاؤها قد تبلل بسبب الحقل المغمور بالمياه. ولما فتحت حقيبة يدها لتبحث عن الرزمة التي منحتها إياها السيدة تشودهاري، تناقلت من قدمٍ إلى أُخرى وحاولت أن تهز ساقها لتنفض البلل الزاحف على حذائها. منحتها رؤية الرزمة، ملفوفةً برباطٍ من المطاط، الكثير من الطمأنينة. فأخذت نفسًا عميقًا واستعدت للدخول. وحين أوشكت على مد يدها إلى المقبض، تأرجح الباب مُنفتحًا أمامها. وظهر أمامها رجلٌ مُلتحٍ طويل القامة، يرتدي زيًّا عسكريًا. منحها نظرةً تحمل شيئًا من الذهول قبل أن يندفع بجانبها معلقًا «معذرةً» باللغة الأوردية، ثم تنحى جانبًا ليسمح لها بالمرور.

عبرت ريحانة الممر المُظلم، ووصلت إلى غُرفة واسعة خالية من النوافذ. وفي أحد أركان الغرفة، جلس رجلٌ أصلع خلف طاولة ضخمة ذات سطحٍ زجاجي. رُتبت الكراسي المعدنية في صفوفٍ أمام المكتب. وجلس أُناسٌ صامتين مُضطربي الأعصاب عليها. شعرت بأعينهم عليها وهي تشق طريقها إلى المكتب ذي السطح الزجاجي. واقترن أزيز مروحة السقف فوق المكتب من وقتٍ لآخر بالصرير الصادر عن كُرسي الرجل الأصلع وهو ينقل وزنه من جانبٍ لآخر. ولما اقتربت منه، رفع ناظريه أسفل زوجين من الحواجب الكثَّة.

قالت ريحانة: أود التحدث إلى أحدهم.

خرج صوتها أعلى مما قصدت أن يكون.

أجابها الرجل بذهنٍ شارد، وهو يشير بذقنه: خذي استمارتكِ وانتظري هناك.

- استمارة؟

- استمارة زيارة السجين، هاكِ.

ومدَّ يده إليها بقُصاصة ورقٍ رطبة.

قالت ريحانة: لم آتِ لزيارة أحدهم.

ارتفع رأسه إلى أعلى على الفور، وهو يقول: ماذا إذن؟

كان مشروب التنبول قد صبغ شفتيه بلونٍ برتقالي مثل أشعة الشمس.

- أنا هنا.. لأُطلق سراح سجين.

- **أنتِ** هنا (ندت عنه ضحكةٌ مصحوبة بلعاب برتقالي) لتُطلقي سراح سجين؟

تساقطت قطراتٌ برتقالية ضئيلة على استمارة زيارة السجين. ثم تابع:

- مَن أنتِ، مأمور الشرطة؟ **أنتِ** لا تُطلقين سراح سجناء، **نحن** مَن نطلق سراح السجناء.. أتفهمين؟

كان الشرطي يرتدي زي الشرطة الأزرق، ضيقًا عند الإبط والياقة. وعلى ظهر كُرسيه، حيث يستقر رأسه عادةً، أُلقي شُرشف مُخطط باللونين الأبيض والوردي. استدار الرجل ليأتي بالشرشف، ومسح بصاق التنبول الذي سقط من فمه.

أخرجت ريحانة المظروف الذي منحها إياه فايز، وقالت: أملك أمر الإفراج عنه.

- دعينا نرى هذا. (وشده من يدها في عنف) صابر مصطفى.

لجأ الشرطي إلى دفترٍ ضخم، وشرع يتنقل بين الصفحات المطوية. مالت ريحانة إلى الأمام بقدر ما جرؤت. فاح من الدفتر رائحة العرق. وراح الشرطي يمرر أصابعه على قائمة من الأسماء المطبوعة.

- ليس هنا.

- ماذا؟ هل أنتَ متأكد؟

أدار الرجل السجل في نفاد صبرٍ وقال: أرأيتِ اسمه؟

قبل أن يُغلق الدفتر بصفعةٍ من يده.

قالت ريحانة:

- من فضلك، ابحث مُجددًا.

ظل الدفتر على حاله مُغلقًا، وأجابها الرجل: قلتُ لكِ ليس هنا. أنتِ تضيعين وقتكِ.

أخرجت ريحانة رزمة «أموال الحلاوة» التي أعطتها إياها السيدة تشودهاري. وحلَّت قيدها شيئًا فشيئًا، حريصةً على أن يرى الرجل أوراق البنكنوت الروبية. وأخرجت منها خمسين روبية، وقالت وهي تستجمع شجاعتها: ابحث مجددًا.

قبض على المال بأصابعه الخمس، ودسها في جيب صدره، وأعاد فتح الدفتر. وبعد فترة صمتٍ قصيرة، قال: أجل. مصطفى. أُفرج عنه.. كلا، بل نُقل. (ورفع حاجبه، وهو يتابع) إلى مسلم بازار.

- مسلم بازار؟ مركز شرطة آخر؟

ابتسم الرجل، ليكشف عن طقم أسنانٍ مُخططة بخطوطٍ بيضاء. وقال: كلا. ليس مركز شرطة.

- ماذا إذن؟ كيف يمكنني أن أجده؟

- لم يعد بإمكاني مُساعدتكِ.

هزَّ رأسه نفيًا وأشار إليها لترحل، لكن ريحانة لم تتزحزح من موضعها. وشعرت بصف الكراسي من خلفها يتحرك. فتح الرجل دُرجًا وأخرج ما بدا لها محرمةً مطوية. وحلَّ طيتها، كاشفًا عن كومةٍ من أوراق شجر على شكل قلب. انتقى واحدةً من الكومة ووضعها بحُبٍ على الطاولة الزجاجية. وراحت ريحانة تراقبه وهو ينزع الغطاء عن عُلبة دائرية صغيرة. وعض على ساق ورقة التنبول، ثم أغرقها في العُلبة، فخرجت منها كرياتٍ من معجونٍ أبيض، لطخ به ورقة الشجر. ثم أضاف حفنة من مُكسَّرات التنبول المطحونة وحفنة من تبغ المضغ، وأنهى المَهمَّة بأن لفَّ ورقة الشجر بضع لفَّاتٍ وقذف بالرزمة المثلثة إلى داخل فمه.

تركته ريحانة يمضغ الخليط حتى استحال إلى نتوءٍ دائري ينبعجُ من خده. ثم قالت، وهي تمدُ يدها إلى داخل حقيبتها مُجددًا: ربما يمكنك مُهاتفة أحدهم في مسلم بازار وسؤاله عنه.

انفتح الباب خلف ريحانة. فأسرع الرجل بابتلاع الخليط ونصب أصابع يديه على شكل خيمة فوق المكتب. ثم تنحنح، وقال: كما قلتُ لكِ، السجين ليس هنا.

سمعت ريحانة: قدُّوس؟

فاستدارت لترى الرجل الذي مرَّت به في طريقها إلى الداخل. نادى مُجددًا ببنغالية حادة: يا قدوس، الشاي!

اختفى قدُّوس لبضع دقائق، ثم عاد وانزوى في كُرسيه.

قال والحرج بادٍ على مُحياه: الرئيس يحب الشاي الصيني.

وفرك يديه في سرواله.

أعدَّت ريحانة خمسين روبية أخرى، وقالت وهي تضغط بالورقة على الزجاج: أيمكنك أن تسأل أحدهم أن يحضره إلى هنا؟

كان الشاي الصيني قد جعلهما حلفاءً. فأجابها: سأرى.

ورفع سماعة الهاتف الأسود الثَّقيل، وأدار قُرص الهاتف. وهكذا دار الحوار:

«مرحبًا؟ المفتش قدوس. مركز شرطة ميربور. لدينا امرأةٌ هنا. تقول إن معها أمر إفراج. صابر مصطفى. كان هنا.. لكنه نُقل إليكم. هل أنتظر؟ حسنًا. مَن المتحدث؟ أوه، أجل، معذرةً يا سيدي. سيدي المرأة تسأل.. أجل، أجل بالطبع. سأخبرها. أجل (بالأردية). في حِفظ الله يا سيدي. أجل يا سيدي، تحيا باكستان».

ثم التفت إلى ريحانة على مهلٍ. وقال بنبرةٍ تحمل الكثير من الأسف: يجب أن تذهبي إلى هناك بنفسكِ. يجب أن يروا الأوراق بأنفسهم. سأبعث إليهم بتوصية. وسيكونون بانتظاركِ. يمكنكِ أن تستقلي عربة ريكاشة، أخبري السائق أنكِ تودين الذهاب إلى مسلم بازار، محطة الضخ. وسيعرف الطريق.

قالت ريحانة: شكرًا لك.

- لا عليكِ. حظًّا سعيدًا.

تطلع إليها قدُّوس وأومأ لها في تحية. ثم تبدَّل وجهه وهو يشير إلى ما وراء كتف ريحانة، ويقول: آل سين؟ السيد والسيدة سين؟

اقترب زوجان مُسِنان من المكتب، رأساهما مائلان إلى الجانب نحو بعضهما، والمرأة تحمل بين يديها حافظة طعام. سمعت ريحانة تلاطُم السائل داخل الحافظة بجدرانها، واستحضرت صورة ابن هذه المرأة، وهو يغمس يديه الممنونتين في حساء والدته.

- يمكنكما الدخول الآن

نهض قدُّوس عن كُرسيه وحلَّ وثاق سلسلة مفاتيح من حزامه، ثم أضاف: تعاليا معي.

غادر ثلاثتهم معًا. وسمعت ريحانة صليل البوابة وهو يُغلقها من خلفه.

***

كان المطر يهطل غزيرًا في الخارج؛ وتنهمِر من السماء أوبالٌ سميكة من الماء، فتأتي عليها الريح العاتية تُحيلها جليدًا صلبًا. رافق ريحانة صوت التصاق قدميها بالأرضية الطينية وهي تشُقُّ طريق العودة عبر الحقل ومنه إلى الطريق الرئيسي. فاستقبلها صفٌّ غير منتظم من أكشاك بيع الشاي على قارعة الطريق، محاطةٌ بمجموعة من عربات الريكاشة. بذلت ريحانة قصارى جهودها لتُغطي رأسها بوشاحها، لكن مُحاولاتها باءت بالفشل؛ فقد هاجمتها الريحُ من كل حدبٍ وصَوب، تُطيح بالوشاح من يدها، وتتركُها مُتخبطةً تُلملم ساريها من كل اتجاه.

احتمت أسفل المِظلة الرفيعة لأقرب كشك، حيث رأت جماعةٌ من الرجال يجلسون القرفصاء على الأرضية المرتفعة، ووجوههم مضاءةٌ بلونٍ أحمر ينعكس من مصباح الكيروسين المرتعش.

قالت ريحانة: مسلم بازار؟ مَن سيذهب؟ هل مِن أحد؟

وراحت تفوح من الكشك رائحة البسكويت والوقود.

كانوا يُحدِّثون بعضهم بشيءٍ، عجزت ريحانة عن تبيُّنِه من صوت المطر المُنهمر يرقع على السقف الصفيحي. تخلى أحدهم، أصغرهم سنًّا وأقلهم حجمًا، عن مجلسه ونهض. فقال رجلٌ في الخلف، وهو يشير نحو الصبي بالجانب المُشتعل من سيجارته الرخيصة: «بكول سيصحبكِ». رفع بكول تنورته الرجالية وحشرها بين ساقيه، وبدا كأنه يُعيد ربط طرفيها لتصير سروالًا داخليًّا، لكن ريحانة كانت بعيدة كل البعد عن الخجل؛ فكان ساريها

هو الآخر مُلتصقًا بجسدها، ولم تسمح لنفسها بالنظر إلى أسفل لترى ما حدث للونه. على الأقل، امتلك رجال الريكاشة الحياء ليُحدقوا إلى مصباح الكيروسين، عوضًا عن التحديق إليها مباشرةً.

قال الفتى: انتظري هنا.

وركض خارجًا من الدُّكان. راقبته ريحانة وهو يُجاهد لمد غطاء الريكاشة؛ وما إن انتهى من تأمينه، جذب مفرشًا من البلاستيك من أسفل المقعد. وقال: أقبلي! أسرعي!

تشبثت ريحانة بالإطار الصدفي لغطاء الريكاشة وبكول يندفع إلى الأمام في صورة ميكانيكية عبر الأمطار. ثم توقف لمرةٍ واحدة، لينتزع العجلة الأمامية من مصرَف ماء مغمور. عجزت ريحانة عن تبيُّن أي شيء، ولم تصب تركيزها سوى على القيادة والأمطار التي لا تتوقف، والساري الذي يلتصق بجسدها والرياح العاتية، كل هذا جعلها ترتجف برودةً وتتمنى باستماتة أن تُبدل ملابسها. تجاهلت أسماء الشوارع وتوقفت عن البحث عن المعالم البارزة المألوفة. وتلألأت الأشجار تحت الأمطار.

توقف بكول أمام مبنىً خرساني مربع. يُزينه سقفٌ مُثلثي مرتفع، مصنوعٌ من صفائح مُموَّجة من القصدير. رُسمت لافتةٌ باهتة على صفيحة القصدير تقول «صالة الألعاب الهندية». ولما ترجَّلت ريحانة من الريكاشة، منحت ريحانة بكول عشرين روبية، وصاحت بصوتٍ يعلو على هدير الأمطار: «سأعطيكَ عشرين مثلها حينما أخرج. انتظرني هنا. انتظر هنا، مهما استغرقتُ من وقت، ساعة، ساعتين، –أي شيء – انتظر، أتسمعني؟

أومأ بكول بإيجاب، وقال: أجل، يا سيدتي!

***

في الساعة الثالثة من انتظارها واقفةً، خالج ريحانة الشعور بالقلق حيال الطعام. لم تدرِ كم الساعة. والجوع ينهش أحشاءها؛ لا بُد أن موعد الغداء قد ولَّى. ووبَّخت نفسها على عدم إحضار بعض البسكويت في حقيبتها. ولا يمكن أن يراها أحدهم مَغشيًا عليها. فقد أضفى المطر الكثير من الصعوبة على تحديد الساعة؛ واندثرت الشمس وراء كُتلٍ من السُّحب الرمادية التي انخفضت في الأُفق البعيد. ومن بين قضبان النافذة الضيقة التي ارتفعت

قريبًا من السقف، أمكن ريحانة أن ترى الأمطار تنهمِر بغزارة. ولما جفَّ ساريها، وخزتها عيناها، وطنين غليظ في مفاصلها. أثنت ركبتيها أسفل منها، وفكرت في إغلاق عينيها، هنيهة فحسب، حتى يتوقف الوَخز فيهما.

ولما أخرج الجنود صابر أخيرًا، ظنت ريحانة أنها تحلم. رفعت جسدها لأعلى، وتجاهلت الألم في ذراعيها حيث استقرَّ رأسها. صار مركز الشرطة ذكرى خافِتة، وعجزت عن تبين المُدة التي قضتها نائمة؛ فقد توقف المطر. واستمر طنين الأضواء الكاشفة، وانتشرت رائحة المساء.

كان ثمة شيءٌ أسود يُغطي رأسه. قناع.. لا، بل غطاء. غطاء محكم حول وجهه. أمكنها أن ترى أنفه، وذقنه المُربع. هزَّ رأسه ذهابًا وإيابًا، وهو يتنفس بصخب عبر الفجوات في النسيج.

كان عاري القدمين، وتركت بصمات باطن قدمه آثارها في الوحل.

استدارت ريحانة إلى الرجل الذي أحضر صابر، فرأت لحيته السوداء الناعمة. قطعت نظراتها مسافاتٍ لأعلى. كان رجلًا طويل القامة. هل رأت هذا الرجل من قبل؟ أمعنت النظر فيه مرة أخرى. **لا تتطلعي لأحد**. افترَّ ثغر الرجل عن ابتسامةٍ مقتضبة. توقفي عن إثارة الذعر في نفسكِ. وشدَّت على يديها لتُوقف رعشتهما.

قال الرجل: يمكنكِ أخذه. وقِّعي هنا.

وقدَّم إليها استمارةً وقلمًا. لم تقرأ ريحانة الاستمارة، بل قالت وهي تُخربش على الورقة: أيمكنك أن تُزيل –الغطاء– من فضلك؟ وفكَّ وثاقه.

أجاب الرجل بأدب: بالطبع.

حلَّ العُقد على رسغي صابر. فانسدلت أكمام صابر على يديه، ورفع الرجل الغطاء بحركةٍ بسيطة. ظلَّت ريحانة تُحدِّق إلى وجه صابر، لترى ما إذا كان هو بالفعل. وكان هو. تعرَّفت ريحانة بروز تفاحة آدم، وسماكة رقبته. تقرَّحت شفتاه؛ وتكوَّنت حولهما قشرةٌ بيضاء، مثل حلقةٍ من الشعاب المرجانية.

قال الحارس: أحضرت هذه المرأة أمر إفراج.. يمكنكَ الذهاب.

حدَّق صابر إلى ريحانة بذهولٍ، فقالت: أنا ريحانة.. السيدة حق.

***

خلَّف المطر أوراق الأشجار لامعة، والهواء يعبق برائحة الصدأ. لم يتفوه أي من ريحانة وصابر إلى بعضهما ببنت شفة، وأمكنها أن تسمع صوت أنفاسه فحسب، والسُّحب محجوبةٌ من فوقهما. راحت النجوم تتلألأ من فوقهما والأرض تزبد وتعوم من أسفلهما.

نادت ريحانة: بكول!

كان الطريق خاليًا زلِقًا. ولا أثر لفتى الريكاشة. وعجزت عن تذكُّر الاتجاه الذي يؤدي إلى الطريق الرئيسي. ما مِن دكاكين هنا، بل مجرد امتدادٍ لطريق خالٍ مُحاط بأسلاك التليفون المدفونة.

- صابر، يا بُني، أيمكنك أن تسير قليلًا؟

جلس صابر القرفصاء على قارعة الطريق مثل كلبٍ ضال، وذراعاه تتدليان إلى جانبه بحُرية.

قالت ريحانة بصوتٍ أعلى قليلًا: علينا أن نسير.

كان رأسه مُنكسًا بين ركبتيه.

- صابر؟

سمعت ريحانة صوتًا أشبه بصافرة إنذار تأتي من رأسه المُنكَّس. فكررت النداء: صابر؟

لا جواب. هزَّت كتفيه، فتعالى النحيب؛ نبرةٌ عالية دخيلة؛ وبكاءٌ من دون فم.

لم تكن مُوقنة مما عليها فعله. بدا لها تافهًا بلا قيمة، مُنطويًا على نفسه كما لو أن الأرض قد تبتلعه؛ ولن يهتم أحدٌ برحيله، لأنه ليس سوى مثقال ذرة تتأرجح وتعوي. جثمت بجانبه في غرابةٍ، وتساءلت ما إذا كان بإمكانه أن يسمعها أم لا، ما إذا كان يعرف حتى مَن تكون. شعرت ريحانة برغبةٍ هستيرية مفاجئة بأن تتركه هناك في موضعه وتركض بعيدًا.

ومن مسافةٍ بعيدة، سمعت إنذار حظر التجوال المسائي.

قالت: علينا أن نذهب، يا صابر، أرجوك حاول.

لكنه لم يُحرك ساكنًا. ورأت القذارة حول ياقته، ورقبته، باهتةً مُتعبة. ربما كان نائمًا.

قالت أخيرًا: حسنًا. انتظر أنتَ هنا. سأجدُ شيئًا.

وتابعت حديثها إليه كما لو أنه سيُجيبها؛ فخفَّف من حِدة وحدتها.

- ابقَ هنا. لا تتحرك. أتسمعني؟ لا تتحرك. سأعود على الفور.

لم يتململ صابر حين نهضت وشرعت تسير مُتثاقلةً عبر الطريق المنقوض.

سارت مُبتعدةً عن صالة الألعاب الرياضية، قابضةً على حقيبة يدها، وهي تستشعر رزمة أموال السيدة تشودهاري. سألقي بهذه الأموال على أول شخصٍ أقابله وأتوسل إليه أن يوصلني إلى المنزل. أو إلى أي مكان، أي مكانٍ بعيد عن هنا.

أخذت ريحانة مُنعطفًا وتابَعت السير حتى صارت صالة الألعاب الرياضية بعيدة عن الأنظار. اشتدت الظلمة شيئًا فشيئًا؛ ودون أضواء الشارع أو ضوء القمر سيستحيل عليها قريبًا أن ترى الطريق أمامها. وفكَّرت «يجدر بي أن أعود. أن أبقى مع صابر، على الأقل، سيكون هو برفقتي». وأوشكت أن تعود أدراجها حين اصطدمت بشيء.

صاحت في الظلام: مَن هناك؟

ومدَّت أصابعها أمامها، فاستشعرت حافة إطار الريكاشة، تنتفخ أمامها مثل القفص الصدري.

همس أحدهم: سيدتي، إنه أنا.

كان هو بكول.

- بكول!

حمدًا لله. أرادت ريحانة أن تصيح مُبتهجة، ولكنها بدلًا عن ذلك قالت غاضبة: أين كنتَ بحق الله؟ لقد أخبرتكَ أن تنتظر! لقد سرتُ لأميالٍ طويلة.

- لم يسمحوا لي بالبقاء. خرج رجلٌ من المبنى بعصا. (أمكن ريحانة أن تتبين وجهه الآن) فبقيتُ هنا، أنتظر.

صعدت ريحانة إلى المقعد، وقالت: علينا أن نعود أدراجنا.

***

لم تجد صابر حيث تركته من قبل.

قال بكول: نصف ساعةٍ على موعد حظر التجوال يا سيدتي.

مسحت ريحانة المنطقة بحثًا عن صابر؛ واشتدت حلكة الظلام فما عادت ترى شيئًا. راحت تنادي: صابر! صابر! ثم سمعت صليل جَلبة تأتي من الصالة الرياضية. وأيدٍ تصفع على الباب. فركضت نحو الصالة الرياضية. بالكاد استطاعت تبيُّن هيئته؛ وحاولت إطباق يديها على يديه، وهي تقول: صابر، اهدأ! أحضرتُ الريكاشة. سنذهب إلى المنزل.

أحكمت قبضتها على يده وجذبته نحو الريكاشة. وفجأةً، صدرت عنه صرخة مُدوية، وصاح: لا، أرجوكِ!

تماسكت ريحانة، وحاولت تهدئته، وهي تُمسِّد أصابعه الناعمة بلطف. وتقول: بُني، تعال معي، هيا بنا. سآخذك إلى البيت.

لكنه ظل يصرخ ويتملص من بين يديها. فانقطع كم قميصه، ورأت أن اليد التي كانت تُمسك بها تحمل بقعًا داكنة على أطراف أصابعه. رسم أحدهم أصابعه. نخر صابر كما تنخر الحيوانات وقال: لا، أرجوك، لم أفعلها!

كان صوته أجش وغائرًا. وأخيرًا أفلتته ريحانة، فجثم على ركبتيه وراح ينشج. همس وهو يقبض بيديه على صدره: لا، لِا، لا. أرجوك.

انحنت ريحانة نحوه وأمعَنت النظر من كثب. كانت أظفاره رقيقة ومتورمة. اقتربت منه أكثر. لا أظفار. بل مجرد أصابع ذات أطرافٍ حمراء. لا يوجد أظفار. لا أظفار؛ مجرد أصابع ذات أطرافٍ حمراء فحسب.

همست ريحانة: يا إلهي!

خشت أن تلمسه الآن، وخشت أن تعرف ما يُخبئه أيضًا أسفل ملابسه.

جاء بكول من خلفها وقال: سيدتي، يمكنني حمله إلى الريكاشة.

وجلس جاثمًا على رُكبتيه أمام صابر واحتضن رأسه، ووضع ذراعه الأخرى أسفل رُكبتي صابر ورفعه زافرًا نخيرًا صاخبًا. كان الفتى أقوى مما يبدو عليه. انقلب رأس صابر إلى الخلف، وتدحرج بكول بتثاقل إلى الريكاشة. وقال لريحانة: أيمكنكِ أن ترفعيه لأعلى؟

صعدت ريحانة من الجانب الآخر وجذبت ياقة صابر، وهي تقول: اجلس، أرجوك يا بني، حاول أن تجلس.

واستشعرت الدموع تتساقط من عينيها. تصلب جسد صابر قليلًا، ولما أحاطت كتفيه بذراعيه، استطاعت أن تُبقيه مُنتصبًا بجانبها. ثم قالت إلى بكول: اذهب، أسرع.

- أين تسكنين؟

- دانموندي. الطريق 5.

***

كل ما أمكنها التفكير فيه هو: أريد رُؤيته، أتطلع إليه قليلًا فحسب. وسيختفي الغِطاء الأسود من مُخيلتي، وصابر لن يموت، صابر مثل طائرٍ بأطرافٍ حمراء، يا إلهي! أراه ولو لمرة واحدة أخيرة، حتى لو لم ينطق بكلمة، ولا كلمة، لن أُخبره أي شيء، سيعرف دون أن أقول، سيعرف قبل أن أخطو بقدمي عبر البوابة، سيعرف قبل أن أفتح فمي لأُخبره. لن أخبره بشأن الغطاء، لن أخبره، ولن أتمنى أن يظل هناك. بل سأحسب أنه رحل بالفعل؛ وأنني سأعود إلى المنزل، وأفترش سجادة الصلاة. سأسأل الله أن يُريحني من عذابي. وسيريحني الله من عذابي. لن أسأله أي شيءٍ آخر بعد ذلك. سأسأله أن يأخذ الرجل بعيدًا عني. خذ الرجل بعيدًا عني.

صابر مثل طائر، طائر مُحمر الأطراف.

لم يكن هناك. وكان شونا خاليًا. حين أُصيبت شقيقتها مارزيا بالملاريا، ظلت والدة ريحانة بجانب فراش مرضها، وقالت «أدعوك يا الله أن تأخذ المرض منها وتصيبني به. ليس ابنتي. بل ابتليني به». والآن أرادت ريحانة أن يعتني بها أحدهم بالطريقة نفسها. خذ المرض مني. احجب عني شفتيه المتقرحتين. احجب عني عينيه البيضاوين الخامدتين. احجب عني أنفاسه المُتعبة. أسألك يا الله أن تحجب عني يديه النازفتين. احجب عني أجنحته ذات الأطراف الحمراء. لا أريد أن أراها. ليس أنا. احجب عني الطمأنينة. احجب عني الطمأنينة لأنه لم يكن سُهيل. احجب عني رغبتي، احجب عني رغبتي. واشفني من اضطراب قلبي حين لم أجده هناك.

رقدت ريحانة على الوسادة، وغمست رأسها في رائحته.

قالت والدموع تنهمر بلا قيود من عينيها: يا الله، اشفني من رغبتي.

دارت الغرفة بها، ورأت والدي السيدة سينجوبتا يُحدقان إليها من الصورة على الحائط. أغلقت عينيها وحلمت برجلٍ يُدلِّك كتفها بيدٍ خشنة مُتصلبة. واتجهت تلك اليد إلى رقبتها، وراحت تضغط على أوتارها، وتضغط حتى كادت تختنق؛ ثم عادت اليد إلى كتفها مرة أخرى، ثم سارت على امتداد ذراعها، مُتسللةً عبر التجويف بين مرفقها ورسغها.

- ريحانة.

أصابها الذهول لسماع اسمها. وبدا لها اسمًا غريبًا.

- أنتِ تحلمين.

- كلا، بل حدث كل هذا، صابر...

- أعرف.

كنتُ أعرف أنك ستعرف كل شيء!

كانت أنفاس الرائد تتخلل شعرها، وشعرت بدفء بطنه على ظهرها. ورأت يده، ذات العروق البارزة، تتسلل عبر خصرها، وتُحكم قبضتها حول جسدها، كما لو أنها قد تطفو بعيدًا من دون وزنها.

وخزت رائحة المطاط المحروق أنفاسها. ودفنت عينيها الدامعتين في الوسادة، وفتحت فمها وابتلعت النشيج. استشعرت معرفته بكل شيء، وهذه هي هديته لها. أن يتحدث قليلًا ويعرف كثيرًا.

ضمتها يده بقوة، فمالت إلى الخلف، وهي تستشعر وزن صدره الثقيل. شهيقٌ وزفير. ولفحت أنفاسه أذنها.

أحاطت الوسادة بقبضتها، فقال لها: نامي، يمكنكِ أن تنامي.

وعلى نحو مُعجز، أغلقت ريحانة عينيها، وشعرت بأطرافها تسترخي، ورُغم تسارع أنفاسها الذي ظل على حاله، غطت في نومٍ عميق بلا أحلام.

***

أغسطس،
سبتمبر،
أكتوبر.

البُحيرة المالحة

كانت سماء البنغال وأُفقها خاليًا؛ لا تتخللها جبال، ولا وديان، ولا تلال، ولا أخاديد تشق المنظر الطبيعي. أفقًا مسطحًا، مثل مُستنقعٍ، أو نهرٍ ميت. تتوق الأعين لرُؤية بثرةٍ في الأفق، أو مؤشرٍ على مسافة، لكنها لا تجد شيئًا. ومن حين لآخر، ترى السُّحب؛ وبعض الأمطار، غير أن العين لا ترى من الألوان سوى البياض الناصع للسحب الركامية، والسواد الفاحم للرياح الموسمية.

ما مِن مبانٍ جميلة خارج المدينة قد تغرق في الحرارة أو تنهار أسفل الأمطار المُتتابعة. أما الأراضي الواعدة فلم تكن داخل المدن -ورونقها الذي يُلامس السماء ومأساة خرابها- بل في السهول الشاسعة التي جرى اكتشافها حديثًا، وسمائها الخالية وأفقها الذي يمتد إلى الأبد. وفي كل عام، تستحيل الأرض إلى بحر كما لو أنها تختفي بفعل تعويذة ماء، ثم تسود الأرض مُجددًا بفعل السحر، ويظل هذا الانحسار وهذا التكرار الحلقي هو أرشيف تاريخها الطويل من الفيض بالماء.

وعبر هذا المشهد البسيط الخلّاب، مرَّ قطار ريحانة 2.55 الذي يتحرك من أجارتالا إلى كُلكتا، وترددت جلبته باتجاه الغرب، حيث راح يُطارد الشمس. جلست ريحانة في مقصورةٍ شاغرة، والنافذة المفتوحة تعبث بشعرها حتى صار مثل هالةٍ تُحيط بوجهها. وسقطت ظلال الأشجار الطويلة عليها، ثم انحرفت عنها، وتعاقب الضوء والظلمة عليها، ذهابًا وإيابًا، مثل مفاتيح البيانو.

اضطرت إلى الفرار من دكًّا؛ **لم يعد مكانًا آمنًا**. فقد عرف فايز بشأن مايا. وظنَّ كلٌّ من جوي والرائد أنها قد تكون خاضعة للمراقبة، وثمة احتمال أن يكون المنزل مرصودًا هو الآخر. لا خيار في الأمر. احرصي على أن يبدو الأمر وكأنكِ ستغيبين لوقتٍ طويل. وهكذا أَغلقت ريحانة المنزلين وأسدلت الفرش على الأثاث، فقد رأت والدها يفعل الشيء نفسه منذ وقتٍ طويل، حين خسروا منزلهم ويلينجتون سكوير. وتساءلت ما إذا باتت لاجئة: بسفرها بالقطار، وبُعدها كل هذه المسافة، والفُرش المنسدلة على الأثاث.

تحتم عليها أن تتخذ طريقًا ملتويًا، فسافرت شرقًا أولًا وعبرت الحدود إلى الهِند، ثم لحِقت بالقطار المؤدي إلى كُلكتا. سافر القِطار شمالًا، مرورًا بما تبقى من أراضِ البنغال.. حقول الخردل وحقول الأرز وحقول الفلفل الحار؛ ثم انحدرت الأرض واستحالت إلى سهولٍ مُنخفضة كلما اتجه القطار شرقًا ودخل ولاية آسام الهندية. وفي الصباح، استيقظت ريحانة على منظرٍ طبيعي مستوٍ يضجُّ بالتفاصيل، بدا مرسومًا في ضوء البكور الباهت. كان الهواء منعشًا، تغمره رائحة التفاح. كان هذا هواء الربوة.

هذا الطريق الهلالي، الذي يُسمى الآن باسم «تشيكن نِك»، قد عبَّده البريطانيون من قبل؛ طريقٌ عطلات تنتقل عليه سيارات السيدات الأجنبيات البيضاوات إلى وجهاتهن الشتوية: سيلكار، وسيليجري، وشيلونغ، محطات تل تحمل أسماء تشبه حفيف الأشجار، في أجواءٍ لا تُرفرف فيها المَلابس، مُتهالكة، في الرطوبة حيث الهواء الجاف والشفاه المُشققة والقُبَّعات ممكنة. أجواءٌ تعبق برائحة البيوت.

بدا الضوء مُختلفًا هنا؛ دون الهواء الرطب الذي يُلطِّف الأجواء، سقط الضوء مباشرةً من السماء في ظلٍ برَّاق يُجهد العين الناظرة، ويُنير التلال من أسفله، ويسقط على الحشائش الخضراء التي تُغطي كل شيء، ويسقط على قطرات الندى المُتلألئة.

لاكت ريحانة الكلمات في فمها: **سآتي من أجلك**.

لم تكن لاجِئة؛ الكوخ الصغير ينتظرها، والقفل على بابه الأمامي. أبقت مصابيح الكيروسين مُمتلئة، ومضخات المياه قاحلة، والنوافذ مُغلقة، والستائر مرفوعة، والسرر مفروشة. ما زال الجيران يُحوطونها، والأطباق مُتسخةٌ في مطبخها، وفخذ ضأنٍ كبير في حافظة الثلج.

كانت قد أخذت صابر إلى منزل السيدة تشودهاري. ورأت سيلفي تخرج من البوابة وتتطلع إلى زوجها، وعيناها الجاحظِتان تهيمنان على وجهها، والخطوط التعبيرية الدقيقة تظهر على جانبي فمها، مسقطةً نسيجه الجلدي إلى الأسفل.

غادرت ريحانة دون أن تُلقي بعبارة وداعٍ واحدة.

ها هي قد أدت واجبها. ولم تنتظرهم ليدركوا حقيقة ما أعادته إليهم بالضبط من مسلم بازار.

***

أسندت ريحانة قَدميها على المقعد المُقابل، وأخرجت كومةً من الخطابات، ففاحت منها رائحة النفتالين. تساءلت في أي مكانٍ احتفظت سيلفي بها؛ ربما طَوتها بين ملابسها، بين قميصٍ وتنورة مُتوافقين، أو دفنتها في صندوق مجوهراتها، أو بين كتبها المدرسية القديمة. في اللحظة الأخيرة، حين تحتم عليها أن تختار ما تأخذه وما تتركه وراءها، لم تتحمل أن تترك الخطابات. كانت رُخصتها الوحيدة للشعور بالحنين، أما بقية حاجياتها، فكانت ذات أغراضٍ نفعية مَحضة: ثلاثة سواري، وثلاث بلوزات، وثلاث تنانير تحتية، ورداء نومٍ واحد، ومشطٌ بلاستيكي، وشرشفٍ رفيع. وبطانية. وطبق. أخبرها جوي أن تحزم طبقًا في حقيبتها.

وبعدما انتهت، أخبرها الرائد أنه لن يرافقها، وأنه سيذهب إلى أجارتالا بمفرده، وقال: هكذا أكثر أمانًا لكِ. ستقابلكِ مايا في كُلكتا. كل شيءٍ مُرتب.

ولمحت رجفة طفيفة في جفنيه؛ شعورٌ مُتلاحم؛ شعور النصر.

حلَّت ريحانة الغطاء، وأخذت رشفةً من قنينتها. ما أشد قُربها من المرض؛ الأطراف المُتململة المُرتخية، والوجنتان المحمُومتان، والقلب المُشتعل بالمرارة، ولسعة العرق. **إنه الحب**.

تذكرت بيتًا من قصائد غالب «**ستمضي الحياة كيفما كان الحال**». كانت الحياة لتمضي؛ كانت لتمضي بطريقةٍ أو بأخرى، بنمطٍ مُتوقع، دون قلقٍ، ودون هذا الاضطراب الذي اضطربت له روحها.

لما انحرف القطار جنوبًا متجهًا إلى كُلكتا، عادت حقول الخردل تظهر من جديد. افترست ريحانة بعينيها المنظر الطبيعي المَغمور بالماء. كانت

الأرض مُقسَّمةً إلى قطع مستطيلة مزروعة أرزًا، تؤطِّرها ضفافٌ مُرتفعة من الطمي، بِعرض أثر قدمٍ واحدة. وفُصِل بين مراحل النمو المختلفة على امتداد القطع المزروعة: فرأتْ البراعم الصغيرة الباهتة بلون الليمون، والتي تُجتثُ ليُعاد زراعتها حين يزداد طولها بارتفاع الخِصر؛ ثم رأت الأغصان المُكتملة، أشدُ كثافةً وأدكنُ لونًا؛ وأخيرًا حقول الأرز بلون الحليب، جاهزةً للحصاد. كانت القطع المزروعة أشبه بجُزرٍ مُصغَّرة، تعيش الواحدة منها على بركتها الفائضة بالمياه؛ وتبدو جميعها معًا مثل لوحة شطرنجٍ من الأخضر والذَّهبي.

تغيَّر الطقس، وتحوَّل لون السماء فجأةً إلى لون لوحةٍ رطبة. وشرعت قطراتٌ مائلة من الأمطار تتساقط عبر نافذة ريحانة المفتوحة. فنهضت وجاهدت قليلًا مع المِزلاج حتى نزل زُجاج النافذة مغلقًا إياها وتعشَّق القفل في ثلمه. ثم لم يبقَ لها سوى صوتُ الأمطار نفسها، وصوتُ العجلات الزَّاحفة في مسارها، والماء المُتساقط على النافذة مثل طرقات أصابع، وصار كل شيءٍ حولها أسود أزرق: الخشب الذي صُنع منه المقعد، والسُّحب المُنخفضة في الخارج، وصرير النافذة في إطارها.

***

اقترب القطار من محطة سيلدا، وزمجر مُتوقفًا. وعندما فُتحت الأبواب، هرولت ريحانة مُضطربةً وهي تحمل حقيبتها. كان المشهد أشبه بمَن أُلقيَ به في بحرٍ من البشر المُهتاجين. الناس في كل مكان، يختنقون ببعضهم في ضبابٍ كثيف. زاحمت وشقت طريقها إلى نهاية الرصيف، وهي تسير على أطراف أصابعها لترى فيما فوق رؤوس السيل البشري. كيف لمايا أن تجدها؟ وجدت ريحانة مساحةً شاغرة من بوصاتٍ قليلة أمام أحد المقاعد وجلست على حقائبها. وبعد بضع دقائق، شرعت تتبيَّن الفئات المختلفة من المسافرين. هناك المُسافرين الذين وصلوا لتوهم، يتقنَّعون بقناع المُضطرب رث الهيئة التي تتقنَّع هي به؛ والمُسافرين الذين وصلوا حديثًا، وما زالوا يتجولون في المحطة، بانتظار شيئًا ليحدث، بانتظار أحدهم لاصطحابهم، أو بانتظار أن يُخبرهم أحدٌ بما سيفعلونه الآن وقد وصلوا إلى كُلكتا؛ وهؤلاء المُسافرين الذين وصلوا منذ أسابيع أو شهور مضت، وأدركوا أنه ما من مكانٍ آخر خارج هذه المحطة، ما من بيتٍ آخر، وهكذا ظلُّوا هناك، مُفترشين الرصيف في صفوفٍ مُتعرجة غير مستوية. تُغطي البطانيَّات وجوههم؛ فقد فقدوا الأمل في أن

يصحبهم أحدٌ أو يرحلوا إلى مكانٍ آخر. سواءٌ أكان الوقت نهارًا أم ليلًا، أحان وقتُ النوم أم لا، يظلون مُفترشين الرصيف كما هم، يتقنَّعون بقناع الموت، وينحتون أماكنهم التي تُشبه الأكفان على أرضية الرصيف.

- السيدة حق؟

كان هذا نداء شاب لريحانة في مُقتبل العمر، يفصل أسنانه عن بعضها تفلُّجًا. وتملَّص من بين الجموع مُتجهًا نحوها وقد قرفص على ساقيه. ثم كرر نداءه: أنتِ السيدة حق؟

لم تكن ريحانة موقنةً مما إذا كان عليها إجابته أم لا، لكنها أجابت بنبرةٍ مترددة: نعم؟

- يا له من تشابهٍ لا تُخطئه العين! حتى في هذا الزحام تعرَّفت إليك.

وافترَّ ثغره عن ابتسامة، لا تتناغم مع هذه الفوضى من الأجساد التائهة.

- وأنتَ...؟

- مُوكل يا خالتي. أنا هنا لأصحبكِ. عجزت الأخت مايا عن المجيء؛ إنها آسفةٌ للغاية، ولهذا أرسلتني. سآخذكِ مُباشرةً إلى المكتب، هي بانتظاركِ.

كانت ريحانة مُنهَكة القوى، حتى إنها تغاضت عن الاستزادة في سؤال الفتى؛ وها هو الآن يُجاهِد في تخليص الحقيبة من يديها، ويندفع مُبتهجًا وسط الحشود، مُرشدًا إياها إلى الخارج، حيث لَفحتها الحرارة عبر البوابة المَفتوحة لمدخل المحطة.

يقود مُوكل سيارة فولكس فاجن بيتل صفراء اللون، ويبدو أن أحدهم قد فكَّر في طلاء المصدَّات باللون ذاته. وما بين فتْح الأبواب وحمْل الحقائب، شرَع الفتى في حديثٍ مُنفرد استمر حتى داس على الفرامل وأعدَّ السيارة للحركة. قال: أرجو أن تستريحي في المقعد الخلفي، فالمقعد الأمامي مُعبَّدٌ بالقمامة –حسنًا، ليست قمامة بالمعنى الحرفي، بل أقصد منشورات– كان يُفترض بي أن أوصلها قبل أن آتي لاصطحابك، ولكن الطُّرق كانت مُكدَّسة، ولم أشأ أن أتأخر عليكِ!

قالت ريحانة: شكرًا لكَ على المجيء.

فاستطرد الفتى، وهو يتطلع إلى عيني ريحانة في مرآة الرؤية الخلفية: إنه لشرفٌ لي يا خالتي. لقد سمعتُ الكثير عنكِ من مايا.

غمغمت ريحانة: آه، حقًّا؟

وهي تُحاول ستْر عينيها عن وَهج ما بعد الظهيرة.

أجاب الفتى: أجل، بلا شك. ولِمَ لا؟ أنتِ قدوةٌ لنا جميعًا. بطلة!

ازدادت سرعة السيارة مارَّة برصيف يفيض بالماء، فتناثر الماء على جمهرةٍ من تلاميذ المدرسة.

سأل موكل، وهو يلتفت سريعًا ليواجهها: أول زيارةٍ لكِ إلى كُلكتا؟

- مم، في الحقيقة لا، اعتدتُ أن أعيش هنا.

سأل مُوكل: حقًّا؟ أين؟ أيُّ ضاحية؟

غرقت ريحانة في شرودها، فلم تأبه لإعطائه عنوانًا مزيفًا، فأجابت: ويلنجتون سكوير.

- ويلنجتون سكوير؟ يا إلهي، لا بُد أن عائلتكِ ثرية.

راحت السيارة تقفز عبر طُرق المدينة الضيِّقة. أبقت ريحانة زُجاج النافذة مرفوعًا، غير أنها عبر الزجاج استطاعت أن تُميز رائحة الوحل والخضراوات الفاسدة التي تتميز بها كُلكتا. وسمعت جلبة الألسن، وخرفشة تحميص الفول السوداني، لكنها أبقت نظراتها مُركزة في حِجرها، وقاومت الرغبة والإغراء في النظر إلى موطنها القديم.

حدثت نفسها: أنا لم أعد إلى كُلكتا. أنا لم أعد إلى كُلكتا.

حالما انتهت ترتيبات زواجها من إقبال، كانت ريحانة تتوق للرحيل. فشقيقاتها، واحدة تلو الأخرى، قد تزوجن وانتقلن إلى كراجي. انتهى عهد منزل العائلة في ويلنجتون سكوير منذ أمدٍ بعيد، واستأجروا شقةً تقع فوق دكانٍ قديم لبيع الكتب في شارع كوليدج ستريت. اعتاد والدها كل صباح أن يهبط إلى دكان بيع الكتب، ويسرد على مسامع الجميع أسماء العناوين

التي اعتاد أن يقتنيها. فكان يصيح: **آمالٌ عظيمة! أكبرنامه[1]! حكايات الحمراء[2]!**

ارتعدت سيارة مُوكل وهي تقف أمام منزلٍ من طابقين. امتدت من أمامه رقعة من حديقة مُربعة الشكل مثل سجادة استقبال. وارتكزت فوق البوابة، لافتة تقول «**رقم 8، طريق ثياتر**».

قال مُوكل: خالتي. تفضلي. سأصفُّ السيارة وأُحضر أشياءكِ.

قالت ريحانة وهي تترجل من السيارة في امتنان: لا بأس، إنها مُجرد حقيبة صغيرة، سأحضرها بنفسي.

وجدت ريحانة أبواب المكتب مفتوحة على مِصرعيها، وأمكنها أن تسمع جلبة الآلات الكاتبة في الداخل، وصرير ضبط مَحطات المذياع. تقدمت بخطواتها على الأعتاب ودلفت إلى غرفةٍ ذات سقفٍ مرتفع، تفوح منها رائحة العطن والصُّحف. وأضفت منظومة من المصابيح الأنبوبية البرَّاقة على الغرفة أجوائها الرسمية، وشعورًا بأنها مطلية بالفلورسنت.

- ماما!

ارتمت مايا في أحضان والدتها، مُفرغةً الهواء من رئتيها. ثم أمسكت بكتفيها، ودفعتها بعيدًا على امتداد ذراعها لتتطلع إلى وجهها بابتسامةٍ عريضة، وهي تقول: أمي!

ثم جذبتها إلى صدرها مجددًا، وظنت ريحانة أنها سمعت نشيجًا ومايا تدفن وجهها في ساريها.

---

(1) أكبرنامه: هو عنوان كتابٍ بالفارسية، ويقابله باللغة العربية كتاب أكبر، يضم التاريخ الرسمي لأحداث عهد السلطان المغولي جلال الدين أكبر (للفترة ما بين 1556-1605) حيث قام السلطان المغولي الثالث بتكليف المؤرخ وكاتب البلاط السلطاني أبو الفضل بن مبارك الذي كان ضمن التسعة المُختارين (يسمون الجواهر التسعة) في البلاط السلطاني حينها بكتابته. الكتاب مكتوب باللغة الفارسية التي كانت هي اللغة الأدبية للمغول. يشمل كتاب أكبر تفاصيل وتصويرًا لحياة السلطان أكبر بشكل دقيق. (المترجمة)

(2) حكايات الحمراء: مجموعة مقالات وصور قصصية وقصص، كتبها الكاتب الأمريكي واشنطن إيرفنج ونُشرت سنة 1832. (المترجمة)

قالت مايا: أنا آسفة للغاية لأني لم آتِ إلى المحطة، لقد وقَّع الاتحاد السوفيتي المُعاهدة، أتصدقين هذا؟ كيف حالكِ يا أمي، لقد افتقدتُكِ كثيرًا. (ثم لوَّحت إلى الجميع بذراعيها) اسمعوا جميعًا، هذه والدتي!

رفع قليلون رؤوسهم عن مكاتبهم وألقوا السلام والتحية على ريحانة. ثم استطردت مايا: ستلتقين بالجميع لاحقًا. هل كل شيءٍ على ما يرام، أقصد رحلتكِ بالقطار؟

- أجل، أجل، كل شيءٍ على ما يرام.

استغرقت ريحانة هنيهة لتلحظ التغيير في ابنتها. فقد استبدلت بساريها الأبيض ساريًا قطنيًّا بلون أحمر برَّاق، وشفتاها مشققتان عليهما آثار تآكل، وشعرها فوضوي ازداد طوله على الحد المعقول، مُصفف في ضفيرة تنتهي بتشابكٍ ضعيف، لكنها استشعرت في ابنتها قوةً بدنية قاسية. وفي أحد أصابعها، ارتدت مايا خاتمًا مصنوعًا من معدنٍ بني رخيص. كان كل شيءٍ حيالها مختلفًا. رأت ريحانة بريق عينيها، وأمكنها أن تستشعر الدفء الذي جمع بينهما، وهما يتبادلان حديثًا موجزًا.

كانت مايا تقول: كنتُ قلقة عليكِ.

- لا تقلقي، لم يحدث شيء، كل ما في الأمر أني مُرهقة قليلًا.

- حسنًا، لقد رتبتُ المكان، أتريدين الذهاب للنوم، قليلًا؟

وجذبت مايا الحقيبة من ذراع ريحانة.

تحسست ريحانة طريقها عبر العهد الجديد بينهما، فقالت: أنا جائعة قليلًا، وربما أحتاجُ إلى حمام، إذا كان مناسبًا لكِ، هل أنتِ مشغولة؟

أجابت مايا: كلا يا أمي، أنا رهن إشارتكِ اليوم. (وأحاطت ذراعها حول كتفي ريحانة وضحكت برفقٍ) إلى أين تودين الذهاب؟ إلى حديقة فيكتوريا؟ ويلنجتون سكوير؟ أوووه، شارع كوليدج ستريت؟

- أولًا، دعينا...

- أجل، آسفة، البيت، أجل، البيت أولًا. انتظري بضع دقائق فحسب يا أمي. هنا، اجلسي إلى هذا المكتب، سأُنهي هذه الفقرة فحسب.

كانت ريحانة مُنهكة القوى، حتى إن الخدر والبرودة شرعا ينتشران على امتداد ذراعيها.

- دعيني أحضر لكِ بعض الشاي أولًا.

وركضت مايا مسرعةً إلى وجهتها.

استغلت ريحانة الفُرصة لتُلقي بنظرة فاحصة على المكتب من كثب. لم يكن هناك الكثير لتراه؛ أكوامٌ من الورق مُكدسةٌ فوق بعضها على المكاتب وتغطي كل بوصةٍ من المساحة الأرضية الشاغرة. ومن حولها، رأت الشبان ذوي النظارات الطبية عابسي الوجوه مُحدقين إلى آلاتهم الكاتبة. وقليلٌ من اللافتات مُعلَّقةٌ على الحائط. وعُلِّقت فوق ممر الباب المُؤدي إلى غرفة خلفية، صورةٌ ذات أُطر لمجيب الرحمن مُرتديًا معطفه الأسود. وبدت الصورة بالفعل كأنما عفا عليها الزمن.

أراحت ريحانة رأسها إلى المقعد الجلدي المُمزق، تحت تأثير النوم المغناطيسي بفعل طقطقة أزرار الآلات الكاتبة. وفي الغرفة الخلفية، دوى صرير المذياع لجذب الانتباه.

قالت مايا، وهي تحمل قدحًا من الشاي، وقطعتين من رقائق البسكويت: أمي، سنستمع إلى إذاعة بي بي سي، ثم نذهب.

سمعت ريحانة مقتطفاتٍ من البرنامج الإذاعي، تتخللها تعليقاتٌ من الموجودين في المكتب. «**هنا الخدمة العالمية لهيئة الإذاعة البريطانية... معاهدة هندية-سوفيتية تاريخية... إذا تدخلت إنديرا غاندي، سيتحقق النصر في هذه الحرب على يد شعب بنجلاديش ...**».

دوى هتاف صاخب في أنحاء الغرفة. وتردد رنين ثلاثة هواتف معًا في الآن نفسه.

- النصر للبنغال! النصر لصديق البنغال!

تردد الهتاف عدة مرات، ثم تبعه تربيت على الظهر هنا وهناك.

التهمت ريحانة رقائق البسكويت المالحة التي تناثرت عليها حبات كمون ناعمة، وشعرت بركبتيها تستحيلان حجرًا. فقالت لابنتها مايا: بُنيتي، لِمَ لا تأخذيني فحسب إلى.. الشقة؟

بدت مايا مترددة وهي تُجيب: أمي، أنا آسفة حقًّا.. سنذهب الآن. إنها ليست شقة في الواقع.

- لا يُهم. أريد أن أرفع قدمي عن الأرض فحسب.

جمعت ريحانة حاجياتها وشرعت تسير نحو الباب الأمامي.

- كلا يا أمي، من هذا الطريق.

وقادتها مايا إلى مُؤخرة المبنى، حيث وجدت المزيد من العاملين ذوي الوجوه الجادة، منكفئين على مكاتبهم. حُشرت المرأتان بين مجموعة صغيرة من الناس الذين ما يزالون مجتمعين حول المذياع. ولوَّحت إليهما امرأةٌ شابة ترتدي مثل رجلٍ في سروالٍ رمادي، وهما تمران بالقرب.

- والدتكِ؟

- أجل. أمي، هذه سُلطانة.

ابتسمت الفتاة المُسترجِلة إلى ريحانة. كانت تملك عينين سوداوين لامعتين. وقالت لريحانة:

- لقد سمعنا الكثير عنكِ يا خالتي. إذا احتجتِ إلى شيءٍ، يمكنكِ أن تسأليني.

ثم عبرتا من خلال فتحة بابٍ ضيقة، ومنها إلى بئر سلمٍ خافت الإضاءة. قالت مايا، وهي تصعد السلالم اثنتين اثنتين: نحن في الطابق العلوي مباشرةً.

تبعتها ريحانة عبر ممر مُلطخ ببقع التنبول، حذرة في خطاها متجنبة القصاصات المُجعدة من الصحف، وبقع البصاق، وطبقات الوحل المُلطخة على الحوائط.

ينفتح بئر السلم على سطحٍ مستوٍ شاسع، يُحيط به سورٌ منخفض، ومن ورائه أمكن ريحانة أن ترى السطوح الأخرى في طريق ثياتر. وفي المبنى المجاور، وقفت امرأةٌ بدينة تُثبِّت ساريًا أصفر على حبل الغسيل. قالت مايا: من هذا الطريق.

وعبرتا السطح معًا، وفي الطرف البعيد، كان هناك كوخٌ صغير له سقيفةٌ من القصدير، ومدخلٌ من أبواب مُزدوجة ضيقة مغلقةٌ بقفل.

أودعت مايا المِفتاح في القفل، وتأرجحت الأبواب منفتحةً لتكشف عن غرفة ضئيلة وفراشٍ متهدل يستند إلى أحد الحوائط، ومكتبٌ خشبي ثقيل يستند إلى الحائط الآخر. وما بين الفراش والمكتب، فسحةٌ من نافذة ذات قضبانٍ معدنية بدائيةٍ متقاطعة. وتدلَّى من القضبان شرشفًا باليًا، أضفى

نمط الشطرنج لنسيجه باللونين الأحمر والأخضر، مسحات كريسماس واهية على الأرضية الخرسانية.

- أمي، هذا أفضل ما أمكنني فعله.

دفعت ريحانة بذهولها جانبًا. فتابعت مايا:

- لقد نظفتها!

كانت تستند مكنسة بالية إلى الحائط بزاوية.

قالت ريحانة: لا بأس يا ابنتي. لن يدوم الأمر طويلًا.

- إنها ترقية! طوال كل هذا الوقت، كنتُ أنام في الطابق السفلي.

- في المكتب؟

أجابت مايا وهي ترفع كتفيها في استسلام: ما مِن مكانٍ آخر، وعلى أي حال كان الأمر مُمتعًا.

وراحت الفتاة تتجرَّد من ساريها، فتبعتها ريحانة، وظهرها إلى النافذة. وأسدلت رداء نومها عبر رأسها، وشرعت تُحرر شعرها من دبابيسه.

كانت مايا قد افترشت الفراش بالفِعل حين قالت: أمي، لقد سمعتُ بخبر صابر.

لم ترغب ريحانة البتَّة في الحديث عن صابر، لكنها أخبرت مايا بشأن سُهيل، والشقة التي يسكنها في نيلكت، وكيف توسل إليها طلبًا للمساعدة.

- غرقت السيدة تشودهاري في حالةٍ هستيرية.

- وماذا عن سيلفي؟

أوضحت ريحانة: ظنَّ سُهيل ... حسنًا، أراد أن يفعل هذا من أجل سيلفي. ظنَّ أنها قد تقع في حبه مرة أخرى إن هو –أنا– أعدنا إليها صابر.

- وماذا بعد؟

- لا أدري. كان صابر في حالةٍ يرثى لها.

- وأنتِ من أقنعهم بأن يُخرجوه من السجن؟

أجابت ريحانة:

- اضطررتُ إلى سؤال عمكِ فايز.

- كيف أقدمتِ على هذا؟

- صدقًا، لا أدري.

أدركت ريحانة أنها تقول الحقيقة؛ فقد كانت أحداث ذلك اليوم ضبابية، كما لو أنها حدثت لشخصٍ آخر، وأنها قد استعارت منه الذكرى فحسب.

قالت مايا: أنتِ أشجع مما تظنين.

- أو ربما مجرد حمقاء.

عبثت ريحانة بحقيبتها، حتى أخرجت البطانية وقرَّبتها من وجهها، وراحت تتنفس رائحة الدِّفء التي تركتها الشمس على حبل غسيلها.

قالت مايا: تبدين مُختلفة. شيءٌ ما ... لا أدري.

أحاطت ريحانة كتفيها بالبطانية وحشرت نفسها بين الحائط وابنتها. ثم تطلعت إلى السقف المُنقَّر، وتصوَّر لها الطلاء الأبيض مُنقَّطًا برقعٍ من الرطوبة تشكلت في صورة سُحب.

انقلبت مايا لتستلقي على ظهرها وقالت: احتجتُ إلى الرحيل يا أمي. أتمنى أن تتفهمي ذلك. لكن الشعور بالسوء غمرني حيال تركي إياكِ وحدكِ.

لم تكن ريحانة وحدها على النحو المفهوم. فقد شاهدت فيلم **المغولي الأعظم**، ووقعت في حُب رجلٍ غريب، وتفوهت بكلمات حافظت على سريَّتها مدةً تزيد على عِقدٍ من الزمن.

كانت مايا ما تزال تتحدث: «... والحياة هنا مُزدحمةٌ للغاية، بالكاد أحظى بالوقت لأُفكر في شيء».

نهضت الفتاة مفزوعةً وقسَّمت شعرها من المُنتصف، وأمسكت بالجانب الأيسر وبرمته في ضفيرة. فاهتز الفراش وغاصت فُرشه. ابتلعت ريحانة تذمُّرها؛ كانت قد نسيت مدى ضجر الفتاة وقلقها المُعتاد.

سألت مايا:

- هل كان، أعني صابر، ماذا فعلوا به؟

لم تُحرِّك ريحانة عينيها عن السقف، وفكَّرت في قرارة نفسها يا تُرى أي وجهٍ من الحقيقة لن ترفضه مايا على الفور.

وفي تلك الأثناء تابعت ابنتها: وردتنا تقارير بشأن المساجين. أعرف ما يحدث لهم بالفعل.

- إذن لا حاجة لي أن أُخبركِ شيئًا.

- ومع ذلك أريد أن أعرف.

انشغلت مايا في هَندمة ضفيرتها الثانية الآن، وعاد وجهها إلى طُفولته حين كانت تلميذة بالمدرسة.

- تعرَّض للتعذيب.

- كيف؟ ماذا فعلوا به؟

أجابت ريحانة: لا أدري.

- بالطبع تعرفين.

- لا أريد حقًّا أن...

- بحق الله يا أماه، لستُ طفلة!

زفرت ريحانة تنهيدة مثقلة، ثم زفرت تنهيدة أخرى. وقالت: حسنًا.

حدَّثت ريحانة نفسها «أبقي عينيكِ مثبتتين على الغيوم».

ثم استهلت حديثها: ضربوه، وكسروا أضلعه.. أجبروه على التحديق إلى الشمس لساعاتٍ، بل لأيام.. أطفأوا أعقاب السجائر في ظهره.. علقوه رأسًا على عقب.. أجبروه على شُرب الماء المالح حتى تشققت شفتاه.. نزعوا عنه أظفار يديه.

انهمرت الدموع متساقطةً على وجنتي ريحانة، وتجمعت في أذنيها. أغلقت عينيها ورأت الدماء تنبض عبر أجفانها. وحين فتحتهما، كانت مايا تقف عند النافذة، تفرد وتطوي الشرشف البالي. ثم التفتت إلى أمها وقالت بنبرة صوتٍ مِضيافة: يا له من محظوظ أنكِ أتيتِ من أجله. كانوا سيجبرونه على حفر قبره بنفسه، ثم يدفنونه به.

استدارت ريحانة وألصقت جبهتها بالحائط، فوجدته خشنًا معبَّدًا بالغبار.

قالت مايا وهي تنهار بتثاقل على الفراش: أماه، لقد كنتِ شجاعة. شجاعة للغاية.

وربَّتت على ظهر ريحانة، ثم تابعت: دعينا ننام الآن، حسنًا؟

واستدارت لتُدثِّر أمها بجسدها، فاستشعرت ريحانة دِفء ابنتها المُضطرب على ظهرها. قبل أن تقول ابنتها أخيرًا: غدًا سنزور المُخيم.

استلقت ريحانة مُستيقظةً وراحت تُفكر بشأن الرائد، وذراعه المربوطة بأشرطة زرقاء، وأنفاسه الثقيلة. لم يكن حبًّا أشبه بحُبها لأبنائها. لم يكن حبًّا أشبه بحُبها للوطن. ولا حتى أشبه بالحُب التصادُفي لزوجها. بل كان حبًّا توَّاقًا ابتلعها في براثِنه. وها هي تريد الاستزادة منه. لم يمرَّ يومٌ واحدٌ ولم ترغب في الاستزادة. كان حبًّا طريقه مُعبَّدٌ بالألم، ألمٌ لم تعرفه هي من قبل. ألمٌ لا يشبه فقدان الزوج والأب والأم. ألمٌ لا يشبه الألم الساحق للوداع عبر نافذة مطارٍ ضبابية.

- أمي، انهضي! استيقظي!

شعرت ريحانة بوخزٍ من خُصلات شعرٍ على خدها؛ فتحت عينًا فاترة، لتجد ابنتها تنحني فوق الفراش، وهي تحمل كوبًا ساخنًا في إحدى يديها، وفرشاة أسنانٍ في الأخرى. حاولت ريحانة أن تتذكر أين هي، فقالت مايا وهي تمدُّ يدهاً بفُرشاة الأسنان إلى ريحانة وتتجرَّع من كوب الشاي: علينا أن نُسرع.

انقضى لين الأمس، وحلت محله براعةٌ بلا سحر.

انقلبت ريحانة على ظهرها، وقد عبس وجهها لتصلُّب رقبتها، ثم سألت: كم الساعة؟ ما يزال الوقت ليلًا.

- الخامسة والنصف. علينا أن نستعد لمُقابلة سُلطانة. (ولوَّحت بالكوب في يدها نحو الباب) إنها بانتظارنا في الطابق السفلي.

- إلى أين سنذهب؟

- لقد أخبرتكِ، اليوم هو يومي في المُخيم.

شعرت ريحانة بمعِدتها فارغة شديدة الحُموضة. فسألت: وماذا عن الفطور؟

- هناك مقصفٌ، طعامه ليس سيئًا، أسرعي فحسب، وربما يتسنى لنا بعض الوقت لتناوُل القليل من بارثا البطاطِس الحارة قبل أن نذهب.

أجابت ريحانة: حسنًا.

وأجبرت نفسها على النهوض من الحفرة المقعَّرة التي حدثت في الفراش. ثم أضافت: سأُبدل ملابسي وأستعد. اهبطي أنتِ إلى الطابق السُّفلي، سآتي على الفور.

***

مضت نِصف ساعة، كانت ريحانة قد ارتدت ملابسها، وفرَّشت أسنانها في دورة مياه الطابق السفلي التي فاحت منها رائحة العرق، ثم التهمت القليل من حبات البطاطس الملفوفة في فطيرة باراثا مُشبعة بالدهن، ثم وجدت نفسها محشورة بين سُلطانة ومايا في المقعد الأمامي لشاحنةٍ مُتهالكة. اتخذت سُلطانة مقعدها خلف عجلة القيادة، وهي ترتدي السروال الرمادي نفسه، مع بزَّة كورتا بيضاء ذات رقبة واسعة. تفوَّهت ريحانة في أذن مايا «**إنها تقود شاحنة**». أما مايا فجلست وهي تحمل على حِجرها صندوقًا ذا مُلصقٍ كُتب عليه «**العلاج بالإماهة الفموية**». التفتت مايا إلى ريحانة وابتسمت بغُموض، ثم همست: إنها حربٌ يا أمي، يمكننا أن نفعل ما يحلو لنا.

توقفت الشاحنة أمام مقهى قديم. ودس مُوكل رأسه عبر النافذة المفتوحة، ففاحت منه رائحة البيض ومعجون الأسنان، وصاح: مرحبًا! صباح الخير يا خالتي! ثم قفز إلى مُؤخرة الشاحنة واتخذ مجلسًا بين الصناديق الطبية وصفائح الحليب المُجفف.

مضت ساعة والسماء لم تتشح بالصفرة بعد، ندى الليل الثقيل ما يزال مُتشبثًا بالأشجار والزجاج الأمامي. اختارت الفتاتان مايا وسُلطانة إحدى الأغنيات، ثم قالت سُلطانة شيئًا عن جنديٍ باكستاني وفاكهة الكاكايا، جعل مايا تُمسك ببطنها وتغرق في الضحك. وتمنت ريحانة أن تمر الرحلة سريعًا.

صاحت مايا مُبتهجة: قطعنا نصف الطريق!

ثم راح المطر يهطِل. أحدثت قطرات الماء المتواصلة طرقاتٍ طفولية على الزجاج الأمامي. وامتد الطريق أمامهم، ضبابيًّا مُوحِلًا.

ولما عبرت الشاحنة جسر هاوراه وتركت حدود كُلكتا الخارجية، صار المشهد أمامهم أجدب تُخيم عليه الصفرة وحقول من تبنٍ مُجفف. ثم مرُّوا بمصنعٍ لألياف القنَّب، تفوح منه رائحة العشب والروث، ثم مصنع للجلود، يُريق رائحته العَفنة على الطريق، ثم مصنعٍ للأسمنت، تتصاعد منه أبراجٌ

سوداء من الدخان وأصواتُ تقطيعٍ خارقة للآذان. وبعد مُضي نصف ساعة، طرق مُوكل على الزجاج، وأشار أمامه إلى لافتة بخط اليد كُتب عليها «**البحيرة المالحة على بُعد 2 كم**»، وصاح: كِدنا نصل! وتسببت الريح في تمليس شعره وإلصاق أذنيه برأسه.

أدارت سُلطانة عجلة القيادة إلى اليمين، فاتخذت السيارة ممرًّا ضيقًا وعرًا. وعلى مسافةٍ بعيدة، رأت ريحانة خيمةً هائلة، وإلى جانبها امتدادٌ من عِششٍ وتجمعٍ من أكواخ مُؤقتة. أما الحقول من ورائها، فكانت مُكدسة بأنابيب أسمنتية هائلة الحجم.

- أهذا هو؟

أجابت سُلطانة:

- أجل يا خالتي، هذا هو.

ولما اقترب الجمعُ الصغير من الخيمة، رأت ريحانة لافتةً عملاقة تحمل شعار الصليب الأحمر.

قالت مايا: أمي، هذا هو. هذا هو مُخيم اللاجئين في البحيرة المالحة.

- وما هذه الخيمة؟

- هذا هو المشفى.

امتدت ألواحٌ خشبية طويلة لتُمهد طريقًا من السيَّارة إلى الخَيمة. أما المساحة التي امتدت بين الخَيمة والسيارة، فقد تكدَّست بحُطام أُناسٍ هجروا بيوتهم قسرًا: أحذية، وأمشاط، وأسمال من الملابس، وأواني طهي مُحطمة، جميعها غارقةٌ في الوحل مثل دواماتٍ من الحلوى.

تجاوزت كلٌّ من مايا وريحانة من فوق الألواح الخشبية، وراحتا تتحركان ببراعة رُغم البرك الزيتية وآثار الأقدام المُلطخة. كانت مايا قد رفعت ساريها الأحمر قليلًا وثبَّتته على حاله، وهكذا رُفع طرفه عن كاحليها؛ وانتعلت حذاءً متينًا مُغلقًا على قدميها. لم يُخبر أحدهم ريحانة بما يمكن أن تتوقعه. ولهذا رفعت هي الأخرى ساريها حتى لا ينغمس في الوحل، وباليد الأخرى غطت رأسها بنسخةٍ من جريدة «**كلكتا ستيتمان**»، وهذا لأن الشمس قد بزغت لتفرِض نفسها على الغيوم، مُحاصرةً الهواء بحرارة خانقة تَعمي الأبصار. أبقت ريحانة رأسها لأسفل، وصبَّت تركيزها على عبور الألواح المائلة الوعرة.

داخل خَيمة الصليب الأحمر، تلقت مايا وسُلطانة استقبالًا حافلًا بالهتاف والمُصافحات. وسار نحوهما متبخترًا رجلٌ طويل يرتدي معطفًا أبيض. وصاح: ها هما ملائكة الثلاثاء.

قالت مايا: الطبيب راو، هذه أمي.

كانت له عينان زيتونتان لامعتان.

أجاب الطبيب: مرحبًا بكِ في كُلكتا. لِمَ لا تنضمين إليَّ لاحقًا، حين أبدأ جولاتي على المرضى؟

ووضع يدًا على مرفق مايا.

أجابت مايا: بالتأكيد، ثم أضافت (قاصدةً التمويه) سنذهب لتفريغ الإمدادات.

فقال وهو يبتعد عنهما بساقيه الطويلتين المُسرعتين: حسنًا إذن، أراكِ لاحقًا.

كانت سُلطانة بالفعل قد شرعت في تفريغ الإمدادات، وإعطاء التعليمات لنصف دزينةٍ من المُتطوعين الذين اجتمعوا حولها. ثم انضمَّت إليها مايا في صف التجميع، وراحت تفتح الصناديق بنصلٍ معدني، مُشيرةً إلى الأرفف المُختلفة التي تكونت منها مُستودعات الأدوية. نأت ريحانة بنفسها في أحد الأركان وراقبت المشهد، تنقل ثقل جسدها من قدمٍ لأخرى. بدا المَشهد وكأنها قد عادت بصُحبة شقيقاتها مرة أخرى، تختفي هي في الظلال حالما يمضين هُنَّ لإنجاز مهام ذات أهمية تخص الكبار.

قالت مايا وهي تُزيل الغلاف عن حزمة من المحاقن: أماه، أتودين إلقاء نظرة؟

أجابت ريحانة بارتياح: أجل، بالتأكيد.

قالت مايا: سُلطانة، سنعود قريبًا.

رفعت سُلطانة حاجبًا لإثارة غيظها وهي تُجيب: سأراكِ لاحقًا. ويمكننا أن نلتقي بالطبيب راو.

حين خَطت المرأتان إلى خارج الخيمة، رأت ريحانة صفًّا مُبعثرًا من العائلات يتعرَّج إلى أحد الجوانب. فسألت ريحانة: ماذا ينتظرون؟

أجابت مايا، وهي تتفحص ساعتها: التطعيمات. يُقدمونها هنا كل صباح عند العاشرة.

وعند مُقدمة الصف، وقف رجلٌ ذو شعرٍ أشقر مرتديًا معطفًا، أمام طاولة قابلة للطي، وراح يحقِن الإبر في أذرُع أطفالٍ سقيمة.

كانت مايا تقودها إلى حقل الأكواخ، حيث تكدَّست قُفران من أنابيبَ أسمنتية مُهملة ثلاثٌ أو أربعٌ فوق بعضها بعضًا على شكل مناحل.

أشارت مايا إلى الأنابيب وهي تقول: هنا يحضرون القادمين الجُدد.

- أين؟

- هناك.

لم تر ريحانة أي مبانٍ، بل أنابيب فحسب. فقالت: لا يمكنني أن أرى شيئًا.

- **داخل** الأنابيب يا أمي، انظري.

وضعت ريحانة يدها على جبهتها، وأمعنت النظر، فاتضحت لها ملامح المشهد. ما قالته مايا حقيقي. كانت الأنابيب تتسع بما يكفي لرجلٍ بالغ وذراعاه ممدودان على جانبيه، واحتشد الناس بداخلها. أُسدلت قطعُ القماش لتحقيق شيءٍ من الخصوصية، ونُشرت السواري لتجف من فوقها، وبداخلها، جلس الناس مقوَّسي الظهور على انحناءة الأنابيب؛ رجالًا ونساءً يتشبثون بالحوائط المائلة.

تابعت مايا وريحانة سيرهما، تقاربان الأنابيب. ازدادت سماكة الأرض وتخضلها بالماء كلما اقتربا، وتراصت الألواح الخشبية على امتداد الطريق مُجددًا. وإذ فجأة، داهمت ريحانة رائحة المُخلفات الآدمية القذرة، فتوقفت من فورها.

قالت ريحانة وهي تُغطي فمها بساريها: مايا، إلى متى تظنين أننا سنبقى هنا؟

- في المُخيم؟

- كلا، في كُلكتا.

- لماذا؟

أجابت ريحانة: أريد أن أعرف فحسب، إلى متى سنبقى قبل أن نعود إلى ديارنا؟

- لم تعد دكًّا آمنة. إنهم يغورون على المنازل، وإذا أبلغ أحدهم السُّلطات بأنكِ تأوين مُقاتلين أحرارًا، يمكن أن ينتهي بنا الحال جميعًا في المُعتقل. وخصوصًا أنتِ. القلق يأكل قلب سُهيل.

- لكني عرفتُ هذا من قبل حين قررتُ الإقدام على الأمر.

- تغيرت الأوضاع الآن. صار الجيش مُنفعلًا، وراحوا يشنون الحملات ويضيقون الخناق.

أدركت ريحانة أن الانغماس في الشعور بالحنين إلى الوطن هو فعلٌ صبياني، ولكنها لم تتمالك نفسها. حدث كل شيءٍ حولها بسرعة، ولم تحظَ بالوقت لتفكر فيما ستفعله بعد ذلك، بعدما تصِل. لم تتفاوض على الشعور بالضياع إلى هذا الحد. وما كان يجدر بها أن تأتي.

- لا تقلقي يا أمي. قريبًا ستعتادين الاستقرار هنا.

وتابعت المرأتان سَيرهما.

لم تتغير أبعاد الأنابيب حين تطلعت إليها من كثب. تدلى الأطفال من حوافها، بينما تخلَّفت النساء بالداخل، ووجوههن مُغطاة بأطرافٍ مُهلهلة من سواريهن.

وجدت المرأتان طفلًا لا يتعدى السادسة أو السابعة من عُمره، جالسًا القرفصاء إلى جانب أنبوبة. فسألته مايا، وهي تجثم إلى جانبه وتتطلع إليه من أعلى لأسفل: هل وصلت اليوم؟ لم أركَ من قبل.

راح الصبي يُضفِّر عُودين مُستويين من ألياف القنَّب. وحين تطلَّع لأعلى، رأت ريحانة الجلد ممددًا على وجهه. وعلى رقبته، حيث يستشعر المرء نبضه، رأت ندبة وردية كثيرة التعرجات.

ثبت الصبي عينيه على يديه، وغمغم بشيءٍ غير مترابط.

قالت مايا بخشونة، وهي تأخذ ذقنه بين يديها: ارفع صوتك يا فتى.

- أجل يا سيدتي.

أنهى الصبي ضفيرته وشرع في واحدةٍ أخرى.

- مِن أين أنتَ؟

همس الصبي: بابنا.

- أين؟

أجاب بصوتٍ بدا منخفضًا عن سابقه، وهو يحمل ضفيرته الأولى بين شفتيه: بابنا.

سألته مايا: أيُ قرية؟

- لا أعرف.

- ألا تعرف القرية؟

زحفت امرأةٌ وقبضتاها تستريحان على كل جانب من خصرها، إلى خارج أنبوبها، وتطلعت إلى ريحانة من أعلى لأسفل، وهي تقول: دولال، أسرع وأنجزها.. أحتاجُ إلى هذه السلَّة.

كانت تحمل شيئًا –دجاجة– مَدسوسةٌ عند انحناءة مِرفقها، ثم أدارتها وحملتها من جناحيها.

ثم سألت المرأة، مُتطلعةً إلى الصبي، مُشيرةً إلى مايا: مَن هذه؟

صفعت الدجاجة جناحها الحُر بساق المرأة.

نهضت مايا من قرفصتها، وأجابت: اسمي مايا. أعمل هنا.

لكنها لم تُقدِّم ريحانة. وتابعت سائلة: هل هذا الصبي ابنكِ؟

- كلا. إنه من قريتي.

- وأين هم عائلته؟

أجابت المرأة بنبرةٍ جافة: موتى.

قالت مايا وهي تشير: أترين تلك الخيمة؟ اذهبي وسجلي هناك. وسجليه هو أيضًا. يمكنكِ الحصول على طعام ودواء. فهمتِ؟

أومأت المرأة بإيجاب، ومررت الدجاجة إلى دولال، الذي كان يربطُ ضفائر ألياف القنَّب في شبكة مفكوكة. أرادت ريحانة أن تسألها بعض الأسئلة الأخرى: كم عُمرها، وكيف وصلت إلى المُخيم، وهل لها أبوان أو زوج أو أطفال من نسلها. غير أن مايا قد تحرَّكت بالفعل، ملوَّحةً بيديها لرجلٍ عجوز يرتدي تنورة رجالية مرفوعة حتى رُكبتيه.

عبثت ريحانة بحقيبة يدها وأخرجت بضع أوراقٍ نقدية، وقالت: يمكنني أن أمنحكِ بعض...

حدَّقت المرأة في ريحانة بنظرةٍ مُتلهِّفة لا مفر منها، وقالت: لا أريد مالًا.

مدَّت ريحانة يدها لتُربت على ذراع المرأة، لكن الأخيرة تململت قليلًا، فقبضت أصابع ريحانة على الساري بدلًا عن ذلك. ثم ركضت لتلحق بمايا.

توغَّلتا في المُخيم شيئًا فشيئًا. وازدادت حرارة الجو حرارةً لا تُحتمل، وساءت الرائحة العفِنة في تلك الأدغال؛ كانت أكوام الأنابيب الأسمنتية قد تركت المجال للعِشش والأكواخ التي بُنيت من البلاستيك ومُخلفات الخشب. وتحصَّل المحظوظون منهم على بِضع قطعٍ من أسقف القصدير لتحمي أكواخهم من المطر. رفعت ريحانة ساريها حول كاحليها، وباليد الأخرى، حاولت صفْع عائلات الذباب التي راحت تحوم حولها. وفي كل مكان تتطلَّع إليه، باتت ترى وجوه اللاجئين تتبعها، يبسطون أيديهم. ظنَّت ريحانة أنهم قد يجذبونها نحوهم، ويُغرقونها في الوحل. جال بخاطرها مشهد يدفعونها دفعًا إلى واحدة من أنابيبهم، ويُجبرونها على نسج ألياف القنَّب تلك طوال اليوم. سيقولون لها «أنتِ واحدةٌ منَّا، أنتِ واحدةٌ منَّا». تصورت مايا وهي تتركها هناك بمفردها، وتعود إلى الشاحنة مع سُلطانة ومُوكل، يضحكون جميعًا طوال الطريق إلى طريق المسرح.

قالت ريحانة أخيرًا: مايا، لا يمكنني المُضي قدمًا.

أجابت مايا وهي تشير إلى الأمام: لم يبقَ سوى القليل. هناك شخصٌ أريدكِ أن تلتقيه في ذلك الجانب.

قالت ريحانة وهي تستشعر تقلُّبات معِدتها: بلى يمكنكِ المُضي قدمًا، وأنا سأبقى هنا وأنتظركِ.

- أين ستنتظرين؟

جابت ريحانة المكان بنظرها، فلم تجد مكانًا يصلُح للجلوس. قالت: سأعود إلى الخيمة.

- هل تستطيعين العثور عليها؟

- أجل، تابعي سيركِ فحسب.

لم تُطق ريحانة الانتظار لتتخلص من مايا؛ الآن يمكنها أن تتوقف عن التظاهُر باستمتاعها والركض مباشرةً إلى الخيمة. فكَّرت في الشاحنة؛ ربما يمكنها العودة إلى الشاحنة، بصحبة كأسٍ من الماء البارد والاستماع إلى الراديو. أو الجلوس بجانب المُتطوعين وصناديق الأدوية. أي شيءٍ، أي شيءٍ، عدا هذه الرائحة النتنة.

اتخذت طريقها إلى الخيمة، وتسللت بهدوء عبر السدائل، لتجد نفسها في جناح المشفى. تراصَّت جميع الأسِرَّة إلى جانب بعضها، فبدت مثل امتدادٍ من الأجسام لا ينقسم. سارت عبر الممر، وهي تخطو فوق الناس. كانت النساء هن من حبسن الأنفاس في حنجرتها، وهيئتهن التي جثمن عليها إلى جانب أطفالهن، مُمسكين بين أيديهن نهودًا خاوية محشورةً إلى أفواه أطفالهن، وشعورهن مطموسةٌ تحت غبار الطريق.

- سيدة حق؟

اقترب إليها رجلٌ، كان هو الطبيب يسير نحوها في هيئة فضولية مُذبذبة. كانت يداه مغطاتين بقفازَين من المطاط، ورأت ريحانة بقعًا داكنة على أطراف أصابعه، وحين بات قريبًا منها، تبيَّن لها بقعة حمراء سطحية فوق جيب معطفه الأبيض.

- سيدتي؟ ماذا تفعلين هنا؟

تمنَّت ريحانة لو عانقته، وهي تُجيب: لقد.. لقد أتيتُ لأُلقي نظرةً على المكان.

- حسنًا، هذا هو المكان. لدينا غُرفة عملياتٍ صغيرة في مُؤخرة الخيمة، وصيدلية. هل آخذكِ في جولة؟

- كلا، لا بأس. أنا أردتُ.. أردتُ أن أرى فحسب.

أجاب الطبيب راو، مُثبِّتًا نظرته عليها: هناك الكثيرون. أتوا من جميع أنحاء البلاد. وخلَّفوا وراءهم كل شيء، ساروا لأيامٍ طويلة، فقط ليصلوا إلى هذا المكان.

عجزت ريحانة عن إشاحة نظرها عن البقع الحمراء على قفازيه.

تابع الطبيب:

- هناك سِجل.. يمكنني أن أُريكِ إياه.

اتخذا مُنعطفًا ودخلا إلى غرفةٍ أخرى. فوجدت ريحانة المزيد من الزحام، ونحيبَ الأطفال يتردد في المكان. دوى أزيز ميكانيكي عالٍ وغطَّى على جميع الأصواتُ الأخرى.

- ما هذه الضوضاء؟

أجاب الطبيب: مولد كهرباء. إننا نوفر الطاقة من أجل غرفة العمليات، وبضع ساعاتٍ من الإضاءة في المساء.

- هل تبقى هنا؟

تنهَّد الطبيب مبتسمًا وأجاب: أجل. هناك خيمة أخرى صغيرة في الرُّكن البعيد من الحقل.

- ومن أين أنتَ؟

- كشمير.

- وأتيتَ إلى كُلكتا للدراسة؟

أجاب الطبيب: كلا، كلا. بل أتيتُ من أجل هذا.

***

قالت مايا في تلك الليلة: أمي، اقترح الطبيب راو أن بإمكانكِ المساعدة في المخيم.

كنتُ أعرف ذلك. كنتُ أعرف أنها سترغب في تَركي هناك.

أجابت ريحانة: أنا؟ كيف يمكنني المُساعدة؟

- إنهم بحاجةٍ إلى المُساعدة. يمكنكِ فعل ما فعلته في شونا، تحدثي إلى اللاجئين فحسب.

لم ترغب ريحانة في التحدث إلى اللاجئين. لماذا هي دائمًا؟ اسعفي هذا، وأنقذي ذاك.

أجابت ريحانة: إذا كنتُ أعيق مهماتكم، إذن يجدر بي العودة إلى دكًّا.

استطردت مايا: أمي، تعرفين أنه لا يسعكِ فعل ذلك.

- ما كان يجدر بي أن آتي قط.

- إن الأمر غاية في الخطورة، كانوا ليقبضوا عليكِ.

كان مُجرد التفكير في قضائها شهورًا هناك، في السقيفة، أو أسوأ، في المُخيم، بدا لها إذ فجأةً خارج نطاق تحمُّلها.

قالت ريحانة: وماذا في ذلك؟ أنا أستحق أن يُقبض عليَّ.

- توقفي عن قول هذا الهراء.

- لا أريد العودة إلى ذلك المُخيم.

- حسنًا، ابقي هنا.

وأدارت مايا ظهرها إلى والدتها، وطوت يديها أسفل خدها. حدَّثت ريحانة نفسها أن ابنتها نامت مثل أبيها تمامًا. كما لو أنها تدعُو.

***

أيقظتها الحرارة الخانِقة في السقيفة. كان الفراش خاليًا؛ وملابس مايا مُبعثرةً على الأرض. شرعت ريحانة تلتقط الملابس وتطويها، فاشتمت رائحة نفَّاذة تفوحُ من قميص مايا. كان بحاجةٍ إلى الغَسْل. أما بقية الملابس فلم تكن أحسنُ حالًا من قميصها: تلطخت أطراف سواريها كلها وتنانيرها الداخلية بالوحل.

خطت ريحانة من السقيفة لترى ما إذا كان هناك صنبور. دارت ريحانة حول مُحيط السطح، رافعةً يدها لتحجب الشمس عن وجهها. ثم تتبعت أنبوبًا نحاسيًّا، وفي زاويةٍ بعيدة وجدت ما كانت تبحث عنه، صُنبورًا مُثبتًا إلى الحائط، ومن أسفله تجويف ستجري به الماء.

لم تجد أي صابونٍ للغسل. فأخرجت قطعةً من صابونٍ كريمي اللون كانت قد جلبتها معها لتغسل بها وجهها. أدارت الصنبور، فنزلت منه قطرات ماءٍ ضعيفة. كان الماء دافئًا ومُريحًا؛ وسُرعان ما غمرتها السكينة وهي تفرك قميص مايا بإيقاعٍ مزدوجٍ مألوف: قرقعة-قرقعة، قرقعة-قرقعة، قرقعة-قرقعة.

علَّقت الملابس على سور السطح، مُمتنةً لمَظهر الماء يتبخر منها أسفل الشمس. كانت المرأة البدينة التي رأتها اليوم الماضي قد عادت إلى السطح المُجاور مرة أخرى، ووقفت تُثبت الساري الأصفر نفسه إلى الحبل. لوَّحت إليها ريحانة، فأجابتها المرأة ملوِّحةً هي الأخرى.

في الطابق السُّفلي، عكفت مايا على مُهاجمة الآلة الكاتبة وهي تضع قلمَ حبر في فمها. تسرب قليلٌ من الحبر؛ فافترشت بقعةً متزايدةً من لونٍ أزرق داكن على أحد جانبي شفتها.

قالت مايا:

- أين كنتِ يا أمي؟

- أُرتب بعض الأشياء في الطابق العُلوي.

وأشارت ريحانة إلى فمها، وقالت: هناك القليلُ...

كانت مايا قد عادت إلى آلتها الكاتبة بالفعل، وراحت تسأل بذهن شارد: أليس الجو حارًّا في الأعلى؟

قالت ريحانة: سأخرج وأرى إن كان بإمكاني أن أحضر لنا بعض الأشياء. نحتاجُ إلى الصابون، ورُبما القليل من الوجبات الخفيفة.

كانت عينا مايا ما تزال على أصابعها الضاربة على الآلة، وهي تُجيب: حسنًا. انطلقي أنتِ في طريقك.

مرَّت ريحانة في طريقِها إلى الخارج بمُوكل وهو يُلصق منشورًا على الحائط. كان يعتمر قبعةً زرقاء جُذبت إلى الأمام لتُخفي عينيه.

قال مُوكل، رافعًا ذقنه حتى يتسنى له أن يراها: خالتي، مرحبًا! أتخرجين في هذا الحر؟

- إلى نهاية الشارع فحسب لشراء بعض الأغراض.

- الحرارة شديدةٌ للغاية!

- سأغيب لبضع دقائق فحسب.

قال مُوكل: هاكِ، لِمَ لا تأخذين قبعتي؟

وخلع عن رأسه القُبعة. فانكشف شعره رطِبًا مُلتصقًا بجبهته، ولاحظت ريحانة هالة من العرق حول حافة القبعة. فأجابت: كلا، لا داعي.

- أرجوكِ أنا مُصرٌّ.

- كلا، كلا، لا تقلق. سأعود على الفور.

اتَّقد القيظ عنيفًا في الخارج. وفي غُضون ثوانٍ، شرع خدًّا ريحانة يشتعلان حرارةً. فكَّرت أن تعود أدراجها، ولكن مُجرد التفكير في مُوكل مُرتديًا قبعته الملطخة بالعرق جعلتها مُصممة على المُضي قدمًا؛ فتابعت سيرها على امتداد الشارع حتى قابلها تقاطُع. شطرت قاطراتُ الترام الطريق إلى نصفين، وعلى الجانبين، اصطفَّت الدكاكين بأبوابها المفتوحة، ولوحاتها الإعلانية المُتشابكة ذات الألوان الصاخبة. لا تذكر ريحانة هذا الجزء من كُلكتا، لكنها تعرَّفت إلى سائقي الحناطير، يهرولون عرايا الأقدام من خلال الزحام،

ومَرافقهم مرفوعةً لأعلى، وتصاميم المباني، والشوارع الواسعة، وقاطرات الترام.. تعرَّفت على كل شيء، رُغم ما مرَّت به من سنين النسيان المُتعمَّد.

بات الآن كل شيءٍ أشدُ صخبًا وأكثر زحامًا: الناس يختنقون في الشوارع، وتنحرف بهم عربات الترام. يفترشون الأرصفة وجوانب الطريق، وبالكاد يتركون بسطةً من الرصيف يمكن لريحانة عبرها أن تتَّخذ طريقها. دخلت إلى أقرب دُكانٍ، تطرف بعينيها لتغير الضوء. كان الدكان أشبه بغُرفة مظلمة ضيقة، ذات صف من الأرفف يشغل حائطًا واحدًا، وطاولة خزينة مثبتة إلى جانبه. حملت الأرفف صنوفًا مُحيرة تفتقر إلى التوافق: قطع شوكولاتة، وحليب أطفال رُضَّع، وشامبو، وكريم شعرٍ، ومُخلل. ووقف رجلٌ أمام طاولة العرض الزُجاجية، وراحتاه مبسوطتان على سطح الطاولة.

أشارت ريحانة إلى قطعةٍ زرقاء من صابون الغسيل، وقالت: هذه من فضلك، كم سعرها؟

أجاب الرجل، وهو يلوك علكته: ست آنات.

- أعطني واحدة. و(پاو[1] من الأرز المطبوخ) و ... هل لديك مقص؟

- مقص؟

- أجل، أحتاجُ إلى مقص؟

أخرج الرجل درجًا، وعرض على ريحانة عيناتٍ متعددة. وبعد معاينة النصل، وبعد أن وضعت إبهامها عبر مقبض كل عينة، اختارت المقص الأصغر في المجموعة.

- الإجمالي ثلاثُ روبيات، واثنتا عشرة آنة.

أوشكت ريحانة على دفع حسابها حين سألها الرجل: هل رأيتكِ من قبل؟

أمعنت النظر في الرجل. كان عجوزًا، في عُمر والدها. هل من مجال أنها تعرفه؟ أمعقول أني وجدتُ الشخص الوحيد في كُلكتا الذي يتذكرني. ولكن كلا، لم تره ريحانة من قبل. فأجابت: لا أظن ذلك.

قال الرجل بإصرار: ولكني واثق أني أعرفكِ.

- لكني لا أعيش هنا.

---

(1) Pao: هو وحدة قياس وزن السلع الصلبة، معمولٌ به في بلدان جنوب آسيا. وفي باكستان، يُعادل الباو 233.3 جم. (المترجمة)

- مِن أين أنتِ؟ أتهتفين النصر للبنغال؟
- معذرةً؟
- هل أنتِ من دكَّا؟ بنجلاديش؟ النصر للبنغال؟

حدَّثت ريحانة نفسها أن: كلا، في الحقيقة أنا من كُلكتا. لكنها قالت بدلًا عن ذلك: أجل، أنا أهتف النصر للبنغال.

قال مبتسمًا: عشرةٌ بالمئة خصمًا. عشرةٌ بالمئة خصمًا للاجئين.

ومرر إليها حقيبة التسوق بيدٍ ينتشر النمشُ على سطحها. ثم تابع الرجل: كنتُ لاجئًا أيضًا عام 1947. ولهذا تعرَّفت عليك.

ثم تطلع إليها بحنانٍ أبوي، وأكمل: تعالي إلى هنا إذا ما احتجتِ إلى أي شيء. أي شيءٍ على الإطلاق.

بدا الرجل أمام عينيها ضبابيًّا على حين غرة. فلوَّح لها بيده، وقال: أرجوكِ، لا تبكي! أتريدين قطعة شوكولاتة؟ ميلون، أحضِر لابنتي هنا قطعة شوكولاتة. لا تبكي يا أمي، لا تبكي.

شدَّت ريحانة على ورقة الشوكولاتة بأصابع مُبتلة. وانغمست أسنانها في الشوكولاتة والمثلجات.

- امضي في طريقكِ يا أمي. امضي في طريقك.

عادت ريحانة إلى حرارة الظهيرة، وقضمات المثلجات تستحيل إلى حليبٍ على لسانها. سارت في الاتجاه المُعاكس للسقيفة إلى مسافةٍ أبعد، ومرَّت على دكانٍ للتبغ ومطعمٍ للمأكولات الصينية. وعند منعطف الشارع المُجاور، وجدت مقعدًا، يُظلله مبنى مكون من ثلاثة طوابق يشغله بنك الدولة الهندي. أفسحت امرأتان -كانتا قد انهارتا على المقعد قبلها- بعض المساحة لريحانة. وعلى الجانب الآخر من الطريق، كانت هناك محطة ترام، وراحت ريحانة تتابع الركاب يُفرغون المقصورات ويملؤونها مرة أخرى.

تراءى لها أنهم الأُناس أنفسهم الذين رأتهم في محطة القطار، وفي حديقة شونا، وفي المُخيم؛ صار اللاجئون الآن يجوبون شوارع المدينة. بدا بعضهم أقل تعاسةً، أقرب إلى النمط الطبيعي. ومع مُحاولاتهم في الانسجام والاختلاط، يمكنها أن تعرف أنهم لاجئون كذلك. يُبقون أيديهم داخل جيوبهم، ويرسمون ابتسامة امتنانٍ على شفاههم. شعورهم غير نظيفة، وأحذيتهم

مُتسخة. أما تلك الملابس التي تبدو أنيقة من بعيد، حين تطلعت إليها من كثب، أمكنها أن ترى الأطراف البالية والطيَّات المُمزقة. وفي كل مكانٍ يذهبون إليه، تتصارع ذكرياتهم لتحظى بمساحتها، وهكذا ينسون عُبور الطَريق حين تستحيل الإشارة إلى اللون الأحمر، أو يسكُبون الكثير من الحليب على كؤوس الشاي، أو يتهامسون من خلف جرائدهم، وهم يبحثون توّاقين إلى أخبارٍ عن مَوطِنهم. أدركت ريحانة قصورها في تحمُّل رؤيتهم؛ وخشت أن ترى نفسها فيهم؛ وخشت ألا ترى نفسها؛ وأرادت أن تختلف عنهم وتتشبَّه بهم في آن، ولا يمنحها أي خيارٍ من هذين مَفرجًا من الشعور المزعج بالفقد، وإحساسِ الجوع للحُب الذي ينهش دواخلها.

***

قالت ريحانة: مايا، أنا عازمةٌ على قص شعركِ.

حلَّ المساء مُجددًا، وراحت المرأتان تستعدان للنوم. كانت ريحانة قد رتبت السقيفة وكنست عنها الغُبار. وطوت ملابس مايا، التي تفوح منها رائحة شمس ما بعد الظهيرة، وكدَّستها في كومة على المكتب. ثم أبقتا على النافذة مفتوحة، فهبَّ شيءٌ من النسيم.

أجابت مايا: لا أرى مُشكلةً في شعري.

كانت فطرتها الأولى أن تُجيب بالرفض على كل شيء. لكنها عادت تسأل: ما المشكلة في شعري؟

أجابت ريحانة: لا مشكلة. أريد قصَّ الأطراف فحسب. انظري إلى هذا. (وعرضت على مايا الأطراف المتداعية لضفيرتها) سأجعلها مُرتبة فحسب.

- وكيف لكِ أن تعرفي كيف يُقص الشعر؟

- دومًا كنتُ أعرف. كانت شقيقاتي يطلبن مني أن أقص شعورهن.

هنا تمامًا، في كُلكتا. واعتادت أن تقص شعر والدها أيضًا، لمَّا طرق الفقر أبوابهم ولم يعد من مالٍ يملكونه أجرةً للحلَّاق.

- حقًّا؟ ولِمَ لم تقصي شعري قط؟

- لم تسمحي لي قط بالاقتراب من شعركِ! لكني اعتدتُ قص شعر سُهيل.

ابتسمت مايا في سُخرية، وأجابت: أجل، أظن أني أتذكر الآن. ظننتُ دومًا أنكِ كنتِ تقصين شعره لأنه طفلكِ المُفضل.

- لا، بل لأنكِ كنتِ موغلةً في العِناد.

- ابدئي إذن، لنرَ ما يمكنكِ فعله.

تجهَّزت ريحانة بالمقص وكوبٍ صغيرٍ من الماء. غمست طرف ضفيرة مايا الشعثاء في الماء، ثم حلَّتها وشرعت في تمشيط شعرها.

قالت ريحانة: شعركِ مليءٌ بالعُقد! يا لهذه الفوضى.

- لا تعليق من حلَّاق الشعر من فضلكِ.

دفعت ريحانة برأس مايا إلى الأمام، وبدأت عملها بالمقص، وهي تقول: توقفي عن الحركة، وإلا لن يكون متساوي الأطراف.

سقطت تجعيدات الشَّعر ذات الشكل الهلالي إلى الأرض، وريحانة مُستمرة في حديثها: مايا، كنتُ أُفكر فيما قاله الطبيب.. ربما كانت فكرةً جيدة.

أدارت مايا وجهها إلى ريحانة، وقالت: صِدقًا يا أمي، ليس عليكِ فعل ذلك.

- ابقي ثابتة.

ودفعت ريحانة برأس مايا إلى وضعها الأول. ثم تابعت: لا أجد الكثير من العمل ينتظرني هنا.

- أنا آسفة، أعلم أنني كنتُ مشغولة عنكِ.

- أنتِ تغرقين في عملكِ. وسيكون أمرًا جيدًا أن أجد لي عملًا أقوم به. لا بُد وأن ثمة سببًا وراء مجيئي إلى هنا.

ضمَّت ريحانة طرفي شعر مايا معًا لترى ما كانت قد قصَّت الشعر في خط مُستقيم أم لا. ثم قالت أخيرًا وهي تُربِّت على كتف مايا: حسنًا. انتهينا.

قالت مايا: ستنتهي الحربُ قريبًا. لن نبقى هنا إلى الأبد.

لم تكتشف ريحانة هدفها الخاص حتى حلول سبتمبر. كانت تتبع الطبيب راو عبر الجناح الطبي، وتُدوِّن المُلاحظات بشأن المرضى الجُدد، وتكتب الدواء والتوصيات العلاجية. وصل الطبيب وريحانة إلى نهاية صف الأسِرَّة، وعلى السرير الأخير رقدت امرأة لم ترها ريحانة من قبل. كان الغطاء يُغطي

معظم وجهها، لكنَّ جبهتها وشعرها الطويل ظاهران للرائي، وذراعًا واحدة ترتدي فيها أساور بنغالية زجاجية باللونين الأحمر والذهبي.

سألت ريحانة: مَن هذه؟

كان ثمة شيء حيال هذه المرأة، ورقودها على الفراش هكذا، جعل ريحانة راغبةً في رؤية وجهها.

أجاب الطبيب: لستُ متأكدًا. لا أظن أني رأيتها من قبل.

كشفت ريحانة الوشاح، فرأت زوجين من أعينٍ مُغلقة، يُحيط بها خصلات شعرٍ طويلة شَعثاء. تطلعت ريحانة من كثب، وتعرَّفت هذه المرأة. «سوبريا». يستحيل أن تكون هي. أهذا معقول؟ أمعنت النظر مُجددًا. لا شك، لا شك أنها هي سوبريا. كان تعرُّفها عليها نوعًا من الأمور التي تحدث بسهولة هذه الأيام.

قالت ريحانة: هذه صديقتي، السيدة سينجوبتا، من دكًّا.

رفع الطبيب الذراع المُزينة بالأساور الزجاجية بإبهامه وسبابته، وعيناه على ساعة يده. ثم قال: لِمَ لا تبقين هنا يا خالتي؟ سأرى إن كان بإمكاني العثور على مَن كان يُعالجها.

- لا بُد وأن زوجها قد أحضرها. انظر إن أمكنك العثور عليه. السيد سينجوبتا.

رفعت ريحانة الوشاح مُجددًا. كان ساري السيدة سينجوبتا ملفوفًا حول رُكبتيها، وجلدُ سمَّانتيها رماديًّا برقة الورق. جذبت ريحانة الساري إلى أسفل وغطت ساقيها. فبدت لها أشبه بشجرةٍ مطروحة أرضًا.

همست ريحانة: ماذا حدث لكِ؟

ورفعت رأس السيدة سينجوبتا، وأبعدت الشعر الرطب عن رقبتها. رأت جِفني صديقتها يتحركان، كما لو أنها تحلم، ثم انفتحا رويدًا رويدًا، مُتطلعةً بعينيها أولًا إلى السقف، ثم ثبتتا على ريحانة شيئًا فشيئًا.

- سوبريا؟

حملقت السيدة سينجوبتا في ريحانة بنظرةٍ خاوية. وفتحت فمها لتتحدث، فمنعتها شفتيها السوداوين.

ألحَّت ريحانة في السؤال:

- ماذا حدث لكِ؟ أين ميثون؟

غير أن السيدة المريضة قد رحلت، وأُظلم وجهها.

عاد الطبيب بعد بضع دقائق، يحمل جهازًا لقياس ضغط الدم، وكيسًا من محلولٍ ملحي. ثم قال: أخشى أنها هنا بمفردها يا سيدة حق. لم يرَ أحدٌ عائلتها.

- لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. إنَّ لها زوجًا وابنًا. لم تكن لتأتي دونهما.

حين ذهبت ريحانة إلى الجناح الطبي في اليوم التالي، وجدت السيدة سينجوبتا على حالها كما تركتها سابقًا، ترقد مثل بقعةٍ على الفراش وساريها مرفوعٌ إلى رُكبتيها. لكنها الآن مستيقظة. مسَّدت ريحانة على جبهتها؛ فلم تستشعر حُمى مُتَّقدة، ولم تجد أثرًا لحُمرة جهبتها كامرأةٍ هندية متزوجة.

راحت ريحانة تجعل من عادتها قضاء فترة ما بعد الظهيرة إلى جانب فراش السيدة سينجوبتا. كانت تسكب زيت جوز الهند على شعرها، وتُخرج القاذورات منه. ثم تغسله بمُكعب صغير من صابون كانت قد اشترته من الرجل العجوز في طريق ثياتر. قلَّمت أظفار السيدة سينجوبتا، وفركت المُرطب على كوعيها. كانت صديقتها تتبعها بعينيها، لكن ساكنة سكون الجبال. وبخلاف غليون البامبو الصغير الذي احتفظت به أسفل وسادتها، بيد أنها لا تملك من المتاع شيئًا آخر.

لم يشبه مكوثها إلى جانب الفراش، بقاءها إلى جانب قبر إقبال. كلاهما لا يمنحها جوابًا، لكنها تصورت أن السيدة سينجوبتا قادرة على سماعها بشكلٍ أو بآخر.

قالت ريحانة: بعدما رحلتم، رحل أُناسٌ آخرون أيضًا. أغلق النادي أبوابه، وهُجرت الأسواق تقريبًا. وفرَّ الكثير من الفتيان للانضمام للجيش. وأراد سُهيل أن يذهب أيضًا لكني رفضت.

أحيانًا ما يُغريها الكذب أو المبالغة، كما هو حالها مع إقبال أيضًا.

تابعت ريحانة:

- لكنه رحل على أي حال. لن تُصدقي التغيير الذي حدث في شخصه. وسيلفي أيضًا. ما عاد بها شيءٌ من الفتاة التي كنَّا نعرفها. ما كان يجدر بنا أن ندعها تتزوج من ذلك الشاب. أتعرفين، لقد التقيته مُجددًا، ولكن في ظل ظروفٍ مُختلفة تمامًا.

أخفت أمورًا بعينها عن السيدة سينجوبتا. تفاصيل القبض على صابر مثلًا. فما رغبت في إحباطها، ولم تتحدث أيضًا عن الرائد. فما عرفت كيف

لها أن تُصيغ الأمر. «**لقد وقعتُ في حُب رجلٍ غريب**». إذا اضطرت إلى التوضيح، هذا يعني تقديم الأسباب، وهذا أمرٌ لا أسباب له. بل كان أمرًا خارجًا عن نطاق العقل. بالكاد تعرف الرجل، وأحيانًا ما يتبيَّن لها نُدرة ما تعرفه عنه. فعلى سبيل المثال، لا تدري إن كان له أشقاء أو شقيقات، لا تدري إلام خطط عند انتهاء الحرب. لم تسأله يومًا متى أو ما إذا كانت ستراه مُجددًا.

في فترات الأصيل، حين تغفو السيدة سينجوبتا، تتجول ريحانة في أنحاء المشفى برفقة الطبيب راو. فقد كوَّنت صداقاتٍ مع قلَّة من النساء الأخريات، وكانت تقف إلى جانب أسِرَّتهن وتُمسك بأيديهن وهن يُخبرنها كيف جئن إلى هذا المُخيم. وبدأن في تعرُّفها، ومناداتها بالسيدة. في كل يومٍ يُخبرنها قصصًا جديدة عن الحرب. وظلت هي تنتظر خطابًا من سُهيل. ظلَّت تنتظر خطابًا من الرائد. لكنَّ أيًّا منهما لم يصل.

اعتادت ريحانة الجولات التي تقضيها في الشاحنة برفقة مُوكل. وحين حلَّ شهر أكتوبر، بات السطح مقبولًا. فأبقت على أبواب السقيفة مفتوحة، وجلست على أعتابها، تُراقب المساء يسدل أستاره على السماء، والمدينة تغرق في الغسق بهوادة. والمرأة البدينة هناك كل بضعة أيام، تقلب ساريها الأصفر وتُثبِّته إلى الحبل.

***

تكرَّر المشهد يوميًّا. فلم تنبس السيدة سينجوبتا ببنت شفة. وريحانة تسألها: ألن تقولي شيئًا يا سوبريا؟ أخبريني ما حدث؟ ربما يمكنني المساعدة.

في إحدى الليالي، جلست ريحانة على السقف تُرقِّع الطرف المُمزق لتنورتها الداخلية البيضاء. لم تكن قد جلبت ما يكفي من الملابس لهذه المُدة الطويلة، وتلك الملابس التي أحضرتها بدأت تتمزق. كانت تُدخل الخيط في الإبرة حين جالت بخاطرها هذه الفكرة إذ فجأةً، رُغم أن السيدة سينجوبتا لا تريد التحدث، ربما توافق على الكتابة. وتذكرت ذلك اليوم حين سألتها السيدة سينجوبتا عن رواية «**حُلم السُّلطانة**». حطَّت عن يديها التنورة الداخلية، وركضت إلى الأسفل لتطلب من مايا دفتر تدوين أو بعضًا من قصاصات الورق. وفي اليوم التالي، حين ذهبت ريحانة إلى المخيم، قدَّمت تلك الأوراق إلى السيدة سينجوبتا، مع قلم رصاص مسنون.

رفعت السيدة سينجوبتا رأسها، وهزَّته نفيًا.

أشارت ريحانة إلى الدفتر، وقالت: هذا من أجلكِ.

قبل بِضعة أيام من هذا الحادث، كانت ريحانة قد قالت: أتعرفين كيف فقدتُ طفلَيَّ؟

وأخبرت السيدة سينجوبتا بشأن المحكمة والقاضي، وكيف سمحت للحزن بأن يخدعها، ثم تابعت:

- لكني استعدتهما. يمكنكِ أن تعثري على ميثون أيضًا، وعلى السيد سينجوبتا.

اقتنعت ريحانة أن الأمر لا يتعدى خطر الضياع. ربما كانوا يفرون للوصول إلى مكانٍ ما، وانفصلت السيدة سينجوبتا عن البقية. لا بُد أن السيد سينجوبتا يبحث عنها الآن؛ ولهذا ظلت ريحانة تُطالع السجل لترى مَن وصل إلى المُخيم. راودت ريحانة رؤىً للسيد سينجوبتا يجوب بحثًا في كل مُخيم للاجئين، وكل محطة قطار، وكل مستشفى، بحثًا عن أخبار زوجته. ويقينًا لو أنهما تحليا بالصبر، سيجدان بعضهما مرة أخرى.

في الصباح التالي، حين عادت ريحانة إلى المُخيم، أمسكت السيدة سينجوبتا بدفتر الكتابة ورفعته لأعلى. كانت قد كتبت بضع سطورٍ تقول فيها: «**توغلتُ في حقول القصب. في البِركة. تركته**». وأخرجت غليون البامبو من أسفل وسادتها ووضعته في فمها.

قالت ريحانة: لا أدري ما تعنيه يا سيدة سينجوبتا.

أتاها تصورٌ من تلقاء نفسه، يستعرض السيدة سينجوبتا وهي تغرق في وحلٍ رماديٍ بني.

تحركت يد السيدة سينجوبتا برفقٍ على الورقة. وحين أنهت جُملتها، شطبَتها، ثم كتبت مُجددًا. وبعد مُضيٍ ما بدا لريحانة وقتًا طويلًا، أعادت الدفتر إلى ريحانة مرة أخرى، فقرأت: «**تركته، وركضتُ إلى البِركة**».

لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. لا يُعقل أن يحدث الأمر على هذه الشاكِلة.

سألت ريحانة:

- هل انفصلتما؟

مُجددًا، شرعت السيدة سينجوبتا خربشتها البطيئة، وأصابعها معقودة إلى بعضها، وكتبت: «**لم أُفكر فيه، ركضتُ فحسب**».

سألت ريحانة: السيد سينجوبتا؟

كانت السيدة قد كتبت بالفعل بعض الجمل، وراحت تشير إليها الآن «**أطلقوا النار عليه**».

لم تتحمل ريحانة رؤية المزيد، فقالت: سوبريا، استريحي الآن. وسأعود إليكِ بالغداء.

قبضت السيدة سينجوبتا على دفترها وكتبت: «**صحيح، صحيح، صحيح، صحيح**». ثم أغلقت عينيها.

تركتها ريحانة على تلك الشاكلة، شِفاه سوداء، ورأس يهتز للخلف والأمام.

***

لم تدرِ ريحانة ماذا تقول. خشت أن يهفو لسانها بشيءٍ من الاتهام، حتى لو قالت لا بأس، وأنها تتفهَّم الأمر. مهما حاولت تصور الأمر، تظل عاجِزةً عن منع نفسها من الشعور بالاشمئزاز لمجرد التفكير في تخلي السيدة سينجوبتا عن ابنها. لا بُد أن كان أمامها طريقة أخرى. دومًا ما تكون هناك طريقة أخرى. كان بإمكانها أن تأخذه معها، أو تقف بينه وبين هؤلاء الجنود. كيف لها أن تتحمل الحياة، وهي لا تعلم، مُتصورةً احتمالية ضياعه أو وجوده مع أُناسٍ غرباء بطريقة أو بأخرى، أو ما هو أسوأ من ذلك؟

في اليوم التالي، تجنبت ريحانة السيدة سينجوبتا. ولم تزرها في اليوم الذي تلاه. مضى أسبوعٌ، حاولت فيه أن تُخرج الأمر من رأسها. ثم وجدت تليغرافًا. كان الوقتُ باكرًا صباحًا، وكانت ريحانة تبحث عن دبوس أمانٍ في حاجيات مايا حين وجدته، مؤرخ 16 أكتوبر 1971. قبل يومين.

مات صابر. بذلنا أقصى جهودنا. عجزنا عن إنقاذه.

يرحمنا الله.

السيدة ت

طوت ريحانة التلغراف بِعناية، حريصةً على أن تظل الحواف مُتطابقة. استشعرت ضعفها، ورجفة جسدها، ورعشة أصابعها، لكنها ظلت تطوي وتطوي، حتى صارت قصاصة ورقٍ ضئيلة يمكن أن تدسها في بلوزتها، مثل الفكَّة المعدنية. وطوال رحلتها إلى مخيم البحيرة المالحة، راح قلبها يطرق بين أضلعها. وتذكرت تلك الليلة المُروعة، وهي تُؤنِّب نفسها على ما فعلته لصابر وهما يسيران في الظلمة، ويداه المسلوختان مضمومتان إلى صدره. ثم طالت أفكارها سيلفي والسيدة تشودهاري وروميو الذي استحال إلى رمادٍ أسفل شجرة جوز هند، فاشتعل جسدها باحتياجٍ محموم للعودة إلى الوطن، العودة إلى ضاحيتها، إلى الكوخ الصغير، وإلى شونا.

حملها التفكير في الوطن إلى التفكير في السيدة سينجوبتا. إلى أين ستذهب سوبريا، بعدما ينتهي هذا كله؟ قررت ريحانة أن تقربها، وأن تُخبرها الحقيقة، أن تُخبرها أنها عاجزةٌ عن فهم قُدرة أُم على التخلي عن ابنها، والنفاد بحياتها، لكنه لا مجال هنا لتفهم شيئًا في نهاية المطاف. فالأمر كله بينها وبين خالقها، وما هي إلا صديقتها فحسب.

***

في الجناح الطبي، انتظرت ريحانة موعدها اليومي مع الطبيب راو. وانتشرت الرعشة في أصابعها إلى ذراعيها، واستشعرت رجفة بردٍ تسري في أنحاء جسدها.

اقترب الطبيب، يخطو خطواته السريعة بساقيه الطويلتين. جاء في موعده تمامًا، كما هو دأبه.

سألت ريحانة: هل فحصت القائمة اليوم؟

- أجل يا خالتي. فحصتُ القائمة.

- وماذا إذن؟

- لا شيء. أنا آسف.

زفر الطبيب تنهيدة، فقد كانا يخوضان الحديث نفسه كل يوم. ثم تابع: خالتي، أعلم أنها صديقتكِ، ولكن ليس بيدنا الكثير لنفعله.

أجابت ريحانة:

- لكن ابنها مفقود، والآن بِتنا نعرف تمامًا أين شُوهد آخر مرة. علينا أن نستمر في البحث. عِدني بأنكَ ستستمر في البحث.

نهضت ريحانة من مجلسِها لترحل. استشعرت الأرض تميل نحوها، فاندفعت إلى الأمام، وهي تميل بتثاقلٍ على ذراع الطبيب.

- خالتي؟ هل أنتِ بخير؟

- لا شيء. ربما يجدر بي تناول بعض الإفطار، لم آكل شيئًا طوال الصباح.

- لا بُد أن هناك طعامًا في المطبخ. هل آخذكِ إلى هناك؟

قالت ريحانة:

- كلا، أرجوك لا تقلق. القائمة، هل ستستمر في البحث؟ صابر مصطفى. أعني، كلا، ميثون. ميثون سينجوبتا. هل تتذكر الاسم؟

- أجل يا خالتي.

استمرَّ دوار الرأس وريحانة تشق طريقها إلى المقصف. صار ضجيجُ المشفى مألوفًا لها الآن، حتى إنها تعلمت كيفية تجاهُلِه، تمامًا مثلما تتجاهل حشود الناس ذوي الوجوه المُلحَّة الذين يملؤون الممرات. أما الآن، باتت تسمع صخبًا مُدويًا في رأسها يُشبه اندفاع المياه. وضعت يدها على فمها، واستشعرت حرارة أنفاسها. ثم حدَّثت نفسها «أحتاجُ إلى الجلوس. هنيهةً فحسب». جالت ببصرها حول الغرفة، باحثةً عن كُرسي شاغر، حين اعترضتها مايا.

- أمي، هل أنتِ بخير؟

- لا شيء يا ابنتي، مُجرد ضعفٍ بسيط.

سارت رعشةٌ خفيفة في أنحاء جسدها، وهي تُتابع: التلغراف، لماذا لم تُخبريني؟

- أمي، دعينا نجلسُ في مكانٍ ما.

- حسنًا.

أمسكت مايا بيد ريحانة، وشقت المرأتان طريقهما عبر الأسرَّة. لوَّحت بعض النساء لريحانة وهما تمران، وصِحن: سيدتي!

سمعتهن ريحانة كما تسمع الصدى المُدوِّي يُغرد في الأنحاء.

همست ريحانة: مايا، ابنتي، أنا لستُ بخير.

كانت مايا تسبقها الآن، وتدفع الناس جانبًا وهي تصيح: أفسحوا الطريق من فضلكم!

انزلقت يد ريحانة من قبضة مايا؛ غلبها الناس المُندفعون إلى داخل المشفى، أفلتت يدها، وسقطت بين الأيدي الغريبة الباردة التي احتشدت حولها وراحت تقبض على كتفيها، وترفعها لأعلى، وذراعاها تتدليَان مثل زعانف سمكة، ثم حلَّ الظلام.

انجرفت ريحانة إلى سباتٍ عميق لتخرج منه ثم تعود إليه تباعًا، وحنجرتها تختنق بالأسئلة. راودتها أحلامٌ عن صابر، وشفتيه المشقوقتين يُتمتم بكلام مُفكك، ورأت ميثون أيضًا، بوجهٍ يشبه وجه سُهيل، تحت الماء، ينتحب من أجل والدته.

«أماه، أنا هنا يا أماه».

سمعت سُهيل ينطق بهذه الكلمات. وحين استيقظت، طبطبت على وجهها، فاستشعرت حرارته، لكن رجفتها قد توقفت، وها هي الآن تعاني ثقلًا مؤلمًا في أطرافها وخفقانًا شديدًا في رأسها. فركت قدميها معًا؛ فانكشف لها أنهما مزبَّدتان، حتى كعبيها. هذا يعني أن أحدهم قد ألقى لهما اهتمامًا. استدارت فلفحها عبيرُ زيت الورد الصيني.

- شعري...

سمعت ريحانة صوتًا رجوليًّا يُجيبها: عكفت السيدة سينجوبتا على غسيله. لم تتحدث إلى أحدٍ، بل فعلت ما فعلت في صمت، وقدميكِ أيضًا.

كان الصوتُ خشنًا مُنهَكًا.

تساءلت ما إذا كانت تحلم، وهي تقول: سُهيل؟

مال إليها حتى يتسنى لها أن تراه فتُوقن أنه هو.

- متى أتيتَ؟

- كنتُ سآتي على أي حال؛ أنتِ لم تتلقي خطابي. وصلتُ منذ بضعة أيام. كنتِ غارقةً في نومٍ متأرجح.

- ماذا حدث؟

- أُصبتِ باليرقان. قال راو إن ثمة احتمالًا بإصابتكِ به منذ أسابيع، لكنكِ لم تعلمي بالأمر. وبما أنه مرضٌ شديدُ العدوى، اضطروا إلى فحص الجميع.

- ومايا؟

- إنها بخير.

كان رأس ريحانة يضج بكثيرٍ من التساؤلات، لكن إنهاكها أضعف من قُدرتها على صياغة الكلمات. وكان كل ما استطاعت قوله هو: أمسك بيدي. قبل أن تغفو مجددًا، رأت ذراع سُهيل، التي اكتسبت سُمرةً ولمعانًا بفعل الشمس، يتحرك عبر الفراش.

- لديَّ مهمة يا أماه.

سمعته ريحانة يقول في اليوم التالي. كان قد أحضر لها حبة جوز هندٍ خضراء ذات فتحةٍ مُثلثة في قمتها، وراحت تقطر ببطءٍ في فمها.

تابع سُهيل:

- عزمنا على الإطاحة بالشبكة.

كان ماء جوز الهند ذا مذاقٍ حليبي مُحلَّي. غمست ريحانة إصبعها فيه وأخرجت شقفةً من العِرق. ابتسم لها سُهيل من بين شعر لحيته الكثَّة. ولم يسع ريحانة أن تغفل وسامته، وحيويته، وبريق عينيه وهو يسرد الأخبار على مسامعها.

- المدينة بأكملها ستغرق في الظلام. سنُفجِّر المخزون المُخبَّأ في الحديقة يا أماه. ولهذا عليَّ أن أعود إلى دكَّا.

- وماذا عنَّا نحن؟

- وأنتِ أيضًا. لقد أتيتُ لأعيدكِ إلى الوطن. ومايا كذلك.

الوطن. أرادت أن ترفع يديها في الهواء وتصيح بالهتاف.

- هل الوضع آمن؟

- لقد مضى شهران منذ أن غادرتِ، وكنَّا نراقب المنزل من كثب، لا يبدو أنهم يعرفون شيئًا.

- مات صابر.

- أعرف.

لم تخنه ملامح وجهه بتعبير واحد.. لا شعور بالارتياح، ولا شعور بالخزي. تابع سُهيل: لم يكن موته هباءً يا أمي. لقد أحرزنا بعض المكاسِب الكبيرة. والأسبوع الماضي، استطعنا إخراج الجيش الباكستاني من واحدٍ من أهم طرق إمداداتهم الرئيسية في كوميلا.

- هل سنفوز بهذه الحرب؟

كانت تلك هي المرة الأولى التي تطرح عليه هذا السؤال.

أوشك سُهيل أن يُجيبها أجل، بالطبع. لكنها شدَّت بوهنٍ على رسغه إشارةً إلى رغبتها في معرفة الحقيقة، فكفَّ عن الكلام هنيهةً قبل أن يقول: الأمرُ ليس مستحيلًا. ثم انتظر هنيهةً أخرى، وقال أخيرًا: إنهم يفوقوننا عددًا، وعُتادًا، وقوَّة. لكن أحيانًا يمكننا أن نُشبعهم ضربًا.

وابتسم إليها مُجددًا ابتسامته من بين غيوم لحيته، وقال: أستشعر اقتراب النهاية؛ نهاية حلوة بالسكر.

***

حين فتحت عينيها مُجددًا، وجدت السيدة سينجوبتا عند قدمي فراشها. بدت مثل طيفٍ داكن، وملامح وجهها النظيف بكماء جامدة. ارتدت ساريًا نظيفًا وقبقابًا أرضيًّا. ودهنت شعرها بالزيت ثم برمته في ضفيرة لامعة.

قالت ريحانة: الآن بِتُّ أنا الراقدة على فراش المرض.

افترَّ ثغر السيدة سينجوبتا عن ابتسامة مُقتضبة. أرادت ريحانة أن تسألها: ماذا حدث لكِ؟ ولكن بدلًا عن ذلك، سألتها: هل غسلتِ شعركِ؟

أحنت السيدة سينجوبتا رأسها، لكنها لم تتفوه بكلمة. وانتظرت بجمودٍ عند طرف الفراش. مضت بِضع لحظاتٍ من العناء، قبل أن تقول ريحانة أخيرًا: سأعود إلى دكًا. لِمَ لا تأتين؟ ستنتهي الحرب قريبًا. وسيعود كل شيءٍ كسابق عهده. يمكنكِ البقاء في شونا، وسنعود جيرانًا مُجددًا. أو تأتين للعيش معي في الكوخ الصغير. تذكرين الطريق 5؟ والسيدة تشودهاري، وأصدقاء أوراق اللعب؛ جميعُهن يرغبن في رؤيتكِ.

لم تُبدِ السيدة سينجوبتا أي إشارةٍ تدل على فهمها. بل أبقت عينيها مُثبتتين على وجه ريحانة، وعبثت أصابعها بالأساور الزُّجاجية، مُحركةً إياها

لأعلى وأسفل ساعدها. ثم استدارت حول جانب سرير المشفى، فمدَّت ريحانة يدًا لتلتقط يدها، واستشعرت الدماء تنفر في ذراع السيدة سينجوبتا. في تلك اللحظة تحديدًا، أيقنت ريحانة أن الأساور الزجاجية قد أبقت على حياة صديقتها، كالنبض المسموع من رسغها.

خفضت السيدة سينجوبتا وجهها إلى الفراش، فظنَّت ريحانة أنها تُحاول إخبارها شيئًا؛ فتكبَّدت العناء لترفع رأسها. لكن السيدة منحت ريحانة أرق لمسةٍ من شفتيها على خد ريحانة. ثم استقامت واستدارت مبتعدة.

أجرت ريحانة مُحاولة وحيدة أخيرة، وقالت: أرجوكِ يا سوبريا، عودي معي إلى الوطن.

لكنها رحلت بالفعل، وهي تجذب ساريها إلى كتِفها وتسير بكياسةٍ وتؤدة لطالما حسدتها عليها ريحانة منذ أول يومٍ وصلت فيه إلى شونا، وثِقلها يحط على الحذاء ذي الكعب العالي، وكتابٌ مدسوسٌ أسفل ذراعها.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

نوفمبر

اصرف عني فاجعتي

خلصوا إلى أن يسلكوا طريقًا طويلًا بواسطة العبارة، سيعبرون حدود راجشاهي، ثم يُبحرون مع مجرى النهر نحو بادما وكوشتيا وبابنا وفريدبور. سيستغرق الأمر يومين، وسيصلون في وقت مُتأخر من ليل الأربعاء بعد أن يستقلوا قطارًا في فريدبور. سيُقيم سُهيل في شونا. ويوم الخميس، سيأتي جوي، ويستخرجون الأسلحة المدفونة بجانب أغصان الورد. ويوم الجُمعة، بعد غروب الشمس، سيُسقطون شبكة الكهرباء.

قضى سُهيل ومايا وريحانة معظم الرحلة على ظهر العبارة، جالسين على مقعد في الجانب الأيسر من القارب. تؤزز الرياح فوق آذانهم، مما يجعل من التنفس أو قول أي شيء أمرًا بالغ الصعوبة. كانت كلماتهم إذا ما تحدثوا، تتبخر في الهواء وتتجمع حيث تتعانق الغيوم معًا، أو تسبح مع المياه التي تدور بثقة أسفل منهم. امتدت بادما أمامهم مثل البحر، تبدو ضِفافها بعيدة جدًّا كخطوط رمادية في الأفق، كما قدم لهم الشاطئ البعيد بضعة تلميحات: مجموعة من طيور النورس، والصيادين الذين يبدون كنُقط متناثرة بين الأمواج. تمايلوا في صمت، تضيق أعينهم إثر الشمس ووخز الرياح الدافئة.

***

توقفت العبَّارة في مدينة بابنا، فاندفعت مايا عابرةً دَرج السفينة المُتحرك لتبتاع وجبةً خفيفة.

سأل سُهيل: ماذا تظنين أنها فاعلة؟

سيلفي.. لم ينسَ الأمر إذن.

أجابت: لا أدري يا بُني.

راح يقتفي الأرضية المعدنية المائلة للعبَّارة بمقدمة صندله، ثم قال: أحيانًا يزداد حبك لشخصٍ ما عندما يموت.

- أجل.

- ولكن يمكنك حينها أن تنسيه أيضًا.

تطلع سُهيل إليها كما لو أنها عالمةٌ بالاتجاه الذي ستتخذه بوصلة مشاعر سيلفي وعواطفها.

أجابت ريحانة: أحيانًا. وأحيانًا يعيشون مع الذكريات. لا تدري ما يحدث بداخلهم.

قبض على سور العبَّارة بأصابع بيضاء، وأوضح قائلًا: لقد كانت تتصرف بمُنتهى الغرابة. أنا، شعرتُ أنها تنساب من بين يدي.

- عليك أن تنتظر.

- أخي!

نادت مايا وهي تركُض عبر سطح السفينة. وتابعت: إنهم يبيعون أفضل «جال موري[1]».

ودفعت بيدها إلى الأمام، حاملةً بين أصابعها قمعًا مخروطيًّا من أوراق الجرائد.

ألقى سُهيل بحفنةٍ في فمه، ثم قال: أف! كيف لكِ أن تتحملي تناوله وهو حارٌّ هكذا؟

وأخرج لسانه من فمه، وهو يقول: أسرعي! أحضِري لي بعض الماء، أنا أموت.

انطلقت مايا إلى كابينتهم لتُحضِر قارورة المياه. كانت الأكواخ والمساكن التي امتدت على طول ضفة النهر تميل نحو الماء، كما لو كانت تُدرك مصيرها.

---

(1) جال موري: Jhaalmuri هي وجبة شعبية سريعة تُصنع من أرزٍ مقلي بالتوابل الحارة والخضراوات. (المترجمة)

ففي كل موسم للرياح الموسمية، تتغذى الأنهار على السهول الفيضية، وتلتهم قطعًا شاسعة من الأرض ومنازل كاملة بمُحتوياتها، وأواني الطبخ، والمساجد الشريفة، ومَواقد الغاز، وصندوق العروس حيث تحتفظ ثلاثة أجيال من النساء بمُمتلكاتهن، ومخزون الأرز للعام المُقبل والفلفل المجفف والرضع وأطر الأبواب وأسقف الصفيح. وفي كل عام كان يُعاد بناؤها؛ أسقف جديدة من الصفيح مرصوفة بالحصى مع بقايا الأسقف القديمة، وجدران طينية جديدة، وطفل العام الجديد- أكواخٌ صغيرة متفائلة تنحني وهي على دراية بما سيحدث حتمًا مرارًا وتكرارًا.

عادت مايا بقارورة المياه، ووجهها يضج بالحُمرة من أثر المجهود. ثم قالت مُشاكِسةً شقيقها: يا إلهي، أما زلتَ لا تتحمل القليل من الفلفل.

أصدر نفير العبَّارة صافرته التي تُشبه عواء الحيوانات.

أجاب سُهيل وهو يهز القارورة ثم يتجرع الماء بشراهة: إن لكِ معدةً تشبه خزَّانًا من الفولاذ.

اندفعت العبَّارة بعيدًا عن المَرسى، وراحت تتمايل يمينًا ويسارًا بجهدٍ جهيد، وآثار مخر السفينة بلون آح البيض يتبعها مثل توقيعٍ لمسارها.

سألت مايا: ماذا كنتَ تأكل هناك؟

- أيًّا ما كانوا يعطونني. لن تُصدقي بعض الأشياء التي أكلتها. ولكن يمكنني دومًا أن أُقنع الطاهي الفاشل ليُعد لي شيئًا إضافيًّا.

أجابت مايا: ما زلت تستخدم سِحرك لغاياتٍ دنيئة.

أجابها بابتسامةٍ تحمل حيوية الطفولة، فأجابته بِمثلها. وإذ فجأةً، عادت ريحانة بذكرياتها إلى الماضي، حين كان وجهيهما نضرين، لا يحملان آثار الحزن ولا التاريخ.

***

حين هبط ثلاثتهم من العبَّارة في فريدبور، جثم سُهيل على أطرافه الأربعة، وقبَّل رمال الشاطئ المالحة.

***

سأل سُهيل ريحانة: هل ستتحدثين إليها؟

كان ثلاثتهم في محطة قطار فريدبور، بانتظار القطار المتوجه إلى دكًا.

- سأذهب غدًا لرؤيتها.

تجول سُهيل متبخترًا في الأنحاء، ثم عاد يحمل عُلبةً من حلوى الساندش[1]. وكان الحلواني، رجلًا أعجف ذا بطنٍ بارز على نحوٍ غريب، قد أُحكم الغلاف بخيطٍ وردي يُلائم الطباعة على العُلبة. حلويات علاء الدين. في فريدبور، كما هو الحال في كل مكانٍ آخر في جميع أنحاء البلاد، لم يبقَ سوى صُناع الحلوى من المسلمين فحسب.

قال سُهيل: إنها تُحب الساندش. وأكثر ما تُحب هي تلك القطع بالعسل الأسود، لكن لا يسعك الحصول عليها سوى في الشتاء.

ما إن استيقظت يوم الخميس، استشعرت ريحانة الفارق. كان قابعًا بين طيات الأشياء، رُغم حظها الحَسن الذي أبقى على المنزل مألوفًا– فراش الزواج القديم المصنوع من خشب الساج، وظلال الليل المعهودة، ورائحة أقراص العث في خزانات الملابس، التي استخرجت منها ليلة أمس المُلاءات والوسائد والأوشحة، لتتداعى أجساد ثلاثتهم عليها بعد رحلتهم الطويلة بالقِطار إلى المنزل. كانت قد طبعت قبلةً على خد سُهيل، وأرسلته إلى شونا، حيث تكوَّر على فراش الرائد، وغطَّ في النوم وقبقابه ما يزال مُتدليًا من أصابعه.

سمعت ريحانة الأنفاس العميقة لابنتها إلى جانبها. نهضت عن الفراش، وجَمعت شعرها في عُقدة، وعبرت إلى المطبخ، ثم سكبت لنفسها كوبًا من الماء. وإذ هي ترتشف، مالت بجسدها من إطار الباب إلى الشُّرفة الجانبية الصغيرة. لطالما سمحت لنفسها دومًا في هذا الوقت من اليوم بلحظةٍ من الأنانية، حين يكون المنزل بأكمله والعالم من حولها مِلكًا لها، ولا يُعكر صفوها احتياج أحدهم إلى الحب، أو مُطالبة أحدهم بالإنقاذ. لا تدوم ملكيتها سوى دقائق قليلة. تلك الدقائق القليلة كانت كل ما تسمح به من وقت.

(1) Sandesh: هي حلوى شهيرة نشأت في أرض البنغال، وانتشرت إلى شبه القارة الهندية، وتُصنع من الحليب والسكر. (المترجمة)

كان الهواء ضبابيًّا يحمل بين ذرَّاته ثِقل الليل. دخلت إلى دورة المياه، ورشَّت الماء على يديها وعينيها، وخلف أُذنيها. وجثمت ثانيةً على ركبتيها على سجادة الصلاة. كل يومٍ، تسأل الله الشيء نفسه. اللهم احفظ أطفالي. اللهم اغفر لي. اللهم نجِّ هذا الرجل. عجزت عن تحمل النطق باسمه. وجَرُؤَت على أن تأمل لقاءه اليوم.

أسرعت إلى المطبخ، وفكَّرت بشأن الفطور. سيكون هذا هو الفطور الأخير لبضع أسابيع آتية. فغدًا هو غرةُ رمضان. طوال شهرٍ واحد، سيأكلون طعامهم قبل الفجر، ويصومون إلى غروب الشمس. خلطت الدقيق بالماء، وصنعت عجينةً بأصابعها. ثم بسطت الأقراص المُستوية، مُستمتعةً بالحركة السريعة الثابتة. صُبغت جدران المطبخ وأجواؤه بلونٍ برتقالي تحمله أشعة الشمس النافذة؛ كدَّست أرغفة خبز الروتا على حافة الطاولة، وغطتها بخرقةٍ مُربعة من الشاش الرطب.

***

عادت إلى غُرفة النوم وحاولت إيقاظ ابنتها.

تدثَّرت مايا جيدًا أسفل غِطائها، وهي تقول: يا له من شعورٍ جيد أن نعود إلى البيت يا أمي. ثم ربَّتت على الفراش، وقالت: تعالي، امنحيني عناقًا وحبًّا.

- لقد استيقظتُ بالفعل.

- هيا يا أمي، بربكِ.

وأشاحت الغطاء عن جُزءٍ من الفراش. زفرت ريحانة تنهيدة وهي تقول: حسنًا.

ثم غاصت في الفراش، الذي فاح منه عبيرُ النوم ومسحوق التلك.

قالت مايا: سيكون يومًا حافلًا.

- أعلم ذلك.

مرَّرت مايا أصابعها على جبهة ريحانة وسألت: أتشعرين بتحسُّن؟

- أجل. لقد عالجَني طبيبكِ.

وأمعنت النظر في وجه مايا علَّها تجدُ مفتاح الحل. فطوال شهرين قضاهما في كُلكتا، لم تُفصح لها مايا عن شيء.

قالت مايا بجديَّة: أمي، أريد أن أُخبركِ شيئًا. ذلك العام الذي قضيناه في لاهور، لم نتحدث عنه قط.

في اللحظة ذاتها، أجهشت عينا ريحانة بالبُكاء.

تابعت مايا: أريدكِ أن تعرفي أن كل شيءٍ كان على ما يرام.

- وكيف لشيءٍ أن يكون على ما يرام.

- بل كان حقًّا.

- أنتما لم تفتقِداني...

قاطعتها مايا: بالطبع افتقدناكِ. افتقدنا كلَّ شيء. لكننا كنَّا أطفالًا، ولم يطل غيابنا سوى لعامٍ واحد.

- كان عُمرًا بأكمله بالنسبة لي.

- يجدر بكِ أن تسامحي نفسكِ يا أمي.

استطردت ريحانة: ظننتُ وما زلتُ أظن أن الأمر كان مروِّعًا لكما.

هزَّت مايا رأسها نفيًا، وقالت: لم يكن بهذا السوء.

- أكان جيدًا؟

كان هذا هو الشق الآخر من قلقها.

أجابت مايا: كلا، بالطبع لا.

- أخبريني عن أسوأ شيءٍ حدث؟

- أجبرتني خالتي بارفين على ارتداء فساتين ذات كَشكشة. فكنتُ أشبه الكعكات في كل مرة نذهب فيها إلى أي مكان.

- كلا، صدقًا. أخبريني عن أسوأ شيء. أريد أن أعرف.

استهلت مايا سردها: لا أدري... أظن أنه -أوه، أعرف- حين عجزتُ عن تذكر وجهكِ. ورحتُ أسأل سُهيل، فيخبرني أن أمي لها أجمل عينين، وأنا أومئ بإيجاب، لكنني نسيت.

أطرقت مايا بعينيها وأطالت النظر إلى أظفارها، ثم أضافت: مضى وقتٌ طويل جدًّا.

- كنتُ لأضحي بأي شيء، كنتُ لأضحي بحياتي...

- أعلم يا أمي، أعلم دومًا أنكِ ستفعلين.

***

في الحادية عشرة، بعدما اغتسل كلاهما، وغسلت ريحانة ملابسها وعلَّقتها مايا على حبلٍ أمام شجرة الليمون، وانتقت ريحانة البُرغل من حِفنة الأرز التي ستُطهى للغداء، عبرتا الشارع معًا مُتجهتين إلى منزل السيدة تشودهاري.

التقتهما سيلفي والسيدة تشودهاري عند البوابة.

قالت السيدة تشودهاري: لقد عُدتِ! ظننتُ أني رأيتُ بعض الأضواء المُشتعلة الليلة الماضية. يا بُنيتي، ألم أخبركِ، هذه لا بُد ريحانة، ولكنها لن تعود دون أن تُخبرني، ولهذا لم أكن متأكدة.

التفتت السيدة تشودهاري إلى ابنتها، لكن سيلفي كانت قد اختفت داخل المطبخ، فراحت تقول: ريحانة، يا إلهي، كم أنتِ نحيفة! ماذا حدث؟

- لم أكن على خير حال. لقد أحضرتُ لكِ هذه، بعضَ الحلويات.

ألقت السيدة تشودهاري نظرةً خاطفة على العُلبة، وهي تقول: ما كان يجدر بكِ أن تُرهقي نفسكِ.

ورفعت الغطاء لتفحص حلوى الساندش. ثم استطردت: والآن أخبريني عما حدث لصديقَتي المِسكينة؟ بالكاد أتعرَّفُكِ!

- لا شيء يُثير القلق. أُصِبتُ باليرقان فحسب.

- اليرقان! يا الله! كيف أُصبتِ به؟

استهلت مايا حديثها: كُنَّا في مخيم اللاجئين.

- ماذا؟ هل ذهبتِ إلى المُخيمات؟

تدخلت مايا في الحديث: والسيدة سينجوبتا هناك الآن.

- ماذا تقولين! ماذا تقولين! السيدة سينجوبتا؟ سوبريا صديقتنا؟

- أجل، هي بعينها.

- وماذا حدث؟

كانت السيدة تشودهاري تجلس الآن وفَخذاها على حافة كُرسيها ذي المسندين.

هزَّت ريحانة رأسها أسفًا، وقالت: الفتاة المسكينة. لم تعرفني في بادئ الأمر، وحتى بعد قضائنا أسابيع معًا لم تنطق بشيء.

عزمت ريحانة على أن لا تُخبر السيدة تشودهاري بشأن الدفتر، ولا غليون البامبو.

سألت السيدة تشودهاري:

- ماذا حدث لابنها؟

- لا ندري، شيئًا مروعًا.

- وأين هي الآن؟

- حاولتُ أن أجلبها معي، لكنها رفضت. وعلى أي حال، لستُ أدري كيف كانت ستسير الأمور معها هنا.

قالت السيدة تشودهاري وهي تتنهَّد بعمق: تفضلا الطعام. لقد فقدنا جميعًا الكثير بالفعل.

***

عادت سيلفي تحمل صينية الشاي ورقائق مُملَّحة في مرطبان هورلكس فارغ. كانت قد لفَّت حول رأسها وشاحًا، وأحكمت عقده حول ذقنها، وصففت خصلات الشعر الشاردة وأحكمت إخفاءها. راحت تعمل برشاقة، فوضعت الصينية على الطاولة، ورتَّبت الفناجِين على أطباقها، مع تقليب إبريق الشاي.

- صابر... لقد وصل إلينا تلغرافكِ... أنا غاية في الأسف.

همست سيلفي، وهي تجثم أمام الصينية: إنها مشيئة الله. (ثم سألت ريحانة) أتودين سُكرًا؟

كانت سيلفي هي مَن تُعِدُّ الشاي لريحانة منذ أن بلغت من السن ما يسمح لها بغَلي الماء. أجابت ريحانة وهي تشعر بشيءٍ من القلق أمام هذه الكُلفة الجديدة: أجل، مُكعبين. وقليلٌ من الحليب.

- مايا؟

- مكعبُ سكرٍ واحد. دون حليب.

يا الله!

صدر عن السيدة تشودهاري أنينًا، وهي تدفع نفسها بجُهدٍ إلى الخلف، وترفع قدميها على مُتكأ عُثماني. ثم استطردت: بذلنا أقصى جُهودنا. في البداية، كان الفتى يستلقي هناك، مُحدِّقًا إلى السقف. ونادرًا ما يتحدث.

وأصابعه! (عضَّت على لسانها) استحال لون أصابعه إلى الزرقة، ثم انتشرت إلى يده بأكملها. قال الطبيب إنها الغرغرينا، وعلينا بترَهُما. كلتا اليدين. أتتصوَّرين، شابًّا صغيرًا هكذا.

ورفعت أصابعها السمينة. أما سيلفي فكانت تُقدِّم فناجين الشاي لمن حولها في ثبات.

- ثم خرج علينا ذات يومٍ، ذات ليلة، من فراشه، وجلس هنا، في غرفة الاستقبال، وابتسم... كانت ابتسامته جميلة، أليس كذلك يا سيلفي؟ كما لو أنه يرى وجه الله. (أشارت إلى الأريكة حيثُ تجلس مايا) ثم رحل عنَّا.

اضطربت معِدة ريحانة، ومايا تنقل فنجان الشاي في يدها وتقول: هل عرفتما شيئًا عما حدث معه؟ كيف قُبض عليه؟

كانت مايا قد وجَّهت سؤالها إلى سيلفي. أما الأخيرة، فراحت تفتح مطربان هورلكس، وترصُّ الرقائق المُملَّحة على طبقٍ. أطبقت شفتيها معًا وتظاهرت أنها لم تَسمع السؤال.

كرَّرت مايا سُؤالها بنبرة صوت أعلى: سيلفي، هل عرفتِ ماذا حدث له؟

ودون أن تنبس ببنت شفة، مررت سيلفي طبق الرقائق المملحة إلى والدتها، فسألت مايا مُجددًا: هل تكبدتِ حتى عناء السؤال؟

أجابت السيدة تشودهاري: هذه أمورٌ لا تُوصف.

- بل هذه أمورٌ نحتاجُ إلى معرفتها.

صفعت مايا فنجانها بطبقه، مُحدثةً صوت قعقعةٍ نتج عن اصطدام الخزف ببعضه. ثم أضافت:

- سيلفي، إن زوجكِ كان بطلًا.

نطقت سيلفي أخيرًا: كان هذا شأنه. لا شأن لي به.

- لكنها بلادكِ!

قالت سيلفي ببساطة: لا يضِرُ الجميع ما تُضمِرينه من معتقدات.

- ألا تؤمنين بوجود بنجلاديش؟

ما يزال اسم البلد جديدًا، فخرج من فم مايا كما تخرج الجوهرة من مكنونها. وكانت سيلفي ما تزال جاثمةً إلى جانب الصينية. والآن رفعتها وتسللت بهدوءٍ إلى خارج الغرفة.

قالت السيدة تشودهاري بتنهيدة مثقلة: لا أعلم ما هذا الحال الذي صارت عليه.

قالت مايا: عليكِ أن تفعلي شيئًا؛ تبدو لي غاية في الغرابة.

وجدت ريحانة نفسها تتفق مع ابنتها لأول مرة، وشعرت بوخزةٍ من الحَسد من البساطة التي أعربت بها مايا عن أفكارها.

عادت سيلفي بطبقٍ من أجل حلوى الساندش، وهي تقول: مشكلتكِ أنكِ لا تتقبلين الاختلاف في الرأي. فأنا أظن أن هذه الحرب، وكل هذا القتال، هو إهدارٌ لا طائل منه للحياة البشرية.

- حين دخل الجيش إلى البلاد وأحدث بنا المجازر وأخرجنا من بلادنا، ألا كان يجدر بنا أن ننقلب عليهم؟

قالت سيلفي وهي تدس العُقدة أسفل ذقنها: كانوا يستعيدون النظام في البلاد، ويُعيدون للبلاد أمانها.

- هل خرجتِ إلى أي مكانٍ أبعد من غرفة استقبالكِ مؤخرًا؟ الناس تُذبح...

صارت يدا مايا في الهواء، والأنفاس تخرج من فمها في صفير.

قالت سيلفي، كما لو كانت تقرأ من نص مكتوب: يجب أن تظل باكستان بلدًا واحدًا.. ولهذا السبب ابتُدعت. أن تظل أمةً واحدة. وفصل الجناحين عن بعضهما ذنبٌ وإثمٌ في حق دينكِ.

- الإثم يُرتكب في حقِّنا نحن.. انظري إلى خارج نافذتكِ!

- لستُ جاهلة يا مايا. أحيانًا يتعين عليكِ التضحية. ولستُ أنا الوحيدة التي...

بدأ صوتُ مايا يرتفع وهي تُقاطع سيلفي: أنتِ والجيش، تفكيركم مُتشابه. كم هذا مُطمئن!

بَيد أن صوت مايا المُرتفع وهلعها أضفى تأثيرًا مُهدِّئًا على نفس سيلفي. وكانت السيدة تشودهاري قد اعتزلت الحوار وأسندت رأسها إلى كُرسيها، وراحت تُحملق في السقف مثل الشُّهداء.

قالت سيلفي برباطة جأش: أريد أن أومن بشيءٍ أعظم من أن أومن بنفسي.

بصقت مايا الجواب من فمها: وكذلك أنا... أُمي، دعينا نذهب من فضلك.

وشدَّت مِرفق ريحانة. فقالت الأخيرة حين وصلت إلى الباب: سيلفي، الأمر المهم بالنسبة إليكِ هو أن تعتني بوالدتكِ، وأهم شيءٍ بالنسبة لنا جميعًا هو أن ننجو من الحرب.

- أجل يا خالة مُوني، شكرًا لكِ.

ارتخت قسماتُ وجهها: جبهتها وحاجباها، كاشفة عن وجهها المُوقَّر القديم.

***

كان سُهيل بانتظارهما في الكوخ الصغير.

- لا أُصدق، لقد عرفتها طوال حياتي!

راحت مايا تصيح وتصرخ في وجه الجدران، مُتجاهلةً شقيقها.

- إنها في حالة صدمة؛ مات زوجها هكذا.

سأل سُهيل، وهو يُقلب أنظاره بين والدته وشقيقته: ماذا يحدث؟

لمعت وجنتا مايا بالرطوبة، وراحت تُعبئ صدرها بكمياتٍ كبيرة من الهواء، وهي تقول: ولكن كيف؟ كيف حدث هذا؟

- تتُوقين بشدة إلى أن يؤمن الجميع بما تُؤمنين.

- هذا مؤكد.

أجابت مايا وهي تفرك أنفها بقوةٍ بكُم قميصها. ثم تطلَّعت إلى سُهيل في غضب، وهرولت مغادرةً الحجرة.

قالت ريحانة برفقٍ: إنها غاضبة، لأن سيلفي لم...

- ماذا؟

- لم تعترف بالحرب بأي شكل كان يا بُني.

- ماذا تعنين؟

- لا تظن أننا نفعل الشيء الصحيح.

- لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. لا بُد وأنكما أسأتما الفهم.

قالت ريحانة:

- قالت الفتاة أنها ترى انقسام البلاد إثمًا.

وضعت ريحانة يدها على ظهر سُهيل، بين لوحي كتفيه.

قال سُهيل:

- لا بُد أن أحدهم أحدث بعقلها هذا الخلل. صديق سوء.

- لا يهمنا الكيف. لقد انقلبت ضد الانقسام، أيًّا ما كانت أسبابها.

- أكان انقلابها بسبب الدين؟

أجابت ريحانة، مُتجنبةً إلقاء اللوم على الإله: ربما، ولكنها ما تزال شابة يافعة، مَن يدري ما السبب؟

عادت مايا إلى الحُجرة، وحاولت أن تُلملم شتات نفسها، فأخفقت. كان وجهها مُبتلًا، وشفتاها تُشبهان كدمةً داكنة مخضَّبة بالغضب.

وجَّهت مايا حديثها إلى سُهيل: إذن سمعتَ ما حدث؟

أومأ بإيجاب في صمت، وعيناه تتجنبان النظر إلى عينيها.

استطردت مايا، وهي تمسح الدموع بظهر يدها: يا له من عار!

غطَّى سُهيل وجهه براحتي يديه، فتابعت مايا سائلةً: أما زِلتَ واقعًا في غرامها؟

حذَّرتها ريحانة: مايا...

- ما تزال واقعًا في غرامها. أنتَ أيها اللعين ما تزال واقعًا في غرامها!

أجاب سُهيل، وهو يهز رأسه بوهن: كلا، بالطبع لا.

قالت مايا بصوتٍ أجش مُحتدم: اسمع، هذه هي اللحظة التي تُقرر فيها ما هو أشدُ أهميةً في نظرك. أتفهمني؟ هذه اللحظة، الآن. تلك الفتاة بأفكارها السياسية الغبية المنحرفة، حتى إنها لا تُفكر بكِ أصلًا، وأنتَ مَن خاطر بكل شيء -كل شيءٍ- لتنال رضاها. عليك أن تدعها وشأنها الآن، أرجوك يا أخي، أتوسلُ إليك، لأجلنا جميعًا، دعها وشأنها.

قال سُهيل هامسًا: لا تختبري ولائي.

- أنا لا أختبر ولاءك، بل أختبر عقلك.

أبعَد يديه عن وجهه، ولوهلةٍ بدا كأنه على وشك أن يشتبك معها في عِراك، وأن يصرخ بكلماتٍ عن الوفاء والحُب والوطن، ولكنه بدلًا عن ذلك، سار بخُطىً واسعة نحوها ووضع ذراعيه حولها، وقال وكتافاه تهتزان: أنتِ على حق. أنتِ على حق.

***

تأخر الوقت. وكان سُهيل ينتظر جوي في شونا؛ فقد عزما على تفجير الأسلحة.

قالت ريحانة لمايا: يجدر بنا أن نُحضِّر السحور. ماذا تريدين أن تأكلي؟

- لا أدري.... أيجب علينا أن نصوم.

كانت الدموع ما تزال تنهمر بغزارة على خدي مايا.

- بالطبع يجب علينا ذلك. غدًا خُصوصًا من بين كل الأيام.

للمرة الأولى لم تُجادلها مايا، بل أخذت كوبًا من الماء عرضته عليها ريحانة، وقالت وهي تتنشَّق: أريد دالبوري(1).

- فكرة جيدة. سأضع العَدس على النار.

قرَّبت مايا كأس الماء إلى شفتيها. ولمَّا شرعت في الشراب، غلبتها موجةٌ جديدةٌ من الدموع.

قالت ريحانة، وهي تُؤنب ابنتها: مايا، لدينا أمورٌ أخرى أكثر أهمية لنقلق بشأنها اليوم.

- أعلم، أنا آسفة. لا يسعني أن أتمالك نفسي فحسب.

وتمخَّطت بصوتٍ رعدي، وتابعت:

- كل ما في الأمر أن ما حدث جرحني (ووخزت صدرها بإصبعها) هُنا.

قالت ريحانة:

- سيصل الفَتيان إلى هنا في غضون ساعاتٍ قليلة.

***

(1) Dalpuri: هو خبزٌ هندي مسطح محشوٌّ بالعدس الأصفر الموسمي الذي يُطحن ليُقدم في صورة معجونٍ ناعم. (المترجمة)

باعدت ما بين الستائر، وراقبت المشهد من نافذة غرفة الاستقبال.

دلف جوي وسُهيل عبر البوابة الخلفية، وأحاطا أغصان الورد. وكان من العسير عليهما الرؤية وسط ظلامٍ منسدل لا يُنيره ضوء القمر. تعرَّفت ريحانة على هيكل جوي الضخم، وإلى جانبه سُهيل النحيف، يحمل معولًا ومصباحًا زجاجيًّا للأعاصير. حينها سمحت لنفسها بلحظةٍ قصيرة من الشعور بالإحباط؛ فما كان من سببٍ يدعوها لتوقع مجيء الرائد.

أشعل جوي المِصباح، وشرع سُهيل يحفر أرضية الحديقة. وبعد بضع دقائق، بدَّلا الأماكن، فأمسك سُهيل بالمصباح الضعيف حين انحنى جوي إلى الأمام وراح يُخرج باطن الأرض، والغرين يتراكم فوق بعضه إلى جانبهما. ثم توقفا أخيرًا، ومال جوي إلى الحُفرة التي حفراها. تململ وهو مُستلقٍ على بطنه، وشرع يجذب شيئًا. بالكاد استطاعت ريحانة تبيُّن وجهه المُمتعِض بفعل الجهد الجهيد.

وفيما كان جوي يسحب الشيء المدفون –صندوقًا خشبيًّا مستطيل الشكل، بهتت ألوانه لطول دفنه– سمعوا قرع طبولٍ مُتقطع تفرق في أنحاءٍ شتى. ازدادت حِدة الصوت ودنوه فجأةً. جثم الفَتيان على الأرض، ونكَّسا رأسيهما. كان جوي هو مَن رفع الصندوق على كتفيه، ونهض منتصبًا وهرول خارجًا من الحديقة. تسلل مُختبئًا خلف شجرة المانجو، وانتظر سُهيل، وراح الأخير يقفز هنا وهناك على مرفقيه نحو صديقه. بات الصديقان ظِلالًا تحف بأفرع الشجرة. ثم اختفيا من الوجود.

أدركت ريحانة أن قلبها يخفِق بشدة بين أضلعها، وأنفاسها تخرج في دوائر من البخار تتشبع بالهواء ثم ترتد إلى النافذة المغلقة.

ازداد قرع الطبول، وتجمدت أوصال ريحانة، ساكنةٌ في موضعها تُواجه الحديقة الخالية، والحفرة التي خلَّفوها من ورائهما مثل صرخةٍ أسفل غصون الورد.

جاءت مايا إلى الغرفة، ويداها مُلطختين بالدقيق الأبيض: أمي؟ ماذا يحدث؟

تحركتا إلى الجانب الآخر من الغرفة، حيث النوافذ تُطل على الطريق. باعدت ريحانة ما بين الستائر في الوقت المُناسب لترى قافلةً من الشاحنات تنطلق بسرعةٍ على امتداد الشارع. وقفت ركيزةٌ من الجُنود بالزي الأخضر على

مُؤخرة إحدى الشاحنات، يلوِّحون بمدافعهم في الهواء، ويقطعون الشارع وهم يصيحون: «تحيا باكستان! تحيا باكستان»! ولمَّا تباطأت الشاحنة الأخيرة، صوَّب أحد الجنود، وكان شابًّا صغيرًا ذا شعرٍ كث بلونٍ أسود سواد الغربان، إلى الكوخ الصغير، وكأن وجهه يقول: «يمكنني أن أقتلكِ الآن».

ارتدت ريحانة برأسها إلى الخلف، وأغلقت الستائر. ثم قالت: هل رأيتِ ذلك؟

أحاطت مايا كتف ريحانة بذراعها، وأجابت: هذا مُجرد استعراضٍ للقوة يا أمي. ولا يعني أي شيء.

- لكن لماذا هنا؟ هذا مُجرد طريق صغير. ذلك الجُندي كان يشير نحونا.

- تصل إليهم إخبارياتٌ بأن الهند ستميل إلى جانبنا. ومن ثمَّ سينتهي كل شيء.

كانوا جميعًا قد بدأوا يُرددون عباراتٍ مثل «عندما تنتهي الحرب». وحدَّثت ريحانة نفسها أن الوقت ما يزال مبكرًا على هذا الاستنتاج، لكن الناس، خُصوصًا الشباب منهم، واثقين من أن المُقاتلين الأحرار سينقذوننا. سينقذنا العالم. وهكذا لا بُد أن ينتهي الأمر قريبًا. كان سُهيل قد حدَّثها سلفًا «**أستشعر اقتراب النهاية**»، وكانت ريحانة قد ظنَّت أن مثل هذا الحديث ما هو إلا حديثٌ يأتي على لسان طفلٍ إلى والدته حين تتلاشى الحدود الفاصلة بينهما وما عاد يريد أن يكون طفلًا، وهي ما عادت تريد أن تكون أُمًّا. كانت السكينة قد غمَرتها على إثر كلماته، وطمأنتها يده الباردة على جبهتها، لكنها لم تُصدقه قط.

دون تعدُّد الوجبات الذي يُلهيهم، راح يوم الجُمعة يمر عليهم بتؤدة. وما تزال أمامهم مهام لإنجازها، والتظاهر بأنه يوم كأي يومٍ آخر. إنجاز مَهام الغسيل، وتجهيزات السحور والإفطار، وتَهوية المنزل، وملء الآنية بماء الصنبور، ثم غليها حتى تصير صالحةً للشراب، وتنظيف السقف من أنسجة العنكبوت.

طوال اليوم، تجاهلت ريحانة القَشعريرة التي راحت توخز أعصابها. كان سُهيل قد رحل بعد الظهيرة بوجهٍ جامد الملامِح حين طبعت قبلةً على جبهته وقرأت عليه آية الكُرسي وأضفت نفحات المُباركة على عينيه. طوَّق الخوف أنفاسها، فانتصب شعرها كأنما أصابته شُحنة كهربية. تملَّكها الخوف فتضاعفت دقات قلبها، واستشعرت صداها في صدغها، والرعشة التي أصابت يدها وهي تقلي طعام الإفطار. باذنجان، شرائح باذنجان مُقرمشة داكنة، وحُمص وطماطم. وخبز دالبوري حشته مايا ثم لفَّته. وعصير برتقال، وعصير تمر هندي، وعصير لاسي[1]. لم تكن وليمة فاخِرة تصلح للمُناسبات الخاصة، ولا وليمة بسيطة تدل على رغبة آكليها في الطعام. بل كانت وَجبة تصلُح ليومٍ عادي. وجبة ليومٍ بلا حرب.

أحضرت ريحانة الطعام إلى المائدة، وجلست المرأتان تأكلان الطعام في صمت، وأصابعهما تغمِس الخبز في قطرات ماءٍ بسيطة.

وبعد ذلك، زحفت مايا أسفل الفِراش، وأخرجت مصباح الكيروسين.

قالت ريحانة: أبعدي هذا!

- لماذا؟ حينما ينقطع التيار...

- لا نعرف إن كان التيار سينقطع أم لا.

- بالطبع سينقطع التيار.

رمقت ريحانة ابنتها بنظرة تحذير. وقالت: أبعدي هذا المصباح وصلِّ العِشاء معي.

أسقط شونا ظلاله الطويلة على الكوخ الصغير، وهما تحاولان التقاط البث الإذاعي عبر المِذياع. عبثت مايا بالمقبض، لكن ما استطاعتا سماعه هو تشويشًا.

- أتريدين سماع أغنية يا أمي؟

تفاجأت ريحانة بالعرض، وأجابت: حقًّا؟ أود ذلك حقًّا. غنِّي لي أغنية «بنجلاديش الذهبية».

---

(1) Lassi: لاسي هو مشروب هندي شعبي، مزيج من الزبادي والماء والتوابل وأحيانًا تُضاف إليه الفاكهة. وقد يكون منه مالحًا أو حلوًا على حسب مكوناته. (المترجمة)

في التاسعة مساءً، حين لم يبقَ في السماء سوى الظلمة الماحِقة والهلال المُضيء، حبستا أنفاسهما وانتظرتا.

***

شرعت ريحانة تُفكر فيما سيكون الوضع حين تنقطع الكهرباء. بإمكانها أن تدخل إلى غرفة سُهيل وتُحصي الأدوية والأغطية التي ما تزال تنتظر التوزيع. ويمكنها أن تبدأ في كتابة خطابٍ لشقيقاتها. ولكن ماذا ستقول؟ يتعين أن يمتلئ الخطاب بالأكاذيب. وسينتهي بها الحال بعدم إرساله على أي حال، أو ستضطر إلى التصدِّي لأحد هذه الردود: **احمدي الله أنكِ ما تزالين حيَّة – كُنَّا سنموت قلقًا عليكِ – لِمَ لا ترحلين عن ذلك المكان البائس وتأتين إلى كراجي – ظللنا نقول لكِ هذا لسنوات.** كلا، لن تكتب خطابًا.

راحت مايا تعبثُ بأطباق العشاء، تُكوِّمها فوق بعضها بغير اكتراث. فقالت ريحانة:

- اتركيها وحسب.

عضت مايا على لسانها وهي تُجيب: أريد أن أتأكد...

- اتركيها.

- أوه، بربكِ يا أماه.

لكنها تركت الأطباق على أي حال، وألقت بنفسها على الأريكة إلى جانب ريحانة.

- ماذا الآن؟

- ننتظر.

لم تكن مايا قط من نوعِ البشر الذي يُجيد التعامل مع انتظار أي شيء.

- ولكن ما من شيءٍ نفعله.

- أتريدين لعب الكونكان؟

أضاء وجه مايا، وقالت: حقًّا؟ إننا لم نلعب منذ...

- منذ أن بدأ سُهيل يضربكِ، من وقتها رفضتِ اللعب.

- كلا.. ليس هذا ما حدث. لقد اكتشف الشِّعر في ذلك العام، ونسي كل شيءٍ خلافه.

- حدث هذا في العام اللاحق. أترين هناك فترة زمنية بين هذين الحدثين، نحو ثمانية أشهر، حين رفضتِ أن تلعبي أي شيءٍ معه، لا ألعاب الورق، ولا الشطرنج، ولا تنس الريشة.

قالت مايا:

- لا يمكنكِ إلقاء اللوم عليَّ في لعبة تنس الريشة. لقد كان طويلًا للغاية؛ لم يكن هذا مُنصفًا.

- صحيح. ولكن سيلفي المِسكينة، ظلت تلعب معه.

- هذا لأنه كان دومًا يسمح لها بالفوز.

خيَّم الصمتُ عليهما، وهما تسترجعان ذكرياتهما معًا.

ثم قالت مايا أخيرًا وهي تضرب مَسند الأريكة بيدها: حسنًا، سأحضر ورق اللعب.

لكن ريحانة كانت قد بدَّلت رأيها، فراحت تقول: أتُمانعين لو ألغينا لعب الكونكان؟ أريد القراءة قليلًا.

أومأت مايا بإيجابٍ وهي تقول: حسنًا.

سألت ريحانة: ماذا تريدين؟

لكن مايا كانت بالفعل قد اختفت داخل غرفة سُهيل، وراحت تفحص أرفف الكتب بأصابعها.

أخرجت مايا كتابًا رفيعًا، وقالت وهي تدسه أسفل ذراعها: دعينا نشرب بعض الشاي. سأعِده أنا.

بعد دقائق قليلة، خرجت مايا من المطبخ تحمل الصينية.

قالت ريحانة: أظن أني سأقرأ لإقبال. لقد مضى وقتٌ طويل على قراءتي له.

- أي كتاب؟

- **بال جبريل**(1).

أخرجت اختيارها من الكُتب في بهجة، وقالت بخُبثٍ: **قرابين الغناء!**

---

(1) بال جبريل: هو كتاب شعري فلسفي للشاعر الفيلسوف (محمد إقبال)، وتُرجم العنوان إلى الإنجليزية بمعنى جناح جبريل. (المترجمة)

كانت أشعار طاغور محظورة في البلاد، ورُغم أن جميعها تتناول موضوعات الحُب والرب والرياح، فما يزال المرء يجدُ إثارةً مُحرِّضة عند قراءتها. أخذت لحيته البيضاء شكلًا مُثلثًا على الغلاف، يُماثل خُصلات شعره البيضاء التي أطَّرت وجهه البيضاوي الجاد.

صعدتا إلى الفراش، وفَناجين الشاي والكتب بحوزتهما. أجبرت ريحانة نفسها على قراءة كتابها منذ بدايته. ربما حين تصل إلى قصيدتها المُفضلة «**تألَّق في وجه حبيبك**[1]»، يغرق المنزل في ظُلمة انقطاع الكهرباء. وباتفاقٍ غير مُعلن، أبقت المرأتان على المِصباح الأنبوبي يطن فوق رأسيهما، والمروحة تدور بأقصى سرعتها، فظلت صفحات الكُتب تُصدر حفيفها بفعل الهواء الدوَّار.

وصلت ريحانة إلى قصيدة «تألق في وجه حبيبك» وأنهت قراءتها. وكانت مايا تُقلب صفحاتها ببطء، وتقرأ عنوان كل قصيدة بصوتٍ مرتفع قبل أن تشرع في قراءتها. انغمست في قراءة قصيدة «نُوري، نُوري»، ثم تريَّثت وهي تقرأ قصيدة «هذه أغنيتي»، القصيدة التي كانت تعلم ريحانة أنها المفضلة لابنتها.

أما ريحانة، فراحت تقرأ قصيدة «بماذا ترغب»، ولم يتبقَ لها سوى ثلاثُ قصائد، حين سمعت شيئًا يصدح من بعيد، كما لو كان عاصفةً رعدية تمر بهما. قفزت مايا نحو النافِذة وتطلَّعت إلى الشارع وهي تقول: أكان هذا حقًّا؟ الأضواء جميعها ما تزال مُشتعلة. ربما عجزوا عن إتمام الأمر، ربما كانوا مُتعبين، وربما عجزوا عن إتمامه وحسب.

تجاهلتها ريحانة، وفي نِهاية المطاف، زحفت مايا إلى جانبها أسفل غطائها، وزفرت تنهيدة مُتثاقلة، ثم التقطت كتابها مُجددًا. استشفَّت ريحانة أن شعور الندم بدأ يغزو قلب ابنتها لعدم اختيارها مُجلدًا أكبر من هذا.

أنهت ريحانة قصائد إقبال، وما يزال طنين المصابيح يصدح فوق رأسيهما. فحصت ريحانة ساعتها: 12:20. وبدأت هي تشعر بوخز عينيها. أخفت مايا كتاب «**إصدارات الأغنيات**» أسفل وِسادتها، وراحت تحِلُّ ضفيرتها. ثم قالت بصوتٍ فاقدٍ للبهجة: سأُفرِّش أسناني.

---

(1) عنوان القصيدة الأصلي هو: «چمك تيري عيال» باللغة الأردو، وترجمة العنوان اجتهادية من المترجمة. (المترجمة)

كانت تقف على عتبة الباب تحمل الفناجين الفارغة، وتزفر تنهيدةً مثقلة، عندما وقع الأمر: صريرُ ارتطامٍ مكتوم، لا تُخطئه الآذان، ضوءٌ مرتعش، وميضٌ كهربائي، ثم غرقتا في ظلامٍ دامس.

مدَّت ريحانة يدها تُحسِّس أسفل الفراش وهي تقول: مايا؟ أقبِلي وأخرِجي مصباح الأعاصير.

- **لقد فعلوها! فعلوها! فعلوها!**

وغطتا في النوم بملابسهما، ومايا تُخفي ضحكتها في وسادتها.

***

- ريحانة.

- مَن هناك؟

- صه.

إصبعٌ على شفتها. ثم شفاهٌ على شفتيها. ويدان تحفران أنفاقًا أسفل منها، ترفعها لأعلى، وتدفعها دفعًا إلى خارج الغرفة. ثلاثُ خطواتٍ واسعة قطعها الغريبُ إلى بوابة الحديقة، ثم ركلها فانفتحت على مِصرعيها، وتنقَّل عبر درجات السلم. استشعرت ريحانة الرماد في جُيوبها الأنفية، ودرست الأنفاس التي تلفح أذنها؛ بدا جسدها أشبه بالريشة، خيط من القُطن، عاصفة من الريح بين ذراعيه. دار حول البوابة، ثم دلف من الباب الأمامي لشونا، وقدماها العاريتان تُلامسان الإطار.

لم تستحضر أي شعورٍ بالقلق حتى تأكدت أنه هو. ولمَّا أعوزتها الرؤية لقلة الضوء، مدَّت يدها، وتحسست الندبة على خده. ثم قالت: ماذا حدث؟ هل كل شيءٍ على ما يرام؟ ماذا تفعل هنا؟ وأين سُهيل؟

- لقد فعلوها.

أرقدها على الفراش في غرفة ميثون، واتخذ خطواتٍ إلى الوراء ليجلس على كُرسي من الخيزران، ويداه خارج نطاق مجالها.

قالت ريحانة:

- كان يُفترض بك أن تذهب.

أجابها بعينين تخترقان الظلمة: أعلم.

سألت وهي تعرف الجواب، لكنها ترغب في سماعه منه على أي حال: لماذا؟

- كان عليَّ أن أراكِ. رحلتِ فجأةً...

- وأنتَ كذلك، دون خِطابات.

سمعته يعبثُ بحقيبته ويهزُّ شيئًا. ثم سمعت صوت خربشةٍ طفيفة، ومن بعدها تراه مُمسكًا بعود ثقاب. رأت عينيه، وشعر رأسه المُموَّج عن آخره. أمسك بعود الثقاب في ثبات، حتى احترق لُبَّه. تركه يسقط، ثم أشعل آخر. فشعرت بالحرارة التي يُخلِّفها عود الثقاب، ورائحة الكبريت المُتَّخمة بالغبار التي تفوح حين تنطفئ الشعلة؛ هزَّ رسغه فأطفأه على الفور.

قال: تبدين شاحبة للغاية.

- كنتُ... أُصبتُ باليرقان.

همس وأنفاسه تلفح عينيها: أعلم.

تنامت غُصَّةٌ من النشيج في حلقها، تحمل مرارة الملح، فتملَّكت منها، وانهمرت الدموع من عينيها دون قيود، ولكن قبل أن تسقط من ذقنِها، التقت يداه بدُموعها، فأزاحها برقةٍ على وجنتها، ثم فرشت الزبدة على الخبز...

استرقت السمع للسانه يتحرك في أنحاء فمه، يلعق أسنانه، ويُداعب سقف حلقه. سمعت بوضوحٍ كما لو أنه لسانها، وأسنانها، وسقف حلقها.

قبَّلها، فكانت شفتاه أنعم مما تصورتها. وكما لو كان يؤدي خدعةً سحرية، حلَّ أزرار بلوزتها، ودسَّ رأسه بين أحضانها، وتحسس عظامها كما لو كانت مجرى ماءٍ.

وضع إبهامه على وجهها، فشعرت بدقةٍ من دقات قلبه تنبض في إبهامه.

***

مرَّت لحظات، كأنها الدهر. وأحدثت سحلية نقيقًا جاء من السقف، والهلال المسكين لم يُقدم لهما سوى شعاعٍ فضيٍ ضعيف، اهتدت به ريحانة لتتبين وجهه المُربع وشعره الكثيف الخشن.

أرادت أن تلقنه درسًا عن مدى حماقته حين قرر المجيء، لكنها خشت أنها لو نطقت بالكلمات، لتَأكَّدَ هو أنها رغبت في مجيئه بكل ما في قلبها من رغبة.

- عليَّ الذهاب. قبل شروق الشمس، من أجل السحور.

أشاح خُصلةً من شعرها عن رقبتها.

- لا تُخبرني متى ستعود.

تحرك إبهامه الآن ليتحسس عظمة ترقوتها.

- وإلا سأظل حابسةً أنفاسي.

أومأ لها بإيجابٍ، بطأطأةٍ بسيطة من رأسه.

- اعتنِ بابني.

***

عبرت ريحانة الحديقة، وهي تُؤرجح ذراعيها، ومرَّت أمام شجرة المانجو وشجرة الليمون وغصون الورد، تلك التي أُفرغت من سرِّها، وزهور الكوبية التي أوردت الآن بزهورٍ زرقاء وبيضاء، تشبه سماء الصين. في الكوخ الصغير، تمدَّدت مايا على الفِراش مثل حُطام سفينة غارقة. فاتخذت ريحانة طريقها إلى المطبخ، ثم توقفت بعد ذلك، وقررت أن ترقُد بدلًا عن ذلك. ما يزال أمامها ساعة كاملة قبل شروق الشمس. أغلقت عينيها وتذكَّرت. لمرة واحدة فحسب. ومن فوقها، تتحرك مروحة السقف بأناةٍ، يُحركها دوران هواء نوفمبر الذي يأتي عبر الشرفة. كان جسدها مُعبَّقًا بالروائح، رائحة أنفاسه التي تفوح منها رائحة البطيخ، وعرق جسده المُحمَّل برائحة المطاط المحترق.

***

سمِعت زمجرة الدبابات قبل أن تتخذ منعطفًا إلى الطريق؛ وشعرت بتباطؤ مُحركاتها أمام الكوخ الصغير، وتراصها على امتداد بوابات الحي. اتَّسع لها الوقت لإيقاظ مايا وسحبها إلى غرفة الاستقبال. **الجيش هنا**. فكَّرت

في تصفيف شعرها، ومررت يدًا على شفتيها، ثم افترشتا الأريكة معًا، بظهورٍ مستقيمة، كما لو أنهما تنتظران ضيفًا، عدا أنهما كانتا ما تزال غارقتين في ظُلمة الليل.

ترجَّل شباب يافعون من دباباتهم، دزينة منهم في كل مرة، بأعين قاسية متشابهة، وأحذية طويلة الرقبة تتحرك مثل المطارق. لم يلحظوا المرأتين. بل تركزت أعينهم على شونا، وما سيخرج من شونا. راحت ريحانة تردد الدعاء والصلوات. احفظه يا الله.

دهست أقدامهم بتثاقل على أرضية الكوخ الصغير؛ ومزَّقوا الكُتب على الأرفف، وهشموا أطباق العشاء، وكسروا المِصباح النحاسي، واجتاحوا الخزائن. نزعوا الملصقات المُعلَّقة في غرفة نوم سهيل: ملصقًا لماو بخلفيةٍ حمراء، وآخر لتشي جيفارا يرتدي قبعةً ويبتسم في مرح. طُعنت الوسادة بآلة حادة وتفرَّقت حَشوتها من القطن الأصفر مثل الهندباء البرية.

لم يأتِ أحدٌ للقبض عليهما. ومن بين الأجواء الخريفية الضبابية، راحت الشمس ترتفِع إلى السماء في أناةٍ ودِقة.

دوت صيحةٌ: الوضع آمن!

ثم اصطفَّ الجنود ووقفوا منتبهين، حين كان رجلٌ آخر يدخل عبر الباب، ويداه في خِصره حيث احتفظ بمسدسه. قال الرجل بلغةٍ إنجليزية مُصطنعة تدرَّب عليها: سيدة ريحانة حق.

كان له شاربٌ دون لحية، وعجزت ريحانة عن تبيُّن سنه. فقد احتدم الصراع بين الشباب والكهولة في وجهه كما تتصارع الأعداد الغفيرة المُتنافسة.

تابع الرجل: أنا العقيد جابين. لديَّ أمرٌ بتفتيش عقاراتِك، والقبض على ابنكِ سُهيل حق.

وصلت الأحذية الآن إلى سطح الكوخ الصغير، وراحت تضرب الأرض مثل هديد أقدام الفيلة. أمسكت ريحانة بيد مايا؛ كانت يدها ساخنة وزلِقة الملمس من العرق. وإلى جانب جابين، كان هناك رجلٌ آخر. مال الرجل إلى خارج النافذة وبصق على زهور الكوبية، وحدَّقت عيناه إلى مايا وهو يستدير ويُنظف حلقه. ظلت بقايا من البصاق على شفتيه، فلعقهما. وحدَّق إلى مايا من أعلى إلى أسفل، ولعق شفتيه مُجددًا. حدَّقت إليه مايا بدورها. وكانت راحتا يديها مخضبتين بالعرق، لكنها حدَّقت إليه على أي حال.

لم يتحدث العقيد جابين البنغالية، بل تحدث الأُردو. وكان يصيح في أذن الرجل الباصق، ثم يترجم الرجل الباصق عنه.

- أخبرهم أنه ما مِن خيارٍ آخر أمامهم، وعليهم أن يُسلموا الابن.

قال الرجل الباصق: ليس أمامكِ خيار.

قالت ريحانة بالبنغالية مُخاطبةً جابين، لكنها تتطلع إلى الرجل الباصق: أيها العقيد، لا بد أن هناك شيئًا من سوء الفهم. إن ابني في كراچي، مع شقيقتي مارزيا. يعيشون في كليفتون، يمكنك أن تُرسل أحدهم وتتأكَّد بنفسك.

- تقول إن ابنها النغل في كراچي.

لم يُجب جابين في بادئ الأمر، ثم تطلع إلى ريحانة مباشرةً وقال: ليس هناك سوء فهم. إن ابنكِ خائنٌ لباكستان.

قال الرجل الباصق: لن نترك ابنكِ النغل.

عاد الجنود من السطح، ومن الحديقة، ومن شونا. عادوا مُحمَّلين بصناديق الملابس، والسواري التي كانت ستتحول إلى أغطية، وأدوية البَنسلين. لا وجود للرائد. وعدَّل أحدهم من كُرسي مقلوب، وجلس عليه جابين بتثاقُل. بدا عليه الشُّعور بالضجر. وكانوا قد وضعوا الصناديق عند قدمي ريحانة. مقبرةُ الأدلة.

قالت ريحانة: إننا نجمع التبرعات من أجل اللاجئين.

شدَّت ريحانة مُجددًا على يد مايا، ومن حسن حظها، للمرة الأولى، لم تمتلك الفتاة القُدرة على التعبير عن رأيها.

- أخبرها أننا نعرف بأمر تخزين الإمدادات وإخفائها.

تملَّكت ذراعا ريحانة قشعريرةٍ باردة، فازدردت ريقها. وراح الرجل الباصق يقول: نعلم بشأن الأسلحة التي دفنتموها أسفل غصون الورد.

فتحت ريحانة فمها لتتحدث.

- لا حاجة لكِ بتفسير شيء. إننا نعرف كل شيءٍ بالفعل.

انتظرت ريحانة لترى ما إذا كان جابين سيقول للرجل الباصق شيئًا بشأن ما يعرفونه. ثم كرَّرت عبارتها: ابني في كراچي.

وجذَبت مايا بالقُرب منها. همس جابين مُجددًا في أُذن الرجل الباصق بشيءٍ لم تتبينه ريحانة. فأجابه الرجل الباصق، وضحك جابين. هل رأته ريحانة من قبل؟

نظر كلٌّ من جابين والرجل الباصق إلى بعضهما، بجديِّة تشبه عصافير حُب جُدد، لبضع دقائق قبل أن يقول الرجل الباصق: لديكِ أكثر من طفل.

ارتخت ساقا ريحانة بتؤدةٍ وبلا ألم. ولتحفظ ساقيها من الالتواء أسفل منها، فكَّرت ريحانة في عظامها. إن ساقيها مبنيان على العظام، وتلك العظام هي ما تعكَّزت عليه ريحانة لتنهض واقفة.

- خذ الفتاة إلى الغرفة الأخرى.

التفت الرجل الباصق، وابتسامة ترتسم على وجهه.

همست مايا: أماه، لا أريد الذهاب.

أحكمت ريحانة ذراعيها حول ابنتها. لكن الرجل الباصق يجذب مِرفقها الآن، وزوجان من الأصفاد يطنُّ في راحتي يديه. حدَّثت ريحانة نفسها أن تنتظر، لدقيقة واحدة أخرى فحسب، ستُفكِّر في شيءٍ. تطلَّعت ريحانة إلى جابين، فرأت شيئًا في عينيه: نهمًا ورغبة. رأت رغبته في المزيد، شيئًا أكثر بربرية من مُجرد انتصارٍ يُحققه على امرأتين. أفلتت ابنتها من بين يديها، ولعبت بطاقتها الوحيدة.

قالت ريحانة بأُرديةٍ أصيلة مُتقنة: أيها العقيد جابين، لا يمكن أن تكون هذه هي الطريقة التي تريد بها شنَّ حربٍ.

مال جابين برأسه. هل ما سمعه حقيقي؟ نظَّف حلقه، ومسح جبهته بظهر ذراعه. لا وجود للكهرباء، ومن ثمَّ لا وجود للمروحة، ولهذا كان الجميع يتصببون عرقًا، خصوصًا جابين، الذي يُحب أن يرتدي زيَّه العسكري الكامل في المناسبات الخاصة، مثل هزيمة الخَوَنة.

قال العقيد: تتحدثين الأردية.

لم يكن سؤالًا. كان الرجل الباصق ما يزال ممسكًا بمرفق مايا، وهي تُهمهم وتتملَّص من بين يديه؛ وجانبا فمه مخضلين بلعابه.

قال جابين للرجل الباصق: توقف.

أطاع الأوامر، وابتسم، ووجد المُتعة في التأخير.

قال جابين: أيها الرقيب، اذهب وفتِّش الحديقة مُجددًا، والضاحية. واقبض على كل مَن تشتبه به.

تردد الرجل الباصق، فقال جابين: اذهب! وخذ الفتيان معك.

ألقى الرجل الباصق التحية العسكرية وقاد بقية الجنود إلى خارج الكوخ الصغير، تاركين ريحانة ومايا بمفردهما مع جابين في حرارة ما بعد الظهيرة الخانقة.

***

التفت جابين إلى ريحانة، وقال: أترين المشكلة، لقد وعدتُ صديقي بالفعل.

- أخبره إذن أنكَ غيَّرت رأيك.

داعب شارِبه بباطن إبهامه، وقال: من فضلكِ، دعينا نفكر بمنطقية يا سيدة حق، هلا فعلنا ذلك؟

ثم جلس، وأشار بتِرحابٍ إلى أحد الكراسي وشبَّك أصابعه على شكل خيمة، ثم قال: أرى أنكِ امرأةٌ متعلمة. كان هناك ثلاثة فتيان في المهمة المذكورة ليلة أمس. أحدهم كان صديق ابنكِ جوي. والفتى الهندي، بارتو. وسُهيل هو ثالثهم. نعلم أنهم كانوا يحاولون عبور الحدود. ونظن أننا اقتفينا آثارهم. ولكن شيئًا ما أخبرني أنهم ربما حاولوا العودة إلى منازِلهم. خصوصًا ابنكِ.

تقاطعت ساقاه وهزَّ قدمه، ثم تابع: تملكني شعورٌ بأنه ربما كان يميل إلى... يميل إلى العاطفة.

زفر تنهيدة وشبَّك أصابعه معًا خلف رأسه.

أجل، هذا صحيح. إنه يميل إلى العاطفة. على سبيل المثال، في تلك اللحظة، حين كانت يدا سُهيل تفركان البارود، لم يكن مُجرد رجلٍ يفرُّ ناجيًا من أجل بلده أو يفرُّ ناجيًا بحياته فحسب. بل كان يحاول أيضًا التخلي عن حبه.

قالت ريحانة لجابين: لا أدري عما تتحدث.

ثم ابتسمت مُجددًا وتذكرت أين رأته من قبل، فقالت: رأيتكَ من قبل. في مركز الشرطة.

- أجل، هذا صحيح. أقضي الكثير من الوقت هناك.
- طلبتَ حينها شايًا صينيًّا.

أومأ لها بإيجاب، متأثرًا بقوة ذاكرتها. ثم قال: لستُ رجلًا يُخالِف المنطق يا سيدة حق. وأفضِّل أن لا ألوِّث يدي بتدنيس امرأةٍ. لكن هؤلاء الفتيان في ميدان القتال (هزَّ رأسه أسفًا) قد سمحوا بتجاوزات الحرب أن تصل إلى عقولهم. أمرٌ مؤسف.

ثم أخذ العقيد نفسًا عميقًا، كما لو أنه ينفث دخانَ سيجارةٍ، وتابع: ومع ذلك، لديَّ مهمة. عليَّ أن أُعيد هؤلاء البنغال. عليَّ أن أُلقي القبض عليهم. ثم يتعين عليَّ أن أطلق الرصاص عليهم.

ازدردت ريحانة ريقها، وأجابت: إذن ما مِن سببٍ يجعلني أخبركَ بمكانه.

- لا شكَ أنكِ أذكى من ذلك يا سيدة حق.

استشعرت ريحانة تقلُّصات معدتها.

تابع العقيد:

- لأنه يمكنني أن أضعه في زنزانة صغيرة لطيفة، وأن لا أطلق الرصاص عليه في الحال. ولكن ربما هذا أمرٌ غير مناسبٍ أيضًا؟ لقد رأيتِ ما حدث لصديقه. رجلٌ مسكين.

كانت وجنتا جابين تلمعان. ثم سألها، كما لو أن السؤال قد طرأ على ذهنه في الحال: أين زوجكِ يا سيدة حق؟

كان لي زوجٌ ذات يوم. له وجهٌ دائري، وأصابع ناعمة. توقف قلبه عن النبض في أحد الأيام، وسقط على رُكبتيه أمام منزلنا. وقال لها: ريحانة، سامحيني.

أجابت ريحانة: ميت.

حاولت أن تبدو قويةً صلبة كامرأة أنبوبِ الصرف التي منحتها الجواب نفسه.

- حسنًا، يا لها من صدمةٍ لطفليك.

طفلاي لم يكونا دومًا لي. بل كانا ينتميان ذات يومٍ لشخص آخر غيري.

سمعت ريحانة جلبةً شديدة عند الباب؛ أقدام مَجرورة، وضربات بسيطة. كان الرقيب يُعلن عن عودته.

- سيدي، لقد قَبضنا عليه.

وركل رجلًا إلى داخل الغرفة. له وجهٌ ملطخٌ بالدماء. وندبة منجلية على خده. وشعرٌ مُجعَّدٌ يؤطر وجهه.

- قبضنا عليه وهو يركض إلى طريق سات مسجد. نغلٌ أحمق. أمام أعيننا مباشرةً.

حلَّ جابين مُسدسه من غمده وصوَّبه. ثم غيَّر رأيه، وأدار المسدس، ثم ضرب الرجل بفُوهة السلاح، فاصطدمت بذقنه. أرخى جابين ذراعه، وباليد الأخرى لكم الرجل في بطنه. لم يُحاول الرجل القِتال حتى، بل انهار على الأرض، ومثلثٌ صغير من الدماء يسيل على خده. حاول أن يبتسم، ثم تلوى من شدة الألم، وراح جابين يركُل ظهره وذراعيه، وهو يقول: يجدر بي أن أقتلكَ الآن، أيها البنغالي ابن العاهرة. أظننتَ أنكَ ستُطفئ الأنوار؟

- انتظر! هذا ليس ابني.

توقف جابين، وحذاؤه ذو الرقبة الطويلة مُعلَّقًا في الهواء: ماذا؟

- هذا ليس ابني.

هبط حِذاؤه، الكعبان أولًا، على إحدى الأيدي. ندَّ أنينٌ مكتوم، وهجومٌ مضاد.

- انظر إليه، إنه أكبر سنًا من أن يكون ابني.

- أتريدين أن تخدعيني يا امرأة؟

كان جابين يلهث، منتشيًا من فرط المجهود.

- مَن هذا؟

وراحت أنفاسه الساخنة تلفح وجهها.

أجابت ريحانة:

- لا أدري. يمكن أن يكون أي شخص، لقد قبضت عليه من الشارع.

- أتظنين أنني لا أعرف مُقاتلًا من أجل التحرير حين أرى واحدًا؟ أعرف كل واحدٍ من هؤلاء الأوغاد، إنني أُطاردهم لكسب الرزق. إن معرفتي بهم أفضل من معرفتكِ بهم. أنا جلَّادهم. وما أنتِ إلا أمهم.

ضحك جابين، فرأت ريحانة شحوب مُؤخرة فمه. لقد أراد شيئًا أشدَ وحشية، هذه هي غايته.

- هذا ليس ابني. أؤكد لكَ أن هذا ليس ابني. أُقسم بالله، وأقسم لك على المُصحف الشريف وعلى قبر أمي، هذا ليس ابني. ما الفائِدة التي ستعود عليك حين تقبض على الشخص الخطأ؟ ما المجد الذي ستُحققه في شيءٍ كهذا؟

توقف جابين، وربَّت على جُيوبه، ونثر قطرات من العرق كانت تسيل على أرنبة أنفه، ثم قال وهو يركُل الرجل ركلةً أخيرة: اللعنة! ... أيها الرقيب!

- نعم يا سيدي.
- تواصل عبر اللاسلكي. وانظر إن كان هناك أي مستجدات.
- هل أخبرهم بشأنه؟
- ماذا قلتُ لكَ؟ اذهب!

طأطأت ريحانة رأسها بين يديها. لو أنها لم تتطلع إليه. ربما لم يكن هو؛ ربما كانت حقيقته كما قالت هي، مُجرد رجلٍ غريب، أُلقي القبض عليه وهو يعبُر الطريق في الوقت الخاطئ.

عاد الرقيب، وهو يقول: سيدي، أُذيع الخبر عبر اللاسلكي. لقد وجدوهم.

سقط قلب ريحانة في جوفها.

- ثلاثتهم؟
- كلا يا سيدي. ليس سُهيل حق. الاثنان الآخران. تتبعوا آثارهما في كوميلا.

اللهم لكَ الحمد يا الله، اللهم لكَ الحمد، اللهم لك الحمد. ولكن أين سُهيل؟ كان من المُفترض بهم أن يتَّخذوا طريق داود كاندي، مُتجهين إلى حقول الأرز الخريفية السميكة، وعابرين القُرى، سابحين عبر البِرك ذات التيارات المُعاكسة، مشمِّرين سراويلهم، رافعين أسلحتهم فوق رؤوسهم.

جلس جابين القُرفصاء، وخلل أصابعه عبر خُصلات شعر الرجل، ورفع رأسه. هذه المرة التفت إلى مايا، وقال: دعونا نبدأ من جديد. هل هذا الرجل شقيقكِ؟

لم تنبس الفتاة ببنت شفة، وراحت تضغط ذراع ريحانة على عجلٍ. فكرر جابين سؤاله: هل هذا الرجل شقيقكِ؟

قال الرائد: أخبريهم.

وأزيز أنفاسه يصدع من فمه.

***

أخبرته ذات مرة بسرها؛ ليس السر الذي يتعلق بتي. علي، أو ذلك السر الذي يدور حول ثروة أبيها المفقودة، ولا المُجوهرات المسروقة، ولا حُبها الخفي للسينما، ولكن ذلك السر الذي يتعلق بأبنائها، والمدى الذي ستبلُغه تضحياتها. أي مكان، وأي مدى. كان هذا هو السر؛ ذلك السر المُخزي الذي ينهش القلب.

وبالمعرفة التي تناهت إليه، أحاط طفليها بذراعيه، وبثَّ فيهما الحياة.

كان هذا خيارها، ليس خياره. كانت قد طلبت منه هذا بنفسها. «**اصرف عني فاجعتي**». والبقية ستتبع. حُبٌّ وحيد يبتلع في طياته حُبًّا آخر، ويتراكم فوق بعضه مثل غيومٍ محتشدة في سماءٍ حارة.

أرادت أن تستعيد تلك المعرفة التي أولتها إياه. قالت: «**ما كان يجدر بي أن أُخبركَ**». فقال هو: «**أنا ممتن للغاية. ممتن لأنكِ أخبرتني. بقيتُ أنتظر هذا اليوم طوال حياتي. هذا أعظم شيءٍ فعلته على الإطلاق. بقيتُ أنتظر هذا اليوم طوال حياتي. والآن انطقيها، ودعينا ننتهي من الأمر**».

***

نطقت بها.

- ليكن الله في معيتكَ يا بُني.

- ليكن الله في معيتكِ يا أمي.

تُخاطر بحياتكَ من أجل حياتي.

كانت قد طلبت منه سلفًا: «**اصرف عني فاجعتي**»، وها هو يُجيب سؤلها.

***

انتزعه الرقيب من على الأرض، ويده تقبِض على ياقته، ثم رحل، رحل مُكبلًا بالأصفاد مُجرجرًا بساقيه. أما مايا فراحت تُبعد ريحانة عن النافذة، لكنها وقفت راسِخةً رسوخ الجبال. كانت تدين له بتِلك النظرة، فحدَّقت بناظريها إليه، وأحكمت نظراتها حوله، حتى والغطاء الأسود ينزلق فوق رأسه، عرفت أن بإمكانه أن يراها من خِلاله؛ عرفت أنه يراها عبر القُضبان المتقاطعة، وداخل الكوخ الصغير، وعرفت أنه ينظر إلى عينيها. هكذا يتسنى له أن يعرف كل ما تفكر به، وما كانت عليه، ويعرف في تلك اللحظة تحديدًا أنها طوال حياتها لا تنتمي إلى شيءٍ إلا له وهو يختفي بعيدًا عن مرمى بصرها.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

16 ديسمبر (كانون الأول) 1971

زوجي العزيز،

الحرب ستنتهي اليوم.

***

حلَّ الشتاء، وازدهرت الحديقة.

صُبغت الزهور التي كانت ريحانة قد زرعتها عند بداية الحرب باللون الأخضر: شجرُ الشنبق، والقشدة الهندية، والزنبق البلدي. الزهور الصفراء.. وشجيرات التيل تنتشر على جانبي الجدار الحدودي.

الفجر يبزُغ في الأفق. أدركت ريحانة أن أمامها بِضع ساعاتٍ فحسب قبل رنين الهاتف وتوافد الجيران. سيأتي الناس لتهنئتها، ومُشاركة قصصهم عن كيفية نجاتهم من الحرب. سيحتضنون بعضهم، كما لو أنهم اجتمعوا بعد أن تقطعت بهم السبل مَنذ وقتٍ بعيد.

غير أن الوقت ما يزال مبكرًا، والأجواء ما تزال هادئة. وحدها الغِربان تنعق في أنحاء المنزل.

***

أحاطت ريحانة كتفيها بالوشاح، ثم عبرت الحديقة بحرصٍ وتؤدة. لم تقوَ على عبورها منذ ذلك اليوم. فبعدما قَبض الجيش على الرائد، نادِرًا ما كانت تُغادر الكوخ الصغير. وقبع شونا خارج نافذتها لا تقوى على التطلع إليه.

تردد وقع خطواتها على الأرضية الأسمنتية العارية. ثم فتحت الخزائن وجذبت الأدراج إلى الخارج. كل شيءٍ خاوٍ على عروشه، وهذا يعني أن مايا قد أنجزت عملًا شاملًا. نظَّفت المنزل من الأواني المكسورة والأرفف المَنهوبة. وباعت أثاث آل سينجوبتا، وأرسلت المال إلى مُخيم البُحيرة المالحة. لُفَّت السجادة المنقوشة ببتلات الزهور، ورُفعت لتُسند إلى زاوية من حجرة الاستقبال. عبرت ريحانة غُرفة الطعام المطلية باللون الوردي، فكانت خالية إلا من الصورة الشخصية لوالدي السيدة سينجوبتا، تسكُن في إحدى الزوايا.

دخلت ريحانة إلى غرفة ميثون. فرأت أشعة الشمس الداكنة بلون كريمي داكن تتسلَّل عبر الستائر المُنسدلة. وجهاز العَرض السينمائي، والفونوغرافٍ، وأشرطة التسجيل؛ اختفت جميعها. مُسحت الأرفف ونُظِّفت، فلم يبقَ أي أثرٍ له.

كان فِراش ميثون مثبَّتًا إلى الحائط، ولسببٍ ما، تركته مايا كما هو، مُغطىً بملاءة ملونة. انحنت ريحانة لتسوية الملاءة، وتذكرت المرات الكثيرة التي مدت فيها يدها لتفعل الشيء نفسه، وأصابعها تنفرِج لتعديل ملاءته.

وعلى الأرض إلى جانب الفراش، وجدت علبةً من عيدان الكبريت. كُتب على وجهها: «بلو ليون. عيدان كبريت بلو ليون تُطابق معايير الأمان».

فتحت عُلبة عيدان الكبريت. فارِغة. كان قد استخدم العود الأخير ليُمعِن النظر في وجهها. فكَّرت في إصبعه، وهو يُخرج العُلبة من غطائها، ويُشعل العود، ثم يُراقب وجهها يكتسب حيويته في الضوء الكبريتي.

ارتدت ريحانة على آثارها، وسحبت الستائر إلى الخلف، وعبرت غرفة الاستقبال ثم خرجت عبر الباب. وأغلقت القفل.

***

في الكوخ الصغير، وقفت ريحانة على سجادة الصلاة.

بسم الله الرحمن الرحيم.

إلهي، الرحيم بعباده، الرؤوف بأحوالهم. **اللهم اغفر لي**.

كانت مايا قد استيقظت وراحت تُمشِّط شعرها. فقالت: أأنتِ مستعدة للذهاب قريبًا؟ امنحيني خمس دقائق فحسب، سأرتدي الساري.

قالت ريحانة: كلا، ابقَي هنا. واذهبي مع أخيكِ حين يأتي.

- حسنًا، ولكن لا تتأخري. يجب أن نكون عند النصب التذكاري شهيد مينار من أجل المعاهدة.

***

انعطفت الريكاشة إلى ميدان جوليستان، وعبرت خط السكة الحديدية في بيورانو بولتون. والناس يتوافدون إلى الشوارع، واضطر سائِقو الريكاشة إلى المُناورة عبر الزِّحام المتكدس. وفي كُل مرة يسمع الناس طنين طائرة تُحلِّق فوق رؤوسهم، يطلقون هتافًا صاخبًا.

في تلك الأثناء، راحت ريحانة تتدرب «زوجي العزيز، الحرب ستنتهي اليوم».

ماذا عساها تقول شيئًا لا يعرفه هو بالفعل؟ ألا يعرف أن تلك الشهور التسعة التي انقضت في الحرب أشبه بتسعةِ أجيالٍ مُتعاقبة، زاخرةٌ بالحياة والموت؛ وأن سُهيل قد نجا حين مات أصدقاؤه؛ وأنه هنا في هذا المكان، كانت تقبع مدينة، حُرقت ونُسفت وعادت إلى الحياة مُجددًا؛ شهِدت ما تبقى من رجلٍ يحمل وجهه ندبة كبيرة، عاش في منزلِها لتسعة وستين يومًا، ومرَّ بحياتها البسيطة مثل عاصفةٍ مُتأججة.

***

وقف فتىً لا يتعدى الرابعة عشر أو الخامسة عشر، يحرس الباب. يرتدي قِميصًا فِضفاضًا مُشمرًا عن أكمامه؛ وحزامًا مسرَّجًا حول خصره، يُمسك بسرواله. يحتضن بين ذراعيه بُندقية آلية ضخمة.

قالت ريحانة: أنا السيدة حق.

فأجابها الصبيُّ، وهو يرفع يده إلى جبهته في تحية عسكرية: السلام عليكم.

انتشر الخبر بشأن شونا، وحقيقة إيوائها للفدائيين وإنقاذها لصابر.

تابع الصبي: أخبروني بمجيئكِ. اتبعيني.

كانت الغُرفة بالداخل مُتهالكة، ومكتب الشرطة مقلوبًا. مرت ريحانة برفقة الفتى عبر الكراسي المُحطَّمة، والزجاج المُهشَّم، وقصاصات الورق المُمزَّقة التي افترشت الأرض.

وأمام البوابة المُؤدية إلى الزنازين، وقف فتىً آخر للحراسة، بدا أصغر سنًّا من سابِقه، في بداية الأمر تبادل الاثنان بِضع كلماتٍ، ثم انفتحت البوابة، واقتديت ريحانة عبر ممر تصطفُّ على جانبه الأبواب. يتوسط كل باب فتحة صغيرة، مثل صندوقِ خطابات؛ وظنَّت أن بإمكانها سماع تخبط الأجساد بالداخل. أخذها الفتى إلى نهاية الممر، وفتح قفل بابٍ مغلق، فتأرجح مُنفتحًا.

قال الفتى: لا تقلقي يا سيدتي. سأبقى خلفكِ مباشرةً.

تحرَّكت أشباحٌ أمامها في الظلام.

لا بد أن هذا هو المكان الذي جلبوه إليه. فاحت منه رائحة نفَّاذة من العرق والبول. وكان ثمَّة نافذة نُحتت من شِق رأسي في الحائط البعيد، لكنها لا تُسرِّب أي ضوء. الحوائط رطبة ومُلطخة، وبدا من العسير عليها أن لا تستدير وتنصرِف. ورأت المساجين جميعهم جاثمين في أزيائهم المُوحَّدة.

نهض رجلٌ بجسدٍ مرتجف، وسار نحوها. سمعته يُعاني صعوبةً في التنفس، وهو يقول: ريحانة.

- فايز.

بشرة داكنة، وحاجبان كثَّان. كم يُشبه شقيقه! كانت عينه اليسرى مُتورِّمة، وانغلق جَفناه على بعضهما.

قال مُجددًا: ريحانة.

يداه مكبَّلتان، وقدماه مكبَّلتان، والأصفاد تُصلصل وتُجلجل. قال وهو يمد يدًا إليها: لقد أتيتِ لتُخرجيني...

صاح الفتى: تراجع!

قالت ريحانة: كلا، كلا، لا بأس.

واقتربت منه، فراح فايز يقول: أخرجيني من هنا.. أرجوكِ.

لاحظت شعر لحيته المتشابك ومظهرها المُتسخ.

لم تقوَ على الحديث؛ واكتفت بالتطلُّع إليه في بلاهة، هذا هو الرجل الذي لطالما خَشته وبغضته.

سأل فايز: سُهيل، هل هو.. أين هو؟

- إنه بخير. سيعود إلى المنزل في غضون أيامٍ قليلة.

جاءت ريحانة مُزوَّدة بقائمة من التساؤلات، لكنها عجزت عن تذكر أي منها. لا بد أنه هنا، في مكانٍ ما بين هذه الجدران، احتجزوه في مكانٍ ما هنا. لو أنها بحثَت من كثب، لربمًا وجدت أثرًا.

ضم فايز راحتي يديه معًا. ضمَّ راحتي يديه معًا، وراح يتوسَّل إليها. كانت ريحانةِ قد جاءت لتسأله عن الرائد، وإلى أين أخذوه، ما فعلُوه به. لكنها تُدرك الآن أن الأسئلة لا طائل منها؛ فقد حازت أجوِبتها. أخبرتها الجدران وأعلمها صليل السلاسل كل شيءٍ كانت بحاجةٍ إلى معرفته.

كان يقول: ريحانة، لأجل خاطر أخي. كلمةٌ واحدة منكِ وسيطلقون سراحي. ابحثي عن الغُفران في قلبكِ.

راحت تُنقب بداخلها. هذا صحيح، سيُطلقون سراحه لو أنها طلبت منهم. هم أطفال رُغم كل شيء، أطفال يركضون هنا وهُناك حاملين أسلحةً، وقلوبهم جَوعى للثأر. فكَّرت ريحانة في الصفح عن فايز. وتصورت المشهد حين تُخبره بأن يعود إلى باكستان، وأن لا يأتي إلى هنا أبدًا، أن لا يُريها وجهه مُجددًا. وتصورت نفسها تقول له: لا يحق لي أن أعاقبك، بل هو حق الله.

لم تتفوه ريحانة بشيءٍ لبِضع دقائق. وازداد صخبُ أنفاسه وصُعوبتها وهو يطلُب منها الصفح، ويستزيد في طلبه مِرارًا. حاولت التطلُّع إلى وجهه المُتورِّم، وكانت على وشك أن تنطق بالكلمات «**لأجل خاطر زوجي**»، لكن ذكراهم جميعًا طفت أمام عينيها: جوي وعارف والسيدة سينجوبتا. حتى في تلك الحالة، ربما صفحت عنه، لكنها تذكَّرت النظرة على وجه مايا حين أخبروها بما حدث لشارمين، وتلك الأيام القلائل الأولى من الحرب، حين تبيَّن لها أنها وعالمها لن ينجوا من هذه الحرب سالمين.

قالت ريحانة: لا يمكنني أن أصفح عنك يا أخي. لأجل خاطر ابنتي، لا يمكنني أن أصفح عنك.

استدارت مُبتعدة، وأُغلقت الأقفال من خلفها. سمعت قبضته تضرب الباب، والسلاسل، وصرخاته المختنقة تتلاشى شيئًا فشيئًا.

***

كانت أجواء المقابر باردة مشبَّعة بالغبار. جالت بنظرها حولها بحثًا عن حارس المقابر، فأدركت وحدتها في هذا المكان. وحملتها القشعريرة على الهرولة نحو قبر إقبال.

أزالت أوراق الأشجار المُتساقطة من على شاهد قبره. لا يخفى توترها حيال هذا اللقاء، وتساؤلها في قرارة نفسها عما ستقوله، وكيف ستُوضحه، أما الآن، انسابت الكلمات من فمها بسهولة ويسر.

***

زوجي العزيز،

أتيتُ لأقص عليك حكاية حربنا، وكيف نجونا.

الحربُ ستنتهي اليوم. شِختُ خلالها ألف سنةٍ. أبدو قبيحةً ومُنهَكة. لكني أحيا.

عاش رجلٌ في منزلي طوال تسعة وستين يومًا. في بادئ الأمر، كنتُ غاضبةً لوجوده، لأنه كان يُدرب سُهيل ليصبح أحد الفدائيين، بيد أنه يحمل تلك الروح الضارية لإنقاذ البلاد، روحٌ رأيتها تشتعل في عيني سُهيل قُبيل خروجه إلى القتال.

ثم تُركت بمفردي معه، وذلك الفتى المسكين الذي مات شقيقه، وها هو الآن مفقودًا، حتى مع انتهاء كل شيءٍ، صار علينا أن نجد طريقةً للعيش في هذا البلد دون حرب. أصبح ابنكَ جنديًا، ثم فقد أصدقاءه بعد ذلك. ارتدوا قمصان بعضهم بعضًا، ثم ماتوا وهم يرتدونها.

وفي وسط كل هذا الجنون، وجدتُ عالمي في وضعه الصحيح لأول مرة منذ وقتٍ طويل. سمعتُ أغنيةً لامرأةٍ صوتها يحمل آلاف السنوات من الأسى. وأجل، أحببته. تكريمًا لأصغر جزءٍ من تلك الأيام التسعة والستين، أحببته.

كما كان شعوري معكَ، كان شعوري معه؛ لم يدُم سوى للحظةٍ قصيرة فحسب. لقد أخبرته كل شيءٍ أيضًا، عن ذلك اليوم الذي صرتُ فيه سارقة، واليوم الذي بِت فيه أرملة، وذلك اليوم الذي فقدتُ فيه طفليَّ. وأخبرته لو أني أُتيحت لي فرصة، فرصة واحدة فحسب، لأختار شؤوني مُجددًا، لاخترتُ أن أتحرر منه أخيرًا. ولهذا أعلم أنه لن يلومني على عدم ركضي إلى فايز وبارفين، أو إلى قسم الشرطة ذاك، لأتوسل إليهم بأن يُطلقوا سراحه. لقد

جعلتهم يظنون أنهم أخذوا سُهيل. هذا ما اخترته، اخترتُ أن أدعِ هذا الرجل يُسدد ديني.

ولهذا، يا زوجي العزيز، أدعو الله أن تسامحني، وأدعو الله أن يغفر لي.

ستنتهي الحربُ اليوم. سيُوقِّع نيازي[1] المُعاهدة وسأتجول في الشوارع. ستُمسك ابنتك بيدي. وسيكون هناك زحام شديدًا على الرصيف، لكن مايا ستدفعنا إلى الأمام. سيقف فتىً يبيع الأعلام بتاكاتين[2]، وسيلوِّح الجميع بالأعلام ويمدون أعناقهم ليروا الطريق. ستسبح أوراقٌ مُلونة من المباني في الهواء؛ وسيهتِف الجميع بقبضاتهم في الهواء؛ سينتشر الرقص، وسنجد رجلًا ينفخ في مزماره، وامرأةً تقرع طبلةً خشبية يتدلى شريطها من كتفها. سيُفكِّر أحدهم في توصيل مُكبر صوتٍ بمحطَّات المِذياع. الطرق مُستوية ومُحمَّلة بالأتربة؛ ترانا مُتيمين، غارقين في الحُب، حبيسي الوطن، نُغني «**كم أُحبكَ يا بنجلاديش الذهبية**». سماؤنا باهتة الزرقة، يغلب عليها قوسُ قزحٍ، واليوم انتهت الحرب، واليوم سأقبض على علمي، وأحبس أنفاسي وأنتظرُ ابننا.

أدرك تمام الإدراك ما فعلته.

هذه الحرب التي اقتنصت الكثير من الأبناء استبقت ابني. هذا الزمان الذي أَحرق الكثير من البنات لم يحرق ابنتي.

لم أسمحْ للحرب ولا للزمانِ بهذا.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

---

(1) نيازي: هو أمير عبد الله خان نيازي. لواء في الجيش الباكستاني في أثناء حرب تحرير بنجلاديش. ولاحقًا، وقع وثيقة الانسحاب من شرق باكستان (بنجلاديش) بتاريخ 16 ديسمبر 1971. (المترجمة)

(2) مفردها: تاكا، وهي عملة بنجلاديش الرسمية. (المترجمة)

A Golden Age

عمر ذهبي

"في هذه الرواية الأولى الجذّابة... تنسج أنام بمهارة الأحداث الشخصية والسياسية معًا، في ظل أهوال الحرب، وتمنح معالجة قوية بينما تُصوِّر بطريقة غنائية الطريقة التي يسمح بها النضال من أجل الحرية لريحانة باكتشاف قوتها وقلبها".

- The New Yorker

"رواية أولى حاسمة وقاطعة... تمنح الشخصيات صفاتٍ بشرية تزيد من زخرفتهم وتعقيد نسيجهم".

- The Boston Globe

"عملٌ زاخرٌ بالتقمص العاطفي الإبداعي... حكايةٌ أخّاذة".

- Washington Post Book World

"رواية فاتنة... كتبت أنام قصةً عن أحداثٍ قوية، لكن وصفها للحظات الصغيرة التي لم يسبق لها مثيل... هو الذي يمس القلب حقًا".

- San Francisco Chronicle

"بمجرد أن ترسَّخت الحرب، وجدت أنام غايتها في حُب ريحانة الراسخ لأبنائها، وفيما هي على استعداد لفعله في سبيل إبقائهم على قيد الحياة. ويصير التاريخ نفسه قوةً متحركة".

- New York Times Book Review

تهميمة أنام

كاتبة وروائية حصلت على جائزة كُتاب الكومونولث وجائزة أوه. هنري O. Henry Award، ثم أتى ذكرها في مجلة جرانتا البريطانية كواحدة من أفضل الروائيين البريطانيين الشباب Granta's Best Young British Novelists. تعينت مُحكّمًا في جائزة مان بوكر الدولية 2016. وفي عام 2015، ترشحت قصتها القصيرة "الحرامل" إلى القائمة القصيرة لجائزة بي بي سي الوطنية للقصة القصيرة BBC National Short Story Award. وفي عام 2017، انتُخبت لتصير زميلًا في الجامعة الملكية للآداب Fellow of the Royal Society of Literature.

ولدت في دكّا، بنجلاديش، وتلقت تعليمها في كلية ماونت هوليوك وجامعة هارفارد. تعيش الآن في لندن. تلقت الأحداث التاريخية التي وقعت في بنجلاديش إبان حرب الاستقلال من والدها الذي كان محاربًا في الحرب المذكورة.